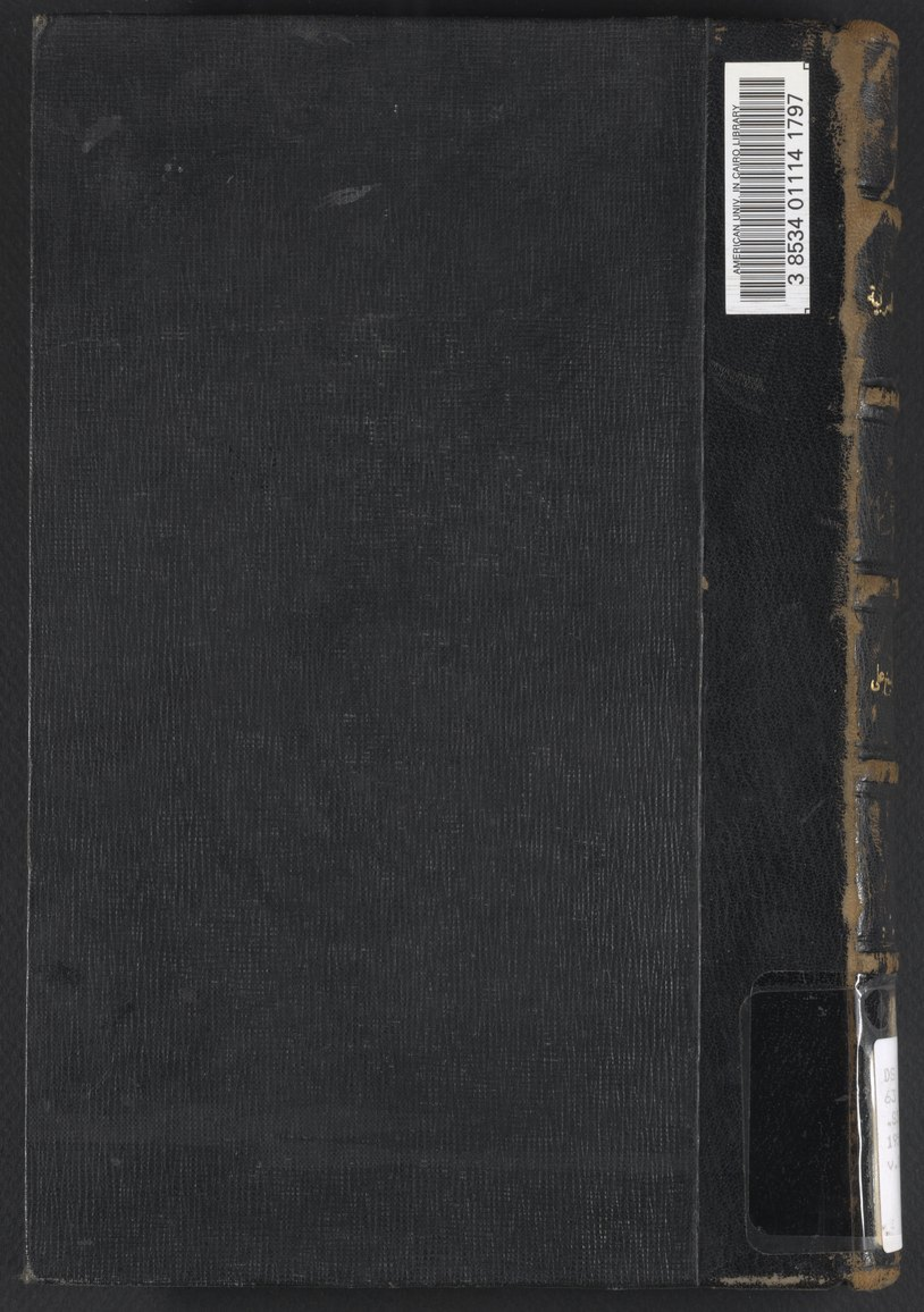
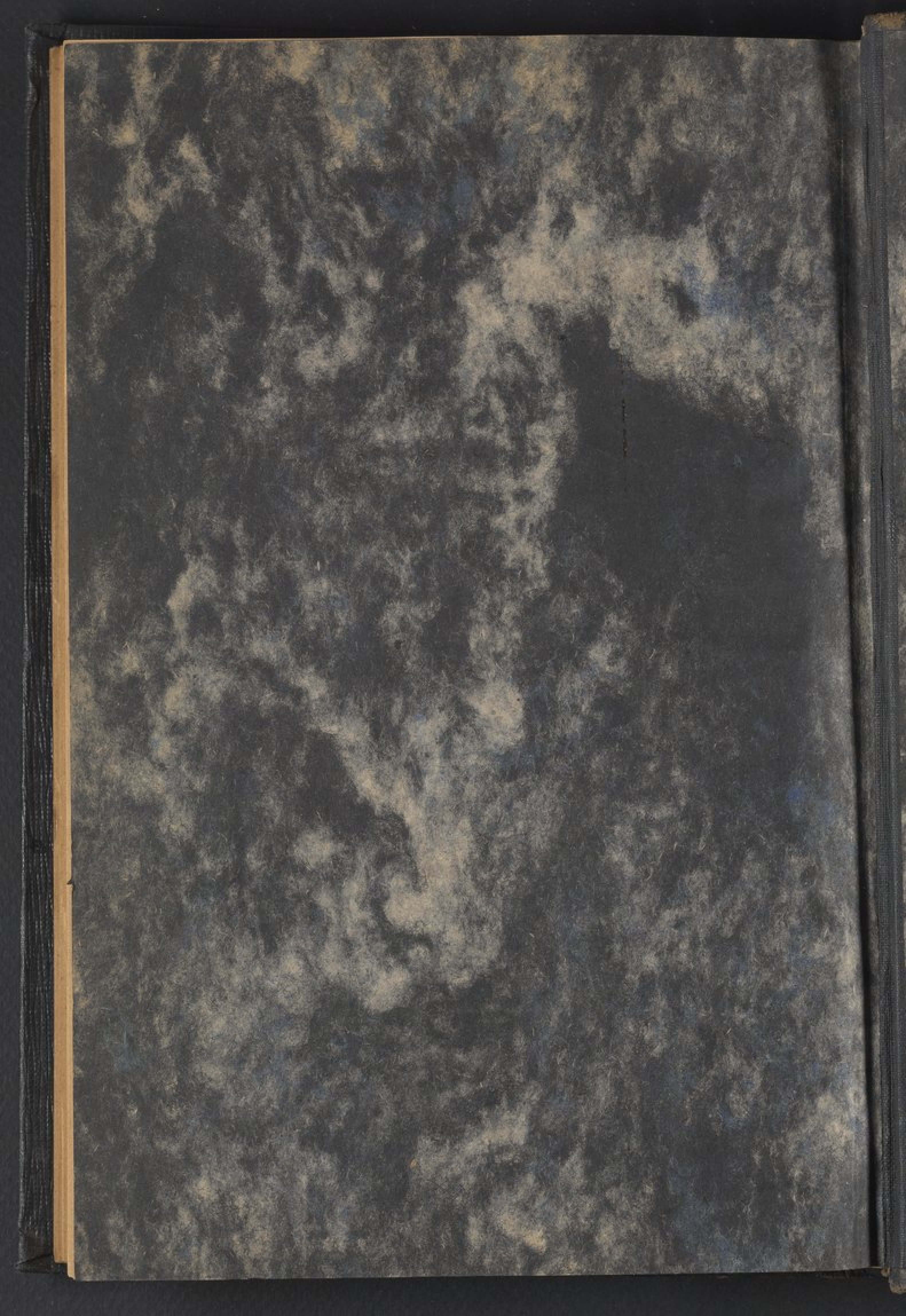
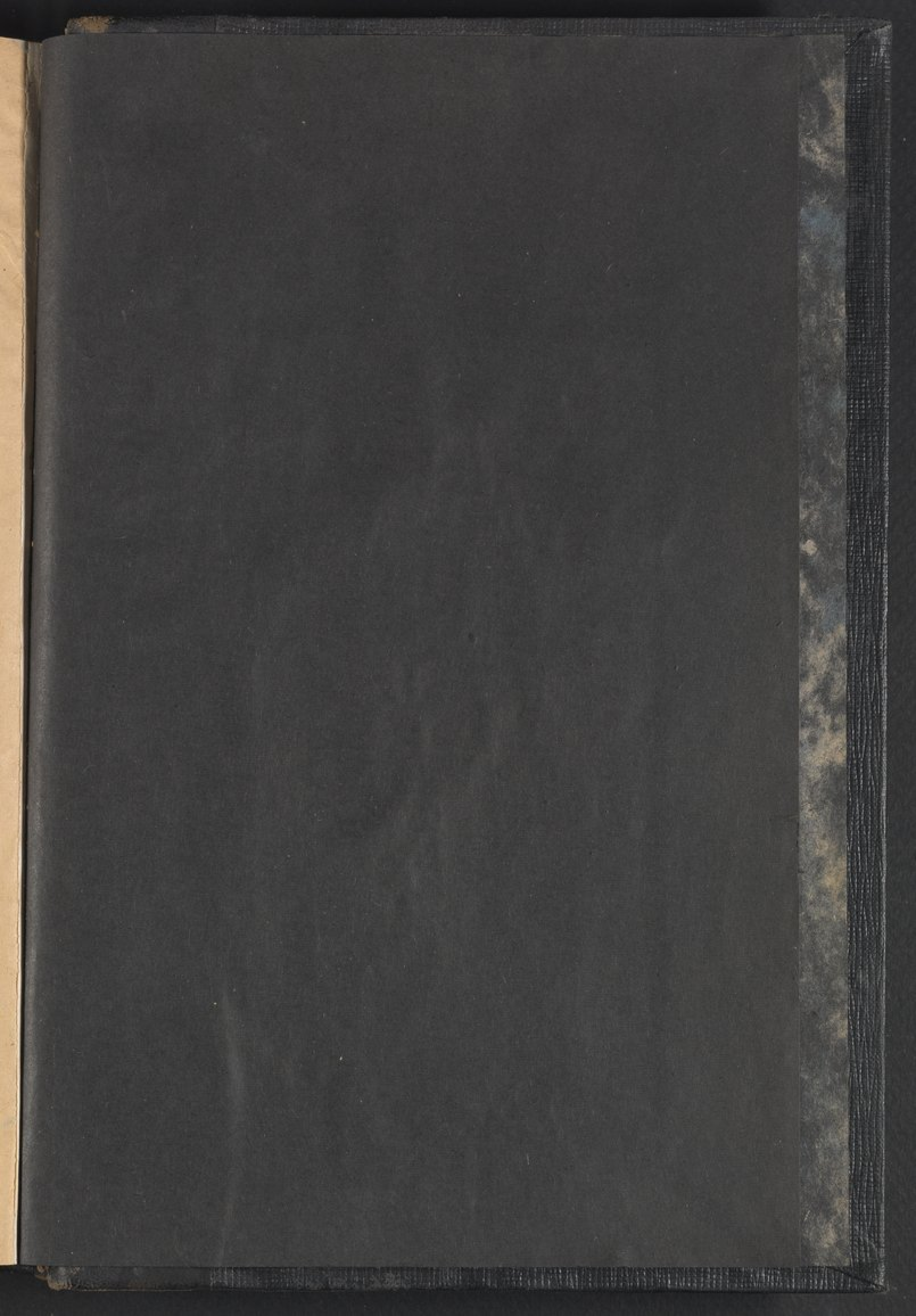

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01114 1797





علي محمود الشيخ علي

آراء في القضية العربية وذكريات عنها

الجزء الأول

المقدمة

مطبعة السعدي — بغداد

اهداء

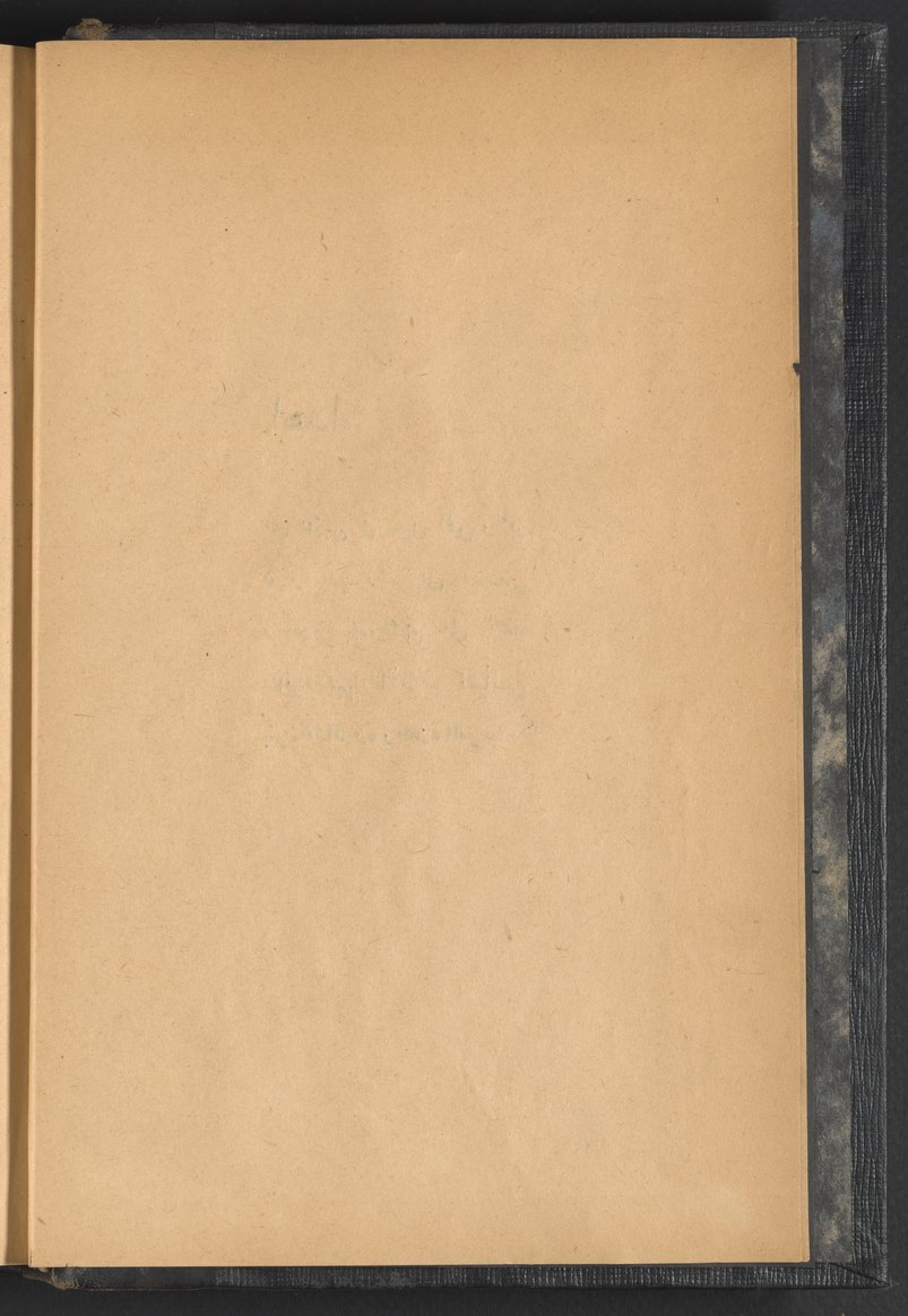
الى الذين فى سبيل الحق والمجد

هووا بأجسادهم الى الارض

وصعدوا بارواحهم الى السماء

فكانوا فيها كالنجوم تستأنس

بنورها المرؤة والعزة القومية



مقدمة المقدمة !

دونت هذه الآراء والذكريات في سجن ابي غريب بعد ان صدر الحكم علي بالسجن سبع سنوات لاشتراكي في وزارة فخامة الكيلاني الأخيرة. ولم اكن اتوقع انها سوف يتألف منها كتاب ضخم ذو اربعة اجزاء ، تكون مقدمته جزءاً قائماً بذاته لقد كنت اظن ان السجين يكون ضيق الصدر برماً بالحياة نفوراً من الاجهاد الفكري إذ لم اكن اجرب بعد الحياة في السجن المنفرد. صحيح ان حياتي كانت سلسلة من الملاحقات والمطاردات ، وصحيح اني اوقفت غير مرة ، ونفيت. ولكني كنت اوقف مع زملاء وانفى مع اصدقاء وكانت المخالطة والمعاشرة تلهياني كثيراً عن التفكير والتأمل ولكني حين القيت في غيابة هذا السجن الرهيب كنت في اول الأمر مع زميل عزيز ، ثم لم يلبث ان ادركه المرض فنقل الى مستشفى السجن المركزي ولم يعد الي إلا بعد ان تصرم عامان ونصف العام وإلا بعد ان هبطت علينا القافلة الثانية من الرفاق ليلاقوا عين المصير الذي لقيناه قبلهم. ولقد كانت بناية السجن ، واسعة علينا ، فضفاضة الرداء نستشعر منها الوحشة ، وتستنزل علينا الرهبة. وكان ضرورياً لنا ان نصرف اذهاننا الى مجالات روحية تنسينا وحشتنا ، وتدرأ عن نفوسنا الرهبة فجربنا حظنا في القراءة ، والاستغراق في القراءة ولكننا وجدنا ان القراءة وحدها لا تكفي. فهتف لنا الخاطر ، بأن نكتب ، لأن الكتابة تشغل الفكر ، وتصرف الهم ولكن في اي موضوع اكتب ؟ . هذا ما شغلني طوال يومين اثنين . ثم أستقر رأيي على ان اكتب مذكراتي منذ غادرنا بغداد في ٣٠ مايس سنة ١٩٤١ الى طهران عاصمة الجارة ايران الى اليوم الذي تقرر فيه ان نكون ضيوفاً ثقلاء على هذا السجن لمدة طويلة. وما كدت أنتهي منها

ـ وقد تكون منها جزء يضارع هذه المقدمة في ضخامته ـ حتى جاء النذير بأن ينقل صاحبي الى مستشفى السجن المركزي وبقيت وحيداً أصول واجول في القاعة المستطيلة لا شريك لي فيها غير الحمائم والعصافير . قرأت ما دونته فراقني ما دونت فطلبت من قلمي المزيد ، ومن فكري المدد . وكنت آنذاك قد الفت الوحدة وعشرة الحمائم والعصافير ، الاولى تشدو فيشجيني شدوها والاخرى تغرد فيطربني منها التغريد . وعلى الحان هذه الطيور الجميلة البريئة وتغريدها كنت اسكب روحي واصب وجداني على صفحات القرطاس لاقدمها هدية الى الجيل العربي الجديد علامة حب ، وشارة ولاء . فجرى بي القلم في ميادين الثورة العربية ، وظل يجري بي غير راحم بشيبتي ، ولا مشفق على فؤادي الذي عصرته نوائب الدهر عصراً . وما ان طلع العام الجديد ، عام ٩٤٣ ألا وترك لي في غرفتي المظلمة اجزاء اربعة . احدها هذا الجزء الذي يجده القارىء بين يديه . وان هذا الجزء وان كان يتناول اغراضا شتى وينطوي على بحوث عامة مختلفة ، فان اغراضه وبحوثه لذات صلة كبرى بالاجزاء الثلاثة الاخرى وبتعبير اصح انها لذات صلة كبرى بالوطن العربي العتيد وقضيته المقدسة . واما الجزء الثاني فانه يبحث عوامل الثورة العربية الكبرى ونتائجها والثالث والرابع فانهما يتناولان القضية العراقية ، كنتيجة من نتائج الثورة العربية الكبرى

وبعد ان اكتمل هذا القدر ، من الاجزاء نفست عن نفسي ، وارخيت لها في حبل الراحة . وبدأت أقضي الوقت تارة بالتأملات وأخرى بقراءة بعض الكتب التى كانت تصلنى بعد ان تقلب صفحاتها وتفتش متونها وقضيت على هذا النمط العام باكمله . وفى مطلع عام ٩٤٤ قدمت القافلة الثانية من الاخوان ، التي جاء ذكرها آنفا فبدأت الاختلاط والمعاشرة مع الاناسي ، ولكني لم انس ابداً فضل تلك الطيور البريئة . وفي هذه الآونة شعرت برد فعل عنيف لتلك البطالة التي استغرقت عاما كاملا فنازعتني نفسي الى الكتابة من جديد وبدأت ادون مذكراتي عما يقع في العالم من احداث سيما ما يتصل منها بالعالم

العربي بسبب. ولم اغادر بناية السجن في ١٧ حزيران سنة ٩٤٧ إلا وتكون منها جزءان آخران.

ولما عدت الى بيتي، ركنت الى الراحة التامة، ورغبت نفسي في الاستجمام الخالص. ولكن الاحداث كانت تتعاقب سراعا والصواعق على البلاد العربية كانت تتهاوى فحفزتني احزانها وآلامها الى ان اكتب سفراً «عن العالم العربي بعد الحرب الكونية الثانية» وهذا السفر لم يفته العمل منه بعد.

غير خاف على اللبيب ان هذه الآراء والذكريات دونتها في السجن ومعنى ذلك اني كنت بعيداً عن مكتبتي حين كنت اورد الأمثلة والشواهد التي ضمها الكتاب. لذلك كنت مضطراً الى ان اعتمد فيها على الذاكرة ولم يكن في وسعي ان اعين كثيراً من المراجع والمصادر وان كنت اشرت في الحواشي، على بعضها من دون ذكر لفصول الكتب وصفحاتها. ولما كنت وحيداً كثير التأمل والتفكير، مطلقا لنفسي العنان، ولما كان المكان الذي اكتب فيه يغشاه الهدوء والسكون فقد كانت الآراء تتلاحق والذكريات تتسابق. ولما كان قلمي يقتنصها بسرعة خاطفة وقوة ساحقة فقد كان طبيعيا ان يطرأ على تساوق هذه الآراء والذكريات شيء من الاضطراب. ولما عزمت على نشر هذه الاراء والذكريات في الناس ابقيت على هذين النقصين متعمداً، ابقيت عليها متعمداً لاني وددت ان اعرضها كما جاءت واظهرها كما دونت من دون ان تمسها يد التنميق والتزويق، لأنها خيال روحي، وطيف وجداني، وصورة نفسي الطليقة، حين كان يعقل جسدها سجن رهيب وابقيت عليها متعمداً لأني لا اخص الجمال، في الصور المتناظرة والاشكال المتساوقة فحسب بل قد يوجد الجمال في غير التناظر والتساوق. بل ان النفوس الثائرة، والارادات العارمة تخص الجمال في الصور غير المتناظرة، والاشكال غير المتساوقة وتتذوق الألم وتستمرىء العذاب.

وتعمدت كذلك ان تكون طبعة الكتاب رخيصة ليكون في متناول

ايدي الجميع ولأني لا ابتغي من وراء نشره ربحا ولا ذكراً ، وانما خدمة خالصة ، لوجه الله والوطن . لقد جربت حظي في الحياة ، في لذائذها ومتعها ، في آلامها ومتاعبها فلم اجد في الأولى ما يغري ولم أجد في الثانية ما يبعث على الأسى ، أو يدفع الى اليأس والقنوط . هذه هي الحياة . انها مزيج من اللذة والألم ، والمتعة والنصب . وكلا النوعين ضروري للبشرية ، إذ بدونهما لا يكون معنى للحياة . ومن كانت هذه فلسفته في الحياة ، لا يستهويه ربح ، ولا يستفويه ذكر .

* * *

ولنعد الآن الى الآراء والذكريات التي بسطتها في هذا الجزء من الكتاب . انها آراء عامة ، وذكريات عامة . ولكنها برغم عموميتها ، فانها اكثر صلة ، بالوطن العربي ، والشعب العربي من غيرهما من المواطن الشعوب . ذلك لان اكثرية الأمم الغربية ، كانت يد الاصلاح قد عملت فيها منذ عهد بعيد ولكن الشعب العربي لم يزل يحبو في ميادين العلم والمعرفة ، ولم يزل طفلا في مجالات التنظيم والتكوين . ولعل أموراً اربعة تسترعي انتباه القارىء في هذا الجزء . أولها نقدي العنيف للسياسة البريطانية الاستعمارية . اما عن هذا الأمر فليس الذنب ذنبي . اني لم اصنع تاريخ بريطانيا الاستعماري ، وانما هي التي صنعته بأعمالها ، وبسياستها . وانما اكون ملوما اذا تجاوزت في وصف الاستعمار البريطاني ، القصد ، وغاليت في قلب حقيقته وتجنيت في تفسير مبادئه واغراضه . واذا كنت الام فقد يجوز ان الام لصراحتي في القول ، وامضي في البيان . وان لوما كهذا ، لأتقبله بنفس مطمئنة وقلب شجاع . على انه يلذ لي ان اصرح للجميع - كما سبق لي ان صرحت مراراً - ان ما أراه في السياسة البريطانية الاستعمارية ، ليس ناشئا عن هوى وعاطفة ، ولا منبعثا عن حقد وضغينة . اني قرأت التاريخ الانكليزي ، في الجزيرة الانكليزية ، فعجبت به ايما اعجاب ، سيما

تقديس الشعب البريطاني للحرية الفكرية التي هي اسمى الحريات ، وحبه للعدل ونفوره من الظلم . واني قرأت التاريخ الانكليزي في المستعمرات والممتلكات الانكليزية فتملكني الذعر ، واخذني الدوار . وشهدت مصرع قومي في مختلف اقطار الهلال الخصيب ، وعلى ضفتي النيل على يد الانكليز فانخلع قلبي وتقرحت كبدي . وبعد كل ما قرأت ، وبعد كل ما شهدت فلا ينتظر الناس مني ان اكون منافقا لشعب له نفوذ في الوطن العربي ، ومتزلفا لسياسة ارهقت الشعب العربي ارهاقا . لذلك فان رأيي في السياسة البريطانية الاستعمارية ليس وليد هوى وعاطفة وانما هو رأي يستند الى الواقع وحقائق التاريخ . وان رأيي لم يكن منبعثا عن حقد وضغينة لأني صريح . والصراحة والحقد ضدان لا يجتمعان .

واما الأمر الثاني فانه يختص ببحث التكوين السياسي . ان هذا البحث ، وما ورد فيه من آراء فهو يتعلق بالشعوب الحرة المالكة لسيادتها الوطنية . اما الشعوب المحتلة ممالكها بالقوات الاجنبية ، أو الشعوب التي يسيطر عليها نفوذ اجنبي قاهر ، فلا يصح ان تطبق فيها الآراء التي ورد ذكرها في هذا البحث والحق ، ان شعوبا كهذه يكون اول واجب من واجباتها ، العمل في تحرير نفسها وانقاذ سيادتها . فالآراء المبسوطة تكون مثبتة لدعائم السيادة ، ومنمية للروح التقدمية بعد الخلاص من نير العبودية . وأما الأمر الثالث فهو يمس التكوين الدولي . صحيح ان الانسانية لم تبلغ بعد درجة الكمال حتى تقيم عليها سلطة قانونية واحدة تشرف على الصلات بين الامم والدول ولكن يجوز ان يتحقق شيء كثير من هذه الآراء لو خلصت النيات ، وصفت السرائر على ان هذه الآراء كانت تلوح في آفاق الفكر ، حين كان المعسكران المتحاربان ، يسرفان في الوعود الخلابة ، ويفيضان في اظهار الآمال والأماني التي كانا يزعمان انهما سوف يقيمان على اسسها عالما افضل .

واما الامر الرابع فهو يدور حول ، الخلق العربي . صحيح اني نقدت هذا الخلقَ نقدا عنيفا ولكن مع عنفي في النقد لم ابلغ الغاية ، ولم اصل الهدف . انه جدير بأكثر من هذا النقد ، وحري بأشد منه . ولقد آن لمفكري العرب ، وساستهم ، وقادتهم ان يتصارحوا في القول ، ويتكاشفوا في الرأى لايجاد دواء عاجل ، لشفاء الشعب العربي من هذه العلة ان هذه العلة الخطيرة التي اسقمت الشعب واضنته طوال عهوده ، الى يومنا هذا ، يجب ان تزول ولو بسحر ساحر . اننا اليوم على مفترق الطريق فأما اتحاد يعيد الينا الحياة ، واما تفرق يلقي بنا الى الهاوية . والجراح الماهر ، هو الذي يستأصل الداء من مكانه من دون ان تأخذه الرجفة ، وينفذ الى قلبه الخوف بل من دون ان تتغلب عليه الرأفة والشفقة . على اني في الاجزاء الثلاثة الاخرى كنت اكثر صراحة واوضح بيانا فقد بحثت الثورة العربية ، ولكني بحثتها بروح غير الروح التى بحثها بها مؤرخوها وبعقلية غير عقلية من اشترك فيها وخاض غمارها ثم استسلم الى نتائجها اما رغبة في مال وجاه واما رهبة من اذى وعقاب .

ان بحثي للثورة العربية ونتائجها لم يكن قصة . لاني لا اجيد فن القصة ولا املك اسبابها وموادها واني لم ابحث تاريخ الثورة لان تاريخها قد كتب . كتبه المغرضون ، وكتبه المخلصون . وان الحصيف الكيس هو الذي في وسعه ان يلتقط الحقائق المتناثرة فيما كتبه المغرضون وفيما كتبه المخلصون المتطرفون ، ويمزجها بالحقائق التي اهتدى اليها هو ، بعد البحث الهادىء ، والدراسة الرصينة ثم يعمل فيها رأيه ، ويبدى مقترحه . اني خلصت بنتيجتين اثنتين ان الثورة العربية كانت مشروعة لان العوامل التى ادت اليها كانت تبرر قدح زنادها ، واضرام نارها ، وان اكتنفت تطوراتها اخطاء ، وسقطات كما سوف يراها القارىء في الجزء الثاني عند نشره ان شاء الله. وان الثورة برغم مشروعيتها فانها لم تكن موفقة بالنظر الى نتائجها واما اسباب عدم التوفيق فلا محل لذكرها هنا ، لانها بسطت بتفصيل في الاجزاء الثلاثة التالية

واذا كان العرب لم يجنوا من ثورتهم غير الكوارث والمحن فهل لهم ان يستسلموا ليستروا فشلهم بتكلفهم الكذب على التاريخ وعلى انفسهم ؟.

انه لمن الخيانة للقضية العربية ، وانه لمن الغدر بالفكرة الوطنية ، ان نماري في الحق ، وان نتكلف الكذب ، اشباعا لغرورنا ، وسترا لفشلنا فنقول ان العرب نالوا شيئا من ثورتهم . أو انه وان لم يكن كل ما كانوا يطمحون اليه فقد اصابوا نصيبا منه ، بل نصيبا كبيراً . ان مثل هذا القول ، يضر بالقضية . ان مثل هذا الادعاء ، يورث الفكرة علة وسقما . وكيف نزعم مثل هذا الزعم والامثلة المادية ماثلة امامنا ؟ لقد كنا في العهد العثماني ، امة متماسكة متواصلة فيما بينها كانت تجمعنا راية واحدة ، وتحكمنا امة هي منا ، بل تحترمنا احتراما خاصا لاسباب دينية . وكانت القوانين والانظمة واحدة ، ووسائل الثقافة واحدة . كنا لا نعرف حدودا بين افكارنا ، ولا سياسات اقليمية تفرق فيما بيننا كانت خيرات بلادنا في بلادنا ولا بنائها والخيرات التي كانت تحتفظ بها بطون بلادنا من مواد خام او آثار عتيقة اوما الى ذلك من الخيرات كانت ملكنا لا ينازعنا فيها منازع ولا ينافسنا عليها منافس . كنا اذا اردنا ان نقاوم دولة رأينا في تصرفاتها حيفا علينا ، وهدراً لحقوقنا ، فانما نقاوم دولة واحدة متداعية الاركان ، موشكة على الانهيار فبمعاونة يسيرة يكون الظفر بها والتفوق عليها ميسوراً . ولكن هذه الحالات والاوضاع انقلبت الى عكسها بعد الثورة فقد اصبح لزاما علينا اذا اردنا الانعتاق من نير العبودية ان نقاوم امبراطوريتين ضخمتين هما الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية وان نقاوم فوق ذلك امبراطورية عالمية ، وهي اليهودية العالمية . هذه اليهودية التي هي اشد دهاء واكثر مالا واقوى مكراً وخداعا من تينك الامبراطوريتين الضخمتين . وهذه القوى الثلاث تعجز عن مصاولتها ومقارعتها الامة العظيمة المتحدة المتماسكة فكيف بالامة العربية في هذه الايام ، وقد توزعت الى اقطار

وممالك تفصل بين مصالحها المادية الحدود الاصطناعية والسياسات الاقليمية المختلفة وتفصل بين روحياتها ، الثقافات المتباينة والقوانين المختلفة والانظمة المتنابذة المتنافرة ؟

ولكن ما معنى هذا الاعتراف الصريح ؟ ما معنى قولنا ان الثورة العربية تمخضت عن نتائج أودت بالامة العربية الى المهلكة ، وقادتها الى مصير فاجع اصبحت ترى فيه حالتها الاولى التي شكت منها ، وثارت عليها ، اذا لم تكن اكثر رخاء فهي على كل حال اقل شقاء وايسر الماً مما هي فيه اليوم؟ ما معنى كل ذلك ؟

معنى ذلك ان الاخلاص لقضيتنا ولفكرتنا ، يدعونا الى ان ننثر الحقائق بين ايدي ابنائنا وان كانت مرة . وان نصف لهم الاوضاع على سجيتها من دون ان نتعمل فيها . وان هذا الاخلاص يدعونا كذلك الى ان نقول الحق وان كان اليما . وان نتعرف الى اخطائنا وسقطاتنا لنتقي امثالها في المستقبل . وبعد كل ذلك لتكون معرفتنا بالآلامنا وامراضنا والاخطار المحدقة بنا مثيرة لنخوتنا ، مورية لعزائمنا ، مضاعفة لقوانا ، حافزة لنفوسنا ، ولتكون هادية لنا فى كفاحنا ، مشرفة بنا الى الغاية ، ونحن نفتلم قوة ، ونصطخب اقتدارا .

ومعنى ذلك ان حرصنا على سلامتنا يقتضينا ان نتلمس مواطن الضعف فينا والجهات التي نفذ اليها المرض ، وغزتها جراثيمه . فان اخفاء مواطن الضعف ، والجهات التى غزتها جراثيم المرض ، واعلان الصحة الزائفة واظهار السلامة الكاذبة انما هي تصرفات مبعثها الغرور ومصدرها الجهل ، لا تؤدي الا الى تمكين المرض من صاحبه ، والترخيص له بأن يعبث ما يشاء العبث بالجسد

ومعنى ذلك ان مصلحتنا تلزمنا بأن نشعر بالالم ، والمصدر الذي ينبعث منه الالم . والخطر والمكان الذى يندفع منه الخطر . لنشد من قوانا لمهاجمة الآلام في مواطنها ، والاخطار فى اماكنها بل معنى كل ذلك ان نستمد

قوانا من هذه الامراض وهذه الآلام وهذه الاخطار فنقيم على انقاضها صرح كياننا، ورمز حريتنا.

اجل ! من واجبنا القومي ان نعلن لاخواننا، ولأبنائنا، لآبائنا وامهاتنا، واخواننا واصدقائنا، ولكل من تظله سماؤنا، وتقله تربة وطننا اننا مرضاء، في روحياتنا، واخلاقنا، وثقافتنا. واننا متألمون. وان مصادر الآلام متنوعة منها وليدة امراضنا التي ذكرت ومنها وليدة المظالم التي يصبها علينا الاجنبي المتحكم فى مقدراتنا. واننا في خطر، وانه محدق بنا ويندرنا بالويل والثبور من واجبنا القومى ان نعلن لابناء وطننا وان نشعرهم بالامراض والآلام والاخطار لنستنفز حميتهم، ولنستفز حيويتهم، ونوقظ فيهم العزائم والهمم للكفاح والاستبسال في الكفاح. فما مثل الامراض والآلام والاخطار حافزا للموت في سبيل الحياة، وما مثلها قوة تدفع بالانسان الى ميادين العظمة والخلود.

ان الامراض والآلام والاخطار مصائب تنقض على البشرية وتجتاح الانسانية وقد يرى فيها ذوو الاراداة الضعيفة، والعزائم الواهنة، والقلوب الواجفة الشر متجسدا، والبلاء جاثما فتخور عزائمهم، وتجف قلوبهم وتتخاذل اراداتهم فيستسلمون. ويرى فيها ذوو الارادات القوية، والارواح المتمردة والعزائم الماضية، خيرا منه يستمدون القوة، وشعلة منها يقبسون نورهم الذي يسيرون عليه الى ميدان الجلاد والجهاد. وفى الحق ان الله عز وجل - ولا اقول الطبيعة - ارحم بعباده من ان يجعل من الامراض والآلام والاخطار شراً محضا وبلاء صرفا

والامراض قد افادت البشرية اكثر مما اضرت واغدقت الخير على الانسانية اكثر مما امسكت عنها سواء تمكنت بالافراد كل منهم على انفراد او انها تمكنت بالشعوب. فهي لم تبخل بخير ولم تضن بفائدة. ولولا الامراض لما نضجت عقول جبارة، وقامت حضارات وزخرت الحياة ببدائعها. ولقد

قال (نتشة) ان المرض هو اول شي هداني سواء السبيل وقال (نوفالس) ان الامراض اهم مادة واقوى دافع لنا على التفكير والعمل فمنها يستطيع الانسان حقاً ان يجنى ثماراً لاحصر لها خصوصاً في الميدان العقلي وفي ميدان الاخلاق والدين ويرى (جوته) ان المرض والضعف الجسماني لازمان عند العباقرة لكي يستطيعوا الاحساس بالوجدانات النادرة ويقدروا على سماع الاصوات السماوية . واذا رأيت كائناً من الكائنات قد امتاز امتيازاً خاصا فابحث سريعا عن الناحية التى منها يتألم بحث الفاحص المدقق فستجدها مفتاح كل تكوين وارتقاء .... وحيث يكون السمو العقلي كبيراً يكون الالم كبيراً ايضاً . .

وفضل المرض على الامم والشعوب لا يقل عن فضله على الافراد الممتازين حيث اثار فيها قوة واندفاعا وتهيجا وخلق اعوانا اشداء للنهوض بالحضارة واعلائها . والصحة لا قيمة لها ان لم ينضجها المرض ، ويصهرها الالم فلولا الامراض لما كانت تلك العقول الجبارة التى زينت احياة الدنيا بلألائها ، عقول جوتة وشوبنهور ونتشه وبيرون وبيت ، وهوميروس والمعري ولما كانت حضارة يونان ، ولا حضارة اوربة ، ولا انقلاب فرنسة الكبير . ذلك لان الامراض تدفع بالانسان الى استجلاء خفايا النفس الانسانية وانفعالاتها ورغباتها وما يسيرها من دوافع وغرائز ويسوقها الى ان تنظر الى الاشياء في برود هائل . والامراض هي التى تشعر الانسان بالصحة وتحمله على دراسة الحياة وفهم طبيعتها ، والحياة بحر ذو شاطئين احدهما شاطيء الالم المظلم والاخر شاطئ الشفاء الباهر النور ولا تشعر بلذة الشفاء ، ولا تتفتح نفسك الى النور الباهر مالم تمر من شاطىء الالم المظلم .

فالامراض مصدر قوة ونشاط لذوي الارادات والعقول الممتازة ، ومصدر حياة وانبعاث للامم التى حبتها الطبيعة باسباب الحياة والانبعاث ويكفيها خيراً انها العين الثرة والمنبع الذي لا يجف ، للالم . والالم هو قوام الحياة .

وقوة الوجود . وكل ما كان الالم عميقا كان السرور عميقا ، واللذة قوية .
تصور انك اخترقت تيهاء لانبت فيها ولا ماء ، وليس معك متاع ولا يسايرك صديق او رفيق ، وشعرت بالظمأ يحرق كبدك ، والجوع يعتصر معدتك وتغلبت بارادتك القوية ، وروحك المندفعة الفتية على صعاب الطريق ومهالكه وانتصرت على الظمأ والجوع والتعب ووصلت الى المكان الذي تريد تتدفق فى جنباته الامواه ،وتحف به الحدائق والبساتين فدأ كل هنيئا وتشرب مريئاً ، فاي لذة قوية تحس ، وأي سرور عميق تشعر ؟ فلو لم يكن الألم عميقا فى نفسك قويا في روحك لما شعرت بعمق السرور ، ولا احسست بقوة اللذة. فالألم اذن يفيد النفس الانسانية . فكما ان الصحة الكاملة هي الصحة التي تأتي بعد المرض كذلك اللذة القوية والسرور العميق ، هما اللذان يعقبان الالم القوي العميق . والامراض والالام اذن هي مصدر قوة ونشاط ، ومنبع فيض وخير لذوي العقليات الممتازة من بني الانسان ، وللشعوب والامم التى توفرت فيها الخصال والسجايا الكريمة .وقد يتضاعف خير الامراض وفيض الالام ، اذا لازمتها الاخطار . فالاخطار تستدعي المقاومة وتقتضي الخصومة . وكلما كثرت المقاومات واشتدت الخصومات زادت قيمة الحياة واصبحت اكثر خصبا واوفر ثروة . واندفعت الارادة الى ميدان الكفاح قوية متينة ذلك لان كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة ما لدينا من قوة وشجاعة وبنسبة ما في ارادتنا من مضاء ومتانة . لذلك قال نيتشة بحق . كي تجن من الوجود اعظم الثمار وتنعم منه باسمى ما فيه عش فى خطر !. . .

لكل ذلك كان واجبنا القومي يفرض علينا ان نكشف لابناء وطننا عن الامنا ، وامراضنا ، والاخطار المحدقة بنا ولا نسترعنهم شيئا منها لنخلق فيهم ارادة القوة ، او قوة الارادة التى يحتاج اليها ميدان الكفاح والقتال ، وتفتقر اليها المقاومات القوية والمخاصمات الشديدة التي تنتظرنا .

لا خيبة فى هذا الوجود ، ولا يأس . ما دامت هناك ارادة . ان الحياة ارادة . وان جوهر الوجود كله هو الارادة وان هذه الارادة تدفع الانسان الى الامام وتخلق له في كل آن رغبات جديدة . وانها لا تعرف شبعا لنهمها ولا نهاية لمطامعها ولا هوادة لسورتها . فهي في اندفاع دائم ، وفي طلب دائم للمزيد وفى نزوع مستمر الى تجديد قوتها . ولئن كان شوبنهور مصيبا في وصف الارادة ولكنه لم يكن مصيبا حين تملكه اليأس من اندفاعها الدائم ، واعتصر قلبه الم القنوط من نزوعها المستمر في تجديد القوة وطلب المزيد فغشاه نوع من التشاؤم حين راح يطلب للحياة غاية ، هي الفناء ، وللوجود نهاية هو العدم !! فالارادة في قوة وفى حياة ابديتين . والارادة ما دامت فى قوة وفي حياة ، يجب ان تعمل بقوة وحيوية .

علينا ان نشعر بامراضنا ، وان نشعر بالمها العميق ، واخطارها المهلكة . علينا ان نشعر بان هذه الامراض منها ما هو منا مصدره ، ومن وسطنا منبعه ، من الانظمة والقوانين التى تضعف ارواحنا ، وتوهن من عزائمنا وتصغر من شأننا ، من الرجال الذين مالئوا الاجنبي على الوطن ، وعاونوه على تفقير ابنائه ، وتشتيت احراره ، وتقتيل ابطاله وحماته ، من السياسة الاقليمية ، والاراء الشعوبية التى تبث فى الاوساط ، وتنفذ الى البيوت والى دور الثقافة والتعليم ، ومنها ما هو خارج عن وسطنا ، ومحيط بمركزنا ، من القوى الاجنبية الجاثمة على صدورنا ، المتعاونة فيما بينها على ابادتنا وافنائنا . علينا ان نشعر بكل هذه الامراض والالام والاخطار لنتأهب لمقاواتها ، ونهيء انفسنا لمصاولتها ، ولنتم في ارادتنا القوة الخارقة التي تخترق بنا هذه الظلمة الحالكة ، ولتعبر بنا كل هذه الشباك والحفر والاخاديد لنصل الى السهل ، والى عالم الحياة الذي يطفح بالنور ويمور بالمسرات . اننا الان كمن تحطمت بهم سفينتهم في وسط بحر متراكب الاذي ومن بعيد يتراآ اي خيط من النور هو الساحل . فأن هدأنا هبطنا الى قاعه ، واحتوتنا قرارنه . وان تحركنا كان

في حركتنا الخلاص ان تخاذلت ارادتنا ، واستسلمنا لقوى الطبيعة اكلتنا الطبيعة وهصرتنا قواها، وان غالبنا الطبيعة وسمت ارادتنا على قوتها نجونا . فالحياة تشير الينا ببنانها الاحمر المخضب بالدم ، وتومي الينا بمنديلها الابيض الناصع البياض . فعلينا ان نسمو بارادتنا على نفوسنا ، وان نتغلب بقوتنا على ضعفنا لنقذف بانفسنا الى احضان الحياة . فالى الساحل، الى نور الحياة يجب ان تنصرف ارادتنا وقوتنا ، وان تتوجه عواطفنا وقلوبنا .

ان جلونا الحقائق رائعة مكشوفة لابناء وطننا فانما نؤدي واجبا فرضته علينا الوطنية الحقة ، والزمنا اياه الاخلاص العميق للوطن . وان حجب الحقائق عن انظار ابناء الشعب انما هو عمل يقوم به الاجانب المتحكمون املا في استمرار تحكمهم ، واطالة عهدهم فهم يصورون لابناء الشعوب المحكومة المرض صحة ، والالم لذة ، والخطر امنا وسلاما والموت حياة . فلماذا نقبل لأنفسنا ان نسايرهم في تضليلهم وفي مكرهم وفي خداعهم لمجرد ان هذه المسايرة تلاقي هوى في افئدتنا ، وتطمن جانبا من غرورنا وكبريائنا ، وتسدل ستاراً على فشلنا وخيبتنا ؟ ان الخيبة والفشل ليسا عاراً ، ولا هما نقيصة وانما العار في تضليل الانسان نفسه وهو عالم بهذا التضليل ، وانما النقيصة في مكر الانسان على نفسه وهو شاعر بأنه بنفسه يمكر ولها يخادع . والحياة جدال وصراع ، وكفاح ونزاع ، وفي هذا الميدان قد يفوز بالظفر ، او قد يمنى بالهزيمة ، وانما المهم فيما ركز في طبعه ، من عناد ، وما ركب في ارادته من قوة . فان كان الطبع متخاذلا ، والارادة واهية صاحبته الخيبة ورافقته الهزيمة وان كان الطبع حادا عنيدا ، والارادة قوية عنيفة والنفس عامرة بالايمان فاز بالظفر وظفر بالامل وان اعتورت طريقه عقبات ، ومسالكه عثرات ، وان اصابته الخيبة والهزيمة مرة او مرات .

١٨ مارث ٩٥٠

علي محمود الشيخ علي

لمحات فكر وخطرات نفس !

بعد ان حسم هتلر مسألة السوديت وتغلغل بنفوذه السياسي في جيكوسلوفاكيا وجزأها وفق خططه المرسومة ، ومزج النمسة ببلاد الريخ ، وسايره التوفيق في كل هذه الضربات القوية ، الحاسمة ، كان مفهوما لدي كل من له مسكة من العقل ، وذرة من التفكير السليم ، ان هذا العبقري ، الذي يوآتيه السعد ، في كل موقف يقفه ، وفي كل حركة يقوم بها سوف لايهدأ روعه ولا تسكن نائرته مالم يحقق احلام الشعب العظيم الذي يقوده ويرضى مطامحه ومطامعه ، وفي طليعة هذه الاحلام ، والمطامح والمطامع ، انهاء قضية الدانزيغ والممر ، لانها بلاد المانية ، والمستعمرات التي استولى عليها الحلفاء في الحرب الكونية الماضية بعد ان قهرت المانيـة ، ومتفقوها والقوا السلاح مستسلمين . وليس يعنينا ان نبحث مشروعية مطاليب هتلر التي حققها والتي كان مزمعا تحقيقها او عدم مشروعيتها ، ولا ان نتبسط في تحديد مدى احلامه ومطامعه ومطامحه لأن الافاضة في مثل هـذه الأمور خارجة عن موضوعنا هذا ، وانما الشيء الذي نريد ان نقرره هو ان هتلر بعد ان تخلص من مشكلتي السوديت وضم النمسة وتقسيم الدولة الجيكوسلوفاكية تقسيما يرضي سياسته رأى الفرصة ملائمة ، ليلتفت الى ما تبقى من اجزاء الوطن الالماني وهو بعيد عن متناول يده . والدانزيغ والممر هما الجزءان اللذان ما انفك هتلر وزملاؤه يعطفون عليها ، ويحنون اليها .

ليس من شك في ان هتلر كان يرغب في ان يجمع شعات الوطن الالماني عن طريق السياسة والمسالمة ، لا عن طريق القوة والاكراه . وكان يبدي من وقت الى آخر حلولا مختلفة وطرقا متباينة ، تختلف شدة ولينا ، ضنا وسخاء ، ليحصل على مبتغاه . وقد وجدناه غير مرة يفوز بتحقيق مطاليبه وبالسلم معا . فلقد استطاع ان ينهي قضية السوديت ، من دون ان يضطر الى اطلاق رصاصة واحدة ، كما انه فاز بضم النمسة من دون ان يسفك قطرة من الدم . وكأن هذا الفوز الوطني السلمي ، قد شجعه الى ان يذهب في رغبته السلمية الى اقصى حدودها في مسألتي الممر ودانزنغ ، فعرض حلولا فيها شيء كثير من السخاء والكرم . ولو ان بولونيا رضيت باحداها لسلمت على كيانها واستقلالها ولانقذت العالم من شرور الحرب الطاحنة التي عانتها الانسانية وما زالت تعانيها الى هذه الساعة . ولكن أنى لبولونيا ان تفكر في نفسها وفي الانسانية وشياطين الحرب ، ودعاتها في بريطانية وفرنسة لم يألوا جهداً في اثارة نخوتها ، واستفزاز وطنيتها وتحريضها على ملازمة التصلب والعناد ؟ وقد كان العالم ينتظر في اواسط عام ٩٣٩ اندلاع لهيب الحرب في كل صباح او مساء وانما كان مما يسرى الهم هو ان موقف روسية لم يكن معلوما . ولموقف روسية اثره الفعال في تعجيل الحرب ، او تأخيرها سيما ان الوفد البريطاني كان يتفاوض مع رجال موسكو المسؤولين ويتذاكر . ولكن الذي جعل الحرب حقيقة واقعة لا مفر منها هو الاتفاق الروسي الالماني الذي فوجيء به العالم ، ودهش له . وهكذا كان . فلم تمر ايام إلا والجيوش الالمانية تخترق حدود بولونية من عدة نقاط ، وتلا هذا الاختراق اعلان كل من بريطانيه وفرنسة الحرب ، على الالمان وبذلك سجل التاريخ في صفحاته الدامية ، ان شهر ايلول سنة ٩٣٩ كان انحس شهر طلع على العالم منذ تكوينه الى هذا اليوم

والحرب اذا كانت كارثة يفرق منها الفريقان المتحاربان في العصور

الحوالي ، فهي في هذا العصر تعتبر كارثة عامة ، تجفل منها الانسانية وتضطرب لها الامم جمعاء . لان العقل الانساني بقدر ما اعد للانسانية من خير ، ويسر للأمم من متع تشبع الاذواق ، والوجدانات ، والنفوس وبقدر ما اسبغ على العالم من جمال ساحر ، وبدائع فاتنة وجاد عليه بمخترعات مفيدة وصناعات نفيسة وعلوم وفنون هذبت كثيراً من طباع البشر ، وامزجتهم وسخرت لهم ما في الطبيعة من عناصر عادت على الحضارة بالخير العميم ، فان هذا العقل ، قد اعد كذلك من الشر اكثر مما اعد من الخير ، ويسر من وسائل التخريب والتدمير ، اكثر مما يسر من اسباب الانشاء والتعمير ، ورفد العالم من ضروب العذاب ، والوان الألم ما تصغر بجانبها ضروب النعيم ومختلف اسباب الحياة الهانئة

كانت الحروب فيما مضى ، كوارث محلية ، تحتوي سعيرها ، اماكن معينة ، وتبتلي بارزائها امم معدودة وتنحصر ويلاتها بمناطق محدودة . وكان العقل الانساني ، بمجهود يسير او كثير ، يستطيع ان يتغلب على عناصر التدمير ودعاة الشر . وحتى اذا استمرت الحروب اعواماً طويلة ، فأنها لم تكن تتعدى رزاياها الفرقاء الذين خاضوا غمارها واكتووا بنارها . اما الاقطار الاخرى ، والشعوب التي لم يصبها شررها فتبقى سالمة ، مطمئنة الى كيانها غارقة في نعمائها ، متقلبة في لذائذها . فالحرب الميدية التي دامت اعواماً كثيرة لم ترهق الا الفرس واليونانيين ، وحروب هانيبال عظيم قرطاجنة ، لم تؤثر الا فيها ، وفي الرومانيين خصمائه ، وان عمرت اكثر من خمسة عشر عاماً ، وحرب الثلاثين عاماً الدينية لم تتجاوز مناطق معينة من اوربة فقط وحتى الحروب النابليونية فانها لم تتعد بلاد اوربة وشطراً يسيراً من الشرق فالتجارة لم تتوقف وطرقها لم تسد والاتصالات الاخرى بين الدول غير المتحاربة لم تنقطع والمجازر لم تكن في نطاق واسع ، وضحاياها اذا عدوا فلا يتجاوزون الآلاف او عشرات الآلاف من الانفس البشرية . ان حروب الإسكندر ،

وحروب الاسلام التى كانت أوسع آفاقا من حروب القرون الماضية لم تشهد من المذابح البشرية ، والتدمير والتخريب غير جزء يسير مما شهدته الحرب الكونية الماضيه ، ذلك لأن العقل الانساني قد أعد للمحاربين الاخيرين اسبابا اشد فتكا ، مما كان قد يسره لهم من قبل . لذلك كانت مفاجأة الحرب الكونية الثانية ، مفاجأة اليمة ، لكل من في قلبه عطف على الانسانية ، وفي فكره نزوع الى تحقيق الآخاء الانساني .

فأي خير نعمت به الانسانية من هذا العقل ؟

العقل يجتهد ليوفر اسباب الوقاية للجنس البشري من الآفات فيكتشف الجراثيم التى تؤدي بنوعه ، ويخترع اساليب المعالجة ، وانواع الادوية ليدفع عن كيانه ، ولكنه من جهة اخرى يقدم للانسان وسائل القضاء على الانسان. فهو ينزع الى ان يصون الافراد من عاديات الاوبئة الفتاكة ، والجراثيم المهلكة ولكنه لا يتردد في ان يزجى الجيوش اللجبة والفيالق المتلاطمة الى مهاوي الموت . وانه يبدع في وسائل البناء والعمران ومن ناحية اخري يبني المدافع وينشىء الرشاشات والقذائف والدبابات ليدك بلحظة ما عملت به يد الانسان دهراً ، ويحطم بساعة ما اقامه الانسان في سنين . وانه يشيد البواخر والطائرات والسيارات لتنفع الانسان في غدواته وروحاته وفي تجارته وفي اتصالاته السائرة ولكنه يركب فيها ما يقذف بها وبمن فيها اما الى قاع البحر واما لتتهشم على اديم الارض وفي اجواز القضاء . وانه يوجد الكهرباء ليمنح الانسان النور ، والبرق والتلفون لينشط العلاقات البشرية ويكثرها ، والاجهزة اللاسلكية وابدعها الاذاعات اللاسلكية ، ليلهو باغانيها من يهوى اللهو ، ويرتاح الى اخبارها واحاديثها ، من يتذوق الاخبار والاحاديث ويصغى الى ماتهبه من نصائح ، وما تقبسط فيه من علوم وفنون من اشربت نفسه حب العلم ، ومالت به الى المعرفة ، ومع ذلك فقد هدى العقل ، الانسان ايضا الى استعمال الكهرباء في تحريك الآلات الجهنمية ، والبرق والتلفون

والاذاعات اللاسلكية لاثارة الحفائظ ، وتهييج العواطف ، وبذر بذور الشقاق بين الامم وخلق الفتن والثورات والاضطرابات . وهكذا نجد العقل ، ما اسدى خيراً للانسانية من ناحية إلا وضاعف لها اسباب الشر من نواح متعددة وما تقدم بالفرد خطوة ، إلا واوحي للمجموعات البشرية ان ترجع الى الوراء ميلا . فمثله مثل من يمنحك دانقا ليسلبك ما تملك جميعه او اكثره او يعطيك كأسا من الماء لتدفع به ظمأك، فأسال فيه من السم الزعاف ما يعجل بك الى الهلاك . ويوردك موارد التلف. فأى نعمى هـذه التي يجود بها علينا العقل ؟

صحيح ان العقل الانساني قد تكامل ، ووصل الى درجة عالية من النضوج لم يكن ميسوراً له في القرون الماضية ان يسمو اليها بل ان يحلم بها ، ولكن تقدمه الرائع لم يفد الحياة الاجتماعية كثيراً . فالانسان ليس العقل وحده ، وانما هو عقل وروح فاذا لم تسم الروح ، سمو العقل بقي الانسان على عنجهيته وبربريته . واذا كان العقل لا يعمل لانقاذ الروح من هذه الظلمات التي تكتنفها فكأنه لم يعمل شيئا . فالتقدم العقلي يجب ان يصحبه تقدم روحي ، ليكون الانســان انسانا . ان النفس الانسانيه احق بالرعاية واولى بالعناية ، من المجالات الاخرى التى احاطها العقل برعايته ، واولاها عنايته. فالعقول الكبيرة في الغرب ، قد اوجدت هـذه الحضارة الحديثة ولو انها بذلت ما يضارع نشاطها، في المجال الروحي ، او لو انها ترسمت خطى العقل الشرقي واضافت الى العبقريات التي طوتهـا ايام الشرق المجلة عبقريتها ، او جانبا من هذه العبقرية لجاز ان نرى عالما غير العالم الذي نعيش في اكنافه والما اقل شقاء والما مما نقاسيه فى ايامنا الحالية . ان الانتاج المادى الذي فاض به العقل الغربي ، اوبتعبير آخر ان الحضارة المادية التي ورثت الحضارة الشرقية الروحية قد اودت بكثير مما تعبت فى خلقه العقول . وليس بعيداً ان استمر الحال على هذا المنوال ، ان تلقى البشرية

مصرعها وتوسد رمسها في مستقبل قصيرة آجاله ، معدودة اجياله .

لا ينكر ان رهطاً كبيراً من فلاسفة الغرب وحكمائهم والمتخصصين منهم في الاخلاقيات وفي علم النفس خاصة قد نبهوا الاذهان الى الفراغ الذي تشكو منه الحضارة الحديثة واشفقوا على الانسانية من ان تلفظ انفاسها في وسط تسوده هذه النزعة المادية المترعة بالانانية والطمع ، والزهو والغرور ، والمتباعدة كثيراً عن المبادىء الشريفة والسجايا الخلقية الرضية ، واهابوا بالرجال المسؤولين في الامم الى ان يشمروا عن ساعد الجد للعمل في سبيل تهذيب النفوس وترقيق الطباع ، وتشذيب الغرائز وتطهير الضمائر والاذواق مما هي منغمسة فيه وتقويم الاخلاق تقويما يقرب الانسان من الانسان الكامل المنشود . لانهم آمنوا ايمانا مطلقا بان الشرور التى تجتاح البشرية من آن لآخر ، وللآثام الاجتماعية التى ترتكب ما هي إلا اثر الاهمال للارواح والنفوس ، سيما هذه الفتن والثورات ، وهذه الحروب الدامية التى تذهب فيها الارواح جزافا ، وتنفق عليها الاموال بلا حساب ، وما تتركه وراءها من اثار التدمير والخراب والضنك والفساد . فلو رقت الطباع ، وتهذبت النفوس ، وصفت السرائر مما يجب ان تصفو منه من انانية وطمع ومكر وخداع ، وحب الاستيلاء على الغير ، واستعباده ، لنجت الانسانية من كثير من الكوارث التى اصابتها ، وانت تحت كلكلها الطاحن . ولئن كان تهذيب النفوس من هذه الادران لازما لكل فرد من افراد الهيأة الاجتماعية فهو لرجال السياسة وقادة الامم الزم . فما هذه الميول التى تدفع ببني الانسان الى ان يفتك بعضه ويستعبد الواحد الاخر ، ويستبد به ، ويسلبه ماله ، ويطأ ارضه ، ويفقده حريته ، ويفقره ويذله ؟ اليس عاراً على الانسانية ان يكون الانسان اقل رفقا ببني جنسه من العجماوات التى لا يزينها عقل ولا يرققها طبع ولا يجمع شتاتها شعور بالتضامن ؟ نرى السباع في الاجام والذئاب في البراري والقفار والافاعي تنساب في الاحراش وادعة مع بعضها ولا يؤذي جنس جنسه ولا يقضي نوع على نوعه ، مع ان الانسان

لا يتردد في القضاء على اخيه الانسان اذا شام فيه ضعفا ، او ابصر عنده مالا او وجده على غير عقيدته ، او من غير عنصره ، ولونه . ولماذا يصل التذمر بالانسان الى درجة انه يرفع عقيرته ويقول

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكدت اطير ؟ ...

واذا كنا اغمضنا العين على قذى ، عما انتاب الانسانية من كوارث وفواجع في الماضي السحيق ، وما اصابها من مذابح ومجازر اما لأسباب تافهة ، او لنعرة دينية ، او عصبية عنصرية وقلنا انها كانت وليدة الحمية الجاهلية ، واثرا من نزوات النفوس الجامحة ، حيث كان العقل طفلا والادراك غرا ، فما هو العذر في العصور المتأخرة بل في هذه الايام والعقل قد اكتمل هلاله ، والادراك قد بلغ الحلم ؟. الحق ، ان العقل لا يكفي ان يخلق الانسان وان وصل الى الذروة من النمو ، ان لم تكن الروح مسايرة له في النمو ومستوية معه في السمو ، والضعف الروحي هو الذي يضرب على البصائر غشاوة وعلى الابصار غشاوة فتضيع الحقيقة على الناس . ولم يكن ديوجونيس مسرفا في التشاؤم حين كان يحمل مصباحه في ضوء النهار يفتش عن الرجل ، الرجل الذي تنير وجدانه الحقيقة وهو بدوره ينير وسطه بنورها ، ذلك لان مثل هذا الرجل لم يكن قد خلق في وطنه بعد ، حيث النفوس كدرة ، والضمائر معتمة ، والسرائر قد ران عليها الكلف . وكذلك لم يصب رجال الامم وقادتها في العصور المتأخرة شرف الظفر بالحقيقة لانهم لم يسموا بنفوسهم ويعلوا في ارواحهم برغم نضوجهم العقلي ، وجودة تفكيرهم . فهذا مؤتمر فينة عام ١٨١٥ الذي ضم جبابرة العقول في القرن التاسع عشر ، ألم تسده شخصية مترنيخ وتذب فيها شخصيات المؤتمرين ؟ ألم تطغ نفسيته عليهم وتتركهم يقررون قرارات ، القت اوربة خلال ذلك القرن في اتون من الجحيم يرمي باللهب الماحق والشواظ المبيد ؟ فكم نعرة اثارتها تلك القرارات وكم فتنة خلقتها ودفائن اهاجتها ، وكم امة اغتصبت حريتها ، وتنوسيت كرامتها

وقضى على استقلالها؟!. فكأن ذلك المؤتمر لم يعقد لا عطاء نهاية لحروب نابليون وانما ليكون مصدراً لحروب متسلسلة عديدة استغرقت اكثر سني ذلك العصر. والحرب السبعينية أما كان في مقدور رجال اوربة الحيلولة دونها ؟ ان الوثائق الرسمية، والمستندات التاريخية، وحقائق الوضع في ذلك الوقت، كلها تصرخ في وجوه شياطين السياسة بأنه كان في مقدورهم ان يدفعوا الكارثة وينقذوا اوربة من ويلاتها. ولكن كيف يطيب لرجال السياسة في ذلك العهد ان تنام اوربة بملء جفونها وهي وادعة مطمئنة ؟.. والفرنسيون يلمسون روح التوثب والنهوض، في جيرانهم الالمان. والانكليز يبصرون بعيونهم ويدركون بعقولهم ما يؤول اليه هذا النشاط الخارق من شعب عظيم، تضخمت قواته المسلحة، وتقدمت صناعته، ودبت في ابنائه روح التضامن والاتحاد. والالمان يريدون ان يشقوا طريقهم الى المجد، وينزعوا الى لم شعثهم المشتت وجمع كلمتهم المتفرقة. فلماذا لا تحترق اوربة نتيجة لهذا التنافس وتطيح هامات، وتسفك دماء وتفرى غلاصم ؟ وهكذا وجد القادة والزعماء من سبب بسيط، عذراً لا يقاد نيران الحرب. تطلب اسبانيا احد امراء البيت المالك البروسي ليتوج ملكا عليها فيغضب الامبراطور نابليون الثالث عاهل فرنسة فيكفهر الجو ويتظاهر غلادستون زعيم الانكليز بعدم التدخل برغم الحاح مليكته فيكتوريا بضرورة التدخل سيما ان موقف نابليون كان غير مشروع بعد ان اعتذر الأمير البروسي عن قبول العرش الاسباني ثم تقع الواقعة وتدور الدائرة على نابليون الذي كان يمعن في اهانة الملك البروسي ويتشدد عليه (١) فكانت الحرب السبعينية الجرح النغار يتهدد السلام، وكانت السبب الاصيل في قيام الحرب الكونية الاولى وكان في الامكان الحيلولة

(١) ان هذه المعلومات مستقاة من مذكرات الملكة فيكتورية التي طبعت بأشراف الحكومة البريطانية والتي سنحت لي فرصة قراءتها في مستشفى سجن «دوربان» ميناء اتحاد جنوبي افريقية المعروف. ولكن هناك جلة من سياسي الانكليز ومؤرخيهم يرمون تبعة الحرب السبعينية على عاتق بروسية، ويشيرون الى الجهود التي بذلها اللورد كلارندن وزير خارجية =

دون وقوعها او عدم حدوث تلك النتائج الخطيرة لو كانت بريطانيا تدخلت في النزاع قبل استفحاله، بل حتى بعد استفحاله وقبل وقوعه. ولكنها لم تشأ ذلك لانها كانت تريد ان تقع الحرب وتتخلص من المزاحم الجديد، ثقة منها بأن فرنسة هي التي ستفوز غير انها لما وجدت الامر معكوسا، ارتأت التدخل فعملت للصلح، فكان صلحا مسلحا، انطوت فيه القلوب على الحقد والبغضاء على ان بقاء الالزاس واللورين في ايدى الالمان وحده كان يكفي سببا لتجدد المعارك، وعودة الملاحم لأقل عتمة تتراآى في الافق. فما بالك اذا اجتمعت اسباب وتوفرت عوامل لا يحصيها حاسب ولا يلم بأطرافها كاتب؟ فالفرنسيون اقسموا على ان يثأروا لكرامتهم الجريحة وشرفهم المثلوم وان يعيدوا الى الى حظيرة الوطن الأم الجزء المغصوب وان يردوا الى الجسد العضو المقطوع. والألمانيون يحكمون اسباب الحكم في هذه الأرض التي ظفروا بها، عاضين عليها بالنواجذ ناظرين اليها كجزء لاينفك عن جسم الوطن الألماني. فكان كل فريق يعد العدة لنزال جديد، ويهيء اسباب الخصام القادم وعدا ذلك فقد دفع حب الاستعمار، والاستئثار باطايب الشعوب الضعيفة، الامم الاوربية جمعاء، الى ان تتنافس فى ضخامة السلاح، وتتزاحم في مضمار التفوق الصناعي. فالالمان نزعوا الى تقوية اسطولهم البحري، الأمر الذي خلع قلوب الانكليز واصاب منهم المقاتل فكان جدل وكان نقاش، وكان وعد

= حكومة المستر غلادستون في عام ١٨٦٩ ومطلع عام ١٨٧٠ حيث كان قد تردد على باريس وبرلين عاصمتي الدولتين، وخاطب فيهما كلا من الامبراطور نابليون الثالث و"كونت بسمارك على المكشوف منددا بسياسة التسلح التي كانت الدولتان تنتهجانها. ويعزى الى بسمارك قول له خطورته وان جاء عن طريق النكتة والمزاح مع اللادي أميلي ابنة اللورد كلارندن وعقيلة اودو رسل سفير بريطانية في برلين عام ١٨٧١. يقال انه قال لها «.. لم ابتهج في حياتي بخبر سمعته كخبر وفاة والدك ...» ولما رأي آية الغضب في وجهها لثم يدها وقال لها «. ياعزيزتي ارجو ان لا تحملي قولي على غير محمله. ان الذي رميت اليه بقولي هذا ان والدك لو بقي حياً لحال دون وقوع الحرب ..» (راجع خمسون عاما في البرلمان تأليف المستر سكويث رئيس وزراء الانكلز في الحرب الكونية الاولى.)

ووعيد ، ثم اخذت الصناعة الالمانية ، وما تنتج من نتاج متين في صناعته ، رخيص في سعره ، تغمر الاسواق التي كانت وقفا على ما تنتجه الصناعة الانكليزية ، وتغزوا المستعمرات والممالك التي تسوسها انكلترة مباشرة او بالواسطة بل تغزوا بلادها الصميمة نفسها . والخبراء الماليون والاقتصاديون ، والوكلاء التجاريون الالمان يندسون في كل وسط ، ويتغلغلون في كل جمع ، له بالانكليز صلة ، فيشجبون فيه وسائلهم ، وينقصون عليهم عيشهم ، ويخطفون منه ما كانوا هم يخطفون . فالأمر اذن لم يقف عند الالمانيين والفرنسيين وانما تعدى آفاقا أخرى ، وتجاوز الى رحاب فيها للتصاول والتقارع مجال كبير وما اسرع ما انقسمت اوربا الى معسكرين كبيرين ، وفريقين خطرين متناحرين ، ولم يكن قد جف مداد صلح فرسايل (١) بعد ، وفي كل معسكر دولة متزعمة ودول تصدع بما تؤمر ، وتنفذ ما يطلب منها ؟ وما انطلقت رصاصة سيراجيفو فصرعت رأسا عظيما وقرماً عنيداً إلا وبدأ الارعاد والابراق من كل جانب حتى انتهيا الى الحرب الماضية . وما كان في مقدور رصاصة واحدة ان تغير خريطة العالم ، وما كان في سبيل قتيل واحد ، مهما عظم وكبر ، ان تقوض عروش وتمحى ممالك وتفقد الانسانية الملايين من ابنائها بين قتيل وجريح ومشوه وكسيح لو لم تكن القلوب طافحة بالاحقاد والاحن ، والنفوس متبرمة ، والعقول مستعدة الى استساغة مثل هذا الخسران المبين . نعم قام في اثناء الحرب ، وبعد الحرب ، الدعاة لكل فريق ، والمؤرخون لكل معسكر يصدرون الكتب ويغرقون المكتبات والاوساط بالنشرات ، والمؤلفات يرمى فيها مؤلفوها وناشروها تبعة الحرب على خصمائهم ويدفعون عنهم مسؤولية هذه المجزرة البشرية ، والله شهيد على ان كل فريق منهما له في هذه الجناية نصيب وماذا حل بالانسانية بعد هذا التطاحن المبيد ، والتقاتل المخيف ؟ فهل انها افادت شيئا بعد ان منيت بتلك الضربات القاصمات !

(١) اي صلح المانيا وفرنسة بعد الحرب السبعينية

والخطوب الفوادح ؟. اللهم لا !. وما نراه اليوم (١) من حرب طاحنة مبيدة لخير دليل على مانقول!. وهذا امر طبيعي وليس في الامكان ان يكون خلافه، لان المقدمات اذا كانت شراً كانت نتيجتها شراً كذلك. فصحة النتائج متوقفة على صحة المقدمات. مضت ثلاث سنوات على الحرب السابقة وكان الالمان سادة الموقف في كل ميدان من ميادين الحرب. كانوا يقاومون العالم اجمع ويصاولون الدنيا برمتها ولم تنكس لهم راية، ولم يفل لهم جمع طيلة هذه السنين الثلاث. ولكن حظوظ الحرب، وطوالع الامم لاتظل على وتيرة واحدة، ولا تستقر على حال. والالمان وان كانوا موفقين في الحرب فلم يكونوا موفقين في انتقاء الحلفاء والاعوان. فهم فوق ما كانوا يعانون من الويلات ويقاوون من المصاعب في الصمود في الميادين الكثيرة فقد كانوا يعيلون هؤلاء الحلفاء، ويمدون اولئك الاعوان، ومع ذلك فقد كانت كفتهم هي الراجحة، وكفة خصومهم الكثار الضخام، هي المرجوحة الى ان دخلت اميركة الحرب بخيلها ورجلها، بجانب الخصوم، فأنقلبت الكفة وبدلت الوضع من حال الى حال. ولم تخض اميركة غمار هذه الحرب الزبون لمجرد ان ينعم الحلفاء بالظفر ولينتشوا برحيق الانتصار، وانما دخلها الرئيس ويلسن وفي قلبه عواطف تفيض مروءة وكرما، وفي رأسه آراء تشع حقا وصواباً. دخلها وهو يلوح لابناء وطنه وللعالم اجمع بنقاطه الاربع عشرة تلك النقاط التي لو نفذت او نفذ جانب منها لظلت الانسانية ترفل بحلل السعادة اجيالا وتتقلب في احضان النعيم اماداً. دخلها بروحية فيلسوف عطوف، وعقلية عالم مجمع، واستاذ جامعة، ولم يدر انه بعدان تنطفيء جذوة الحرب، ويزامل شيوخ السياسة، ويقتعد كرسيه بين زعماء الامم والقادة، ان روحية الفيلسوف العطوفة تتخاذل، وعقلية العالم النقادة يضحك منها

(١) المقصود الحرب الكونية الثانية حيث ان هذا الكتاب كتب والحرب في اوج عنفوانها

ويسخر بها ؟ لله الله من رجل ما اروع فشله وما افجع هزيمته ؟. ليت افلاطون ينفض التراب من على رأسه ويستوى قائماً من بين صخور رمسه ليرى بعينيه كيف تذوب نظريته في ضرورة اسناد حكم الشعوب الى الفلاسفة فيها ، في فشل زميله الرائع ، وكيف يتمثل له خطأوه في جمهوريته الخالدة في هزيمة صنوه الكريم !.. وخيبة افلاطون في رفيقه بعد ان مرت على البشرية عصور تقارب الثلاثة والعشرين عداً ليست هينة لينة ، وانما هي خيبة مفجعة بكى لها الحق وتوجعت عليها المرؤة وذهلت منها الانسانية ، خيبة تبعث على اليأس من اصلاح النفس الانسانية وتدفع الى القنوط من تقويم منآدها . واذا كانت هذه العصور العديدة المزدحمة بالاحداث قد عجزت عن تغيير هذه النفس ، ليت شعري فمتى وبأي عصر آخر يتحقق حلم هذا الفيلسوف اللامع الذي بعث الى الوجود قبل هذه العصور ، وهو لم يزل في عقله وفي روحه ، في اشراق تفكيره وفي فيض وجدانه كأن عصره الخليق ان يعيش فيه مازال بعيداً ؟..

اجل ! لقد فشل ويلسن الحكيم وانهزم . وكان مقدراً له هذا الفشل وهذه الهزيمة ، لانه قدم اوربة واخذ مكانه في مجلس الاربعة وليس في يديه سوى قلبه الكبير ، وليس له مصدر يستمد الهامه منه غير روحه السامية بينما زملاؤه الاخرون اعتمدوا على عقولهم المشبعة بالمادة ، ونفوسهم المترعة بالغرور ، ولم تكن لهم عواطف تصقل من عقولهم ، ولا لهم ارواح ترهف من حسهم وتخضد من شوكة غرورهم ، فاعتصموا بالباطل وهم كثار ولاذ هو بالحق ، وهو فرد فغلبت الكثرة القلة وازهق الباطل الحق وصرع الظلم العدل وانعكست الآية ، والله اذا اراد شيئاً هيأ اسبابه . ولو ان اميركة بقيت منكمشة في رقعتها ولم تعبر المحيط برجالها وعتادها ، ولم يضن الشعب الالماني الجوع ، وتنسد في وجهه طرق الحياة لما طار لفوش ذكر ولما ذكره ذاكر ، وانه لمن سخريات القدر ان يندحر لودندروف وهندنبرج جوعاً امام فوش الشبعان ولو ان مونتيسيكيو كان من الاحياء في يوم الهدنة

استجل سخرية القدر هذه بجانب تلك التي دحرت هانيبال العظيم امام سيبون الروماني . على انه لو كان زملاء ويلسن ينصفون انفسهم والتاريخ لاعترفوا بجميله عليهم ، وبأنهم لولاه لرفعوا الراية البيضاء علامة التسليم الكامل . ولكن انى لهم الانصاف وقد حميت انوفهم ، وانتفخت اوداجهم عجبا وزهوا ؟ وكيف يقولون بقوله ويرتأون رأيه ويعطون الامم المستضعفة حقوقها وانهم لم يسعروا الحرب إلا طمعا في هذه الحقوق وإلا رغبة في استنزاف خيرات هذه الشعوب وثرواتها . فعبثا حاول الرئيس امالتهم لجانب الحق والزامهم طريق الصواب ، فانخذلت ارادته امام اراداتهم ، وانغلبت روحه لعقولهم فكان مثله مثل الكريات البيضاء امام الكريات الحمراء في الانسان فانها انما تستطيع ان تقتلع من الحمراء قدراً معينا فاذا كثرت هذه وازدحمت في الجسد واندفعت في هجومها العنيف فلا تلبث هذه البيضاء النافعة ان تفقد قوتها وتتلاش امامها وبتلاشيها تكون نهاية الانسان قد آذنت ويومه قد انتهى وكما ان فشله وهزيمته كانتا مقدرتين في اوربة ، فان مصيره الأليم في وطنه كان يترقبه ايضا . لان الشعب الاميركي وان هو كافح في جانب الحلفاء ، واراق من دماء بنيه كثيرا ، وانفق في سبيل التسليح والتموين مالا يحصى من المال فهو شعب يقدس الحرية قبل كل شيء ، وانه ما غامر هذه المغامرة الا في سبيلها ، ولما كان حصاد هذا الكرم الانساني ظهر هشيما ولما تحقق الخيبة وواجه الحقائق المرة ، نبذ ويلسن ونبذ معه مواثيقه ومعاهداته ومات ويلسن وفي عينه دمعه وفي قلبه لوعة . وما عتمت الانسانية الا ووجدت نفسها تستعر في جحيم حرب هائلة ثانية ولما تلتئم جروح الحرب الماضية بعد .

عوامل الخيبة !

ترى ما هذه العوامل التي ادت بالرئيس الى الفشل والهزيمة وبالتالي ان تنتهي الانسانية الى هذا المصير المحزن ؟

انها عوامل كثيرة ، واسباب عديدة. ولسنا الان في سبيل وضع تاريخ لهذه الحقبة من الزمن ، لنتوغل في بحث الوقائع التاريخية ونمعن في تحليلها وانما غايتنا الاستشهاد بقليل من هذه الوقائع ما يكفي لتصوير التردي الروحي الذي رافق هذه الحضارة المادية ، والضعف النفسي الذي ما زالت الانسانية تدفع ثمنه غاليا ، والانحلال الوجداني الذي دفع بزعماء الدول الى ان يكثروا في اخطائهم ، ويعملوا مجدين في خلق المشاكل وتهيئة اسباب الحروب والدمار لدنيا عصر العشرين ، عصر الحرية والنور كما يزعمون.

اولا : ان واضعي وثيقة الصلح ، كانوا قد امعنوا في القسوة ضد الامم المغلوبة ، واثخنوا جراحاتها. فانهم قطعوا جسم الامبراطورية النمسوية قطعا ، ونثروا اشلاءها هنا وهناك ، غير معتمدين قاعدة معقولة ، ولا مستندين الى اسباب يدعمها المنطق ، وتبررها طبيعة الوضع ، وتركوا تلك الامبراطورية الضخمة ممثلة بـ(فينة) وما يصاقبها من مقاطعات ، قليل خيرها ، نزر سكانها ، ضحل موردها ، موصدة ابواب تجارتها ، فحكموا عليها بالفقر والجوع . وان اقسى سياسة تتبع ازاء الامم ، تتضاءل بجانبها قسوة الامم الغابرة ، والفاتحين السفاحين ، حين كانوا يستسيغون المجازر البشرية ، ويشرعون الرق والعبودية ، هي سياسة التفقير والتجويع ، ذلك لان الفاتح الشديد البطش كان اما انه يقتزع ارواح المغلوبين فيريحهم واما ان يسترقهم فيطعمهم ويكسيهم ويتكفل بسائر احتياجاتهم. اما سياسة التفقير والتجويع التي اتبعت في بقعة النمسة فقد كانت

تؤدي بهذا الشعب النبيل العريق الى الموت ولكن بعد ان يذوق من العذاب الواناً ومن الالام اشكالا . فكم عالم وجد فى بيته منتحراً بالجوع ، وكم جثة عثر عليها وكان سبب حتفها المسغبة، وكم ام قضت على نفسها وعلى اولادها لضيق ذات اليد ? لم يكن في وسع الحلفاء ان يحولوا دون مصير هذا الشعب الابي ، لان الوضع الذي كان قد زج فيه كان يحتم هذا المصير . فتغيير الحكومات ، وتتابع القروض ، وتوالي النجدات، كل ذلك كان عبثا فى عبث . وكان شأنه شأن من يستنبت الارض السباخ ويستولد العقيم .

واما المانيا فقد امعن الحلفاء فى جرح كبريائها ، وتفننوا فى اهانتها من جهة ، ومن جهة اخرى فقد وزعوا من اراضيها ، ما يكفي لاثارة بنيها واهاجتهم . لقد عطلوا مرافق الحيـاة فيها ، واحاطوا صناعتها وتجارتها بسياج سميك . حددوا جيشها ، وفرضوا عليها مراقبة صارمة ، استنزفوا ثروتها ، وقضوا على اقتصادياتها ، استصفوا مستعمراتها واشغلوا اراضيها وبقاعها الغنية كتأمين ،وكتعويض ،سلخوا عن جسمها دانزينغ واخضعوها لعصبة الامم ، وخرقوا بروسية الشرقية ، الالمانية الصميمة وشطروها شطرين وملكوا ما بينها الى الدولة البولونية ، التى بعثت من جديد ، لتساهم في حاكمية البلطيق . وبعد ان نكلوا بالشعب الالماني القدير بصناعته ، القوي بروحه ، العظيم بقابليته العسكرية ، الكثير بسكانه ،تركوه موحد الاجزاء متماسك الاطراف . فما هذا التناقض ?. لقد كان معقولا بعد ان اهين هذا الشعب العظيم هذه الاهانة ، وبعد ان عبث بممتلكاته وثروته وصناعته هذا العبث المريع ، ان يجهزوا عليه اجهازا كما اجهزوا على الامبراطورية النمسوية من قبل ، وتركوها في وضع لا تستطيع فيه حراكا ولا تقدر معه على النهوض، ليسلموا من خطره وليأمنوا انبعاث الحياة فيه من جديد وبكونوا بذلك قد نفذوا السياسة الماكيافيلية على وجهها الصحيح . وخصمك ان اردت مناجزته اما ان تضربه الضربة القاصمة واما ان تخفض له جناحك وتعامله

بالحسنى ذلك ادعى للسلامة ، واقرب الى الصواب . اماانك توجعه في الايذاء وتترك له مجال الاستفــاقة ليسدد اليك الضربة بعــد الافاقة فانه الخطل بعينه ، والخرق بأقبح اشكاله . است ممن يؤيدون السياسة الماكيا فيللية ، ولا ممن ينزعون منزعها وانما اؤثر السياسه العكسية ما كان اليها من سبيل ولـكني في هذه الملاحظات اريد ان اصور الخطأ الفاضح الذي وقع فيه مؤتمروا فرسايل ، وواضعوا ميثاق صلحه ، واقول اما انهم كانوا يجهزون على المانيا المقهورة اجهازا لاتقوم لها من بعده قائمة ، واما كان عليهم ان يعاملوها بالحسنى . اما وانهم قد اختــاروا الشق الاول فقد كان ابقاؤهم على وحدتها خطأ فاضحا يكمن فيه شرر الحرب ، وتغتلم فيه نذر الشر ، لأنه كان من المنتظر ان يستفيق مثل هذا الشعب الذي تجمعت فيه كل مزايا العظمة والتفوق العقلي وعناصر الحياة من تأثير الضربة التي اصابته ويطلب حقه في الحياة من جديد. وخطاؤهم في الابقاء على الوحدة الالمانية كخطائهم في توزيع اشلاء الامبراطورية النمسوية وتركهم النمسة منكمشة في رقعة صغيرة يفتك فيها الجوع والعرى ويتقاسمها الفقر ويتوزعها الذل والهوان ، وهي متصلة الحدود ببلاد الريخ ، وتربط الطرفين وشائج القربى ، وتصلهما صلة الرحم ويوحدهما الشعور بما نزل بهما من المصائب والنوائب .

ثانيا : وانهم اخطأوا في تكوينهم الدول الجديدة التي بعثوا فيها الحياة وفي تضخيم الدول الصغرى على حساب الدول المغلوبة . حيث لم يعينوا خطة مثلى يسيرون بموجبها ، ولم ينهجوا في ذلك طريقا مهيعا . لنأخذ يوغوسلافية مثلا وهي دولة كانت صغيرة وضخمها المؤتمرون على حساب الامبراطورية النمسوية المقهورة . فما هي علاقة الـكرواتيين بالصربيين ، وماعلاقة الاسلام وعددهم كثير بالاثنين ، وكيف يكون الـكرواتيون والاسلام وهم الـكثرة خاضعين للصربيين وهم القلة . وكيف تستسيغ هذه الـكثرة تعنت هذه القلة وتجبرها وتغطرسها ؟ ولنضرب مثلا بالدولة الجيكوسلوفاكية ، وهي دولة

بعثت فيها الحياة حديثا . فما هي الاسس التي استند اليها المؤتمرون في جمع هذا الخليط من الناس وحشرهم في صعيد واحد تحت عنوان « الدولة الجيكوسلوفاكية » ؟ فالسوديت وهم يتراوحون بين الثلاثة والاربعة ملايين هم المانيون والسلوفاكيون وهم اكثر من الالمان ، هم انفسهم يقولون بانهم لا يتصلون بسبب بالجيكيين وآخرون لا هم المانيون ولا هم سلوفاكيون ولا هم جيكيون زجوا بين هذا الخليط العجيب وان هؤلاء من غير الجيكيين هم اللذين يؤلفون الاكثرية الساحقة ، والجيكيون هم اللذين يكونون الاقلية ، ومع ذلك اخضعت الاكثرية الساحقة الى الاقلية وسن لهم نظام للحكم عجيب . والدولة البولونية ، المولود الجديد ، الذى اولده المؤتمرون لتكون حاجزا يقي اوربة من شرور البلشفيه انما جمعت اشتاتها من عناصر روسية والمانية ويهودية وبولونية ومع ذلك فقد شقوا الوطن الالماني ، لتتمتع هذه الدولة الناشئة بميناء على البلطيق وتملك الى ذلك ممراً كان منذ ان انشىء نذيرا بالحرب ، وبشيراً بالدمار والعذاب الاليم .

وعلى هذا القياس تستطيع ان تقس الدول الاخرى . فلم يراعوا في هذا التكوين او هذا التضخيم سبيلا يصح ان يسلكه السالكون فلا هم اتبعوا الحدود الجغرافية ، ولا هم اتقنوا سنة العنصرية ، ولا هم ركنوا الى التاريخ وما تركت احداثه في الشعوب من آثار ، ولا هم اهتموا بالمصالح المشتركة والمنافع المتقابلة انما ساروا على اشواك الحقد والبغضاء وادغال الانتقام يدفعهم في هـــذا الطريق ، غرور فاضح ، وانانية عمياء ، وطمع اهوج .

ثالثاً . انهم خبطوا في تقريرهم النظام الذي اطلقوا عليه نظام عصبة الامم . زعموا انهم بهذا النظام سوف يثبتون دعائم السلم في جميع انحاء العالم ويركزون في عرصاته رايات السعادة الشاملة ، خفاقة . جميل حقا ان يتفتق العقل الانساني عن هذا المشروع الضخم ، واجمل منه ان تشهد الانسانية تنفيذ مثل هذا المشروع . ورجال السياسة وجهابذة حقوق الدول ، من قديم الازمان الى يومنا هذا ، يتجادلون ويتناقشون ، يتفقون تارة ويختلفون

اخرى في الحقوق الدولية ، او القانون الدولي بتعبير اصح ، هل انه موجود او انه حديث خرافة . والمنكرون يحتجون بعدم وجود سلطة عليا تنفيذية لقواعد هذا القانون والمؤيدون يبرهنون على ان الرأي العام الدولي هو السلطة العليا ذات الحول والطول . وبينا هذا القانون بين النفي والاثبات ، وبين الصورة والحقيقة تتفتق الاذهان عن خلق هيئة حقيقية يودع اليها امر الفصل في قواعد القانون والحكم بأحكامه ، وايجاد مركز قانوني تشرأب اليه الاعناق وترنو اليه الابصار وتهفوا اليه الاسماع . انه لحدث خطير النفع على الانسانية شديد الاثر في تسييرها في الطريق اللاحب والسبيل القويم . ولكن هل كانت عصبة الامم حقا من هذا النوع الذي كانت تصبو اليه النفوس الحساسة والعقول السليمة ، والوجدان الذي يفيض بالعواطف الشريفة ؟ ان العصبة التي املت على الجانب المقهور شروط الصلح ، والتي سطرت ميثاق فرسايل وحبرت قرارات سن ريمو وخلقت الدول وقضت على امبراطوريات ، اقول ان هذه العصبة ليست في مقدورها ان تكون هيئة قانونية ومفزع الحضارة الانسانية واداة سلم وطمأنينة لهذا العالم المضطرب ، المتأرجح ، ذلك لأن عناصر الشر وبذور الفساد كانت منبثة في كل مادة ، من مواد ميثاق الصلح ، وكامنة في كل عبارة من عبارات مقررات الانتدابات . والسلام العالمي لا ترتكز دعائمه وتقوم اركانه على الماء الرجراج ، او الرياح السافية انما ترتكز فوق ارض صلبة الظهر وتقوم على اساس رضحت حجارته رضحا متقناً .

وكيف نرجو سلاما عاما ، واستقراراً شاملا وقليل من الشعوب يستأثر بالسلطان ويحتكر الثروة واكثر الشعوب مستضيم لهذا السلطان ، ومستخذله ، يتخلى عن ثروته مكرها ، ويتجرد عن حرياته مقهوراً ؟ قبل التفكير في انشاء مثل هذه المؤسسه القانونية كان يجب التفكير في الأسباب والوسائل المؤدية الى ازالة الخلل المشاهد في التوازن العالمي . فليس صحيحا ان يسيطر مثلا شعب لا تتجاوز نفوسه الاربعين مليونا على بلاد لا تغيب

عن اطرافها الشمس ، ويتحكم فى نفوس تقارب الخمسمائة مليون ، او ان يشدد الخناق على شعب يزيد سكانه ضعف الشعب الاول ، وهو اذا لم يكن متفوقا عليه في المزايا فانه لا يقل فيها عنه ، ويحرم من مستعمراته ، ومن موارده ، ومن انتاجه وصناعته ؟. واذا كانت الرغبة التي دفعت بالمؤتمرين الى ايجاد هذه المؤسسة احقاق الحق ، واقامة منار العدل ، فما هذا الحق الذي يدعونه في الشعوب المستضعفة وابتزاز اموالها وهدر حرياتها ، وحرمانها التمتع بالحقوق التي منحتها الطبيعة اياها واقرتها لها الشرائع ؟ فالصعاب التي كانت تقوم في سبيل هذه المؤسسة منذ يوم نشأتها كانت كفيلة بأن توردها موارد التلف ، وان تؤدي بها الى المصير الذي آلت اليه بعد تجربة قاسية . فالأقوال لا تنشيء الصروح الممردة والابراج الشاهقة ، وانما الاعمال ، التي هي نتاج النية الحسنة ، هي القديرة على هذا الانشاء . ولقد كان مقدراً ان تبؤ الانسانية بخيبة الأمل وبمرارة اليأس والقنوط من هذه المؤسسة . ومع ان النية التي تمخض عنها هذا المشروع لم تكن خالصة ، وان الأسس التي قام عليها نظام العصبة الأممية كان واهيا لا يقوى على الوقوف امام الرياح حتى اذا كانت رخاء ، فان النواقص في تشكيلاتها كانت واضحة ، والنقائص في تصرفاتها كانت لا تحتمل النقاش ، والجدل وذلك - أ - بينما كان الغرض من انشائها القضاء على المنازعات الدولية بأيسر طريق واسهل الوسائل ، واحقاق الحق واخذ القوي بحق الضعيف ، واعانة الضعيف على حقه وارشاد الامم الفتية والاخذ بيدها للوصول الى المكانة التي تستحقها ، فقد وجدناها وسيلة من وسائل القهر والاعتداء ، وسببا من الاسباب التي يتعلق بها الاقوياء للاجهاز على حياة الضعفاء ان الامثلة على ذلك كثيرة من الاسراف فى الحق ان نورد مثلا او مثلين او عشرات منها لأن كل قراراتها فيما يتعلق بالشعوب الضعيفة تقريبا تصلح لأن تكون امثلة لتأييد هذا الادعاء .

والانعداب من خلق فكرته ، ومن اوجد نظامه ؟ وما هي هذه الفكرة وما

هو هـذا النظام ؟ يعزو المستر تشرشل في كتابه « الحرب الكبرى »
فكرة الانتداب الى الجنرال سمطس رئيس حكومة اتحاد جنوبي افريقيا في
هذه الايام(١) وسواء خلق هذه الفكرة الجنرال سمطس ام الحكومة
البريطانية ، فان الانكليز كانوا قد حققوا هذه الفكرة من قبل ومارسوها
بالفعل فقد وضعت معاهدة باريس عام ١٨١٥ الجزر اليونانية التي اعترفت
بها الدول الموقعة عليها وهي بريطانية وروسيه واوستريا وبروسيا ،
كدولة حرة مستقلة تحت حكم مندوب سام بريطاني . ومنذ عام ١٨٨٢ كانت
بريطانية تهيمن على مصر بصفتها منتدبة لصيانة منافع الاوربيين فيها ولم
تعلن الحماية عليها بصورة رسمية إلا في غضون الحرب الكبرى الاولى . على
ان الفكرة بمجملها لا تعدو الفكرة الاستعمارية المقنعة والنظام بمجموعه
لا يتعدى نظام المستعمرات المزوق . قالوا ان هذا النظام لا يبيح للسلطة
المنتدبة ان تفعل ما تشاء في البلد المنتدب عليه مع ان المستعمر له هذه السلطة
على البلاد المستعمرة ، والمنتدب ليس ذا سيادة على البلاد المنتدب عليها والمستعمر
له حق السيادة على مستعمرته ، والمنتدب لا يحق له ان يستغل البلاد المنتدب
عليها لمنفعته مع ان المستعمر له ذلك في مستعمرته ولما كان المستعمر له حق
التملك والسيادة في مستعمرته وله حق التصرف فيها لمنفعته فان سلطته فيها
دائمه ولكن المنتدب بما انه ليس له كل ذلك فان سلطته على البلاد المنتدب
عليها مؤقتة . هذه فروق فقهية اشاعها واضعوا ميثاق عصبة الامم ، المنتصرون
لتبرير استيلاءهم على اراض جديدة . انها نوع من تضليلات مدنية القرن
العشرين وإلا فاية نعمة اصابت ابناء البلاد المنتدب عليها؟ . وكيف تصيبهم
نعمة ومبادىء هذه الفكرة والنظام تهدم السيادة الوطنية للبلاد المنتدب عليها
من درجة (ت) و (ج) تلك البلاد التي تدار بصورة مباشرة من قبل المنتدب

---

(١) الان مارشال سمطس وقد سقطت حكومته بخسرانه الاكثرية في البرلمان وتولى بعده ازمة الحكم الدكتور ميلون .

ولمدة غير معلومة ؟ ولنأخذ مثلا البلاد المنتدب عليها من الدرجة الاولى اي درجة (أ) والتي صادق ممثلو الدول المنتصرة باستقلالها مبدئياً فما هو حظها من السيادة القومية ؟ أين نجد السيادة القومية ؟ أفي حكومتها المحلية وهي خاضعة لارادة المنتدب أم في الدولة المنتدبة وهي لم يعترف لها بها بموجب احكام الميثاق الصريحة أم في مجلس العصبة أم في المجلس الاعلى أم في لجنة الانتدابات وهذه المؤسسات جميعها لا يجوز ان تملك مثل هذا الحق لان حق السيادة انما ينبثق من ارادة شعب البلد المنتدب عليه ، ومعلوم ان السيادة هي واحدة غير قابلة للتجزءة كما انها غير قابلة للتنازل عنها ، او نقلها وهذا مبدأ دستوري لا يقبل المناقشة فكيف يجوز لنا ان نعتبر مثل هذا النظام مشروعا ؟ وكذلك اشترطت المادة ٢٢ من الميثاق الرجوع الى ارادة شعب البلد المنتدب عليه في اختيار السلطة المنتدبة فأي بلد انتدب عليه واستؤنس برأيه وارادته في هذه النقطة الحساسة والجوهرية ؟ وأين هم ممثلو العصبة في البلاد المنتدب عليها ليشرفوا على معاملة السلطة المنتدبة لابناء البلد المنتدب عليه ، وليمدوها بالمعلومات التي من شأنها الكشف عن مدى تحقيق السلطة المنتدبة للاهداف والمباديء التي وردت في المادة المذكورة من الميثاق ؟ واين هي لجان التحقيق ، وهيآت التدقيق في الاحداث الجسام التي حدثت في البلاد المنتدب عليها ، والتي هزت انباؤها العالم هزاً (١) واية قرارات توصلت اليها لجنة الانتدابات او المجلس الأعلى او مجالس العصبة من شأنها ان تدرأ الظلم والعدوان ؟ (٢)

وهذه الاقطار العربية التي وضعت رغم ارادة اهاليها ، تحت مطرقة الانتداب هذه الاقطار التي سبق لها ان حاربت في صفوف الحلفاء المنتصرين ، ضد دولة

---

(١) راجع الباب السادس من كتاب (روح السياسات العالمية) لمؤلفه العلامة وليام ارنست هوكينغ استاذ الفلسفة في جامعة هارفارد . طبعة ١٩٣٢ .

(٢) لقد اطلت البحث في موضوع الانتدابات عند بحثي نتائج الثورة العربية الكبرى .

كانت تتصل بها باسباب الدين ، والثقافة والتاريخ الطويل المشترك ، هـذه الاقطار التي خرجت على دولتها المتبوعة ثقة منها بأنها سوف تنال حريتهـا واستقلالها على ايدي الحلفاء ، واعتماداً على العهود الخطية المقطوعة والوعود الرسمية المطبوعة بله ماجاء على السنة ساسة الحلفاء المسؤولين وقادتها المتقين من بيانات وخطب واحاديث ، ماذا افادت من عدل عصبة الامم حينما اغرقتها الدول المنتدبة عليها والتي كانت حليفة معها في الحرب بالدماء واثخنتها بالجراح ، هل رجعت شكواها في اقبية العصبة، وتردد صداها في ابهائها؟ . ان هذه الاقطار الدامية الجريحة ، لم تترك وسيلة إلا وأتخذتها لاسماع اصواتها الى من في العصبة ، ولا طريقة الا سلكتها لتظهر حقها المضاع وحريتها المغصوبة . ولكن انى للعصبة ان تسمع زفرة المظلوم وانة الجريح الشهيد، وهي لم تنشأ الالتمشية مصالح الدول الكبرى التي انشأتها ، ولم تخلق الا لتمهد طريق الموت والاستعباد المقيم للضعفاء ؟ وانه لما يدعو للهزؤ والسخرية ماقرره هذا النظام الغريب من الشروط التي يجب استيفاءها من قبل من يقدم شكواه للعصبة من الشعوب المنتدب عليها . فلأجل ان تنظر لجنة الانتداب في الشكوى ، على المشتكي ان يقدم شكواه اليها عن طريق المشكو عنه اي الدولة المنتدبة فالمسروق منه يجب ان يقدم شكواه ضد السارق ، بواسطة السارق ، والمنتهكة حرمة ملكه ان يقدم شكواه عن طريق المنتهك ، والمجروح عليه ان يلتمس جارحه ليوصل ادعاءه الى اذن الحاكم فاذا لم يكن الأمر كذلك فلاحق يحكم به، ولامرافعة تجرى ،ولا قرار يصدر . ما أضحك هذه القواعد الخادمة لاحقاق الحق وتحرير العدل ! فهذه الطريقة هي التي اختارتها العصبة في انصاف المظلومين واغاثة المستغيثين ! ..

- ب - ومن علامات ضعفها الاولية ان نظامها لم يحتم على الدول المستقلة الانخراط في سلكها فقد جعل الانتماء اليها اختياريا وهذا ما ادى بالولايات المتحدة الى ان تنفض يديها من العصبة ،والدول المغلوبة التي اصابها الحيف

ولحقها الخسران بقيت كذلك خارج العصبة حقبة طويلة من الزمن . فكأن العصبة انشأت للحلفاء الظافرين ، بل لفريق من هؤلاء الحلفاء ، لان اميركا وهي الجزء المهم من هذا الكل فقد رفض شعبها الاشتراك في هذه المهزلة السياسية الكبرى وبقي في نجوة من شرورها وآثامها . والعالم المتمدين او بالاصح المجموعة الدولية امست فريقين ، فريقا من العصبة ، وفريقا لاتجوز عليه اوامر العصبة وانظمتها . فأية قيمة بقيت لهذه المؤسسة التي كان الغرض منها ان تصبح قوة تمثل الرأى العام الدولي - ج - ولما كان الانتماء اليها اختياريا فقد انتج هذا المبدأ ان الانفصال عنها متوقف على ارادة الدولة المنتمية اليها فهي متى ما رأت ان مصلحتها تقضي عليها بالانفصال انفصلت واذا وجدت ان اطماعها لم تتحقق او وجدت ان العصبة تقف في سبيل هذه المطامع تحت عنها مولية الادبار من دون ان تخشى شيئا . وعلى هذا الاساس انفصلت اليابان عنها لتحقق مطامعها في منشورية والصين ، وايطالية في الحبشة والالمان لاعادة عظمة المانية ورد اجزائها المقتطعة منها اليها . - د - ان العقوبات التي تفرضها عصبة الامم تبدأ بالعقوبات الاقتصادية. ولئن كانت الاقتصاديات ذات تأثير فعال في حياة الامم في الوقت الحاضر ولكنها لا تكون مخيفة وحاسمة ما لم تشفع فورا بالعقوبات العسكرية . وقد وجدنا ايطاليا لا تحفل كثيرا بالعقوبات التي فرضتها العصبة عليها في حادث الحبشة وانما زادتها اصرارا على ارادتها وامعانا في سيرها ومضاء في عزيمتها . ومما زاد في ضعف هذه الآلة السياسية التي اعدت لتأمين السلام العام ، ان الدول الخارجة على مقرراتها ، تبقى صلاتها الدبلوماسية وتعاونها السياسي مع الدول التي بقيت منخرطة في سلك العصبة والادهى من ذلك ان هذه الدول بعد ماتكسب ما كانت تسعى اليه ، وتحصل على ما كانت تطمع فيه تعود هذه الدول الباقيه على ولائها للعصبة فتعترف بالوضع الراهن ، والامر الواقع كما حدث مع ايطاليا بعد ان استولت على الحبشة واليابان بعد ان اكتسحت منشوريا والالمان

بعد ان اعادت الى حظيرتها الرين والسار حتى ان مؤتمر مونيخ اقر الوضع المعلوم في جيكوسلوفاكيا . ولقد كان ميسورا للانسانية ان تنتفع بهذه المؤسسة لو ان - أ - الظافرين عاملوا الدول المقهورة معاملة تنطوي على السخاء والنية الحسنة واعادوا النظر في اصول الاستعمار وتركوا جانبا فكرة التوسع على حساب الشعوب المستضعفة - ب - ولو فرض الانتماء الى العصبة فرضا على الدول المستقلة كافة، الظافرة والمغلوبة والمحايدة - ج - ولو منع الانفصال عن العصبة واعتبر ذلك تمردا يهدد السلام العالمي ، الامر الذي يستوجب الاجراءات العسكرية الفورية ان عظمة ابراهام لنكولن لم تتجل بروحه المفطورة على حب الخير للانسانية وبدفاعه عن الرق البشري بقدر ما تجلت في صرامة عزيمته على حرب الجمهوريات التي قررت الانفصال عن الاتحاد . حيث اعتبر هذا الانفصال خروجا يستلزم الاجراءات العسكرية الفورية ، وان من انضم للاتحاد بمحض ارادته فليس في امكانه ان ينفصل عنه مختارا بعد ان امتزج الجزء بالكل ، وبهذه الحركة الجبارة استطاع ان يحفظ للاتحاد قوته وسلطانه وان يصونه من عوامل التفكك والانحلال . ولا يرد في هذا المجال بأن الشبه معدوم بين الاتحاد الاميركي ، والعصبة . ان الشبه موجود وكامل اذا كان يراد ضبط السلم العالمي ضبطا دقيقا عن طريق وجود هيئة قانونية كبرى تتركز فيها السلطة العليا التي تمثل هذا الرأي العام . - د - ولو ان العقوبات العسكرية تنفذ فورا بعد اليأس من صلاح الحالة التي اقدمت عليها الدولة الخارجة على نظام العصبة وتقطع العلاقات الدبلوماسية معها ويحرم التعاون معها .

رابعا . يجوز ان يكون سبك مواد الصلح ، واصدار تلك القرارات ضد الدول المغلوبة ، وفتل الحبال المتينة لخنق الشعوب التي كانت قد اتلعت بأجيادها صوب العدل الديمقراطي فاذا بها تطوق بتلك الحبال المفتولة المعدة

لها في طي الخفاء ، اقول يجوز ان يتم كل ذلك في وقت يسير ، بقوة السيوف والمدفع ، وتحت سلطان الطغيان والجبروت . ولكن المحافظة على الاوضاع المقررة ، واحترام ارادة الغالب من المغلوبين ، وصيانة الغنائم المحرزة والاسلاب المنتهبة كل هذه امور تقتضي السهر الدائم ، واليقظة المستمرة ، والعمل المتواصل . فالامم الموتورة لن تغفل عن الفرص تستغلها ، والمناسبات تفتهزها لتفوق سهامها وتسدد الرمية ، وتجهز على الخصم سيما اذا كان في جملة هذه الامم ، امة وآتتها اسباب الحياة ، وتوافرت لديها السجايا والمزايا ، التي تكفل لها الانبعاث من جديد . وان الظافر الذي كال لضحاياه انواع الاذى ، وصنوف العذاب ثم استرسل في لذائذه واستنام للزمن فتمادى في زهوه وكبريائه ، وظن انه انجز كل شيء ، وقضي على كل خطر ولم يبق له غير الراحة بعد العناء ، واللذة بعد الشقاء فانه كمن مكن لمرض الزهري في جسده واهمل معالجته ، فتظل جراثيم المرض تفتك فتكها الذريع وتعبث عبثها المريع ، حتى يتشقق جسده وتعمه القروح ، ولما يترآى له المصير المحزن ، يبادر الى المعالجة ، بعد ان ضاعت عليه الفرصة ، وتأخر به زمن الخلاص وكذلك كان فرسان فرسايل وابطال سن ريمو فما جف مداد صكوك العبودية التي برعوا في تحبيرها واجادوا تسطيرها الا ووجدتهم يتصاولون فيما بينهم ، ويتنافسون في النفوذ على اوربة ومن ورائها الأمم التى استعبدتها اوربة ، يمدهم الغرور بشيطانه ، وينجدهم البطر بأعوانه . فلم تعد الأرض تحتمل فرنسة الظافرة التي رأت من حقها ان تحتكر السيادة على اوربة فامعنت في النشاط واسرفت في الحركة ولم تفكر في انكلترة ، هذه الدولة التي قتلت نابليون بصبرها ، وغررت بامير كة بمكرها ، وانزلت غليوم من سماء عليائه ببراعة تدبيرها ، وهدوء اعصابها ، ولم تقدر ما لهذه الامبراطورية الضخمة من مصالح شديدة الاثر في حياتها وكيانها في القارة التي تطمع ان نفرض سيادتها عليها وان تحتكرها احتكاراً وكيف تصبر هذه الامبراطورية

ان ترى اصابع فرنسة تمتد بقوة الى مواطن حساسة وهي لم تكتف بالعبث الخفيف بل تريد ان تحتكر العبث لنفسها بأوسع آفاقه وابعد آماده وما تعودت بريطانية ان ترى منافسا لها فتصبر عليه ، ومزاحما لها فتهادنه . وفي اللحظة التي انساقت فيها فرنسة سوقا الى غايتها هذه بدأ صراع بريطانية الخفي، ونضالها المستتر لتحد من غرور حليفتها ولتخضد من شوكة خيلائها . وكان طبيعيا لها ان تتهاون في مراقبة عدوة فرنسة اللدودة وان تغض الطرف عن كثير من علائم نشاطها وبوادر حيويتها بل انها رعت الحركة الوطنية التي قادها هتلر واعوانه وشجعت على نموها وعملت في سهيل ازدهارها . ولم يلبث النضال الخفي ، ان ارتدى رداء العلانية وكلما زاد احتدامها ضعفت قوة الحليفتين ، وازداد الخصم قوة. وقد ظهر التخاذل جليا واضحا عندما اجتاحت ايطاليا الحبشة فوقفت فرنسة موقفها المعلوم ، ووقفت ، بريطانيا موقفها المعروف، وقد سبق لايطاليا ان اعلنت في مناسبات عدة غضبها على ما اصابها من حيف وخذلان حينما اقتسم الظافرون الغنائم وكانت هي من جملة الظافرين . ومما زاد في ضعف الحلفاء المتناكرين، والمتفقين المتناحرين، التنافس البحري بين اليابان من جهة وبريطانية واميركة من جهة أخرى . وهذه الدول المتناكرة المتناحرة ، هي التي أملت شروط الصلح ، وهي التي ابرمت القرارات الخطيرة في سن ريمو، وهي التي قضت على امبراطوريات ، وبعثت للوجود امما فتية ، ودولا ناشئة وبقول وجيز هي الدول الظافرة التي عبثت بالدول المغلوبة ذلك العبث المقيت . فكيف تطلب من المانية ان تقبع في رقعتها وتلزم حدود النطاق الحديدي الذي ضربه عليها الظافرون ؟ ولم تفق هذه الدول من سكرتها ، وتصحوا من سباتها إلا بعد ان انذرتهم المانية الجديدة برد الحق المغصوب والكرامة المسلوبة والحريه المنقوصة . ولله در الشاعر العربي حيث قال :

ومن رعى غنما في ارض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الاسد

خامسا : وارادت بريطانية زعيمة الدول المتحالفة ان تلهي العالم عن هذا النضال المستتر بينها وبين حليفتها ، بفكرة نزع السلاح . وهي في حد ذاتها فكرة جميلة ، وفاتنة في جمالها ولكن الفكرة تكون مجرد قول اذا لم تقترن بالعمل . والعمل اذا لم يكن وليد النيه الحسنة والسريرة الصافية ، فانه لا خير فيه بل قد يكون ضرره كبيراً وشره مستطيراً . والذي يتفتق ذهنه عن هذه الفكرة الجميلة الخلابة ، ويبتدع خياله مثل هذا المشروع الانساني الرائع ، انما هو ذاك الذي طبع على العدل ، وفطر على حب الانصاف واختلجت في نفسه المرؤة ونبض فيه عرق السماحة والكرم . والذى ان قال صدق ، وان وعد وفي وان أغضب حلم ، وان قدر عف . اما الذي جبل على المكر والخداع ، وتملكه الهوى وازدهاه الغرور ، وان قال مان وان وعد اخلف ، وان اغضب قدحت عيناه بالشرر ، وان ظفر بطش وانتقم وسبي وظلم فليس مجديا له نفعا ظهوره بمظهر الحمل الوديع ، أو الناسك المتبتل ، والناس لهم عقول تدرك ، وعيون تبصر وقلوب تشعر . ولئن تفاوضت الأمم والشعوب بشأن هذه الفكرة ، وتباحثت أمر هذه النزعة الانسانية في العلن والشيطانية في الباطن فان نهاية هذه المفاوضات والمباحثات كانت معلومة منذ ان بعثت الفكرة الى الوجود وبرزت النزعة الى العالم . لأن بريطانية كانت تطمع في ان يكون لها من نسبة التسلح نصيب الأسد فاذا لم يكن هذا النصيب لها وحدها فلا أقل ان يكون لها ولحلفائها الظافرين وبذلت في هذا السبيل جهوداً جبارة ولكنها لما صدمها الممثل السوفياتي في عصبة الأمم بالحقيقة المرة ، وطلب ان يكون تنفيذ هذه الفكرة تنفيذاً حقيقيا لا صورة وخيالا بحيث يمنع الأعتداء ويؤمن الشعوب المستضعفة على حياتها وكيانها ، جفلت بريطانية ومن ورائها حليفاتها ، واختفت هذه الفكرة من عالم الوجود بأسرع من لمح البصر ، ذلك لأن النية كانت غير خالصة والوجدان الذي كان قد اوحى بها لم يكن نقيا طاهراً .

والنواميس والتشريعات التي تشرع لا يكتب لها البقاء، ولا تنعم بالحياة إلا اذا كانت ملائمة لطبيعة الأشياء التي وضعت لها ، وان فكرة نزع السلاح تفيد الحيلولة دون الاعتداءآت التى تقع من الأمم بعضها على بعض أو بتعبير اصح التي تقع من الأمم القوية ضد الامم الضعيفة فاذا كان هـذا الاعتداء واقعا بالفعل ، ولم تكن هناك ثم بوادر تشير الى انصراف النية عن الحد من هذا الاعتداء أو الكف عنه فكيف يكتب لهذه الفكرة النجاح والفوز ؟ ان الأمم التى جرحت في كبريائها ، ومنيت بافدح النكبات فى ثرواتها واراضيها، وتجزأت اجزاء وتقسمت اقساما كيف يتصور العقل السليم انها سوف تلتزم الصمت الى ابد الآبدين وانها لم تثأر لنفسها فى أول سانحة تسنح ، وفي أول مناسبة تقع ؟ ثم كيف يمكن تنفيذ هذه الفكرة من قبل الحلفاء أنفسهم وهم يطمحون الى ان يبقوا الوضع الذي قرروه فى مواثيقهم ومعاهداتهم ، ومقرراتهم مصونا من العبث ، بعيداً عن عوامل الفساد ؟ بل كيف يمكن الأخذ بهذه الفكرة وهم أنفسهم يسيطرون على رقاع كثيرة من الارض ، وأمم عديدة يستنزفون دماءها ، ويخطفون خيراتها ، ويستذلونها ويستخذونها وهـذه الشعوب، والامم، متذمرة متبرمة ، تتحين الفرص ، وتتلمس مواطن الضعف ، وترتقب الاحوال والظروف لتقضي على من حرمها الحياة ،وسامها الذل، ولأجل ضبط هـذه الأمم المستعبدة وتلك التى استعبدت أو أهينت بعد الحرب الكبرى ،تفتقر الأمم الظافرة والمسيطرة، الى قوة من السلاح والعتاد لا تحد بحد ولا تقدر بقدر وهـذه حالة تخالف على خط مستقيم ما ترمى اليه فكرة نزع السلاح ؟ انما هذه الفكرة يجوز تحقيقها اذا شمل الامم العدل والانصاف وتحكمت فى مصائرها المرؤة والسماحة او على الاقل اذا اتجهت النية الى هذا الاتجاه . وفي خلاف ذلك يكون مثل الذي ينزع الى تحقيق هذه الفكرة ، كمثل الذي يلقي نفسه بين السباع المفترسة والضواري الكاسرة وهو خال من وسائل الدفاع واسباب النجاة ،هذا اذا كان جاداً في

رأيه ، غير مخاتل في طبعه . وإلا فاما ان تحمل محاولته الى العبث والمجون ، او الى التلهية واضاعة الوقت ـ والحق : فأن هذه الجهود التي بذلت في سبيل هذه الفكرة قد انتهت الى ما تستحق من الجمود والركود لان العالم المتمدين قد اعتقد اعتقاداً راسخا بان الجهة التى نشأت عنها هذه الفكرة كانت ترمى الى التسلية واضاعة الوقت واشغال الاراء والافكار ، اكثر مما كانت ترمى الى خير الانسانية وتحقيق سعادة حقه يستظل العالم ظلالها الوارف . ولكن الله العادل المنتقم قد انتصف المظلومين من الظالمين والمغلوبين من الغالبين . فبينما كان الامل ان تلهى هذه الفكرة الامم المغلوبة على امرها عن نفسها فاذا هي بالعكس من ذلك تلهي الامم الغالبة واما الامم المغلوبة فلم تعرها آذانا صاغية بل انها ظلت دائبة في تنمية اسباب قوتها ، وتهيئة وسائل كفاحها القادم فما حل الاجل الموعود إلا ووجد الحلفاء انفسهم امام براكين ثائره ورياح عاتية . وكذلك كانت المحاولات التي بذلت في سبيل هذه الفكرة سببا في اضعاف الحلفاء يضاف الى اسباب الضعف الاخرى التي سبق بيانها .

سادسا : ان الاغراق في النعيم ، والامعان في الثراء والاخذ باسباب الترف باندفاع جنونى وحماسة ملتهبة كل هذه عوامل فعالة في انحلال اخلاق الامم ، واضعاف وجدانها وايهان روحها ، سيما اذا صاحبها ظفر لامع اهاب بالظافرين الى ان يشمخوا بانوفهم ويشمسوا بغرورهم وزهوهم ، ولم تكن في الامم قوة روحية كامنة تحد من هذا الزهو وذلك الغرور . والاعراض الاجتماعية ، وآثارها والامراض النفسية او قل الخلقية ونتائجها هي واحدة في الامم ، تستوى فيها القديمة والحديثة ، وتتساوى المدبرة منها والمقبلة . وارتقاء الحضارة ، ونضوج المدنية ليسا كافيين لدفع الكوارث عن الامم المريضه فى اخلاقها ، وللوقوف في وجه الامراض الاجتماعيه ، اذا تأصلت جذورها ، وثبتت اصولها ، ذلك لأن نشاط الامم وحيويتها مرتبطان بروحيتها واخلاقها اكثر من ارتباطها بحضارتها ومدنيتها ، او قل بعلومها وصناعاتها

ولست اقصد بقولي هــذا الى الاستهانة بمكانة العلوم والصناعة ولا بأثر الحضارة والمدنية في حياة الامم . فالامة الفاضلة (واعنى بها ذات الاخلاق الفاضلة) والعالمة خير من الامة الفاضلة فحسب، هذا امر مفروغ منه ولكن الامة الفاضلة قد تستبقي حيويتها امام الامة العالمة المتفسخة الاخلاق، وقد تصمد في وجهها صمودا يعجزها عن الظفر بها اما هــذه الامة المتفسخة الاخلاق فقد تنطفىء شعلة حياتها لأقل عارض ،ولأول صدمة وان كانت في الثقافة مبرزة .

ليس من شك في ان اليونانيين في عهد ارسطاطاليس ، وديموستيفس كانوا ارقى فكرا وانضج مدنية مما كان عليه أجدادهم ايام ليكورغوس وسولون ، ولكن شرائع ليكورغوس الرياضية ، وسولون المدنية العادلة كانت قد خلقت منهم قوما اقوياء الاجسام ، اقوياء الاخلاق اقوياء الروح فكانت بهذه حياتهم الحافلة بالانتصارات ، الملأى بالمفاخر ولكن لما بدت اعراض المرض ، ثم تأصلت فيهم لم يستطع ارسطو ، ولا ديموستيفس ولا حضارتها ان تحول دون المصير الاليم. وكذلك عظمة الرومانيين فقد كانت تسير الى نهايتها ايام كانت المدنية الرومانية تسمو الى اسمى درجات الكمال ومن ينكر ان روما الشرقية كانت في عهد جوستينيان مثلا اغزر مادة ، وانضج عقلا واسمى ثقافة مما كانت عليه روما الأم ايام رومولوس ، ونوما ، ومانيللوس بينما الاخيرة كانت قد سارت في طريق الحياة ايام هؤلاء ، والاولى كانت تسير في طريق الموت ، ايام هذا الامبراطور الذي وحد الشرائع ورتب الموسوعات الفقهية المعتبرة؟ وما كانت مدنية العرب حينما اندفعوا ذلك الاندفاع المعجز ؟ ولكنهم اضاعوا حرياتهم ، وتخلوا عن سيادتهم ايام كانوا من حضارتهم في الذروة ، ومن نضوجهم العقلي في الغاية !! .

وهذه فرنسة اليوم التى استسلمت ولم يمر على التحامها بالقوات الالمانية اكثر من اسبوعين كاملين فهل يستطيع ان يغمز مدنيتها غامز ، ويطعن في

ثقافتهـا طاعن ؟. ولـكن ما هي اسباب اندحارها ثم استسلامها ؟ انها الاخلاق !!.

لقد كان رجال الحكم يسيرون امور الدولة ، وقلوبهم متوزعة بين رشف ثغور الخليلات والعشيقات وبين حفلات اللهو والرقص، وعقولهم منصرفة الى اكتناز المال ، والحصول عليه من اي سبيل، كان، ففي كل لحظة فضيحة وفي كل يوم مأساة، وارباب الصناعة ورجال العمل لا يفكرون الا في انفسهم ومتعهم ورجال الجيش متهاونون والعمال يضيعون اوقاتهم في الاضراب وفي التدمير ، ويخلقون الف سبب وسبب ليضعوا العراقيل في سبيل انتاج ما تحتاجه قواتهم المسلحة ، وامنهم من المواد المطلوبة كل هذه وغيرها من الحالات الموجعة كانت تعتور حياة الامة لأن النفوس كان قد ابطرها الترف والهاها النعيم وانساها واجبها الثراء ، وحبب لها الحياة غارقة في لذائذها واجفلها من الموت فى سبيل المجد ، التفسخ الاخلاقي المريع الذي منيت به ولم يكن بيتان مسرفاً حين نعى على فرنسة المندحرة انغماسها في اللذائذ ونسيانها الواجب ، وتهاونها في المقومات الروحية وتلمسها السبل التى هدت الى الفوضى في الاخلاق . وان بريطانية وان ظلت محتفظة من اخلاقها وتقاليدها بنصيب وافر ولـكنها ايضا اصيبت برجة عظيمة من الناحية الروحية . فقلما تجد بين رجالها من يماثل مشاهيرها فى القرن التاسع عشر فالمستر اسكويث لن يكن وليام بيت . ولويد جورج لن يكن غلادستون ولا بلدوين كاللوردسا اسبوري حتى ولا تشرشل وهو اصلب رجل عرفه هذا العصر في بريطانية كدزرائيللي . ان انتصار الحرب الماضية قد اسكر الحلفاء جميعهم وان تفاوتت القابليات بحمل هذا السكر بالنسبة لبعضهم البعض ، فالروح القوية التي كانت تعتز بها بريطانية قبل هذا القرن لم تحافظ عليها بعد ظفرها اللامع في الحرب الـكونية الماضية . والانتصارات بقدر ما تفيد المنتصرين فانها تغرس في تربتهم بذور الضعف والانحلال وقد يتأخر نمو هذه البذور

او يتقدم بالنسبة الى الموانع الكامنة في عناصر المنتصرين . وكل امة ذاقت حلاوة الانتصار عادت فذاقت ولو بعد حين مرارته، ذلك كان شأن الامم الخوالي وهذا هو شأن الأمم الحاضرة وكذلك سوف يكون شأنها في المستقبل ان لم تنقذ الروح من ماديتها ، وتخلص من ادران الانانية وشوائب الطمع ونوازع الغرور . فبوسعنا اذن ان نقول ان الفوضى الاخلاقية كانت من الاسباب المباشرة لاستعار نار هذه الحرب الماحقة نتيجة للانتصار اولا وثانيا لانها قعدت بالشعوب الظافرة عن اتخاذ اسباب الوقاية .

سابعاً : ولئن قلت ان رجال الدولة في بريطانية اليوم لا يسامون رجالها في القرن المنصرم فلا اعني بذلك انهم اقل علما واضحل ثقافة من سابقيهم . فقد يكونون اكثر علماً ، واوسع ثقافة ، واعمق تفكيراً منهم - والمفروض فيهم ان يكونوا كذلك نظراً للتقدم العلمي ، وتيسر اسباب تلقي العلوم والفنون اكثر من ذي قبل - ولكنهم على كل حال لن يكونوا مثلهم في متانة الاخلاق ، وقوة الارادة ، ورحابة الصدر . وفرنسة وان كانت اعرق انحداراً في الروحيات واقدم عهداً في الفوضى الاخلاقية ولكنها في هذا العصر قد بزت ما كانت عليه فرنسة في القرن الماضي ، ورجالها اليوم قد كسبوا الرهان في هذه الميادين وفازوا على آبائهم فوزاً مبيناً . ومهما قيل في فرنسه ابنة القرن التاسع عشر ، فانها كانت قد انجبت تييرس وغامبتا ودلكاسية وكلمنصو وهؤلاء وغيرهم من معاصريهم وان مارسوا شؤون فرنسة وهي مندحرة وذاقوا آلام هزيمتها الفجيعة في واقعة سيدان ، فانهم بذلوا جهوداً محمودة في سبيل انهاض وطنهم من قرارة الذل التي صار اليها ، ولم يكونوا يفكرون حين يزاولون واجباتهم ، على الاقل ، في خليلات وعشيقات او يشركونهن في مهام الدولة ومشا كلها كما فعل رينو وديلادية واضرابهما من رجال هذا العهد . ومن هذه النقطة نستطيع ان ندرك سر الاخطاء التي المحنا اليها فيما سبق والاخطاء الاخرى

الاشـد خطورة والابعـد اثرا من هانيك التي ارتكبتها فرنسة ورفيقاتها بعد ان تحدتهم المانيا المقهورة المستسلمة فى الحرب الماضية ، يشد ازرها كل من اليابان وايطاليا الدولتين الضخمتين لان المثل الروحية والقواعد الاخلاقية والشعور بالفناء في دنيا الواجب ، والتضحية في سـبيل المعتقد لم تكن معنيا بها بقدر عناية المسـؤولين باللذائذ الجسدية ، والاطماع المادية . اجل !. لقد كان في وسع الحلفاء ـ لو احسنوا التصرف واحكموا التدبير ـ ان ينقذوا البشرية مما تعاني اليوم من ارزاء مزعجة واسقام مضنية وخطوب فوادح ، وان اصبح فى مقـدور المانية ان تقف على قدميها وان تنفض عنها الغبار السميك الذي اذرته عليها رياح فرسايل . ولـكن انى لهم ذلك والانحـلال كان ممعنا في الروح والفساد متغلغلا فى الاخـلاق والداء متمكنا في الضمائر والوجدانات ؟ .

انهم اعترفوا بوضع ايطاليا في الحبشة بعد ان جرحوا عزتها واثاروا حفيظتها ،وانهم ابقوا صلاتهم الدبلوماسية مع اليابان بعـد حادثة منشورية واجتياح الصين ، ومع المانيا بعد ان استردت بقوتها الراين والسار، وقد استمرت هذه العلاقات مع هذه الدول المتحفزة حتى بعد خذلها عصبة الامم وخروجها من حظيرتها . ولما حسم هتلر قضية السوديت في مؤتمر مونيخ ، تجاهل الحلفاء صلة روسية بهذا الموضوع فأضافوا بذلك الى عـدد المناوئين رقما آخر هو اخطر الارقام . وكان من مصلحة المحور هذا التجاهل ليضعف الجبهة المخاصمة ولـكنه لم يكن في وجه من الوجوه في مصلحة الحلفاء . ولم تقف المانيـا الناشطة عند حد استصفاء السوديت واسـتخلاصهم وانما مزقت الجمهورية الجيـكوسلوفاكية واقامت على انقاضها حكومات من العناصر التى كانت تشتمل عليها تلك الجمهورية الـكسيحة ،بعد ان مالت شطر النمسا فانقذتها من بؤسها وضمتها الى الوطن الام وكان الشوق الى هذا الضم متبادلا وكان امنية وطنية لـكل من الدولة الضامة والدولة المضمومة ولقـد كان المفروض

ان هذه الاحداث الجسام التي حدثت والتي من شأنها ان تهدد كيان الحلفاء ، ان تعيدهم الى الصواب وترجع اليهم الرشد فيتخذوا من الاسباب ما يدرأون به الكارثة التي تنتظر العالم المتمدين ولكنهم بدل ان يقوموا بذلك اخذوا يخبطون خبط عشواء ، ويحطبون في ليل حالك الأهاب ، كأن الانتصارات السلمية التي كسبتها النازية قد اربكتهم واطاشت منهم الاحلام فلم يعودوا يفقهون ما هم صانعون . انهم تعهدوا بسلامة بولونية وبعد ان سجلوا عليهم هذا العهد اخذوا في مفاوضة روسية ، فكان موقفهم في هذا التفاوض غريبا عجيبا فاوضوا بعقلية انهم اصحاب المنة عليها . ارادوا منها كل شيء ولكنهم لم يعطوها شيئا . طلبوا ان تكون معهم ، وان تتحمل اوزارهم وآثامهم وان تضع مستقبلها في كف القدر ، وشددوا عليها بأن تسرع الى انجاد بولونية ، ولكن على شرط ان لا تدخل اراضيها ولا ان تمر جيوشها فوق تربتها .

اسروا الى بولونية ان تعارض وأيدوا هم وجاهة هذه المعارضة فما معنى هذه الخبط ! وبينا كانت الدسائس تفتل حبالها ، والقوم مترددين بين الاقدام والاحجام ، اعلن الاتفاق الروسي - الالماني على حين غرة فهز كيان الحلفاء هزاً عنيفا ، بل هده هداً ، وباء ممثلوهم في المفاوضة ، يتلمضون بمرارة الخيبة ويرتمضون بنار الفشل . وبعد ان تطورت الحالة الى هذا الوضع الدقيق بالنسبة للحلفاء ، كان الواجب يقضي عليهم ان ينصحوا بولونية في التساهل مع المانية سيما ان الاخيرة كانت تضع في ذلك الوقت بين يدي ممثلي الدولة البولونية حلولا فيها شيء كثير من البذل والسخاء غير انهم بدل ان ينصحوا في التساهل اشاروا بالتشدد والتزام جانب التصلب . فقدحت الشرارة ، وانفلقت القنبلة ودوى صوت المدفع وتخضبت الانسانية بالدماء !

فالحلفاء تعهدوا بسلامة بولونية قبل ان يتفقوا مع روسية . فعلى اي شيء كانوا يعتمدون ؟ كيف يمكنهم ان يتصلوا ببولونية اذا استعصر ختهم

واستنجدت بهم وهي محاطة اما بروسية واما بالمانية وحليفات المانية ؟ أو لم يكن لويد جورج مصيبا بتهكمه اللاذع ودعابته الساخرة حينما صرخ في وجه جامبرلين قائلا : كان عليك قبل ان تعطي هذا العهد لبولونية ان تقتنى الاطلس (مجموعة الخرائط) الذي يقتنيه طلاب المدارس ! وفي الحق لو ان حكومة جامبرلين نظرت في الاطلس لما اقدمت على هذا الامر قبل ان تحقق الاتفاق مع روسية . اما وقد انقطع الامل من هذا الاتفاق فقد كان لزاما على بولونية ان ترضي بالامر الواقع فتتساهل . لأن في تشددها تكمن شرارة الحرب . فلو ان التساهل كان واقعا لما وقعت الحرب ، او لو كان الاتفـاق بين الحلفاء وروسية حاصلا لما وقعت الحرب ولتجنبت البشرية الويل والثبور .

ومن سوء حظ الحلفاء ونكد طالعهم انهم كانوا ضعفاء في القوة وضعفاء في الحجة ، وخصومهم على النقيض من ذلك فقد كانوا أقوياء في الاثنتين ، اقوياء في السلاح والعتاد لانهم كانوا يقظين ولأن عار الاستسلام والخضوع كان يقض مضاجعهم ، ويحز في نفوسهم ومن كانت هذه حاله كيف يطرق جفنه النوم ؟ وكانوا اقوياء في الحجة لأن الدانزيغ المانية ولأن الممر الذي تتحكم فيه بولونية الماني ، فضلا عن ضرره ببروسية الشرقية حيث يشطرها شطرين ويفرق ما بينهما . نعم ! ان اغتصابها كان وليد تغلب القوة على الحق ولكن بما ان القوة قد عادت الى الحق ، فللحق ان يسترد عزته وكرامته فان لم يكن هذا الاسترداد يقع بالمفاوضة وقع بحد الاسنة وبشفار المرهفات ! . ولقد كان هتلر في كتابه الذي كان قد انفذه الى دلادييه في اواخر اغسطس ٩٣٩ قوي البيان رائع البرهان . لقد اتيح لي ان اقرأ كثيرا من الوثائق السياسية ، والمذكرات الدبلوماسية وكان في كثير منهـا بيان ساحر وبلاغة فاتنة ومنطق دقاق . غير اني لم أر وثيقة سياسية تفيض سحرا وجلالا وتتدفق حقا وصوابا كهذه الوثيقة التاريخية . لست المانيا حتى تدفعني العزة القومية الى هذا الاعجاب الذي لا يحد بحدود ولا ينتهي الى نهاية ولست ممن انتشى

بحميا النازية او انصل بأقطابها او استمع الى دعاتهـا حتى اكون ماخوذا بمفاتن هـذا السحر الحلال ، ومسحورا بنور هذا الجلال اذن فلماذا اثرت في عبارات هذا الكتاب هذا التأثير العميق ! ألكونها اعربت عن لوعة ذى حق هظيم ، وحرية سليبة ورددت أنات وطن جزأته القوة ، وحطمه الطغيان ، ام لأن فيها دمدمة الضعيف الذي استقوى ، والجريح الذي التأمت جراحه فجاء ينذر واقبل يثأر ؟! وسواء لدي أكانت الاولى ام الثانية هي التي استغرقت جوانب نفسي فقد وجدت نفسي ووطني وابناء وطني ذوى صلة بمنطق هذه العبارات وبالغـاية التى رمت اليها . لذلك خفق لها قلبي ، وهفا اليها سمعي ، ورنى صوبها بصري واحتواها وجداني ، كما يحتوي وجدان العاشق ذكرى معشوقه وتمثلها ضميري كما يتمثل ضمير المتيم صورة محبوبه !

ولعمري ! لا ا ري ما هي حجة بولونية في حقها بشطرها بروسـية الالمانية شطرين ونفوذها من بينهما الى البلطق فهل انها لأجل ان تصل الى البحر ترى من حقها اغتصاب اراضي الغير ؟

ان هذا المنطق ، تزعمه بريطانية . فهي قد اسـتولت على اكثر بقاع المعمورة بحجة انها واقعة على طريق الهند . فقـد انشبت اظفارهـا فى مصر وسويسها واسـتبدت بالبـلاد العربيـة وتحـكمت بباب منـدبها كل ذلك لأنهـا واقعة على طريق الهند . والهند ما هو حق بريطانيا فيها ؟ الهند هذه الـتى هي سبب كل هذه الكوارث والمحن على هذه الاقطار الفسيحة الارجاء الوسيعة الآفاق ! الهند سوداء وهي بيضاء والهند اما بوذية او مسلمة وهي مسيحية ، الهند اسيوية وهي اوروبية فما هو نوع الحق الذي تدعيه في الهند غير القوة ؟ وهل القوة تنتج حقا وتتمخض عن عدل ؟! فلنسلم بحقها هذا لانها قوية ولـكن كيف تسلم المـانية القوية المتماسكة المثقفة المدربة بحق بولونية في هذه الارض الالمانية وترضخ لضغطها وبولونية لا تعد شيئا مذكورا اذا ازت واياها فى ميدان واحد ؟! فبولونية في

موقفها كانت كموقف الباغي الاثيم ليس فقط بالنظر الى قواعد العدل ، ومبادىء الحق والانصاف بل بالنسبة الى القواعد الظالمة التي يتمسك بها الاقوياء ضد الضعفاء ايضا ! وبالرغم من بغيها وعدوانها فأن هتلر لم يكن يمانع في استفادتها من الممر وانما سمح لها ان تستفيد منه بقدر ما تحتمه الضرورة وتقتضيه منفعتها لا اقل ولا اكثر ولكنها صمت اذنيها واغمضت عينيها فكيف بعد كل ذلك لا تقع الواقعة ولا تنشب الحرب ؟

ومما يحزن النفوس الحرة ، ويدمى القلوب الكبيرة ان تغرق البشرية في الدماء لأسباب كان في مقدور العقل البشرى ان يتغلب عليها والحرب في حد ذاتها نذير الدمار والخراب ، والعقول السليمة تتهيبها وتتجافاها اذا كانت دوافعها مشروعة ، وغاياتها شريفة فكيف بها اذا كانت دوافعها النزق والطيش ، والغرور وغاياتها الظلم والاستيلاء على الغير ؟ شكت الدول الصريعة آلامها واستدرت العطف كرارا ، واستمطرت الرحمة مرارا ولكن نفوس الغالبين كانت هواء ، وقلوبهم كانت اجدب من الصحراء ، ولما أطمأنت الى ان لا حق مع ضعف ، ولا عدل مع خور ، تدججت بالسلاح ، وتدرعت بالقوة وتأهبت للكفاح ورجت من قوتها حقا ، ومن سلاحها عدلا ، فخاطبت الدول الغاصبة بالقول الكريم ، والمنطق القويم وطالبتهم بالحق والانصاف فلم يجد قولها نفعا ولم يفد منطقها شيئا ، فماذا ينتظر من مظلوم توافرت له اسباب القوة ، وضعيف استوثق من النصر ، ولاحت في افاقه تباشير النجاة ! فهل يقعد ملوما مدحورا أو يزجي الجيوش ، ويدفع بوسائل التدمير والهلاك لينقذ نفسه ويدرأ الاخطار عن كيانه !

اذا لم يكن غير الاسنة مركبا
فما حيلة المضطر الا ركوبها

الحق والعدل !

يقول الحلفاء ان المانية كانت معتزمة الحرب ، ومهما اعطيت فلا يمنع هذا العطاء الكارثة ، ولا يرجعها عما اعتزمته. وقديكون هذا القول مقبولا ، لو انهم اعطوا المانية ما كان حقا لها ، فاذا ما استنفدت حقها ، وحصلت عليه كاملا ثم طمعت في اكثر منه وطمحت الى ما وراء حدوده ، فعندئذ يخوضون معها غمار الحرب . أما وانهم اعلنوها الحرب ، وهي ما زالت تطلب حقها ، وتلتمس رد ما اقتطع من وطنها اليه ، فليس في وسع من له ذرة من الانصاف ، وفيه مسكة من العقل ، ان يقبل بهذا الادعاء ، وان يستسيغ هذا الهراء . ان سبب اجتياح الحدود البولونية ، هو تعنتها في التسليم بحق المانية في الدانزيغ والممر ، فهل هذان جزء من الوطن البولوني فارادت المانية اغتصابه منها بالقوة أم ماذا ؟ وهل تريد الديمقراطيات ان تضع قواعد جديدة للحق ، وتعاريف طريفة للعدل فتعتبر من طالب بجزء مغتصب من وطنه خارجا على الحق ، ومن التمس اعادة الحق الى نصابه مناوئا لمبادىء العدل ؟.. وعدا ذلك فهناك قضية المستعمرات التي سلبت من المانية وهى ضعيفة مدحورة ، فهل ترى الديمقراطيات من حقها ان تنفرد بها وان تحرم منها المانية ذات النفوس الكثيرة المحصورة في رقعة ضيقة من الأرض ؟ لماذا يحرم على المانية ما يحل للديمقراطيات ، وتمنع من مستعمرات قليلة بينما هذه الديمقراطيات جعلت ما يقارب ثلاثة ارباع المعمورة مستعمرات لها ؟ اني لا أؤيد حق امة في استعمارها أمة أخرى ولا أقر بهذا المبدأ ولا اؤمن بمنطقه وانما اقول اذا اباحت

الديمقراطيات الاستعمار ورأته حقا وصوابا ، فلماذا يحرم النزر القليل على غيرها ، ويحل لها الشيء الكثير منه ؟ اي حق وعدل هذين ؟! .

الحق والعدل ! آه ! . من هاتين الكلمتين الساحرتين البشعتين ، الحبيبتين البغيضتين ، المبهمتين الواضحتين ، المظلمتين المشرقتين ، القويتين الضعيفتين ما اكثر ضحاياهما وصرعاهما ، وما أفتك سهامهما وانفذها في المقاتل ؟! فكم حر ضمته بين صخورها المقابر ، وكم عالم عامل احتوته ظلمات السجون ، وعظيم فاضل اشتملت عليه اطباق المعاقل ؟ كم تاج هوى وعرش تزلزل . وكم امة عفت آثارها ، واندرست معالمها وأخرى تحتضر تنتظر يومها ، وتترقب ساعتها ، يقطع أنفاسها انين موجع ، ويذيب وجدانها حزن دفين ؟ وكم وطن محروب ، انتهكت حرماته وتلوثت عرصاته ، واغتصبت خيراته وتحكمت النزوات في مقدراته ونزلت بالانسانية افدح النوازل باسم هاتين الكلمتين العذبتين المرتين ؟

ايتها الكلمتان الجميلتان المخيفتان ! ما اعجز النفوس الكريمة عن استكناه كنهكما وسبر غوركما والنفوذ الى سركما ؟ . انكما في رقتكما تحاكيان وحيا سماويا يهبط على قلب شاعر وفي نضارتكما تنافسان روضا اريضا اصابه سحاب ماطر ، ولكنكما مع ذلك ارهب من سكون الليل المدلهم واصخب من امواج البحر الخضم واوحش من الفلاة ، واشد رعبا من اجواف الكهوف !..

ترى ماذا افادت الانسانية من عبث العقل بمعاني هاتين الكلمتين وتفسيرهما في مختلف التفاسير غير الدماء والعرى والجوع ، والوباء والهزال والدموع ؟

العدل هو فضيلة للنفس يختار بها صاحبها الانصاف من نفسه على نفسه اولا ، ثم الانصاف والانتصاف من غيره . والحق عبارة عن فائدة مادية او ادبية يحافظ عليها القانون بواسطة منح صاحبها قوة يعمل بها الاعمال اللازمة للتمتع بهذه الفائدة . هذا ما قاله اهل العلم بصددها وما اختاروه لها من معان .

والعدل والحق لا يختلف معناها ، ولا يتباين تفسيرهما بالنسبة للفرد او بالنسبة للفرد والجماعة (الدولة) او بالنظر للجماعات (الدول) بعضها البعض . فالحقوق المعروفة يجب احترامها، والواجبات المفروضة من اللازم تأديتها . ولو كانت النفوس خالصة مما يشوبها من شوائب آثارها ملموسة ومعالمها محسوسة، لسارت الانسانية على ضوء هذه المعاني الواضحة والتعاريف البينة ، هادئة مطمئنة، ولكنها اهملت وتركت فحصدت الانسانية وما زالت تحصد مرارة الترك وعلقم الاهمال ولا اريد ان امعن في التشاؤم واسرف في انكار وجود العدل والحق، فتأريخ الانسانية يضم بين دفتيه مثلا حية وصورا رائعة للعدل والحق بمعنييهما الاصيلين ولكن هذه المثل الحية والصور الرائعة وا اسفاه!!.. ما تكاد تستقر في الذهن حتى يتزايل اثرها وتتبدد محاسنها ، ويحتوي ضوءها اللامع ظلام دامس ، كأنها اشعة الشمس عند الغروب ، افزعتها جحافل الليل الزاحفة عليها فودعت عالمها ، الضاحك تاركة وراءها في الافق للحظات معدودة، لونا ورديا هو رمز شهقتها واثر انفاسها . او كأنها رؤى لطيفة واحلام جميلة ما تكاد النفس تتفتح اليها وتأنس بها حتى تفاجأ باليقظة القاتلة فتتهاوى ألما وتضطرب أسفا فتعود هائمة في آفاقها القاتمة سابحة في اجوائها المعتمة .

اين نجد هذه المثل الحية والصور الرائعة ؟ افي قرار الآثينيين في ارسال حكيم الانسانية سقراط الى القبر ولم يكن له من ذنب سوى حبه لهم ، ومحاولته هدايتهم سواء السبيل ، ام في عقاب القرطاجيين لعظيمهم هانيبال ونفيه من ارض الوطن وهو الذي كان قد ذب عن حياضهم ، وانهم لولاه لما خلد التاريخ لهم ذكراً ولا اشادلهم بمنقبة ؟ اين نلمسها . افي امر الطاغية (دهنيس) طاغية سيراكوزة ، حين دفع برأس سيد من سادة قومه الى الجلاد لانه رأى في الحلم انه قاتل له وقص رؤياه مازحا لاصدقائه ففسر الطاغية هذه

الرؤيا بتعمده لقتله ، لأن الحلم انما ينكشف فيه ما كان يحتويه الحالم في اليقظة ؟ ام في اعدام احد قياصرة روما من اختصم مع فرد من افراد حاشيته فاعتبر ذلك تجاوزاً على حقوق العرش ؟أم في عبث (نيرون) في قيثارته على اضواء روما وهي تحترق ؟ اين نتحسسها أفي تعذيب « غاليلة » لانه قال بفكرة، ام في حرق (جان دارك) لانها انقذت وطنها ام في مجزرة (بارتلماوس) نعم ! اين نجدها ؟ أفي طغيان شارل الاول ام في اعمال « كرومويل » بعد ان اهوى برأس شارل التعس واستبد بشعب قدس الحرية تقديسا ، ام في المظالم التي جاءت على ايدي لويس الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ونبلائهم أم في الدماء التي اراقها مارا وروبسبير ودانتون وسان جوست بعد ان اقاموا جمهورية حمراء ، على انقاض الملكية الغاشمة ام في صرعى قيصر روسية ورجاله ام في ضحايا العهد البلشفي ؟ ان نفس الانسان لتذهب شعاعا وقلبه ليتصدع الماً ، اذا اراد ان يستنطق التاريخ ويستحكي المآسي المروعة ، والجنايات الفجيعة التي ارتكبت باسم العدل ، وباسم الحق ، تارة بحجة صيانة اخلاق الشعب واخرى لانقاذ المملكة وطورا للدفاع عن الكنيسة وآخر لحماية طبقات الشعب من تحكم النبلاء وذوي الامتياز وهكذا نجد العقول البشرية تسعى لتجعل من هاتين الكلمتين البسيطتين ، سلاحا ذا حدين ماضيين يستعمل للخير وللشر وان كان نصيب الشر منه اوفر ، وحظه فيه اكثر . وما زال هذا السلاح يستعمل من قبل الامم التي تزعم التمدين والحضارة حتى اختلط الحق بالباطل وامتزج الرشد بالغي والجد بالعبث فكل فريق يدعي ان الحق في جانبه ،وانه انما يقوم بما تفرضه عليه العدالة . ويلعبون بالالفاظ ويسبغون عليها من المعاني ما يحلو لهم ، ويروق فاذا جادلتهم بالحسنى ، وسعيت ان تصل واياهم ، الى الحق المحض ، والعدل المطلق لحظوك شزرا ،ونفضوا اوزارهم اليك فجعلوها عليك وزراً . فان كنت ضعيفا سحقوك ، وان كنت

قويا ناهضوك حتى تفيء الى غيهم وتخضع لارادتهم وإلا فما هذا العبث المريع في مصائر الأمم ، وحريات الشعوب ؟ ما هي فائدة الشعوب المستضعفة والاقطار المحكومة باساليب الاستعمار المقيتة اذا انتصرت الديمقراطيات ، واندحرت الدكتاتوريات وبالعكس ، ما دامت تدار ادارة مستبدة عاتية ، وتحكم بطرق كيفية مطلقة ؟ هل اذا انتصرت بريطانية ، تنعم الهند باستقلالها والبلاد العربية بحريتها وهل تظفر فلسطين بالنجاة من شرور اليهودية ، وسورية من العبودية الجاثمة فوق صدور بنيها ام هل تنال مصر والسودان والجزائر وتونس ومراكش الحكم الذاتي وتحتفظ بخيراتها وكنوزها ام ترى نور الانعتاق ، يتماوج في افاقها تلك الاقطار الواسعة في افريقيا والجزر العديدة المنبثة في المحيطات ؟ ماذا يصيب هذه العوالم المنكوبة بحرياتها ، وبخيراتها ، وكرامتها وعزتها من خير اذا انتصرت الديمقراطيات او اذا اندحرت ، حتى يطلب اليها ان تؤيد فريقا على فريق ، وتفضل قوما على آخرين ؟! ان تجاريب الماضي القت في روعها اليأس ، وضربت على افئدتها بغشاوة القنوط. فما هي الضمانات التي تطمئن اليها النفوس ، وتزدهر بها الآمال وتنتعش الاماني ، في المستقبل وفي كل يوم يقوم الف دليل ودليل ، على تهالك الامم القوية واستماتتها في سبيل التوسع والاستعمار ، وايثار المادة ، على مبادىء الحق والعدل والانصاف ؟

هذه روسية قبل ٢٣ حزيران سنة ٩٤١ كانت في عداد الدول الدكتاتورية الغاشمة التي لا تحترم قانونا ولا تقدس مبدأ ولا تأبه بحرية ولا تعف عن سفك الدماء ، وارتكاب المحرمات ، هذه الدولة الباطشة ، العاتية اصبحت بين عشية وضحاها ، في جملة الديمقراطيات المقدسة للمبادىء والحريات ، المحترمة للقوانين ، الضانة بالدماء ، الرافعة راية العدل والحق ، فماذا تبدل في روسية من

نظام او تغير من وضع حتى تنقلب فجأة من دولة شريرة الى دولة خيرة قوامة على مبادىء الحق والحرية ؟ أليست هذه معان ، تسبغها الميول والنزعات على الالفاظ وفق الظروف ، وبالنسبة للمصالح المادية ؟ وما يمنع ان تتقدم القوى الظافرة ، بعد ان تضع الحرب اوزارها الى الشعوب المستضعفة بكؤوس مترعة بالسم الذعاف ، تجرعها اياها على انها كؤوس مترعة بماء الورد ، او الشهد الحلو المذاق ، وان تضفي عليها اردية الذل والعار ، وأسمال العبودية والصغار ، باعتبارها اردية المجد وحلل الحرية والاستقلال اذا كان العبث بمعاني الألفاظ الواضحة في دلالتها ، يصل الى هذا الحد ؟

ديمقراطيتهم

وهذه الديمقراطيات او الدكتوريات ، فماذا يقصد بها ، وما يفهم من مدلول هذه الكلمات ؟ ليست هناك امة في هذا العالم ترضى ان تنعت بالدكتاتورية ، وتخاطب بالمستبدة فكما ان الديمقراطيات تتهم دول المحور بالدكتاتورية فهذه ايضا تجيبها بعين الاتهام وترد عليها بمثل اللهجة التى خوطبت فأين تستقر الحقيقه وفى اي جانب ترى الصدق ! وهل تركت الروح المادية العنيفة اثرا من الحقيقة والصدق ، فى هذا العالم الهزيل المريض المتخاذل ؟..

نحن نفهم ان النظام الديمقراطي قائم على مبدأ سيادة الامم وانه نظام يقدس الحرية بالنسبة للفرد وبالنسبة للجميع فنظام هذا مبداؤه وهذه روحه لا يقر الظلم ، ولا يستسيغ العدوان على مصائر الامم ، ولا يؤمن بمنطق الاستعمار ، والا يكون مبدأوه وهما ، وروحه خيالا . فهل الامم التي تدعي لنفسها الديمقراطية تحترم المبدأ والروح هذين في غيرها من الامم ؟ ثم أين نجد الديمقراطية ؟ أفي روسيا وستالين ارادته قانون وامره ليس له مرد ، تنصاع لاشارته روسية من ادناها الى اقصاها ويفرق من غمزة حاجبه الرؤساء والعظماء والقواد ويتملقه حتى رئيس الدولة ، والجمهوريات الروسية ويدعوه بزعيمي العظيم ! فهل الديمقراطية تستسيغ ان ينفرد بالحكم فرد ، ويتحكم فى مصائر امة ضخمة كالامة الروسية رجل واحد ؟

ان ستالين لم يستمد هذا السلطان من الامة الروسية ولا من منصبه كرئيس وزارة ولكنه يستمده من الحزب السوفيتى ، ومن منصبه فيه

كسكرتير عام وهذا الحزب هو القابض على شؤون المملكة المترامية الاطراف وهو المهيمن على اسباب الحياة والموت فيها وهو بالنسبة الى مجموع الامة اقلية ، واقلية ضئيلة فاين نلمس الديمقراطية في هذا النظام ؟..

واميركا اين نجد المبدأ الديمقراطي واهدافه من نظامها ؟ أليس رئيسها هو السيد المطلق في البلاد ، والفرد الذى لاتقاوم ارادته؟ اين وزراءه وهل لديه وزراء ام سكرتيرون ان شاء ابقاهم في خدمته وان شاء طردهم لا رأى لهم الا رأيه ، ولامبدأ الا مبدأه ؟ هذا ابراهام لينكولن وهو اثقف واعف وانزه رئيس جمهور انجبته الدينا الجديدة . فهل ينس المتتبعون للتطورات السياسية فيها انه حين جمع سكرتيريه لديه مرة وشاورهم وكانوا على ما اتذكر سبعة فأبدوا رأيا خلاف رأيه - قال لهم ان سبعة في رأي ، واني في رأي فالاكثرية بجانب الرأي الواحد . فامضى رأيه واهمل آراء السبعة الذين هو نفسه كان قد استدعاهم واختار مشاورتهم بمحض ارادته ؟ وهذا روزفلت أو لم يدفع بالأمة الاميريكية الى الحرب وهي مكرهة ؟ كلنا نذكر ما حدث في الانتخابات وكلنا نتخطر وعده الذي اعطاه للأمة الاميركية في تجنيبها ويلات الحرب اذا ما فاز في الرياسة وتجدد انتخابه فهل بر بوعوده لأمته ! ولو كانت الامة الاميريكية تميل الى فكرة الحرب فلماذا كاد يصرع في الانتخابات لو لم يتدارك موقفه باعطائه هذا الوعد الصريح ، او ليس اضطراره هذا وحده كافيا للبرهنة على مقت هذه الامة لفكرة الحرب؟ ولكنه أية وسيلة توصل الى تحقيق هذه الفكرة ولم يستعملها روزفلت ، واي طريق لم يسلكه اليها ؟ فاين هي المبادىء الديمقراطية من هذا النظام؟ ولماذا تكون روسية ديمقراطية واميركة ديمقراطية والمانية ليس لها حق الدخول في ضمن هذه المجموعة وهتلر اقل منهما صلاحية ، وحقوقا ؟ والنظام النازي نفسه لا يستسيغ ما استساغه النظام السوفيتي ، ولا النظام الرئيسي الذي تخضع له اميركة ؟ اني لم اتفرغ لدراسة النظام النازي ، ولم

اكن في سعة من الوقت لأمحص اصوله ، وادقق في فروعه وانما اثبت هذا الرأى عنه وتبعته واقعـة على عاتق السير نيفل هندرسن السفير البريطاني لدى حكومة برلين ، حيث صرح في مذكراته التى نشرت بعد استعار نار هذه الحرب بسمع الحكومة البريطانية وبصرها، بان النظام النازى هو من ارقى النظم الديمقراطية ،وأنما كان يسند بعض التصرفات التى يراهـا خاطئة الى اشخاص معينة لا الى حقيقة النظام النازى ومبادئه ونيفل هندرسن انكليزى ممتاز في ثقافته ومكانته السياسية وممتاز فوق ذلك باخلاقه الرضية وسلوكه الحميد . فشخصية لهـا هذا المقام الرفيع لشهادتها قيمة ولأقوالهـا خطورة ولرأيها مكان مرموق ! ..

اما بريطانية فبرغم الجراح الدامية التي أثخنت بها جسد العالم العربي ، والسهام القاتلة التي اراشتها الى حريته واستقلاله ، فلا استطيع ان انكر عليها ديمقراطيتها في جزيرتها ، حتى في ايام الحرب الملاءى بالرزايا والمحن هذه الايام التي تسوغ التصرفات الشاذة والاعمال النابية عن النظم الديمقراطية . لا استطيع ان انكر ذلك لاني لست خصما للشعب البريطاني او مستهينا بمزاياه وسجاياه النبيلة وان كنت خصما لسياسة حكومته في بلادي ، وعدواً لدوداً لمبادئها التي تريد فرضها على شعبي فرضا . ولكن هل ان بريطانية ديمقراطية حقا في ممتلكاتها، ومستعمراتها والاصقاع التي وضعها سوء حظها ونكد طالعها على طريق الهند ؟!.. ان بريطانية في جزيرتها لا تعد شيئا مذكوراً اذا ما قورنت بهذه المستعمرات والممتلكات والاصقاع . ان نفوس الاخيرة تفيض على الاربعمئة مليون من البشر تسخرهم الجزيرة التى لا تزيد نفوسها على الاربعين كما كان الفاتحون القدماء ، يسخرون العبيد الارقاء ، وتعاملهم معاملة اقل رفقا مما يعامل السيد الانكليزي بهيمته ، اذا يقبو الذوق ان قلت كلبه . فأين هي الديمقراطية . هل نجدها فى الهند ، وتأريخ الهند حافل بالمآسي الدامية،عامر بالمذابح والمجازر البشرية ،ومن يقرأ هذا التاريخ ،

ولا يدمم قلبه قبل عينيه ، وتنتفض روحه قبل ان ترتعد فرائصه وترتجف اطرافه ؟ . من الذي اطلق النار على المعصومين ، في الشوارع ، وشحنها بالجثث ، ومن الذي امر الناس ان يزحفوا على الركب امعانا في الاذلال ، ولم يكن الغارقون في دمائهم ، ولا هؤلاء الزاحفون على ركبهم قد عصوا قانونا او انهم ارتكبوا امرا ادا ، وانما شاء شرغبة الوازع عليهم ان يكونوا عبرة لغيرهم ، ودرسا لسواهم ، من قام بهذه المحرمات غير رجال الحكومة البريطانية في الهند ؟ وما هذه الارواح البريئة التي ازهقت عندما قرر المؤتمر مؤخرا تأييد قرار الزعيم غاندي ، وما هذه المئات من الروؤس الهندية المفكرة وعلى رأسهم زعيمهم ، تعصرهم المعتقلات عصرا ، وتضغط عليهم اقبية السجون ضغطا لا رحمة فيه ؟

وما هي جرائم هذه الضحايا ، وما هي ذنوب هؤلاء الصرعى . فهل كانوا غير اصحاب حق طالبوا به ، وذوي فكرة ارادوا تحقيقها ، وذوي نفوس اضناها الجور وعيون اعمشها الظلام ، فطمعت في ان تلتمس هواء حراً تتنفسه ونورا تتبين فيه الطريق ؟ اين نجد الديمقراطية ؟ انجدها بين امواج الدماء العربية واثباجها في فلسطين ام بين الهامات والرؤوس العزيزة التي اطاحها الظلم ؟ اين نجد الديمقراطية ؟ انجدها في موقعة الاسكندرية في حادثة الاعرابي ام في السجون التي اكتظت ، والمنافي التي زخرت باعاظم مصر ، وخيار حزب الوفد ام نجدها في حوادث البوير وما سالت بسببها من دماء تخضب بها جبين العصر العشرين ، عصر الحرية والنور ؟! . اربعمئة مليون رقيق او يزيدون تتصرف في مقدراتهم بريطانية الديمقراطية ولم يحن الوقت لعتقهم بعد ؟ ان روما عندما يكثر فيها الرقيق ، ويفيضون عن حاجة ابنائها كانت تجود عليهم بالعتق ، فتمنحهم الحرية ليندمجوا في مجموعة الاحرار ولم يكونوا يعدون بالملايين وانما بالآلاف او عشرات الآلاف فتضيق بهم ذرعا ، فما لهذه الامة الديمقراطية لا تضيق ذرعا بهذه

المئات من الملايين فتمنحهم الحرية ، وتغدق عليهم نعيم الانعتاق ؟ انها حرمت النخاسة على السود لتسترق البيض والسود والصفر وكل لون . انها قضت على قيود الرق وانظمته لتكون مطلقة الحرية في الاسترقاق . انها حظرت على السادة ان يؤووا في بيوتهم ومحلاتهم وممتلكاتهم ارقاء يسقونهم ويطعمونهم ، ويكسونهم وينفقون عليهم ما يسعهم الانفاق ، لتمتلك هي الأرقاء يسقونها رحيقا ويطعمونها لذيذا ، ويكنزون لها الأموال ، ويدخرون لها الخيرات خالصة الاجرة صافية من النفقات ! ان الذين شرعوا الرق ، واحكموا نظامه هؤلاء ايضا كانوا قد شجعوا على تحرير الرقاب ، وحببوا الى الناس العتق فلماذا تنفر بريطانية الديمقراطية ، مما شجع اليه وحببه الى الناس اولئك القساة الظالمون ؟.

ان فلاسفة العهود الخالية وفقهاءهم اللذين قالوا بمشروعية الرق ، وقانونيته كانوا قد اعتبروا الرق مشروعا بحق اسرى الحرب ونظروا اليه كفدية عن دمائهم التي اهدرها العرف الدولي آنذاك وجعله ثمنا لحياتهم التي كانت تعتبر ملكا للغالب المنتصر . ولكن العرب ياعزيزتي بريطانية الديمقراطية ، كانوا معك حربا على اعدائك ، وعونا لك على اخوانهم في الدين ثقة منهم بالحرية ، واملا في الاستقلال ، فكيف يجوز استرقاقهم وبأي شريعة تحل لك مصادرة حريتهم واغتصاب حقهم في الاستقلال ؟! يقول رجال بريطانية وساستها اننا منحنا حق الحياة للعرب . فهاهم يعيشون . والعرب ايها السادة لا يريدون حياة هي اشد أيلاما من نزعات الموت ، واكثر ظلاما من ظلام القبر . انهم يطلبون الحرية ! الحرية ! نعم . الحرية فقط !!.. ان الطير في الهواء والنجم في السماء ، والحيوان على الارض القفراء ، والسمك في قعر الماء ، يتعشق الحرية ، ويهواها . فلسنا ايها السادة بأضعف من الطير وجدانا ولا أبلد من الحيوان شعورا ولا اضأل من السمك احساسا بل لسنا في تاريخنا وماضينا بأقل من النجم لمعانا ! فأين حريتنا ؟ اين ؟!.

أين هي ديمقراطية بريطانية ؟ وماذا يجدي النظام الديمقراطي نفعا ، وماذا يفيد البشرية إذا كان يقنا ول جزءاً يسيراً من سكان المعمورة ويترك الأجزاء الكبيرة الباقية هدفا لطغيان الاستبداد وغرضا لسهامه الفاتكة ؟. على اننا نطلق اصطلاح الديمقراطية على نظام الجزيرة البريطانية على سبيل المجاز لا الحقيقة لأن الديمقراطية الحقيقية لا يمكن ان تستقر وتثبت آساسها إلا في البلاد الصغيرة ، أو بالأحرى في الجمهوريات الصغيرة . فالديمقراطية كانت ثابتة الأركان في المدن اليونانية القديمة لانها كانت صغيرة وكان لكل منها حدودها ، وسيادتها الخاصة ، ولم تجتمع كلمتها ، وتتوحد صفوفها الا اذا هاجمها مهاجم ، او هي ارادت الهجوم لسبب من الاسباب . فالديمقراطية هي حكم الشعب . واشتراك الشعب في الحكم ، اشتراكا حقيقيا انما يكون في المدن الصغيرة فان اتسعت رقعة المملكة انتخب الشعب عنه ممثليه . وكلما زادت الرقعة اتساعا تضاءل اثر التمثيل الشعبي ، وابتعد عن الغاية التي تنشدها الديمقراطية . ولقد كان مونتسيكو مصيبا حين بحث عن الديمقراطية في الجمهوريات لأن التمثيل الشعبي يكون فيها اقرب الى الحقيقة ولأن الديمقراطية تقوم على الفضيلة ، اعنى الفضيلة السياسية ، اي شعور الفرد بفنائه في المجموع ، وتطبعه على تضحية مصلحته الشخصية في سبيل الصالح العام . وهذا الطبع وهذا الشعور لا يتوفران في فرد يعيش في مملكة واسعة الارجاء ، مترامية الاطراف ، حيث تكثر فيها الفروق الاجتماعية ، من حيث توزيع الثروة ، والثقافة ، والتربية الاجتماعية ، والتنافس بين الطبقات وقد اثبتت التجاريب فساد النظام الديمقراطي الحاضر وانحلاله وعمت الشكوى منه في مثل هذه البلاد الواسعة ولم يكن فيلسوف من فلاسفة القرن التاسع عشر اكثر تبرما مما وصلت اليه حالة الديمقراطية من هربرت سينسر الفيلسوف الانكليزي ، وما زالت عبارته النارية ترن في الاوساط الديمقراطية ، تلك التي يقول فيها ان واجب الاحرار في الماضي كان ايجاد حد لسلطان الملوك ، واما واجبهم اليوم فهو ايجاد حد لطغيان المجالس التمثيلية

واي مجالس تمثيلية هذ ؟ ليت انها تمثل حقا الشعب الذي تتكلم باسمه ، وتصدر القوانين برسمه . ولكنها في الحقيقة لا تمثل الا اشخاصا ، قليلين تمكنوا اما بذلاقة لسانهم ، واما بنفوذهم المالي ، او الاجتماعي من تزعم الاحزاب التي تكون الاكثرية في المجالس التمثيلية وهذا السبب نرى زعماء الاحزاب اللذين يتولون الحكم يكونون اكثر بغيا ، واشد خطرا على الحرية العامة مما كانت عليه الملوك المستبدون في الزمن الماضي. ومن الطبيعي ان يكون استبداد هؤلاء اشد خطورة ، واثقل عبئا على الشعب ، لأنهم ينفذون ارادتهم فيه وهم يوهمونه بأنها هي ارادته ، ويحققون مصالحهم ، وهم يخدعونه بأنها مصلحته . فهم في الواقع ملوك مستبدون متعددون في شعب واحد ولكنهم غير مسؤولين لأن من مزايا مثل هذه الديمقراطية هو ضياع المسؤولية ، وانعدام الحق ، وتبديد ثروة الامة وانحلال اخلاقها ان علماء الحقوق الدستورية ما زالوا يبكون هذه الحالة ، ويرسلون الحسرة تلو الحسرة مما جرت هذه النظم على الشعوب من مصائب وبلايا ، ومما تركت في اوساط المجتمع من آثار سيئة في الاخلاق . ولقد قارنوا بين هذه الديمقراطية المفتعلة وآثارها ، وبين غيرها من النظم التي قيل انها مستبدة : او في الحقيقة انها مستبدة - لأن الدكتاتورية مثلا لا يجوز ان توصف الا بهذا الوصف - ولكنهم خرجوا من هذه المقارنة ، بالاعتراف بانهزام الديمقراطية ، وبخيبة الأمل في هذا النظام. ولم يجدوا فارقا يفرق بين الدكتاتوريات والديمقراطيات الحديثة ألا ان قرارات السلطة او ما تريد تنفيذه منها يكون عرضة للمناقشة في الاوساط الديمقراطية ، واما في الاوساط الديكتاتورية فهو يتخذ قبل ان يعرف . واما الفوارق الاخرى فليست بذات اثر يستحق الذكر ولكن هذا الفارق الاساسي الذي تتبجح به الديمقراطية او يفخر به دعاتها انما هو وهم من الاوهام ايضا لأن الحزب المسيطر هو الذي يملي القرارات ، ويفرض القوانين واما حزب الاقلية فلا وزن لرأيه ولا قيمة لاقتراحاته اذن فما

هي فائدة المناقشة العلنية اذا كان الاساس في فرض القوانين واملاء القرارات هو القوة لا المصلحة العامة واكثرية الآراء لا اصح الآراء؟ ولما كانت القوة واحدة فالنتيجة واحدة . اي كما ان الدكتاتوريات تفرض اراداتها بقوة السيف كذلك الديمقراطية تفرض ارادتها بقوة كثرة الآراء فماذا يستفيد الشعب من المناقشة والمجادلة والمهاترة ؟ واما ما يتركه مثل هذا النظام الديمقراطي في الشعب من آثار فذوا اثر عميق وخطورة يعجز القلم عن وصفها . ان ثروة الامم تبدد لاشباع شهوات الناخبين ومطامعهم فالممثلون يستهينون بأموال الشعب بغية الظفر بثقة الناخبين ، والناخبون يسرفون في مطاليبهم ، مستغلين نعمتهم التي كانوا قد اغدقوها على ممثليهم ومهددين اياهم بنزع الثقة في المستقبل ان لم يحققوا تلك المطاليب . والاخلاق يسودها التفكك ، ويعمها الانحلال لأن كسب الآراء على الاكثر يكون بطرق من شأنها ان تفقد الافراد عزة النفس ، وتضعف فيهم سجية الاعتداد بالشخصية بل تميت فيهم الضمائر والوجدانات . فالسيد في ملكه يختطف اصوات فلاحيه ومأجوريه وصاحب المصنع ، يسلب ارادة عماله ، والتاجر في محله ، ورؤساء الشركات في شركاتهم كل هؤلاء يستعملون أنواع الطرق للظفر بأصوات عمالهم والتابعين لهم واذا ما اعوزتهم الحيلة لربح المعركة ، اشتروا الأصوات بالمال وسخروا النفوس ، بالمنح وسائر المغريات وما اكثرها . فماذا تحدث هذه الطرق في الأخلاق ، وفي نفوس الأفراد غير كل شيء سيء ؟! . ومع ذلك تنتهي هذه المهازل الخلقية والاجتماعية الى نتيجة واحدة ، هي سيطرة افراد معينين واستبداد اشخاص معدودين وبالتالي تحكم القوة بالضعف والكثرة التي يلعب بها ويسيرها افراد معلومون بالقلة ، فأي ديمقراطية هذه وما فضلها على الحكم الفردي او رجحانها على الأدارة المستبدة ؟ .

قد يقال ان الديمقراطية الحديثة برغم هناتها ، واخطائها ، ومساويها فهي اكثر نفعا للأنسانية من غيرها من النظم فهل تريد ان يسود

الحكم الفردى في الشعوب ؟ أم لديك نظام آخر اكثر صلاحا من هذا النظام؟!
اني لا اقول ان الحكم الفردي صالح ويجب ان تأخذ به الشعوب ذلك لأني ولدت حرا ، ونشأت حرا وعشت حرا واريد ان اموت حرا ومن كانت الحرية ، أمله ومبتغاه وسكنه ومأواه، فلن تميل به النفس الى اي نظام لا يقدس الحرية ، ولا يحترمها . والحكم الفردى قاتل للحرية مستحل لحرماتها فى الاغلب، وانما الدافع الذي دفع بي الى ان اعترض على هذه الديمقراطية ،هو اعتقادي بان ما يطلق عليه اصطلاح « الديمقراطية » هو بعيد عن مفهوم الديمقراطية الصحيحة ، ولا يتصل بها بسبب من الاسباب . لأن الديمقراطية الصحيحة محلها الجمهوريات ، والجمهوريات الصغيرة فقط تلك الجمهوريات التي يمكن للشعب اما ان يشترك فيها باجمعه في حكم نفسه واما ان ينتدب عنه ممثلين ، هو عارف بحقائقهم ، مطلع على ميولهم ونزعاتهم ، مطمئن الى قابليتهم واقتدارهم . وهذه الصفات لا تتوفر فيما يسمونه اليوم « ديمقراطية » . واني زعيم بأن هؤلاء الذين ما زالوا يرددون على الاسماع نغمة « الديمقراطية » لا يملكون انفسهم من الاسترسال فى الضحك على عقول الناس في خلواتهم ، والسخر منهم ، في نجواهم حيث يرون خدعتهم قد جازت عليهم وضلالهم قد استبد بهم .

اما أى نظام آخر اريد . فلست صاحب الكلمة فى المجموعة الدوليه حتى تكون لي ارادة في الموضوع ، ولست بالآمر المطاع في عشيرته وقبيله حتي يكون لي رأي نافذ ، وانما انا فرد من سائر الافراد وواحد من هذه الآحاد آلمه الطغيان الفردي فى الازمنة الخالية ، وفي الامم المستضعفة في هذه الايام فمقته ، وافزعه ما رأى من آثار سيئة فيما يسمونه النظام الديمقراطي فجاء ينقده ويفضحه . ولئن كنت لا حول لي ولا طول في تغيير مجرى الحوادث ، وتبديل انواع الحكم فليس هناك ما يمنعني عن ان ابدى رأيا واهتف بخاطر شأن من يرسل بصره وهو على الغبراء ليصف جمال القمر

وهو في كبد السماء ، او من يرسم بريشته قمة الجبل وهو يتطلع اليها من صميم السهل !

ان الديمقراطية سواء كانت صحيحة ام مزيفة ، فليست بالنظام الوحيد الذي بدونه لايهنأ شعب ولا تسعد امة . فافلاطون لم ير الديمقراطية خير الانظمة ، وانما بالعكس فأنه قال عنها انها تؤدي الى حكم الغوغاء (الرعاع) وهذا النوع من الحكم يؤدي الى الحكم الفردى اي الادارة المستبدة وانه يرى ان « الارستقراطية » خير انواع الحكم ، ولكن استقراطية افلاطون ليست كالارستقراطية التي منيت بها القرون الوسطى ، تلك الارستقراطية التي كانت وقفا على طبقة السادة اي الأكابر والاعيان ذوي الامتياز ، وانما ارستقراطية افلاطون فانها تتمثل فى طبقة الفلاسفة والحكماء تلك الطبقة التى خصها بمزايا خاصة وافترض فيها شروطا معينة لأن الحكم صنعة وادارة امور الشعب واجب ثقيل تنوء به العقول الضعيفة ، وتشفق منه النفوس الواهنة غير المهذبة . والنظام الاسلامى فرض الشورى ولكن هذه الشورى يقوم بها ذوو الحل والعقد في المملكة الاسلامية وهم معروفون فليست هي اذن شورى يشترك فيها الرعاع ، ويعبث بها الأفاقون . والعقل الانساني يستطيع ان يوجد نظاما للحكم يلقي مقاليده في ايدي الاخيار من الشعب ويكفل في عين الوقت حريات ابنائه وتقدمهم الفكرى والاجتماعي ، وينشيء نوعا من التربية الاجتماعية توقظ فى النفس الاحساسات الكريمة ، وتبعدها عن نوازع الشر وللتربية العامه في أي شعب لهصلة وثقى بنظام حكمه (١) . ليس الانسان شرا محضا كما رآه ماكيافيللي فساغ له تلك الاصفاد المحكمة لضبطه ، وبين للأمراء تلك الطرق الغادرة المخيفة لامتلاك ناصيته وانما هو يكون اقرب الى الشر وادنى الى الخير او بين

---

(١) لذلك اعتبر افلاطون في « شرائعه » وزير المعارف « التربية والتعليم » والمشرف عليها اول رجل في الدولة التى يتخيلها .

ذلك وفقا للتربية التي نشأ عليها ، والوسط الذي عاش فيه . والبيئة التي احتملته والارض التي اقلته ، انما نشأ الفراعنة والقياصرة العتاة . والاكاسرة الجفاة والملوك المستبدون ، والحكام الظالمون ، في اوساط كانت تغتبط بالظلم والعدوان وفي بيوت كانت تربيتها تنفث في نفوسهم ميول البطش وتنمي فيها نزعة اذلال الضعيف ، واسترقاق الفقير . وكذلك قل عن السفاكين والقاتلين والسارقين وسائر المجرمين الذين يخلون بهدوء الهيئة الاجتماعية وطمأنينتها . وقد اثبت العلم ، وايدت التجاريب ، ان للبيئة اثرها في تكييف الانسان ، وللوسط فعله ، وللتربية قسطها . فكثيرون ممن يكونون ضحايا العدالة ، نتيجة لتصرفاتهم ، كان يجوز ان يكونوا في نجوة مما اصابهم لو تهيأ لهم وسط غير الوسط الذي عاشوا فيه ، وبيئة غير التي نشأوا فيها واحضان غير الاحضان التي شبوا فيها . فماذا تنتظر مثلا من طفل ينشأ في احضان البؤس والفاقة ، ويموت عنه ابواه ، وهو لم يبلغ الحلم بعد وتركته المقادير يجوس خلال الأماكن الموبؤة ، ويعاشر الاشرار والفساق ، او طفلة تولد في دور البغاء وتعيش في دنيا الموبقات وتنغمس في حمأة الدعارة والفجور فهل تنتظر من الاول صلاحا ، ومن الثانية عفة وحياء ؟ وبالعكس من ذلك فقد يجوز ان يكفل ابنة المومس ، ووليد الشرير ، وسليل الفاسق بيت فيه تربيته وفيه ثقافته وينشأ هؤلاء على آدابه ويتخلقون بخلق اهله فتجنى الانسانية منهم خيرا . والدين يؤثر في النفوس تأثيرا قويا يضارع الثقافة وانواع التربية الاخرى . واذا قلت الدين فلا اريد ان اخص دينا بعينه ، وشريعة بذاتها . انما الأديان والشرائع على اختلافها وتباينها فانها تعمر النفوس بالخلال الحميدة وتهذبها وتصقلها حتى الوثنية منها فسقراط ، وسولون واريستيديس وافلاطون وملتياديس كانوا قد نشأوا في الوثنية اليونانية ولكنهم كانوا خيرا محضا او اقرب الى الخير المحض ، وان من اسباب عظمة روما كان تمسكها بأهداب دينها الوثني . يقول مونتسكيو في روح قوانينه

ان الدين والاخلاق للرومانيين كانا بمثابة مرسيين لسفينة في وسط بحر متدافع الآذي وان الرومانيين بعد هزيمتهم في واقعة « كان » امام هانيبال القرطاجني كانوا قد تذمروا من الحالة التى صاروا اليها فارادوا الامتناع عن الاستمرار في الحرب ولكنهم تذكروا يمينهم التي حلفوها للقونسول الذي كان يقودهم فتشاوروا فيما بينهم عن الطريقة التي تنجيهم من حوبائها حتى آل الامر بأحدهم الى ان يقترح قتل القونسول حتى يكونوا في حل من اليمين التي سبق لهم ان أدوها امامه . ولكن لما اجاب احد عقلائهم بأن خطيئة القتل لا تقل عن خطيئة الحنث باليمين عادوا الى طاعة قونسلهم واستمروا في الحرب . ويرى مونتسكيو ان هذا المثل من اروع الامثلة التى تضرب في مدى استمساك الرومانيين بدينهم على اني مع اقراري بقوة هذا المثل وروعته فتأريخ روما، يثبت في دفتيه امثلة اخرى اكثر روعة ، وابلغ تعبيراً عن روحهم الدينية وان انس فلا انس موقف ريجيليوس الروماني ،حين كان اسيراً لدى القرطاجنيين فأرادوا هؤلاء الصلح والمسالمة مع روما فانتدبوه ليكون وسيطا في هذا الصلح ، وسفيراً لهم لدى روما على شرط ان يعود الى قرطاجنة اذا لم ينجح في وساطته واستحلفوه على ذلك . فهذا القائد الباسل كان قد ألم بوضع القرطاجنيين الحرج، وبمدى التفسخ الروحي الذي كانوا قد صاروا اليه فاتخذ هذه السفارة وسيلة لأفهام روما حقيقة الوضع في قرطاجنة لئلا تقبل بأي نوع من الصلح . فذهب الى روما وشرح الوضع امام مجلس الاعيان (السناتو) وطالبه بالمضي في الكفاح الى ان يتم النصر الحاسم الذي اصبح وشيك الحصول . وبعد ان قام بمهمته خير قيام ابلغهم بضرورة عودته الى قرطاجنة لأنه أقسم ،وعلى الروماني ان يبر بقسمه مهما كانت النهاية التى تنتظره اليمة . مانع المجلس في عودته وتعلق به اقرباؤه ، وتلطفت به زوجه واصدر قاضي القضاة قراره بأن هذه اليمين لا تلزمه ولكنه تغلب على كل هذه المثبطات ، فرجع الى قرطاجنة حيث لاقى مصيره المحزن . ترى اية قوة

لا تقاوم نفخها في روحه ذلك الدين الوثني ؟ . وكسرى انوشروان نشأ ايضا في احضان الوثنية الفارسية وكان خيراً محضا للانسانية وان من يقرأ ترجمة برزويه مستنسخ كتاب كليلة ودمنة الشهير يعجب من تلك الروح الدينية التي شعت في جوانب نفسه واثرت في تكوينه وهي كما قلت ديانة وثنية وقس على ذلك كنفوشيوس في الصين، وبوذا في الهند. فاذا كانت هذه الديانات الوثنية تغذي النفوس بهذا الغذاء الشهي فكيف بالاديان السماوية وشرائعها السمحة، التي جاءت على ايدي موسى وعيسى ومحمد، وهي تفيض خيراً، وتتدفق براً، وتزخر بركة وتشع سلاما ؟!. فالانسان اذن ليس شرا محضا كما ظنه ماكيافيللي، اذا كفلت تربيته نفس عالية، ورعاه عقل سليم! نعم يجوز ان يولد الانسان وفيه مرض ارثي يدفعه الى ارتكاب الشواذ فهذا نزر يسير في هذا الوجود يمكن ان يعالج معالجة المرضى المزمنين. ويجوز ان يكون للأقليم والطقس، والجوائره في الانسان ولكن التربية الصالحة تخفف كثيراً من هذه العوامل الطبيعية، كما ان العلم قادر على الحد من مضائها والخضد من شوكتها.
الا ترى الأنسان في حال وحشيته لم يكن يتمايز عن العجماوات من حيث الخشونة والقسوة وقلة التدبير ولكن العقل الذي تكامل فيه ونما، قد نقله من طور الى طور الي ان وصل به الى الحالة التي هو عليها الان ؟ فهذا التطور وحده دليل على ان الانسان يجوز ان تكيفه التربية الصحيحة الى الخير، كما تميل به التربية الناقصة الى الشر. ان الوحوش الكاسرة، والضواري الجارحة تروض، وتلين عريكتها، وترق شرتها اذا تعهدتها يد صناع، ورب ماهر، فكيف بالانسان والله عز وجل قد انشأه على احسن تقويم ؟! ولئن عجزت الانسانية الى هذا اليوم، عن ان ترى الانسان الكامل، فأن هذا العجز سببه، ان العقل الانساني كان قد انهك قواه في مجالات الطبيعة، ولم يخص المجال الروحي الا بشيء قليل من عنايته. ذلك لأن المادة من شأنها ان تغري العقول، حيث فوائدها ظاهرة ملموسة، ومنافعها سريعة عاجلة، بخلاف المنافع والفوائد الروحية فأنها تكون غير مرئية ولأنها لا تدر بخيرها ولا تثمر

ثمرها الا بعد زمن طويل وان كان خيرها اعم وثمرها اشهى والذ كالسحاب الماطر ، كلما تباطأ في سيره وتثاقل فى حركته كان اغزر ماء واسح صوبا
ولست اعني في قولي هذا ، ان العلوم الطبيعية غير جديرة بالعناية بالعكس ، فاني اقر بفيض هذه العلوم على الانسانية وبخيرها على البشرية واعترف بالفوائد والمنافع التى غنمتها الحضارة منها ولكن شغف العقل بها قد وصل الى درجة الاشباع من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد اهملت النفس ، وتركت العناية بتهذيب الروح ، الى حد ان صارت الحياة في هذا العالم ، ضربا من الجحيم ، والانسان لا يقوي على تأدية رسالته في هـذه الحياة الدنيا ، ونصفه سليم ، ونصفه الاخر سقيم . وهل تنتظر خيرا من انسان نصفه سقيم اشل ؟ ان الصحة يجب ان يتمتع بهـا الجسد بكامله ، فالرأس لازمة لزوم الاطراف والروح لازمة كذلك لزوم العقل . ومثل الصحة كذلك فانها لازمة للعقل ، وللروح ، وللرأس وللأطراف بل ولكل وريد وشريان ونسيجة في الجسد فاهمال بعضها ، يستلزم مرض هذا البعض ومرضه يقلل من نشاط الانسان وفعاليته . ومما يسرى الهم ويخفف الألم ، ان المحن التى تجتاح الانسانية من حين الى آخر توقظ في بعض النفوس الكبيرة جوانبها الحساسة فتندفع عاملة فى المجال الروحي ، مجـدة فى تضميد هذه الانسانية البائسة من جراحاتها الدامية كما نرى اليوم الكثيرين من علماء الاجتماع ، والفلاسفة ينشطون من جديد الى العمل ولعل نشاطهم يؤدي الى تهذيب هذه الحضارة المادية تهذيبا روحيا ينتزع منها شرتها ، ويطهرها مما شابها من شوائب كثيرة .

على انه من التعنت في الحق القول ان الأنسان يبرأ من عيوبه النفسية كافة ، مهما أوتى من تربية قويمة ، ومعرفة صحيحة ذلك لأنه كون من قوتين ، القوة العاقلة المدركة وهي التي تسيره الى الخير والقوة العاطفية ، اوقوة الميول والأهواء التى تقوده الى الشر ، وعلى ذلك فأنه يقال للأنسان الخير انه خير متى كانت القوة العاقلة المدركة فيه غالبة وانه يوصف بالشرير اذا

سيطرت الثانية على الأولى ولعلنا في الابحاث الآتية نعود فنتبسط في الموضوع ونزيد فيه القول . فالانسان الخير اذن ليس معناه انه معصوم من الزلل بريء من الميول والاهواء لأن هذه مركبة فيه طبعا وغريزة، وانما يكون خيرا او شريرا بالنظر الى قوة احدى القوتين هاتين او ضعفها . ولما كان نظام الحكم عملا من اعمال الانسان ومرآة ترتسم فيه صورته الكاملة بما فيها من قبح او جمال ، خير او شر وانه يشرع بعقله وينفذ على يديه فليس في وسعنا ان نتخيل نوعا من الانظمة ، بريئا من العيوب ، كافلا لسعادة المجتمع الانساني مئة في المئة . ان المثل الاعلى الذى يتخيله الفلاسفة والمفكرون لنظام الحكم لا يمكن ان يتحقق على هذه الارض لأنه يخالف للطبيعة البشرية المكونة من مزيج من الخير والشر . وكأن افلاطون قد شعر بهذه الحقيقة فأفاض على لسان غلوكون الذي كان يحاور سقراط بهذه الكلمات « .. فهمت انك تعنى انه يفعل هكذا في المدينة التي اكملنا نظامها، المحصورة في عالم الخيال لأني لا اعتقد انها توجد على وجه الارض »(١) فالنظام الحسن اذن : هو ذلك النظام الذى تكثر فيه الاهداف الفاضلة وتغلب عليه مبادىء الحق والعدالة وتزيد فيه عناصر الخير . وبمعنى اوضح هو ذلك النظام الذى يشتمل على هاتين المزيتين الخطيرتين : تشريع صالح ، وتطبيق عادل تشريع صالح تضطلع به زمرة واعية مثقفة ، وتطبيق عادل ، تقوم به طبقة نيرة العقل ، نزيهة الضمير والوجدان على قدر المستطاع . وليس شرطا ان تكون هذه الزمرة او الطبقة من الفلاسفة والحكماء كما تخيل ذلك افلاطون

---

(١) جمهورية افلاطون . الكتاب التاسع . وكان جواب سقراط بما يأتي : قد يكون في السماء منها نموذج لمن يروم ان يراه ويبني نفسه على مثاله . واما مسألة وجوده على الأرض ، في الحاضر أو المستقبل فليست بالأمر المهم ولأنه على كل حال يختار نظم مدينة كهذه ويجري عليها معرضا عن كل ماسواها .

في جمهوريته (١) وانما يكفي ان تكون من الخبراء الواعين والمثقفين المدركين بحاجات الشعب والعارفين بالوسائل المؤدية الى تقدمه ورفاهيته ،ومتى كفل نظام الحكم هذين الاساسين ، فلم يعد يعنينا نوع الحكم واسلوبه أكان جمهوريا ام ملكيا ، ديمقراطيا أم استقراطيا أم فرديا . ولقد كتب في فلسفة الحكم ونظمه الكثير من الفلاسفة والفقهاء والحكماء من متقدمين ومن متأخرين ولكنهم في الحقيقة ، لم يزيدوا شيئا على مابحثه افلاطون وأرسطاطاليس . وقد لاحظ هذان المفكران العظيمان ، بشيء قليل من الاختلاف ، ان الحكم الصالح قد يكون في الحكم الفردي ،او بمعنى اصح الملكي وقد يكون كذلك في الحكم الارستقراطي او الحكم الديمقراطي، اذا كان التشريع سليما، والتطبيق عادلا ، واذا فسد الحكم الفردي انقلب الى الاستبداد واذا فسد الحكم الاستقراطي صار حكما او ليغارشيا اي حكم الطبقات ويكون الحكم حكم سوقة أو فوضى اذا فسد الحكم الديمقراطي . وان كل نوع من الانواع الصالحة المذكورة اعلاه اذا فسد تكون نهايته الاستبداد . وفي الحق ان الوقائع المادية والحوادث التاريخية تعطينا امثلة كثيرة تؤيد هذا الدور والتسلسل .

وان هذين المفكرين العبقريين وان كانا يفضلان النظام الارستقراطي فهما لم ينكرا ، النظام الفردي الصالح ، والنظام الديمقراطي الواعي . وفي الحق ان كلا من هذه الانظمة الثلاثة حسن اذا احترم في ظله المبدآن اللذان سبق ذكرهما ، وهما التشريع الصالح ، والتطبيق العادل ،واذا كانت البيئات المنفذة فيها تلائمه وتستسيغه . خذ مثلا الحكم الفردي فقد يجوز ان يتمخض عن سعادة شاملة للشعب اذا كان التشريع في ظله سليما واذا كان الحاكم واعوانه يحرصون على تنفيذ القانون تنفيذا عادلا ولا يتجاوزون حدوده او لا يفسرونه تفسيرا لا ينسجم وروحه واهدافه ، فروما كانت اسعد حظا في عهدها

---

(١) ان افلاطون قد عدل رأيه هذا ، في كتاب « الشرائع » الذي جعله اكثر قرباً للواقع وايسر للتنفيذ .

الملكي من اواخر جمهوريتها ، واليونان كانت ملكياتها تفيض عليها خيرا قبل النظام الديمقراطي ، حتى ان مستعمراتها التي كانت منبثة على حواشي وسواحل البحر الابيض كانت تزدهر في افياء العدالة ان جالويكوس حاكم ومشرع مستعمرة لو قرووا اليونانية قد بلغ حبه لتحقيق العدالة في قومه الى حد انه حكم على ابنه بسمل عينيه لأنه ارتكب جريمة الاعتداء على العرض وذلك وفقا للتشريع الذي كان قائما يومئذ ولم تأخذه الرأفة الأبوية عليه، وانما بتأثير شفاعة الشعب وتوسطه قبل ان تسمل عين واحدة لأبنه وان تسمل عين واحدة من عينيه هو حتى يكون نصاب العقاب حاصلا ، واحكام القانون منفذة. وكذلك كان خارونداس حاكم ومشرع مستعمرة « كاتانة » الذي كان قانونه يحرم على الفرد الحضور في الاجتماعات العامة وهو مسلح خشية الاصطدامات ووقوع ما يخل بالأمن ويفرض عقوبة الموت على المخالف فأنه لا يقل حرصا على سلامة تنفيذ القانون عن سابقه . وقد حدث انه استدعي على عجل لحضور اجتماع عام بينما كان قادما من البر فغفل عن نزع سلاحه ولما حضر الاجتماع وادرك انه خالف القانون بحضوره مسلحا ، انتضى سيفه واغمده في صدره ونفذ العقوبة على نفسه بنفسه. وقد قام اباطرة عظام في الامبراطورية الرومانية بالعدل واحترموا ارادة الشعب والقوانين الامبراطورية كدريانوس ، وماك اوريل ، وتراجان وغيرهم، وكان الناس في عهدهم في أمن وطمأنينة على ارواحهم ، واموالهم وحرياتهم وانت اذا امعنت النظر في تاريخ صدر الاسلام سيما في عهود الخلفاء الاربعة ، وبالاخص عهود خلافة الصديق ، والفاروق ، وحيدرة لرأيت عجبا ، ولذهلت من فرط هؤلاء الامراء العادلين والخلفاء المصلحين ، بتعلقهم بأهداب العدالة ، وفي حرصهم على سلامة تطبيق احكام الشريعة السمحاء ، ومعلوم ان الخليفة ، هو مجمع السلطات ، وموئل الناس جميعا . فالحكم الفردي سواء كان ملكيا وراثيا او ملكيا منتخبا ، او خلافة لا يكون شرا محضا الا اذا فسد وحاد عن الطريق المستقيم . وكما ان الحكم الفردي

ليس شرا محضا ، فأن النظام الديمقراطي ليس خيراً محضاً . فالنظام الديمقراطي في اثينة مثلا هو الذي رخص بنفي اريستديس اعدل اهل اليونان واحكمهم عشر سنوات عن وطنه ، وحكم على ملتياديس بطل واقعة ماراطون ، ودفع بسقراط حكيم الانسانية الى الموت ، واخفت نفس فوكيوس الذي اربت الجروح التي في جسده على الاربعين جرحا في سبيل اثينة والنظام الديمقراطي هو الذي قضى على الاخوين (تيبريوس وكايوس غروشيوس وعلى كاسيوس ومانيليوس) وغيرهم في رومامع انهم لم يدخروا وسعا في سبيل خدمة روما ومجدها فالمسألة اذن ، هي ليست مسألة مجرد دساتير وقوانين ومؤسسات رسمية ، ولا هي مسألة نظام . بل هي مسألة عمل وتطبيق وسجايا نفسية ومزايا عقلية وذهنية . فاذا كان العمل صالحا والتطبيق عادلا والنفس خيرة عادلة والعقل سليما ومثقفا فاض الخير على البلاد والعباد والا كان الشقاء حاصلا لا محالة .

ومن سوء حظ الانسانية ان فهمت هذه الانظمة ، التي خلق فلسفتها عباقرة اليونان وفي طليعتهم سقراط وافلاطون وارسطاطاليس ، وجلو انوارها على غير حقيقتها سيما في القرون الوسطى وكان هذا الفهم المغلوط سبباً لنفور الاسماع عن ذكرى الحكم الفردي او الحكم الارستقراطي وبعكس ذلك فقد راجت دعاية قوية للحكم الديمقراطي ، الذي لا يتفق وحقيقته التي كان عليها ايام موجدي هذا النظام والخالقين لفلسفته . فقد ظن ان الحكم الاستبدادي هو الحكم الفردي مع ان كلمة « اوتوكراسي » اليونانية

---

(١) تيبريوس غروشوس قتله اعضاء السناتو ١٣١ قبل الميلاد حيث رمي بتهمة جعل نفسه طاغية واخوه كايوس غروشوس ذبحه انصار القانون والنظام ١٢١ ق . م

سبوريوس كاسيوس اصدر قانونا ضمن فيه للعامة الحق في الارض العمومية اعدم في ٤٨٥ ق . م وماركوس مانيليوس القي من اعلى صخرة « التاربية » وهي حافة الهاوية في نفس الكابيتول الذي دافع عنه سابقاً وذلك في ٣٩٠ ق . م ، انه كان مثريا وانفق جميع ثروته في تخليص المدينين من ديونهم فرماه النبلاء بتهمة جعل نفسه طاغية

لا تفيد معنى الاستبداد ، وكذلك كان مبادءه التي اقرهـا فلاسفة اليونان ومشرعوهم لاتدعم الفكرة الاستبدادية .ولأجل ان يوضحوا الاشكال قالوا اذا فسد الحكم الفردى انقلب الى حكم استبدادي .وقد ظن خطأ ان الحكم الارستقراطي هو حكم طبقة الاشراف والاعيان ذوي الامتياز من ناحية الدم والثروة والحال ان كلمة « اريستوكراسي » لا تفيد هـذا المعنى ابدا وكذلك كان مبادءه التي اقرها مشرعو اليونان وفلاسفتهم لاتؤيد هـذا المفهوم ،ولأجل ان يتبسطوا في الموضوع قالوا ان الحكم بما انه صنعة فيجب ان يودع تشريع القوانين وتنفيذها الى ايدى الفلاسفة كما جاء في جمهورية افلاطون او الى ايدى الخبراء العارفين واهل الرأى من اهـل البلاد كما قال ارسطاطاليس فى كتاب السياسة . فالطبقة الحاكمة ، او المشروعة انما كان يقصد بها اهل العلم والمعرفة ، لا الاشراف والاعيان وذووا اليسار الذين لم تتوفر فيهم هذه المزايا . واذا كانت هذه المزايا قد توفرت فيهم فلماذا يحرمون من تولي المسئوولية لمجردانهم اشراف واعيان وذوو يسار ؟ وقد ظن ان الحكم الديمقراطي هو استواء الناس كافة في الحق فى الوصول الى المجالس التشريعية والى تولي المسؤولية في مناصب الدولة . مع ان كلمة « ديموكراسي » وان كانت تفيد حكم الشعب ، فليس هذا معناه ان كل فرد له هـذا الحق . ان المقصود من هذه الكلمة ان الناس متساوون في الانتخاب لا في ان يكونوا منتخبين ذلك لأن الحكم الديمقراطي السليم، الذى تقوم اركانه على اساس الفضيلة هو ذلك الحكم الذى يكون فيه تشريع صالح وتطبيق للقوانين عادل وهذان الاساسان لا يمكن ان تقوم بهما وتضطلع بمهامها حكومة او سلطة مكونة من الدهماء والغوغاء وانما تقوم بها وتضطلع بمهامها حكومة مؤلفة من المثقفين المدركين والعارفين المصلحين، وهؤلاء هم قلة في كل مكان وفى كل زمان، وهؤلاء يجب ان تتوفر فيهم شروط معينة ، ومزايا خاصة، على ان النظام الديمقراطى بمفهومه الحقيقي ، لا يمكن ان ينفذ في بلاد واسـعة الارجاء

مزدحمة السكان ذلك لأن معرفة الناخب بالمنتخب واهليته وقابليته شرط ضروري لصحة الأنتخاب وهذه المعرفة، متعذر حصولها في مثل هذه البلاد وعلى هذا فقد كان خالقوا نظام الديمقراطية على حق حين حصروها في دول المدن او دولة المدينة كما كانت عليه اليونان في السابق. (ارجو مراجعة كتب الجمهورية، (١) الشرائع، السياسي، لأفلاطون طبعة اوكسفورد. والسياسة (٢) لأرسطاطاليس طبعة اوكسفورد وافلاطون الرجل وانتاجه للبروفسور. تايلور طبعة ١٩٣٧) وما نراه اليوم من النظم الديمقراطية سواء كان نظام الحكومة البرلمانية كالنظام القائم في بريطانية واكثر البلاد الاوربية وآسيا والجمهوريات الامريكية الجنوبية اوالنظام الرئيسي القائم في امير كة الشمالية او النظام الجمعي القائم في سويسرا اقول، ما نراه اليوم من جميع هذه النظم، لا ينطبق، على مفهوم «الديمقراطية» المعروفة في العهد اليوناني وانما هي مزيج من الانظمة الثلاثة الفردي والارستقراطي والديمقراطي. ولم يخف مثل هذا النظام المختلط على ارسطو. فانه قال به وبحثه وقرره للدول الواسعة الارجاء الكثيرة السكان. وفي الحق ان نظاما يأخذ من هذه الانظمة الثلاثة اطايبها ومحاسنها هو خير نظام يصلح للدول الكبيرة. ولا يخفى ان ارسطو انما ألف كتاب السياسة وهو يعيش في كنف البلاط المقدوني الذي كانت تتوسع املاكه، وتتظافر فتوحاته. واما النظم التي يطلق عليها اليوم، النازية، الفاشية، او السوفيتية فأنما هي في الحقيقة مذاهب اقتصادية وليست نظما سياسية وانما زعماؤها استعملوها وسيلة الى الحكم لتحقيق مبادىء هذه المذاهب. واني حين ابحث في التكوين السياسي انما ابحثه على ضوء المبادىء والقواعد المسرودة انفا.

* * *

قلنا ان النظام الديمقراطي الصحيح لا يستقر إلا في الجمهوريات لأنه قائم

«١» كتاب الجمهورية ترجمته ادارة المقتطف

«١» ترجمه اخيرا الى العربية العلامة لطفي السيد

على اساس اشتراك الشعب في الحكم اما حقيقة كأن ينتظم ابناؤه في مجلس واحد يقررون فيه قوانينهم ، ويديرون شؤونهم وأما شكلا كأن ينيب الشعب عنه افراداً معينين يثق بهم ، ويعتمد عليهم . ومعرفة الشعب لنوابه تكون قوية في المدن الصغيرة ، لقلة عدد سكانها وتكون ضعيفة اذا ازدادت رقعة المملكة اتساعا و كثر السكان . وفي الممالك المترامية الأطراف المزدحمة السكان يكاد لا يبقى اثر لهذه المعرفة ، فتنعدم الديمقراطية فى هذه المملكة . والقوانين والانظمة الصالحة للجمهورية الصحيحة ، لا تكون صالحة في الدولة التي خرجت عن حدود الجمهورية وتباعدت عن أسسها، ومعنى ذلك ان نظم الديمقراطية إذا كانت نافعة ومفيدة فى الممالك التي تستطيع هظمها وهي الممالك التي تقوم فيها الجمهوريات فهي لا تكون مفيدة في الممالك التى لم تعد صالحة للنظام الجمهوري . والدول القائمة فى عصرنا الحاضر ، وايامنا الحالية وان كانت تدعى الديمقراطية ، فهي ليست ديمقراطية ، وان بعضها وان كان قد قبل النظام الجمهوري فهو ليس جمهوريا صحيحا . فالحقيقة لايمكن ان تحجب بستائر شفافة تفسجها الأوهام ، ويحوكها الخيال ، فالديمقراطية لاتثبت إلا فى الجمهوريات . والجمهوريات لاتلائم إلا المدن الصغيرة . وهذا النوع من الاستقلال ، أي استقلال المدن الصغيرة ، اذا كان ميسوراً في الماضي فليس ميسوراً في الوقت الحاضر ، نظراً للتقدم العلمي، والصناعي ، وارتباط ممالك العالم بروابط شتى واشتباك مصالحها اشتباكا مكينا . فاذا قدرت هذه الحقيقة قدرها ، وجب علينا ان ننصرف عن النظام الديمقراطي المزيف ، أو على الأقل ، ان نتجنب ترديد هذه النغمة التي وان كانت فيما مضى من الأزمنة تستهوي النفوس ، وتغري العقول ،فقد اصبحت اليوم ، سمجة ، تعافها الأرواح ، وتنفر منها الأسماع . علينا ان نفكر في أوضاع وانظمة للحكم ، تلائم المنظومات الاجتماعية الحديثة ، وان

نطلق عليها اسماء ، تطابق حقيقتها والقوانين والأنظمة معرضة للتغير والتبدل وان منها ما كان صالحا للجمهورية فقد يكون ضاراً في غيرها .
لأن الأولى انما سنت بقصد تنمية المملكة ، وتضخيمها . فبعد ان تكون هذه قد نمت ، وتضخمت وجب ان توضع قوانين أخرى تكفل استدامة هذا النمو وتثبيت وترصين هذا التضخم . اذن ، فبتغير وضع المملكة ، تتغير اهداف القوانين والأنظمة . فروما لما كانت محصورة في ايطاليا ، كانت جمهورية ولكنها لما بسطت سلطانها على اقاليم واسعة ، وتضخمت ثروتها وتعاظمت قدرتها ، من نواح كثيرة ، قبلت النظام القيصري . ولم تلبث ان غيرت قوانينها الجمهورية ، واستبدلتها بغيرها ذلك لأن مهمة القوانين الجمهورية كانت قد انتهت ولم تعد صالحة لضبط الامبراطورية الرومانية وتمشية مصالحها والأسلام في أول نشأته حين كان منحصرا في شبه الجزيرة العربية وما جاورها كان قد قبل نظاما يماثل النظام الجمهوري ولكنه ما لبث ان انقلب نوع الحكم فيه ، الى النظام الملكي الوراثي وبذلك قد تغيرت كثير من الأوضاع ، وقد تبدلت فيه انواع الأنظمة . ولست اعنى ان قيصرية روما ، أو ملكية الأسلام نظامان صالحان ، لمثل هذا الزمن .
وانما اوردتها للتدليل على ان تغير حدود المملكة وتطور قابلياتها من طور الى طور يؤدي الى تغير نظام الحكم وهذا يستلزم تغير القوانين والأنظمة ولما كانت الدول القائمة فى هذا العصر ، لن تكن جمهورية ، فهي اذن لن تكن ديمقراطية ، فالقوانين والأنظمة حينئذ يجب ان تتغير وتتبدل ،ولكن تغيرها ، وتبدلها لا يحتمان علينا ان نقبل نظام الحكم المطلق ، أو الارستقراطية الظالمة ، الجامدة التي تحكمت في ابناء القرون الوسطى وفجر القرون الأخيرة!
او ان نستسيغ النظام الذي اثبتت التجربة عدم صلاحه ، وهو النظام الذي

اطلق عليه « النظام الديمقراطي » على سبيل المجاز . يجوز لنا بعد ان رأينا استحالة تطبيق النظام الديمقراطي الصحيح ، في دولنا الحاضرة ، وبعد ان لمسنا الآثار السيئة التي تركها نظام الحكم المطلق ، والارستقراطية الظالمة ، والنظام المزيف الذي نعت بالنظام الديمقراطي ، ان نقوم بتجربة أخرى لعلنا نصيب فيها بغيتنا ونصل بها الى غايتنا واكثر الظن انها تكون تجربة ناجحة ، اذا تعهدتها نيات خالصة ، وعزائم ماضيـة ونفوس جعلت الحقيقة ضالتها والحق رائدها

الارستقراطية الفاضلة

والديمقراطية الواعية !

قبل ان نوضح مقترحنا فى صدد نوع نظام الحكم نرى من الضروري ان نحدد معنى الحكم . ما هو الحكم ؟ هو السيادة . وما هي السيادة ؟ هي السلطة التي لها الكلمة العليا والأخيرة على سائر الجماعات والهيئات والأفراد الموجودين داخل حدود المملكة . ولكن هذه السلطة هل هي مطلقة الحق حرة التصرف بهذه الجماعات والهيئات والأفراد ؟ الحق انها مطلقة ، وحرة ، تستمد اختصاصها من نفسها لأن استمدادها الاختصاص من غيرها ، ينافي جوهرها ويناقض مفهومها فالسلطة ذات الكلمة العليا الأخيرة هى كل شيء واذا فرضنا خلاف ذلك معناه ان هناك سلطة اعلا منها وهذا محال . شاء علماء الحقوق الدستورية ان يضعوا تعاريف لهذه السيادة أملا فى ايجاد حدود لها كأصحاب نظرية التحديد الذاتي حيث قالوا ان الدولة نفسها تقبل مختارة بعض القيود تحد بها من سلطانها كلما وجدت الى ذلك سبيلا أو من قال بفكرة حقوق الافراد الطبيعية حيث رأى انه توجد حقوق طبيعية للأفراد لم يكتسبها هؤلاء من الدولة بل هى ملازمة لأشخاصهم كآدميين وعليه فيمكنهم التمسك بهذه الحقوق على الدولة نفسها ويجب على الدولة احترام هذه الحقوق أو القائلون بنظرية القانون الطبيعي حيث توجد هناك مبادىء تمليها العدالة ويوحي بها العقل السليم تلزم الشارع نفسه . وفي الحق انه يصعب حماية

حقوق الأفراد اذا لم يكن الراي العام متيقظا ، والأفراد ملمين بما لهم ومقدرين ما عليهم . فهذه نظرية توزيع السلطات ، أو تقسيمها ، لم يقل بها قائلوها الا ليخففوا من سلطان هذه السلطات ثقة منهم اذا توزعت السلطة العليا نفسها الى ثلاث سلطات وراقبت احداها الأخرى امتنع الاخلال بحقوق الأفراد ، واستحالت اساءة استعمال السلطة سلطانها المطلق ، وحريتها غير المحدودة ومع ذلك نجد السلطة دائبة في طغيانها في البلاد التي يكون فيها الرأي العام ضعيفا ، أو جامداً . فسيادة الدولة اذن مطلقة لا تعرف حداً تنتهي اليه ، الا اذا كان هناك رأي عام متيقظ يقف لها بالمرصاد . فهذه القوة الخارقة اذن : كلما استعملتها عقول راجحة سليمة ، واضطلعت بأعبائها نفوس كريمة ، أمن الشعب من انتهاك حرماته ، واطمأن الى حقوقه ، ووثق بسلامته . فالنظام الذي يكفل حسن التصرف بهذه القوة ، هو النظام الجدير بالقبول ، الحري بالتنفيذ مهما كان الأسم الذي يطلق عليه حتى اذا كانت الديمقراطية الصحيحة نفسها تؤدي الى ان يتولى استعمال هذه القوة قوم غير صالحين ، علينا ان ننبذها ، درءاً للضرر المؤكد الذي تنتظره الأمة من ايديهم لأن انظمة الحكم انما وجدت لسلامة المجموع ، ولم توجد للفخر والمباهاة . أو للمباهلة والملاحاة . فبعد ان فهمنا ان الحكم صنعة ، لا يجوز ان يمارسها إلا الملمون بدقائقها ، المطلعون على اسرارها ، أو الذين لهم قابلية الألمام بهذه الدقائق والأسرار ، اصبح لزاما علينا ، ان ننحى عنها الغوغاء ، او الجموع التي لم تتهيأ لهذه الصفة لسبب من الأسباب لأننا ان عملنا خلاف ذلك انتهى الأمر بحكم الغوغاء ، وهذا النوع من الحكم كما قال افلاطون بحق يؤدي الى الفوضى ، والفوضى من شأنها ان تؤدى الى اضطرار الشعب الى ان يلتمس فى شخص رجل ما زعيما يقوده للقضاء على هذه الفوضى ، واذا ما قضى عليها كان ذلك الزعيم المستبد المنتظر ، فيتأسس حينئذ الحكم الفردي فالنتيجة واضحة

ومن السهل التنبؤ بها فكيف نتحاشى مخاطرها ، ونتخلص من اضرارها ؟ لا سبيل الى ذلك إلا بأيجاد نوع من الارستقراطية التى تقوم على الفضيلة والثقافة لا على الوراثة ، والامتيازات الخاصة ، والظلم والعدوان ونوع من ديمقراطية واعية مدركة وان نمزجها مزجا متقنا .

ان شكل الحكومة لا يهم كثيراً سواء كانت الحكومة جمهورية ام ملكية ، ام حكومة الجمعية كسويسرا ، فقد يطيب للشعب الاميركي مثلا الشكل الجمهوري بالصورة التي قبلها ، وقد يرى الشعب الانكليزي الشكل الملكي مما يتناسب وروحيته ، ويتلائم مع طباعه وتقاليده . فالمهم هو النظام الذي بموجبه تتسلم الايدي السلطة العليا ، وتمارس توجيه تلك القوة التى لا تحد ، وهي تتمثل بالسلطة التى تسن القوانين ، والسلطة التي تنفذ القوانين وتتصرف بشؤون العباد . ليس في الامكان حقيقة ان يفرض نظام معين ، على الامم جمعاء . لأن الامم تختلف من حيث القابليات ، وتتباين من حيث الأمزجة ، والعادات والتقاليد والطباع . ففرض نظام معين ، بتفاصيله ودقائقه ، على كل أمة مستقلة ضرب من الأعنات إذ يجوز لا يلائم بعضها غير النظام البرلماني ، أي نظام مسؤولية الوزارة امام المجلس التمثيلي ، كما قبلته بريطانية والمجموعة الدولية الأوربية ، واكثر دول آسية ، وافريقية المستقلة ، اوشبه المستقلة وبعضها الآخر غير النظام الرئيسي الذي يرمي الى فصل السلطتين التشريعية ، والتنفيذية عن بعضها كما قبلته اميركة ، أو جمع السلطتين فى المجلس التمثيلي كما ارتضته سويسرة ، أو تركية ، أو استونية ، والنمسة ومعظم الولايات الألمانية الداخلة فى تكوين الريخ كبروسيا وباڤارية . على ان معظم هذه الدول قد عدلت عن هذا النظام مؤخراً بعد ثبوت فشل هذا النظام ما عدا سويسرة وتركية فقد بقيتا محافظتين على دستوريهما . ولكن كل هذه الحالات لا تمنعنا عن بيان بعض الأسس العامة المهمة التى تكفل الغرض الذي نرمي اليه .

التكوين السياسي

اولا يبقى حق الانتخاب محفوظا للناخبين بالنسبة للشروط التى تعينها كل امة لأفرادها .

ثانيا : مع ان حق الانتخاب يكون بلا قيد او بقيود خفيفة للأفراد فان المنتخبين اي « ممثلي الامة » يجب ان يكونوا من طبقة مختارة يشترط فيهم ما عدا الاسباب المانعة عن الانتخاب ، ان يكونوا ممن تخرجوا من المدارس العالية . وهذا شرط له اهمية كبرى في تسيير السياسه التشريعية سيما في البلاد التي مستواها الثقافي ضعيف لأن المشرع يجب ان تكون له قابلية بحث القوانين بروح علمية . فالجاهل ، او قليل الثقافة لا يصلح لمهمة التشريع .

ثالثا : ان يكون ممثل الشعب ، ذا تجربة فضلا عن ثقافته لذلك لا يصح ان يكون عمره اقل من ٣٠ عاما على الاقل . وقد يقال ان العمر ليس امرا مهما وانما المهم قابلية الفرد للأستفادة من الحوادث التي تمر عليه ، والاحداث التى تقع في مجتمعه ، فكثيراً ما نجد شبابا قد ابدوا آراء كانت انضج من آراء الشيوخ . قد يكون هذا واقعا ولكن الاحكام تبني على الغالب الشائع لا على النادر الشاذ . وليس صحيحا ان يفسد على الشعب امره ، لأجل النادر الشاذ .

رابعا : ان يكون الوزراء الذين هم رؤوس السلطة التنفيذية قد ناهزوا الاربعين عاما وممن قد مارسوا القضاء ، او المحاماة ، او الاشتغال في مهام قانونية مدة لا تقل عن عشر سنوات فضلا عن الشروط المفروضة في الممثل عدا

الوزارات ذات الاختصاص . كالدفاع ، والبحرية ،والصحة وقد يظهر هذا الشرط غريبا ، وقد ينظر اليه كشرط تافه لا اهمية له . ولكن الحوادث العالمية ، قد اثبتت انه ضروري ولازم لسلامة المجموع ، وحفظ حقوق الأفراد ، واعتبار الدولة وكرامتها . ان الذين ينشأون فى الاوساط الحقوقية ويمارسون مهنة قانونية ، مدة من الزمن ، تكون فيهم ملكة احترام القانون وتقدير حقوق الافراد ، وحقوق المجتمع ، اقوى من غيرهم ، وانهم يكونون اشد حرصا على الوفاء بالتزامات الدولة القانونية ، والتقيد بالتعهدات الدولية وبالتالي يكونون اكثر رعاية للحق ، وحرمة للواجب وانه لفرق بين من ينساق الى احترام الحق ، وتقدير الواجب بدافع من نشأته ، وتربيته ،وطبعه وبين من ينساق الى ذلك بتأثير مفاجيء ، او اقناع بعد بذل الجهد فيه . ولقد دلت التجاريب على ان القانوني يسعى بقدر ما يستطيع الى ان يتجنب الاعمال التي تخل بأحكام القوانين او تؤثر في احكام القوانين او تؤثر فى حقوق الناس. وادارة الدولة ، اكثرها ، عبارة عن ايصال حق من آخر الى آخر او طلب تأدية واجب من فرد ، تجاه فرد آخر او تجاه المجموع . فالقضاة ليسوا هم وحدهم المكلفين برد الحقوق الى اصحابها ، وكثير من الحقوق ينظر فيها من قبل مصالح غير قضائية . وعدا صلات الدولة بالداخل فأن لها اتصالات فى الخارج ، مع المجموعة الدولية ، والقانونيون افضل المثقفين للقيام بهذه الاتصالات وتنفيذ الالتزامات المتأتية منها . نعم قد يكون من القانونيين من لم تكن لهم هذه المزايا او ان هذه المزايا لا تكون ظاهرة ملموسة في تصرفاتهم ، وقد نجد مثلا فى بعض العسكريين ، او المهندسين او الأطباء من هم اكثر رغبة فى احترام القوانين ، وانزع نفسا لأحقاق الحق ، وازهاق الباطل ، قد يكون ذلك ولكني كما بينت ان الاحكام لا تبنى على الشواذ وانما تبنى على الاغلب السائد . وان اكثر الازمات الخارجية الدولية ، والاضطرابات الداخلية ،

تتأتى من التساهل في الحقوق ، والواجبـــات ، او عدم الاعتداد بها كما ينبغي .

خامسا : ان الجمهورية كما بينا هي الدولة الصالحة للنظام الديمقراطي ، وان النظام الديمقراطي القائم على اساس الفضيلة لا يضر فيه تعدد الاحزاب بل ان تعددها مفيد ، فهي ـ كما وصفها مونتسكيو بحق ـ كنغمات الآلات الموسيقية المتعددة وان اختلفت نغماتها ولـكنها تخرج من مجموعها نغمات منسجمة متناسقة ، فالاحزاب في الجمهورية لا تخل في اتحاد الشعب ، ولا تفل من قوته ، ذلك لأنها جميعها تسيرها روحية واحدة ، هي الفناء في سبيل مصلحة المجموع ، ولـكن الأحزاب في غير الجمهورية ، تخل في اتحاد الشعب وتفل من قوته . وان تعددها لا يكون ذلك الانسجام والتناسق ، اللذين نلمسهما في الجمهورية . لأن المحرك اختلف ! فبينا كان في الجمهورية الفضيلة ، نرى هنا محركات بعيدة كثيرا عن الفضيلة ، محركات مبعثها الاختلاف في كل شيء ، في الثقافة ، في توزيع الثروة ، في التربية ، في التزاحم والتنافس في سبيل الجاه او المناصب او ما الى ذلك . اذن فان تعدد الاحزاب لا يصلح للشعب الآن . وقد ادركت شعوب كثيرة هذه الحقيقة فلم تسمح ان يتكون فيها غير حزب واحد . ولـكن هذا الحزب الواحد ، الذي نراه في الدولة الارستقراطية الفاضلة هو في الحقيقة مجموع افراد الشعب او اكثريته يسلـكها نظام حزبي واحد ، ومن لم يمل بطبعه الى السياسة او التقيد بقيود الحزب فله ان يكون مستقلا ولـكنه على كل حال عليه ان يكون عضوا في النقابة او الجمعية التي تمثل مهنته وعليه فأن هذا الحزب لا يشبه حزب السوفيت في روسية او حزب الشعب في تركية . وانما هو حزب يمد قبابه على ابناء الامة جمعاء . لا يجوز لفرد ان يبقى غير مرتبط بهذا الحزب بوشيجة من الوشائج ، فالنقابات والجمعيات التي تنظم اختصاصات الافراد ومسالـكهم تكون منضمة الى الحزب . وكل فرد واجب عليه ان ينضم الى نقابة من هذه النقابات ، او الى

جمعية من هذه الجمعيات كل حسب اختصاصه او مهنته فالزارع ينضم الى الجمعية الزراعية او فرعها الذي هو في منطقته ، والعامل الى نقابته ، والتاجر الى غرفته التجارية ، والمحامي الى نقابته الخاصة الخ . فهذه كلها تكون مرتبطة بالحزب . فالحزب اذن ليس مؤسسة سياسية فحسب وانما هو مجموعة مؤسسات تسعى في تنظيم صفوف الشعب وتدريبها ، وتثقيفها لتجعل منه وحدة لا تتجزأ ، وجبهة متماسكة لا يتطرق اليها الخلل . على ان الهيأة العليا للحزب وكذلك مراكز الجمعيات والنقابات والغرف لا يجب ان تنتخب الا من الذين اكملوا تحصيلهم العالي . لأنهم هم الرؤوس المفكرة ، والعقول المدبرة لجمعياتهم ، وغرفهم ونقاباتهم وهيأتهم .

سادسا : ان الصحف والمجلات لا يجوز ان يصدرها فرد وانما ذلك من حق الحزب او النقابات والجمعيات والهيئات والغرف المرتبطة به او شركات تكون ادارتها في ايدي حملة الشهادات العالية ، ذلك لأن الرأي العام لا يصح ان يتعرض لخطر الفساد والتشوش بينما الضرورة تستلزم صقله ، وتهذيبه ، وتوحيده وجعله في وضع يتمكن فيه من تمييز الحق من الباطل ، والرأي الناضج من الرأي الفطير . وان اكثر الاندفاعات الخطرة التي ابتلت بها مجتمعات هذا العصر ، مبعثها الاهمال في امر الصحافة والمطبوعات المؤقتة حيث قد اصبح تأثيرها فعالا بالنظر الى اتقان فن الطباعة والتفنن في طرق النشر ، وسرعة المواصلات . فحصر الصحافة بالحزب ومرتبطاته والشركات المستقلة ليس معناه منع حرية النشر فلكل مواطن ان ينشر رأيه ، وان يناقش نظرية خصمه فيها ويجادل ويحاور . فحرية النشر موفورة لكل فرد ولكن وفق نظام معين ، وطراز معلوم ولا فرق بين ان تكون الصحيفة او المجلة او الرسالة المؤقتة سياسية او غير سياسية ، لأن كل ما هو مطبوع اصبح في الوقت الحاضر ، ذا اثر بالغ في النفوس ، وفي العقول .

سابعا : لا يجوز لممثل الأمة ان يزاول صنعته او يشتغل في كل عمل ، ينتج له ربحا ذاتيا ، ولا يقبل هدية ايا كان نوعها ، ومن اية ناحية كانت ، ولا يمنح الأوسمة وشارات الشرف وذلك طيلة الدورة التمثيلية .

ثامنا لا يجوز الجمع بين التمثيل في مجلس الامة والعضوية في هيئات ادارة الحزب او ادارة المؤسسات المنضمة اليه طيلة الدورة التمثيلية وان يكن انتسابه باقيا للمؤسسة التي انتسب اليها ، كما انه لا يكون مديراً او عضو ادارة في اية شركة او مؤسسة مالية لها معاملة مع احدى الدوائر الرسمية للدولة .

فيفهم من هذه الاسس الخادمة للتكوين السياسي في كل مملكة مستقلة ان حرية الافراد في جميع انواعها مضمونة . فهم ينتخبون ممثليهم ، وانهم ينضمون في النقابة او الجمعية او الغرفة او الهيأة التي هم منها ، وانهم يستعملون حريتهم الفكرية واعلان آرائهم سواء في المجتمعات والنوادي والميادين ، أم عن طريق الخطابة أم الصحافة ، أم التأليف وانه في وسع كل فرد منهم ان يصل الى ارقى المناصب واعلى المراتب اذا توفرت فيه الأهلية والكفاءة اللازمتان . فمن هذه الوجوه لا نكون بعيدين عن النظم الديمقراطية المألوفة ولكن يقابل ذلك ان سيادة الدولة تودع الى ذوي الكفاءة من افراد الشعب . والطريق الى هذه الكفاءة مفتوح لكل فرد من دون تمييز فهي ليست وقفا على طبقة من الطبقات ، كما انها لا تتصل بشيء قليل او كثير ، بالدم ، او الثروة ، او الوراثة ، او فيها امتيازات خاصة تمنح لقوم ، وتمنع عن آخرين : فالكفاءة سبب يوصل الفرد الى المكان اللائق به من الاماكن التي منها تمتد سلطان سيادة الدولة ولما كانت الصحافة والمطبوعات ، والحزب ومرتبطاته مما لها صلة وثقى بهذه السيادة فقد فرضت في رياستها وادارتها الكفاءة ايضا فمن هذه النواحي لا نكون بعيدين عن الارستقراطية ، ولكن هذه الارستقراطية لا تقوم على اسس الدم والثروة والوراثة والامتيازات الخاصة

وانما على العلم ، والثقافة فهي ليست ارستقراطية غاشمة جاهلة ولكنها ارستقراطية فاضلة عالمة .

ان تحديد حرية الانتخاب ، من مقتضيات المصلحة العامة لان ممثلي الشعب الذين في ايديهم السلطة التشريعية يجب ان يكونوا ممتازين في ثقافتهم وعلمهم ، وتجربتهم ليستطيعوا ادراك حاجات الشعب ، والنفاذ الى روحيته لتكون قوانينهم ملائمة لها ، ولا تتنافر معها فالحرية لها حدود تنتهي اليها ، وآفاق لا تتجاوزها . وحدودها وآفاقها هي المصلحة العامة ، وكيف يقدر المصلحة العامة من كان جاهلا او قليل التجاريب ؟ وقد يقال ان المحذور الذي يخشى منه وهو انتخاب غير الاكفاء لا يزول في مثل هذا النظام ما دام الناخبون هم الناخبون الذين تعرف مبلغ نضوجهم العقلي ، واختباراتهم وقابلياتهم اي انهم هم الناخبون الذين عرفنا كيف تؤخذ اصواتهم قبل هذا النظام الا يجوز انهم ينتخبون غير الاكفاء ، ما دامت الشروط والقيود لم تتغير ؟ الجواب !.. ان الاهمية هي في المنتخب لا الناخب . ولما كانت حرية الناخب قد حددت بانتخاب الاشخاص الذين يجب ان تتوفر فيهم صفات معلومة ، وهذه الصفات رؤيت كافية لتطمين المصلحة العامة فلا يكون هناك اي ضرر يخشى منه لأن المنتخب يكفي ان يكون له من الكفاءة ان يلم بحاجة الشعب وان يناقش المشاريع القانونية بروح علمية . نعم قد يجوز ان الناخبين لم ينتخبوا الأفضل من بين المثقفين ، ولكنهم على كل حال ملزمون بأن ينتخبوا ممثليهم من المثقفين المفضولين ، على الاقل . فهذا النظام يمنع انتخاب غير الدارسين ، او الشباب الذين تعوزهم الحنكة في الامور هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان الحزب والمؤسسات المنضمة اليه هي التي تنظم الاعمال الانتخابية وتنسقها . وان هذه المؤسسات اودعت الى اشخاص لهم كفايات خاصة ، وقابليات منظورة .

وقد يلاحظ ان اعضاء هيأت الادارة لهذه المؤسسات التي هي صاحبة

القول النافذ في ترشيح الممثلين ، يستغلون فرصة وجودهم على رأس هـــذه المؤسسات فيرشحون انفسهم ويكون التمثيل الشعبي محتكراً لهم ، ومحصوراً فيهم . فأين هي الحرية في مثل هذا النظام ؟. ان هؤلاء ليسوا خطراً على الصالح العام اذا ما فازوا بالـكراسي التمثيلية لأن الصفات والقابليات المفروضـة فيهم تؤهلهم لتمثيل مصالح الشعب اولا وثانيا . ان هذا النظام يحرم الجمع بين التمثيل في مجلس الامة والعضوية في الهيئات الادارية لهذه المؤسسات . فاذا ما انتخب عضو الادارة ، الى عضويه المجلس التمثيلي وجب عليه اما ان يتنحى عن عضوية الادارة ويحتفظ فقط بانتسابه للنقابة او الجمعية ، او الغرفة واما ان يعتذر عن قبول عضوية المجلس . فالاستغلال اذا حصل ايضا يكون لمرة واحدة فقط لا اكثر . ولماذا لا تكون هذه المؤسسات كدور تدريب لممثلي الامة في المستقبل ؟. وثالثا . ان التمثيل هو كلفة لأن الممثل يكون ممنوعا عن الاشتغال في مهنته او مزاولة صنعته طيلة مدة الدورة التمثيلية فلا يقدم على عضوية المجلس ألا من خلصت نفسه من شوائب المادة ، وآثر الخدمة العامة ، على النفع الذاتي ذلك لأن التشريع كلفة والتطبيق اي (الحـكم) كلفة والتنظيم كلفة .

فالحزب بمؤسساته يكون كمنظمة عامة للشعب ، ودور تثقيف وتدريب لأبنائه ، ومراكز استشارية ، ومصادر علمية ، وثقافية ، للسلطة التنفيذية . وقد فرض على من ينتخب عضواً في المجلس التمثيلي من اعضاء ادارة احدى المؤسسات المرتبطة بالحزب ، او من اعضاء هيأته العليا ان يختار العضوية في المجلس او البقـاء في مركز الحزب او مؤسساته ليـكون الحزب في نجوة من التأثيرات التي قد يقوم بها هؤلاء الاعضاء المنتخبون للمجلس . لقد دلت التجاريب على ان زعمـاء الاحزاب حينما يفوزون بالكراسي التمثيلية . وتتكون منهم الحـكومة يسوقون الحزب ، ويسيرونه في اتجاهات لا تلتئم ومبادىء الحزب واهدافه . وبعوامل كثيرة وطرق متعددة يستطيع هؤلاء القابضون على شؤون احزب والحـكومة معا ، ان يكسبوا اصوات الاكثرية

وان يقدموا على امور خطيرة وهم آمنون مطمئنون من المؤآخذة . فاذا كان اعضاء الحكومة والمجلس التمثيلي لا يكونون في مراكز مؤثرة في الحزب فقد يجوز ان يكون الحزب قوة ثالثة تنظم شؤون الدولة فالسلطة التنفيذية ، عليها سلطة المجلس التمثيلي تراقبها ، وتعدل من اتجاهاتها ، اذا ما كان في اتجاهها خطأ وخطل ، والحزب يكون سلطة ثالثة تراقب كلتا السلطتين التشريعية ، والتنفيذية. فالحزب يكون هو المؤثر ، ومن انحرف من رجال السلطتين عن الطريق السوي ، وان كان لا يستطيع خذله ، واسقاطه فوراً ، ولكنه يستطيع القضاء على مستقبله . لأن الانتخابات تكون بيد الحزب ، لا بيد هاتين السلطتين . وعندما يراد تجديد انتخاب اعضاء المجلس ، تكون كلمة الحزب هى الحاسمة . واذا نشأت اختلافات بين السلطة التشريعية والحزب ، وارادت السلطة اقناع الحزب بوجهة نظرها فلها ذلك ، ولأعضاء السلطة التنفيذية ايضا ان يحضروا ويتصلوا برؤسائه ، ويخطبوا في اعضائه ، فالصلة لم تنقطع بينهم وبين الحزب وانما التأثيرات والنفوذ والسيطرة هى التي تنقطع .

التكوين الاقتصادي والمالي

ان الناحية المالية والاقتصادية من اهم النواحي المؤثرة في حياة المجموعات البشرية وتطورها ، فهي التي توجد الفروق الاجتماعية ، وتبعث نوازع الشر ، وتسبب الازمات ، والاختلافات والاضطرابات ، سواء في داخل كل مجموعة أم بين المجموعات البشرية بعضها البعض فمعالجة هذه الناحية تكون اولى الواجبات والزم المستلزمات في كل شعب واساس هذه الناحية هو حق الملكية . فمن الضروري ايضاحه وتقدير حدوده وتحديد مفاهيمه . وقبل ان نتناول بحث هذا الحق ، ارى من اللازم ان اتكلم عن المساواة ، والحرية ، اذ لها اتصال وثيق بهذا الحق الذي نحن بصدده

ان المساواة في كل شيء غير موجودة ، ولا يمكن ان توجد في اية مجموعة بشرية ، ذلك لأن قابليات البشر تختلف، طباعهم تختلف ، آمالهم وأمانيهم تختلف ، وبتعبير اصح ان الاختلاف بين ابناء البشر امر جوهري فيهم ، اصيل عندهم ، فاذا كان الاختلاف اساس الطباع البشرية ، فالمساواة بينهم تكون ضربا من الوهم والخيال . فليس صحيحا ان يعامل ، العبقري ، والمخترع ، ورجل العلم والفضل معاملة السوقي ، الكسول ، الخامل . ان التساوي بينهم ، سواء في الاحترام ، أم في الانفاق عليهم، أم طرز عيشهم انما هو الظلم بعينه . فالاختلاف في معاملتهم لازم وضروري . اذن فالمساواة لا يمكن ان تكون ألا امام القانون ، والاستفادة من القانون وتكافؤ الفرص . وهذا هو القصد الذي يرمي اليه احرار الناس حينما يطلبون المساواة ، ويرغبون في

تطبيقها في المجموعات البشرية . فالاوامر والنواهي ، والفوائد والموانع ، التي تنص عليها القوانين والشرائع ، يجب ان تكون ملزمة للجميع ، وممنوعة عن الجميع ، فلا يجوز اختصاص طبقة من الطبقات ، بالمغارم ، واخرى بالمغانم ولا ان يفلت فريق من عقاب ، اذا ارتكب عملا ممنوعا في القوانين ، ويدان فريق ، فالادانة تكون نصيب كل من يعبث بالقوانين ويخل بنظام الهيأة الاجتماعية التي سنت القوانين لحمايتها ، بهذه الصورة تتحقق المساواة . وكذلك الحرية فليس القصد منها اطلاق العنان لكل انسان ، ان يفعل ما يريد وينفذ ما يجول بخاطره من افكار . فالحرية هي ان يعمل الانسان ما يريد عمله ، ضمن نطاق القوانين . اي انه يعمل كل عمل ، يشاءه اذا اباحته القوانين او لم تمنعه عليه . فالتساهل في تنفيذ القوانين يهدم الحرية كما ان التشدد فيها اكثر مما يقتضي ، يعدمها كيانها ، فالحالتان تنتهي الى الاستبداد الاولى تنتهي الى الاستبداد عن طريق الفوضى ، والثانية تنتهي اليه عن طريق التحكم الظالم ، والاعنات . فأذا فهمنا ذلك . فلا نكون متجاوزين حدود المساواة اذا قلنا بتوزيع الثروة بين الافراد توزيعا عادلا . وان كان مختلفا ، كما لا نكون معتدين على الحرية اذا سمحنا لقوانين خاصة ان تنظم حق الملكية وتحدده تحديدا معقولا يتناسب وحالة كل مملكة ووضع كل امة .

وحق الملكية : هو حق بمقتضاه يوضع شيء تحت ارادة شخص يكون له دون غيره ان ينتفع به ويتصرف فيه في حدود القانون . وهو حق مطلق يتمسك به ضد كل الناس أي ان كل الناس مكلفون بالامتناع عن التعرض لصاحب الملك قانونا . وهذا الحق ضرورة اجتماعية ، ليس في مقدور النظم السياسية التي يفكر في تطبيقها في المجموعات البشرية ، ان تتجاهلها أو تنكرها مهما أوتيت من سلطان ، ومكن لها في الارض . ذلك لأن تجريد الفرد من هذا الحق يناقض وجوده وكيانه . والقوانين انما تستمد قوتها من ملائمتها لطبيعة الاشياء التي وضعت لها . فالحق بصورة عامة هو عبارة عن

فائدة مادية أو ادبية حتم القانون على الغير احترامهـــا ، ومنح صاحبها قـوة الانتفاع والتصرف فيها ضمن الحدود المرسومة . وان الحق ، نفسه ضرورة من ضروريات الحياة الاجتماعية . فلو ان الانسان يمكنه ان يعيش بمفرده لما وجدت ضرورة ليكون له حق أو يترتب عليه واجب وانما ينشأ الحق، في اللحظة التي يتصل بها الانسان بأخيه الانسان ولما كان مدنيا بطبعه لا غنى له عن هذا الاتصال ، اصبح الحـق امراً طبيعيا كذلك . وبنشـأة الحق ينشأ الونجب . لأنه لا يمكن ان يتصور حق من دون واجب ، ولا ان يكون واجب من دون ان يكون هناك حق مفروض احترامه . إذن فالحق ضرورة اجتماعية . والحق وان قسمه العلماء اقساما ونوعوه انواعا فهو لا يعدو فائدة أما مادية وأما أدبية . فالحقوق العامة، كحرية الرأي والمعتقد بانواعها ، أو سياسية كحق الانتخاب ، فهي وان كانت أدبية ولكنها فائدة يستعملها الفرد ، بقوة القانون ، وبقوة القانون يستطيع منع غيره من التعرض لدفيها. والقانون يحترم كلا النوعين من الفائدة . وقبل القانون احـترمتها التقاليد والعادات ، وهي من أقوى مصادر القانون . فتجريد الفرد من حق الملكية ، معناه تجريده من جميع انواع الفائدة المادية . أي كل ما يقوم بمال، ويقدر بنقد . وهـذه هي الثروة ، والثروة اذا لم تكن قابلة للتملك فما هي فائدتها ؟ .

ولماذا الماركسيون يرون للدولة حقا في التملك ، ولا يقرون للفرد بهذا الحق وما الدولة الا مجموع الأفراد القاطنين في المملـكة المعلومة الحدود وهل اذا جرد الافراد من هذا الحق ، واعتبروا اصفارا لا قيمة لهم من هذه الناحية تكون للدولة قيمة وهي مجموعهم ، ومجموع الاصفار صفر ؟ ان الدولة تستمد قوتها من هؤلاء الافراد ، كالنهر تتكون امواهه من ذراته وقطراته ، او كالخط يتكون من النقاط المتصلة بعضها ببعض . فكما انك اذا حللت امواه النهر ، غاض ماءه ، او محوت النقاط اندرس الخط ،

كذلك الدولة اذا جردت افرادها من قواتهم، او من حقوقهم، بتعبير اصح، تلاشى اثرها، وانمحت معالمها. وقد يقال اذن كيف تقوم هذه الدولة الضخمة، الدولة الروسية السوفيتية على هذا الاساس، حيث جعلت الدولة اساس كل شيء، ومجتمع كل الحقوق؟ اني اجيب على ذلك بكلمات قليلة لأني لا اريد في هذا المقام، ان اتعمق في تحليل المبادىء السوفيتية وبحث حسناتها ومساويها، وهذه الكلمات تلخص بما يأتي: ان الدولة الروسية اضطرت الى ان تعترف بحقوق الملكية الجزئية للأفراد بعد ان ثبت لديها عقم محاولتها في تجريدهم من هذا الحق. وهذا الاعتراف وحده كاف للقضاء على فكرة نكران حق الملكية للأفراد وهو دليل مادي يثبت كون هذا الحق، ضرورة اجتماعية لا غنى للأنسان عنها. لأن عدم الاعتراف بهذا الحق للافراد يضعف فيهم قوة الانتاج الفكري، ويوهن فيهم غريزة النشاط، ويعدم فيهم كل قابلية. والأنسان انما تدفعه في حياته الى مجالات الاعمال النافعة، والمشاريع الضخمة، والى الابتكار والابداع، الآمال والاماني فاذا انعدمت خبت جذوة ذكائه، وانطفأ ضياء روحه، واختفت ومضات فكره ومع ان روسية قبلت بمبدأ حق الملكية في نطاق ضيق، فهم الروسيين لم تسم سموها المنتظر، ولم ير العالم او الحضارة القائمة، عقولا مبدعة وادمغة مفكرة من الطراز الأول في الاوساط الروسية في هذه الايام. ذلك لان قوة اندفاعهم ونشاطهم حددتها الآفاق الضيقة لآمالهم وامانيهم وها انهم، يندحرون امام امة نفوسها تقل عن نصف نفوسهم وسر هزيمتهم واندحارهم ليس في قلة جيوشهم، او ندرة وسائلهم الحربية وانما هو في عدم قابلية القائمين بقيادة جيوشهم وفي نقص ثقافة المدبرين لشؤونهم، ولوهن نفوسهم، وهذا امر طبيعي فلماذا يرهق اصحاب القابليات الفكرية نفوسهم ويضني العبقريون اجسادهم ويمعن البحاثون دقة وتمحيصا في بحوثهم، وهم يرون الفرق بينهم وبين غيرهم يسيرا او يجدون موردهم ضحلا، لا يكاد يسد عوزهم، وفي

بحاجتهم والانسان انما يعيش للحاضر، وللمستقبل . ويكدح لينال النعمى، ويفوز برغد العيش في زمن الشيخوخة وليربي ابنائه تربية يرضاها، ويرفه عنهم في حال حياته وبعد موته، وهذه الغريات ليست متيسرة في ظل النظام القائم ؟ (١) ان القوانين، وانظمة التربية وقواعدها، لها تأثير في تكييف النفوس البشرية ليس هناك شك في ذلك ولكن توجد نواميس طبيعية، وقواعد اجتماعية ازلية، ليس في مقدور هذه القوانين، او تلك الانظمة والقواعد التربيوية هدها من آساسها واقتلاعها من جذورها وحق الملكية حق اوجدته ضرورة الحياة الاجتماعية، وفرضته النواميس الطبيعية لن تؤثر في اساسه

---

(١) ان الروس قد انتصروا في هذه الحرب بلا ريب ولكن خصمهم وهم الألمان لم يدحرهم التفوق الروسي العلمي . وانما دحرتهم الكثرة أولا ونضوب موارد الوقود والمواد الخام ثانياً والغارات الألفية التي كانت تقوم بها قوات الحلفاء الغربيين الجوية ثالثاً وجاسوسية الحلفاء الراقية، العلمية رابعاً : وتعدد الجبهات التي كانوا يحاربون فيها خامساً : فالألمان اذا كانوا في السياسة غير ماهرين، مهارة الأنكليز وغيرهم من حلفاء الانكليز الغربيين فانهم ما زالوا المبرزين في ميادين العلم والصناعة . أما الروس فلم ينشأ فيهم علماء عالميون كعلماء الألمان حتى ولا العلماء الانكليز والاميركيين . لقد كانت تدير معاملهم الصناعية وبيوتهم العلمية قبل دخولها الحرب، عصبة خبراء من غير الروس لقد كانوا خليطاً من ألمان وانكليز واميركيين وغيرهم وكذلك في اثناء الحرب، واما بعد انتصار روسية في الحرب فانها قد اختطفت الجانب الاكبر من العلماء الالمان . وان القنبلة الذرية التي هي معجزة هذا القرن انما كانت نتيجة الجهود العلمية التي قام بها علماء الالمان وعلماء الانكليز والاميركيين . وقد ظهرت هذه المعجزة في الولايات المتحدة الامريكية ولم تظهر في الارض الروسية، فالخطر الروسي الذي يخشاه العالم، ليس ناشئاً عن قابليتها العلمية والثقافية وانما عن مبدأها الذي يجوز ان يشجعه ما اصاب العالم من دمار شامل نتيجة هذه الحرب العالمية، والنشاط في تلقين مبدأ لا يفيد التفوق في ميادين العلوم والصناعة سيما اذا كانت ظروف موانية لا دخل لارادة الروس في احداثها . فهذه الآراء التي دونتها حينما كانت روسية تتراجع، اعتقد بصحتها في هذه الايام ايضاً ولو ان المعسكر الغربي ينشط الى رفع مستوى الامم المعاشي ورفع الحيف عن الامم المظلومة والمحكومة من قبل الدول الاستعمارية ويسعى لان تكون انظمة حكم صحيحة في الممالك التي فسدت انظمتها لأصاب الدعاية الروسية خذلان واي خذلان .

وجذوره، القوانين الوضعيه ، والنظم الكيفية . نعم ! يمكنها ان تنظمه وتنسقه ، تجلوه وتصقله، فهذا امر ميسور ، وكل من له نزعة انسانية ، ونفس كريمة ، يسعى في سبيل تحقيقه ، ويبذل قصاراه في تيسير ما عسر فيه. والحقوق على مختلف انواعها قد تناولتها يد التنسيق والتنظيم واصابها الصقل والجلاء ، باقدار متفاوتة وصور مختلفة . وقد يقال ، ويقال بحق ان حق الملكية كان اقل هذه الحقوق عناية من ناحية التنسيق والتنظيم ، وابعدها عن الصقل والجلاء اذا قيل مثل هذا القول، فانه قول حق ، يجب الانصات اليه ، والانقياد له . ذلك لأن المدنية القائمة مدنية مادية نفذت ماديتها ، الى كل وسط . وتغلغلت في كل شيء . فنظم التربية العامة تأثرت بهذه المادية ، وسياسة التقنين والتشريع اتجهت اتجاهاً ماديا ، والصناعة ، والقائمون بالصناعة من اصحاب رؤوس اموال ، وعمل ، كانت تسود اتصالاتهم المادة ، فكل شيء اصبح تحت تأثير المادة لذلك توزعت الثروة توزيعا غير عادل فتقلبت فئة بالنعماء ، واضطربت فئات في البأساء والضراء . واشتدت الخلافات بين المنتجين الحقيقيين وهم العمال والصناع ، مع اصحاب رؤوس الاموال ، وامتلأت صدور الجميع بالشحناء والبغضاء . وامعن الاقوياء في ارهاق الضعفاء ، مستغلين القوانين التي سنتها المدنية المادية ، واستبدوا بهم استبدادا اليماً . فكانت ثورات وكانت اضطرابات تهيجها كلما سكنت احن واحقاد دفينة وتثيرها كلما هدأت، عصبيات ونزعات كامنة وفي الحق . ان اكثر الثروات الضخمة انما تكونت بطرق محرمة ، ووسائل غير مشروعة . وانك لترى شخصا كان رأس ماله قليلا ، او ليس له رأس مال اصلا ، نمت ثروته وتكدست امواله الكثيرة في ايام خاطفة ، وزمن يسير . والربح المشروع لا يمكن ان يجمع مثل هذه المبالغ الطائلة في مثل هذا الزمن وانما العوامل التى ادت الى التضخيم والتكثير هي عوامل تنبوا عنها الطباع السليمة ، والنفوس الكريمة والاخلاق الفاضلة . فهؤلاء المثرون إما انهم ينتهزون نكبة عالمية

عالمية ، او حربا شاملة ، فيستنزفون ثروات واموال المستهلكين ، او انهم يرشون اصحاب النفوذ ورجال التشريع ليستصدروا منهم قوانين او أوامر في اختصاصهم بأمتياز او نوع من الاحتكار أو انهم يستصدرون سندات مالية وهمية ، أو يقومون بمضاربات خطيرة الاثر أو يؤلفون شركات من دون رؤوس أموال ، يعتمدون فى تأليفها على المكر والدهاء ، اكثر من اعتمادهم على الطرق المشروعة لاستحصال الثروة ، أو انهم يستغلون السيطرة السياسية الموالية لهم ، فيعبثون في الاوساط المالية في داخل بلادهم أو خارجها ، سيما اذا كانت البلاد الخارجية تحت نفوذ دولتهم واستعمارها ، فأنهم يستصفون الاموال ، والخزائن والكنوز التي فوق تربتها ، وتحت اطباق تربتها . والحاصل فان اكثر الطرق التي استعملت وما زالت تستعمل لتكوين الثروات وتضخيمها جاءت خلاف القواعد القانونية ، أو ضد المبادىء الأخلاقية ومنافع المجموعات البشرية . وان ثروات تتكون بمثل هذه الطرق ، من الواجب اعادة النظر في أمرها وهذه حقيقة لا ريب فيها ، فقد بحثها كتاب عالميون ، وعلماء فطاحل لا تتناولهم الشبهات . وليس في وسعنا ان نورد أمثلة لأن ذلك يكون بمثابة تكرار لما أثبته هؤلاء من جهة ومن جهة أخرى فان الشواهد المادية ، من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة . وان اكتناز الاموال من قبل فريق من الناس ، وفقر الفرقاء الآخرين هما العاملان لكل هذه الاضطرابات المادية والروحية التى نشاهد آثارها السيئة في المجتمعات البشرية فاذا حاول المصلحون تثبيت حق الملكية على اسس منطقية ، وقواعد قانونية ، لا تضر بمصلحة المجموعات البشرية ، ولا تحد من آمال الافراد وامانيهم ، فى هذه الحياة فلا تكون هذه المحاولة ، ظالمة ، او منافيه للمبادىء الحقوقية .

لكل حق من الحقوق المتنوعة التى يتمتع بها الانسان حدود ينتهي بها ، ونطاق لا يتعداه ، فحرية الرأي والنشر مثلا هي من أعز الحريات التي يحرص عليها الانسان ومع ذلك فليس صحيحاً ان تكون مطلقة ، فهي محدودة

بمصلحة المجموع فمتى اصبح الرأي مضراً بهذه المصلحة وجب الوقوف في سبيله . وكذلك حرية المعتقدات ، والأديان فانها موصولة بأمر النظام العام فاذا اخلت به اقتضى الحد منها بالقدر الذي يستسيغه هذا النظام . حتى ان حق البقاء في هذه الحياة ، لا يستطيع الانسان ان يتصرف فيه كما يريد ، فهو ليس له حق تعذيب نفسه ، ولا قتلها ، فمتى ما شعرت السلطة المكلفة بمحافظة النظام العام ، بعزم انسان ما على الانتحار تبادر الى منعه فوراً وعاقبت محرضه او مساعده ومعينه في هذا العمل ، بل من القوانين ما عاقب الشارع في الانتحار نفسه . وهذا حق للسلطة العامة لاغبار عليه ، اقتضته المصلحة العامة ، وفرضته الواجبات الاجتماعية . وكذلك فان الانسان ليس حراً في التصرف في امواله اذا كان مسرفاً مبذراً لا يعرف وجوه الانفاق فالسلطة العامة حجره ومنعه عن التصرف في امواله . اذن فالسلطة العامة ، لها حق تثبيت الحقوق وتنسيقها وتنظيمها ، وتعيين الطرق الملائمة للاستفادة منها سواء كانت هذه الحقوق عامة ام خاصة ، مادية ام ادبية ، وعلى هذا الاساس ينبغي اعادة النظر في امر حق الملكية . واول ما يسترعي النظر في امر حق الملكية ، ماهو ذو صلة بتوزيع الارض وكيفية التصرف فيها . لأن ملكية الارض ليس فقط تؤدي الى تضخم الثروة اذا كان توزيعها متفاوتا ، وتقسيمها لا يستند الى قواعد مطردة ، وانما تؤدي الى فروق اجتماعية خطيرة ، وتكوين طوائف وفرقاء متناكرة متناحرة ، وبالتالي فانها تؤدي الى تفسخ المجتمعات من الناحيتين الروحية والمادية . ان روما لما كانت ملكية ثم جمهورية وكانت مقتنعة برقعة ايطاليا ، كانت ترتع في بحبوحة من النعيم ، وتعيش في ظل الدعة والهناء والهدوء ذلك لان توزيع الارض كان متساويا ، وتقسيمها بين الجند والافراد كان متساوقاً فلا نزعات الغيرة والحسد كانت تحرك العداوة بين الافراد ، ولا التفاوت في الطبقات الاجتماعية كان بسبب التخاصم والتناحر كان الرومانيون كلهم يفكرون في روما ، ويعشقون روما . وكانت سلطة

السناتو تشمل الافراد المدنيين ، والجنود وقوادهم على السواء ،وكان الاحترام لها من هؤلاء متساويا في القوة . ولم يكن هم الجميع غير خدمة روما ، وبذل دمائهم وما يملكون في سبيل شرف روما وكرامتها . ولكن لما ضاقت ايطاليا بالرومانيين وطمعوا في خارجها تغير الحال تماما . بينما كان السناتو هو المؤثر في الشعب وفي الجند وفي القواد ، اصبح القواد المنتصرون خارج البلاد الايطالية ، الفاتحون لبلاد فيها الشيء الكثير من اسباب الرخاء ، ومن الثروات والكنوز الثمينة ، اصبح هؤلاء يشعرون بنزعة استقلالية عن سناتو روما واوامره ، وكلما بعدت بهم الديار ، وشطت المسافات بينهم ، وبين وطنهم الاصيل ، كانت روح الانصياع المركز تضعف فيهم والطاعـة للقائمين بشؤون الوطن الأم تقل ، ولما كانوا يعودون بجيوشهم المتشبعة بروح الفتح ، السكري من سلافة النصر ، ويدخلون روما وعلى رؤوسهم اكاليل الغار معقودة تتبعهم احمال الاموال واثقال الخزائن والكنوز التي ظفروا بها ، كانوا يستولون على الاراضي بطرائق شتى فاضطرب بذلك نظام التقسيم المتبع ، وتغير اسلوب تملك الاراضي واصبحت الارض بعد زمن يسير وقفا على طائفة معينة ، وحرمت منها طوائف كبرى اخرى ، وزاد في ذلك مادخل روما من الخزائن والكنوز ، فكثرت اسباب الزينة ، وتنوعت ، وضرب الترف بجرانه على ذلك الشعب العسكري ، الولوع بالبساطة ،فتفرق الى طوائف متباغضة متحاسدة ، وانقسم على نفسـه ثم مال الى البطر فضعفت روحه ، وتجرد عن كثير من المقومات الاخلاقية التي كانت السبب في قوته وعظمته . فكانت نهاية روما الغربية واندثارهـا . وهكذا كانت الانتصارات المتعاقبة السريعة مبدأ لانحلال ذلك الشعب العسكري القوي الغيور. لانه بعدما كان يرى الجنود وقوادهم، روما هي الكل في الكل ، والسناتو هو صاحب السلطان المطاع اصبح القواد يشعرون باستقلالهم عن هذا السلطان والجنود مرتبطين بقوادهم فكانوا في نظرهم ، هم روما ، وهم سناتوها

وبينما كانوا يحاربون فى سبيل روما ولأجل الشرف اصبحوا يحاربون فى سبيل الاثراء، واصابة الاموال وادخار الطرائف واقتناء اكبر مساحة من الارض، واشادة اضخم الابنية عليها. فلو كانت روما احتفظت بقواعد تقسيم الارض وحرصت على ان تكون البنايات الضخمة، الباهضة الكلفة هي البنايات الحكومية كما كانت عليه في اول امرها وطيلة الحكم الجمهوري فيها، لكان يجوز انها لم تلاق حتفها بتلك السرعة، وتلفظ انفاسها بين سموم الترف ومخدرات النعيم. فتوزيع الارض امر حيوي، فى كل مجتمع انساني ولست ارمى تبعة انهيار روما الغربية على التفاوت في توزيع الارض فقط، وانما اقول انه كان السبب الاول واما الاسباب الاخرى فقد تفرعت عنه حيث اخذ اصحاب النفوذ، والقواد والرؤساء والذين حملوا الى روما خزائن البلاد المفتوحة واموالها، اخذ هؤلاء يتنافسون في الاستيلاء على الارض وفي انشاء البنايات الضخمة عليها، والتزويق والتنميق. واقتضى هذا التنافس في اسباب الزينة واقتناء الرياش الفاخرة، والأثاث والاواني الثمينة، الاندفاع الى حياة مترفة، لم يكن قد ألفها الشعب، والى عيش رغيد لم يكن قد تعوده فضعفت روحه وانحطت كفاءته من ناحية ومن ناحية سرت في النفوس امراض التنافر والتنابذ، وعصفت في اوساطهم ريح الخلافات لما كان بين طبقات الشعب من فروق واضحة. ولا يعترض على هذا الرأي بأن الاختلاف فى الثروات، وما صارت اليه الحالة في روما نتائج طبيعية لسياسة الفتح والتوسع!.. قد يكون ذلك اذا لم تتخذ اسباب الوقاية ولكنها اذا اتخذت، فقد يجوز انها كانت تحول دون المصير الذي صارت اليه سياسة روما التوسعية وغيرها. على انه ماذا تفيد الامة التى طمعت فى سياسة التوسع، والفتح، اذا كانت تعلم ان نتائجها تنتهي بموتها واضمحلالها؟ والعبرة ليست في الفتح والتوسع وتوالي الانتصار وانما العبرة فى الاحتفاظ بحيوية الامة وكيانها، ثم الاحتفاظ بما حصلت عليه عن طريق الفتح والتوسع والانتصارات.

ان الامبراطورية العربية ، التي ادهشت العالم في فتوحاتها السريعة ، وانتصاراتها الرائعة ، ما لبثت ان تخاذلت رويدا رويدا ، وقد بدأت فيها اعراض التخاذل والانحطاط وهي في فجر حياتها . لأن الانتصارات في الوقت الذي تجلب فيه الخيرات الى الأمة المنتصرة ، وتدر عليها البركات فانها تحمل في طياتها جراثيم الانحلال والاضمحلال اذا لم تتخذ الاسباب المانعة . فكما ان روما الغربية كانت انتصاراتها سريعة كذلك كانت نهايتها سريعة ، وكما ان الامبراطورية العربية كانت انتصاراتها ، سريعة فكذلك كانت خاتمتها . اخلت روما بالمساواة في توزيع الارض فادى اخلالها بالكوارث التي اجتاحتها ، وكذلك الامبراطورية العربية فأنها لما اخلت بالمساواة في التوزيع ظهرت عين الاعراض التي ادت بروما الى الهلاك ، ولو اتبع امراء المسلمين ما اتبعه ابو بكر ، وعمر ، وعلي ، لكان يجوز ان تدوم حياتها اكثر ، ولكان سلطانها اقوى ثباتا . وفي كل مجتمع انساني اصيب بأسباب الاضطراب والانحلال تجد السبب الرئيسي لكل ذلك هو عدم العدل في توزيع الارض واذا كان قد اصبح التساوي في تقسيم الارضين في الوقت الحاضر امرا متعسرا فيجوز ان توضع قواعد تبين الحدود العليا ، لمقادير الارض التي تكون قابلة للتملك او للتصرف فيها . صحيح ان الارض تختلف بعضها عن بعض من حيث قوة الانبات ، ومن حيث بعدها عن العمران او قربها منه او بعدها عن وسائل النقل او قربها منها ، ومن حيث وعورتها او سهولة الاستفادة منها او ريها ، ولكن هذه الامور يمكن ان تؤخذ بنظر الاعتبار حين تقدير المقدار الاعلى الذي يجوز تمليكه او تفويضه لكل فرد . او لكل بيت (عائلة) . فاذا اخذنا طرائق توزيع الأرض الجارية في العراق مثلا نجد ان هذه الطرائق قد ادت الى ان يتفوض ويتملك فريق من العراقيين ، مقادير من المساحات تكفي لتأسيس دولة فيها ، او اقامة جمهوريات اكبر حجما ، واكثر نتاجا من جمهوريات يونان القديمة . مع ان الاكثرية

الساحقة من العراقيين لا تملك كوخا تأوي اليه او خربة تستظل في ظلها فما معنى ذلك ؟ وكذلك نجد الحالة في الامم الاخرى وحتى في الامم الاوربية كبريطانيا وفرنسة او في اميركة على اختلاف جمهورياتها .

فخير طريقة تعالج فيها ملكية الأرض ، هي تحديد الحد الأقصى للمساحات التي تكون قابلة للتمليك أو التفويض ففي العراق مثلا يجوز ان يكون الحد الأقصى خمسة آلاف من الدونمات الجديدة للأرض الخصبة أو القريبة من العمران وعشرة آلاف للوعرة أو البعيدة عن العمران . وقد تكون هذه المقادير كبيرة بالنسبة لبعض الممالك ، و قليلة بالنسبة لغيرها ففي بريطانيا تعد كبيرة مثلا ، بينما في اوستراليا تعد قليلة بالنسبة لازدحام السكان او قلتهم ، ووسعة رقعة المملكة او ضيقها وان هذه المقادير تكون بالنظر الى الأرض التي تستغل للزراعة : وأما الأرض التي تستغل لغرض السكنى والاجارة يجب ان لا تتجاوز بالنسبة لوضع العراق ، اكثر من خمسة دونمات . وهذا التحديد لا يكفي وانما يجب ان يشفع بتحديد آخر هو ان بنايات الدور او الاماكن التي تعد للسكنى للأفراد يجب ان تكون متواضعة او بتعبير اصح ان تكون مستوفية اسباب الراحة لغرض السكنى ، ويترك أمر انشاء الأبنية الضخمة للدولة ، فهي التي تنشىء البنايات الضخمة لدوائر الدولة والمستشفيات والمحلات العامة والمعارض والحدائق وما الى ذلك . والسبب في هذا التنظيم ، هو ان يقل التنافس بين الأفراد في أنشاء البنايات الضخمة ، وبالتالي يقل التنافس في اقتناء اسباب الزينة وأدواتها ، فضلا عن ان هذا الوضع يجعل أبنية المدينة أكثر تناسقا وأشد التآما ، وأجمل منظراً ، فجمال المناظر لا يكون بالأبنية الضخمة وانما يكون بالأبنية المتناسقة المتلائمة البناء . ثم هذا الطرز من البناء لا يثير كوامن الحقد والبغضاء في الطبقات الفقيرة حيث ان يشير الى قلة الفروق بين الطبقات . كما ان تجزءة الارض الى أقسام صغيرة ، أو غير مفرطة في الاتساع لتسهل توزيعها على اكثر عدد ممكن من أفراد الشعب . فلا ينفرد

افراد قلائل ، باراض واسعة ، وتحرم الاكثرية لعدم قدرتها على مجاراة الاغنياء فى هذا المضار وكذلك تكون الرغبة في اعمارها ، والحرص على بقائها في حالة العمران اكثر مما لو ان الاراضي واسعة ، ومالكيها قلائل فقد يدفع البطر ، باصحابها الى ان يهملوا القسم الكبير منها ، اذا ما رأوا ان ما يأتيهم من الوارد من القسم المعمور يفي بحاجتهم أو يفيض عليها

والتحديد الثاني يكون فى الوارد لكل فرد . سواء كان هذا الوارد من تجارة أم صناعة أم زراعة أم حرفة أم مسلك أم وظيفة أم ملك على شرط ان لا يكون هذا التحديد مؤثراً في نشاط الانسان وقابليته ، ودافعا به الى اليأس والقنوط في آماله وأمانيه . فالانسان يجهد فكره ويجهد نفسه ويواصل سعيه ليظفر بثروة يتمتع هو ، وأفراد عائلته بخيراتها فاذا حيل بينه وبين هذه الثروة فقد يقعده اليأس عن العمل ، ويصيب نشاطه وقابلياته فتور . فحق امتلاك ثروة مناسبة ضرورة اجتماعية كما بينا آنفا . ولكن هذه الثروة يجب ان تكون معقولة لا تتجاوز حدود المنطق ، وان لا تضر في الصالح العام . وان فكرة ان الثروة لا تعرف حدوداً كما قال سولون ، فانها ليست فكرة صحيحة . وكما ان لكل حق حدوداً وآفاقا معينة فان لحق امتلاك الثروة حدوداً وآفاقا ايضا ، وهذه الحدود والآفاق يجب ان تعينها القوانين في كل مجتمع انساني . وان التضخم في الثروات ، وما انتج من اسباب أودت بحياة الأمم الحالية وما زالت تدفع بالأمم الحاضرة الى عين المصير انما نشأ عن اهمال هذه الناحية فكما ان امتلاك الثروة اصبح ضرورة اجتماعية فتحديدها كذلك امسى اشد ضرورة واكثر لزوما درءاً لتجميد النقد ودفعا لتضخم الثروات . وهذا التحديد هو عبارة عن بيان حد اقصى للأرباح والمنافع حتى اذا ما وصلت ارباح الانسان حدها الاقصى المعين في القانون وجب ان يكون الزائد عنه نصيب خزينة الدولة . فمملكة مثل العراق ، قد يكون من المناسب ان يكون حد الاقصى لواردات الشخص

المختلفة الصافية فيها لايتجاوز الألفي دينار في الشهر أي اربعة وعشرين الفا من الدنانير في العام الواحد . ان الثروة انما تبتغى ويقصد اليها ، لأجل ان يعيش الفرد عيشة هانئة وان تنقذه وذريته من العوز والفاقة ، فتجمدها واكتنازها ، أو تبذيرها والاسراف فيها كل هذه الحالات فضلا عن انها لا تفيد صاحبها ، فهي تضر فيه وتضر في الصالح العام وتؤثر في قوة التداول في الأسواق . وقد تختلف الممالك بالنسبة لوسعتها ، وقلتها ، وازدحام السكان فيها أو قلتهم ، وطرق معيشتهم وكثرة النقد فيها أو قلته ، وكذلك تختلف اساليب حياتهم بالنظر الى ان البلاد زراعية ، أو صناعية أو غير ذلك. فتحديد الحد الأقصى يكون بالنسبة للأوضاع المختلفة التي عليها البلاد المختلفة . فالمبدأ الذي يجب ان يكون ضالة الجميع ، هو تحديد الثروات عن طريق فرض حد أعلى لمختلف الواردات الصافية التي يحصل عليها الفرد

هذان مبدأن عامان اساسيان لا مندوحة لنا من اتباعهما اذا أردنا في المجتمعات البشرية تكويننا ماليا اقتصاديا رضيا . ويتفرع عن هذين المبدأين ما يأتي : ١ ان تكون سياسة فرض الضرائب سياسة قويمة تكفل المصلحة العامة ، والعدالة المطلقة لاسيما ضريبة الدخل فيجب ان تكون متصاعدة حتى اذا ما بلغت الأرباح الحد الأعلى المقرر كانت الضريبة مئة بالمئة . ب ان التوارث مبدأ مقبول. فالانسان من أعز امانيه ان يكفل الحياة الناعمة لنفسه ولذريته عدا ذلك فان التوارث قائم على اساس التعاون وتقابل المغارم بالمغانم فكما ان المورث في حال حياته اذا اصابه عجز ، ونابته نائبة وجب على ذريته القادرة على اعالته ، ان تعيله وان تقوم بأوده فعلى المورث ان يترك لذريته أموالا تستفيد منها . فمبدأ التوارث فضلا عن انه من لوازم الطبائع البشرية ومن مطمئنات الرغبات الانسانية فانه قائم على أساس التعاون وهو امتن أساس تقوم عليه المجتمعات البشرية ولكن اذا كان احتمال العوز والفاقة قد انعدم في الذرية ، حيث كان لها ما يكفيها ويزيد على

الكفاية فلم يبق اي سبب للتوارث . فالوارث اذا كان ما يحصله في العام من مختلف أنواع مصادر الواردات ، قد بلغ الحد الأقصى المقرر في القانون فلا يرث ولذلك من كان يمتلك الحد الأقصى من الأراضي ولم يكن مدينا عليها فليس له ان يرث . واذا كان مدينا علىها يؤدي الدين من نصيبه في الأرث والباقي تستوفيه خزينة الدولة . ومع ذلك تفرض على الأموال الموروثة الضريبة المتصاعدة بالنسبة الى نصيب كل وريث على ان يعين حد أدنى للأموال الموروثة لا تستوفي منه الضريبة ، فمثل هذا النظام ، يكفل مصالح الأفراد ، ومصلحة الهيأة الاجتماعية فهو لا ينكر حق التوارث كما ينكره الشيوعيون ولا يترك الحبل على الغارب ، ويسبب تضخيم الثروات وتجميدها بدون أسباب تبرر ذلك . ويتبع في الوصية عين الترتيب . ج - يمنع الوقف الذري ويسمح بالوقف الخيري فقط . د - تمنع المضاربات في الأسهم والسندات المالية . هـ - تمنع اليانصيبات والأعمال التي يكون سنادها الحظ لا المهارة ، كسباقات الخيل والألعاب السركسية وما الى ذلك مما يفيد معنى المقامرة ، لأنها تستنزف أموال الأفراد وتوردهم موارد التلف

و - تكون بعض الأعمال التجارية من حق الدولة أما لمحافظة قوة تداول النقد ، أو للاشراف على حركة التجارة وتدوير الثروة العامة كأعمال البنوك (الصيرفة) وأما لتأمين سلامة المواصلات والتخفيف عن كاهل الفرد ، كأعمال البريد والبرق والسكك الحديدية ، والتنوير وأسالة المياه وما الى ذلك وليس ضروريا ان تضع الدولة يدها على المعامل والصناعات والمشاريع حتى اذا كانت الصناعات صناعات ثقيلة والمشاريع ضخمة لئلا يضيق مجال العمل ، على الفرد وانما لها ان تتدخل اذا وجدت اسبابا مبررة تقتضيها مصلحة المجموع لايعترض على هذا التحديد ، بأنه يؤدي الى وقف الأعمال الكبيرة التي تفيد منها البلاد ، ذلك لأن مبدأ تأليف الشركات ، سيما

شركات « الانونيم » قد الفته المجتمعات البشرية وان رؤوس الأموال الضخمة تتكون من اشتراك الأفراد والمساهمة فيها . وان المشاريع الكبرى من طبيعتها ان تدار من قبل شركات لا من قبل افراد قلائل . وان كان قد قام ببعضها افراد معدودون فهذا نادر .

ان هذه التدابير ليست كل ما يقتضي اتخاذه لتنظيم الثروات القومية وانما هناك تدابير ، فيما له صلة بتنظيم التجارة بين الممالك والشعوب ، من حيث التصدير والتوريد ، والمعاملات الكمركية ، وتركيز النقد العالمي على اسس ثابتة ، ومن حيث حرية التجارة او تقييدها ، وتوفيق التعامل بين الممالك الزراعية ، والممالك الصناعية ، وتنظيم وسائل التبادل فيما بينها ، ومن حيث تثبيت الصلات على اسس متينة بين اصحاب رؤوس الاموال والعمال ، وبين هؤلاء والمستهلكين والى غير ذلك من الامور ذات الاثر الخطير في حياة الامم وتطور ثرواتها القوميه وهذه التدابير اما ان تكون في الدرجة الثانية فليس من الضروري بحثها في هذا المكان ، واما ان تبحث في مكان آخر اكثر مناسبة واقرب موضوعا . والتنظيم المالي والاقتصادي هو المنبع الفياض الذي تستمد الشعوب منه الحياة ، كما ان فساده مصدر كل النوائب والنكبات . وناحية خطورته تنبعث عن صلته المباشرة باخلاق الشعب وبانسجامه واستقرار الامن فيه أولا . ولقد اصبح من الحقائق الثابتة ان الامم باخلاقها وانها ان فقدت اخلاقها فقدت كيانها وحيويتها وبالعكس . ولكن لماذا تفسد الاخلاق وما هي عوامل هذا الفساد ؟ فالتحليل العلمي ، اثبت ان جراثيم الفساد تنبعث عن عدم توزيع الثروات توزيعا صحيحا ، ومن الاخلال الذي يطرأ على التنظيم المالي والاقتصادي . نعم قد ترافق هذه الجراثيم جراثيم اخرى وتتعاون جميعها على القضاء على حياة امة من الامم ، ولكن سبب الضعف المباشر ، والاصيل ، هو ما يجيء من ناحية فساد التنظيم المالي والاقتصادي فمثله كمثل جرثومة السل فان تعلقت بجسد الانسان اخذت في

اضعاف قابليته للمقاومة . وقد يطول عمر المريض بداء السل او يقصر بالنسبة الى تكوينه الجسدي والموانع الموجودة في داخله او عدم وجودها وبالنظر الى موانع خارجية ، تؤخر نهايته او تعجلها فاذا كانت بنيته ضعيفة . ولم يتدارك نفسه في المعالجة انتهت حياته بسرعة ، واذا كانت قابلية المقاومة في جسده قوية ، او قد تهيأت له اسباب خارجية ، من معالجة سريعة ، او مكان نقي الهواء ، وعيشة ناعمة فقد يتأخر يومه . ولكنه على كل انه مريض ، وحياته محفوفة بالخطر ، ويومه يقترب رويداً رويداً . وقد يصادف ان تغزو جسده جراثيم اخرى فتعجل نهايته نتيجة للاختلاطات التي حصلت حيث جسمه المتخاذل لم تعد فيه قابلية المقاومة . وبقوة هذه الحقائق نستطيع ان نفسر سرعة انهيار امة وتأخر غيرها من الانهيار مع ان داءها واحد ، فالامبراطورية الرومانية الغربية لاقت حتفها بسرعة بينما الامبراطورية الرومانية الشرقية عمرت بعدها عصورا مع انهما كانتا مصابتين بعين الداء ، وقد وصلتا الى احط دركة من دركات الانحلال الروحي والضعف الاخلاقي والفوضى الاجتماعية . وذلك لأن الامبراطورية الشرقية قد تهيأت لها موانع خارجية لم تتيسر للاخرى . ان برابرة الشمال (الهون) لما اجتاحوا روما الغربية لم يعبروا البحر الى روما الشرقية اي القسطنطينية لأنهم لم يكونوا ذوي خبرة ومهارة في صناعة السفن كما انهم لم يتعودوا حياة البحار ولا حروبها . فكان البحر الاسود وبحر ايجه وما بينهما من مضايق الدردنيل كل هذه كانت تؤلف موانع طبيعية وقفت حائلا دون الفاتحين الجدد وفي الجنوب كان ملوك العرب الصغار مشغولين بانفسهم يقتل بعضهم بعضا ، ويدمرون بلادهم ، ويخربون ديارهم ، بأيديهم مدفوعين بارادة الامبراطوريتين الشرقيتين(١) فما كانت الامبراطورية الشرقية فى خطر من ناحيتهم ولم تكن فى الشرق دولة يحسب لها حساب غير الدولة الايرانية وهذه لم تكن باحسن

---

(١) الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البزنطية

حالا من الامبراطورية الشرقيـة وكان من المتوقع ان تقضي الامبراطورية العربية الفتية عليها وبالفعل قد حصلت المحاولة وسيطرت على كثير من الاملاك الخاضعة للامبراطورية الشرقية ، ولـكن هذه الامبراطورية العربية الجديدة التي كانت قد ادهشت العالم في سرعة ، نموها ، قد دب فيها الفسـاد وهي في فجر حياتها ، وانشغلت بالاختلافات الداخلية من اجل الخـلافة عن اتمام محاولاتها هذه ،وبقيت الامبراطورية الشرقية تردد انفاسها ، وتنشم الهواء ،وان كان الداء العضال ، قد انهكها ولم يبق منها إلا خيالا ورسما . واي دليل اصدق على مبلغ ترديها ، وانحطاطها من امعانها في الاختلافات الدينية واقتتال رجال حزبي الزرق والخضر بحماسة فيما بينهم والسلطان محمد الفاتح يخترق اسوار العاصمة ويتغلغل بجنوده في صميمها ؟ فالاسباب التي كانت تؤجل مصير الامبراطورية الشرقية كانت اسبابا خارجيه فلو كانت هناك دولة ذات قوة حربية قريبة منها، لما بقيت متأخرة عن اختها في الغرب . وكذلك الدولة العربية في اسبانيـا وان عمرت ثمنمائة عاما ، ولـكن اعراض الداء فيها قد لاحت في آفاقها واستقرت في ربوعها ولم ينصرم عليها ، عصران اثنان ، حيث توزعت الى امارات ، وانما بقيت هذه الامارات تعيش عيش المسلول الذي لا رجاء فيه ستمائة عاما اخرى ، لأسباب خارجية . حيث ان الامم الاوربية كانت تتخبط في ظلام الجهل ، وكانت تتقاتل وتتنابذ فيما بينها فكان الكل منها والـكل من الامارات العربية شغل في نفسها يحول بينها وبين التفكير في جاراتها المشرفة على الموت واما بقاء الامبراطورية العثمانية مدة اكثر مما كان يجب ،فراجع الى التوازن الدولي ، وما تحتله من موقع جغرافي خطير . وان التفكير في القضاء على هذه الامبراطورية كان منذ عهد لويس الرابع عشر اي قبل القضاء على الدولة البولونية في النصف الاخير في القرن الثامن عشر ولقـد اصبح الدردنيل على الامبراطورية العثمانية ، والجمهورية التركية في الوقت الحاضر ، نعمة لا تقدر ، ومنحة آلهية لا تثمن بثمن . فكل دولة عظيمة تطمع

فيه ، وكل دولة من هذه الدول المتنافسة تمنع غيرها من الوصول اليه . وانما ارادت الامبراطورية البريطانية في عهد وزارة لويد جورج ان تضرب ضربتها القاصمة وتنشب مخالبها في هذا المضيق الخطير الشأن ولكن سرعان ما وجدت منافساتها امامها يحبطن مساعيها . فايطاليا الحانقة مما اصابها من الخيبة في توزيع الاسلاب على المنتصرين في الحرب الكونية السابقة وفرنسة التي أبت على حليفتها ان تزدرد هذه اللقمة الدسمة قد خيبتا آمال لويد جورج وحكومته كما ان روسية بعد ان استردت عافيتها كانت قد قدمت بحماسة مثيرة للاعجاب مساعداتها لزعيم الحركة الوطنية انذاك في الاناضول حرصا على بقاء هذا المضيق في يد جارتها الضعيفة بالنسبة اليها ، وخوفا من ان تقع يدها عليه دولة قوية ، كالدولة البريطانية ، وهي تريده لها ، ان لم يكن في المستقبل القريب ففي المستقبل البعيد . فمعاونة روسية لتركية في الابقاء على حيويتها وعلى كيانها لم تكن وليدة مبدأ ، او حب للخير المحض كما يتوهم الواهمون . وانما كانت وليدة النفع الذاتي ، والمصلحة الشخصية . فلو انها كانت تشفق حقيقة على حريات الامم ، لما سارعت في القضاء على دويلات البلطيق المسالمة واشتبكت مع احداها فى حرب دامية وهي لم تأت امراً يستوجب اللوم بله الحرب . فالقصد من كل هذه الملاحظات هو التدليل على ان اختلال النظم الاقتصادية والمالية في كل امة يؤدي الى موتها ، واما موتها فانه يتقدم او يتأخر بالنسبة الى ما في كل امة من موانع وقابلية مقاومة في الداخل واسباب مانعة ومرجئة في الخارج وهذه الامبراطوريات التي ما زالت في الوقت الحاضر تعالج سكرات الموت ، داؤها كان وما يزال في فساد النظام المالي والاقتصادي والفساد فيه أدى الى الفساد في النواحي الاخرى .. والبحث يطول ان اردنا ايراد الأمثلة الكثيرة في هذا الموضوع .

وقد يرد سؤال وهو ان بريطانيا وامبركا ما زالتا تنموان وتتضخمان برغم ان توزيع الثروة والممتلكات بين افرادها متفاوتا والفروق الاجتماعية

بينة واضحة بين الطبقات . والأخذ بأسباب الترف والزينة وصل الى اقصاه
إذن ، يجب ان نتحرى اسباب اضمحلال الأمم في غير هذه الاسباب . اذ لو
كان التفاوت الكبير في توزيع الثروة وما تنتجه من فروق اجتماعية ،
العوامل المباشرة لزوال الأمم ، لكانت كل من بريطانية واميركا فى
طليعة الامم الزائلة ؟ وقد تؤيد الظواهر صواب هذا الرأي ، ولكن
حقائق الاوضاع فى هاتين المملكتين الضخمتين الغنيتين المترفتين
تزيد ما ذهبنا اليه تأييداً ، وتمكيناً . قلنا ان موانع الانحلال وقابليات المقاومة
في كل امة اذا قويت تستطيع ان تدفع عنها عادية الزوال وتدعها تعيش
الى عصور وآجال ولكن هذا لا يعني انها ليست مريضة ، وانما يعني
تأجيل الاجل الى وقت ما . فبريطانية واميركة ليستا سالمتين من هذا الداء
الوبيل الذى وصفنا اعراضه وآثاره ولا ناجيتين من المصير الذي ينتظرها ،
ان لم تعيدا النظر فى تكوينهما المالي والاقتصادي . فبريطانية فيها من موانع
الانحلال الخارجية ، وقابليات المقاومة الداخلية الشيء الكثير ، وهذا هو
سر بقائها حية . فمن اسباب الموانع الخارجية ، موقعها الجغرافي ، وصعوبة
غزوها والوصول اليها ، لكونها محاطة بالبحار ومنفصلة عن اوربة .
فاحتفظت بكيانها ، وتقاليدها ، وعنعناتها او ان التطورات والتغييرات في
هذه النواحي الروحية كانت بطيئة على قلتها . ولو كان وضعها الجغرافي
غير هذا لوجدناها متوزعة اشلاء ، ومنتشرة هباء منذ زمن ووضعها
الجغرافي هذا فضلا عن انه جعل غزوها صعبا ، فقد سبب احتفاظها بخلقها
وسجاياها النفسية التي بلا شك كانت فى اول امرها قوية وما زالت القوة بادية
فيها الى الآن برغم ما اعتراها من وهن واسباب اخرى حفظت الخلق
البريطاني ، ونشاطه وحيويته من التدهور السريع ، هى الطرق التي استعملها
البريطانيون في توسعهم ، سواء من حيث الممالك ، ام من حيث الثروة . فالشعب
البريطاني وان لم يكن في الذكاء ، وقابلية الابداع في الدرجة الاولى ،

ولكن الطبيعة عوضته عن هذا النقص بسجايا نفسية قلما تجدها في غيره من الشعوب الحية في الزمن الحاضر . فالصبر ، والجلد والتروي ، والتأمل في تقرير القرارات الحاسمة ، والمرونة في التطور من حال الى حال كل هذه جعلت من هذا الشعب صخرة لا تزعزعها الزوابع ، ولا تزحزحها من مكانها الأعاصير . فالبريطاني يفكر قبل ان يقول ، ويحضر اسباب البناء ، ويضع التصاميم ، قبل ان يبتدأ في البناء . واذا بدأ في العمل ، بدأه في هدوء وسكون واستمر في عمله بهذه الروية وبرودة الدم . واذا تخللت عمله مصاعب ، احتملها ، ومشقات صبر عليها حتى يقهرها . واصبحت له قابلية الاعتبار بالحوادث الماضية واخطائها فيتجنبها بقدر الامكان . فبريطانية بدأت عظمتها في الثلثمئة سنة الاخيرة اما قبلها فقد كانت جزيرة قليلة السكان ، ضئيلة الموارد . وكانت الثروة فيها ليست بالدرجة المغرية وكان توزيعها لا بأس به . وانها لما بدأت عظمتها في خلال هذه السنين الثلثمئة ، ونهدت الى توسيع ممتلكاتها جعلت الروية شعارها ، فلم تندفع في هذا التوسع بسرعة ، فكانت كلما ضمت اليها ملكا جديدا ، تريثت زمنا ، تحكم اسباب بقائها في هذا الملك الجديد وتسن النظم والشرائع الكاملة لاحتفاظها به ، وبعد ان تنهي عملها ، تستأنف خطوتها الاخرى في سبيل توسع آخر . لذلك كانت هذه المدة الطويلة ، سلسلة انتصارات بطيئة ولكنها محكمة نوعا فرما تداعت امبراطوريتها بسرعة لأن توسعها كان سريعا ، والعرب تلاشى امرهم في زمن قصير ، لأن فتوحهم وانتصاراتهم كانت من حيث السرعة يكاد العقل ان لا يصدقها . فالفتوحات السريعة ليست خيراً ، كما تبدوا لاول نظرة وانما هي بالعكس تؤدي الى الزوال السريع . لأن قلة الزمن لا تعطى مجالا للفاتحين لكي يتخذوا التدابير الكاملة للاحتفاظ بهذه الفتوحات من جهة ، ومن جهة اخرى تغري النفوس الى النزوع الى البطر والترف والى اكتناز الثروة والتصرف فيها تصرفا غير حكيم كاليائس الذي يفاجأ بثروة طائلة

او كنز دفين على حين غرة فهو لا يدري كيف ينفق ، ولا يعرف في اى سبيل يبذر هذه الثروة . فينغمس فى لذائذه ، وينشغل فى امتاع نفسه وينسى كل شيء . فتوسع بريطانية الهطىء المحكم ، قد علمها كيف تستحوذ على ثروات الامم لتضخم ثروتها ، وافهمها كيف تنفق هذه الثروة وتستفيد منها ، فى بلادها . وانها منذ منتصف القرن التاسع عشر اخذت تعني عناية متصلة ، بحالة العمال ، والطبقات الدنيا وتوسع عليها . ومهما كانت الفروق الاجتماعية كثيرة ، وتوزيع الثروة متفاوتا في الجزيرة البريطانية فعلى كل حال ، ان الطبقات الدنيا ، فيها أسعد حالا من مثيلاتها في البلاد الأخرى اذن فالأسباب المقومة لبريطانية ، هى موانع خارجية ، وقابلية مقاومة داخلية . ولكن مع ذلك فانها ليست غير مريضة ، فأعراض المرض ، قد تفشت في اوساط مجتمعها ، والعوامل الأقتصادية والمالية اخذت تعمل عملها ، في اضعاف بقيتها وتطغى على موانعها وقابلية مقاومتها ، ولأجل ان تنهار وتتداعى ، تحتاج الى صدمة قوية ، وما اكثر هذه الصدمات .في مثل هذه الأيام الحبالى بكل عجيب ، اللهم إلا اذا تداركت امرها واعادت النظر في وضعها المالي والاقتصادي بصورة جدية وسلمت من الصدمات. وما قيل في بريطانية يصح ان يقال فى اميركة . فان احاطتها بالمحيطات ، ومكانها النائي وتعقبها سياسة عدم التدخل فى شؤون غيرها من القارات . كل هذه اسباب خارجية كفلت بقائها ودوامها وخطة الرئيس مونرو ، ما كانت إلا خطة دفاعية افادت اميركة افادة كبرى حيث جعلتها فى نجوة من التنازع والتنافس على خيراتها ، وممتلكاتها . وعدا ذلك فان اتساع رقعتها وخصوبتها واحتوائها على المواد الخام المتنوعة التي تؤمن اغراضها فى التجارة والصناعة ، وعدم ازدحام السكان فيها ازدحاما يؤثر على المعيشة فيها ، كل هذه كانت اسباب مقاومة داخلية قاومت تسرب الانحلال والفساد اليها بصورة سريعة وان الشعوب الاميركية لم تشعر بشيء من الضيق ، إلا فى فجر هذا العصر لذلك نجدها قامت بتحديد

الهجرة اليها ، واخذت تعيد النظر في اوضاعها المعاشية ، وأمورها المالية والاقتصادية . وان التفاوت في توزيع الثروة والفروق بين الطبقات لا تؤدي الى انحلال السجايا ، والى اثارة الحفائظ والاحقاد إلا اذا ضاقت خيرات المملكة بهنيها و كانت هناك طبقة مترفة منعمة وطبقات أخرى يعتصرها الجوع ، ويهيض اجنحتها العوز والفاقة . وهذه الحالة لم تكن موجودة في اميركة قبل القرن العشرين لفيض خيرات اراضيها على حاجة اهاليها . ولكن مشاكل اميركة قد بدت كما بينت منذ فجر هذا القرن وزاد وضعها سوءاً نبذها خطة مونرو واخذها بسياسة التدخل في شؤون غيرها من القارات ، اي اشتباكها في الاقتتال العالمي ، والتنافس القاري فهي اليوم مريضة ، ومرضها ينذرها بمستقبل قاتم ومصير فاجع .

ولا يقلل من شأن الأسباب المالية والاقتصادية التي بحثناها ، كون الأمم لها اعمار ، وآماد لابد وان تنتهي فيها حيويتها وتلفظ عندها انفاسها فالأمم قد تعيش اكثر اذا اعتنى في امرها ، وعولجت مشاكلها على ضوء الحقائق الاجتماعية التي تيسر للانسان رؤيتها ، والقواعد العلمية التي استطاع العقل ابداعها بل قد تخلد وتؤبد في حياتها ، وبقائها .

التكوين الاجتماعي !

ولعل الناحية الاجتماعية هي اهم النواحى كافة ، واعظمها خطورة لأنها تتصل بالروح وتمتزج بالخلق العام للشعب . ولا يغض من خطورتها ، بحثها بعد الناحية السياسية ، وعقيب الناحية المالية والاقتصادية . انما تقدم البحث فى هاتين الناحيتين ناشيء عن الشعور بفداحة اضرارها ، وعظيم فسادها اكثر من الشعور بآثار الناحية الاجتماعية . وان كانت الاولى نتائج اضطراب الاخيرة ، وحصاد ما بذرته ،ذلك لأن الاضرار المادية في كل وقت تكون اشد ظهورا ، واسرع نفاذا في النفوس وافعل فى العقول من الاضرار الروحية او بتعبير اصح ان الانسان يحس بالاضرار المحسوسة المباشرة قبل الأضرار غير المرئية وغير المباشرة وان كانت الاخيرة ابقى اثراً وامضى داء واشد إيلاما . واول خطوة فى تنظيم التكوين الاجتماعي يجب ان يستهدف فيها تقويم الارواح وتهذيب الطباع . فواجب الامهات في بيوتهن والآباء والمرشدين والمدرسين في مدارسهم ، وفى محلاتهم ، ان يغرسوا فى النشىء السجايا الفاضلة ، والاخلاق الكريمة ، وبعد ان يتم النشء دراسته وتثقيفه ويدخل معترك الحياة ، من الضروري ان يرى فى رؤساء صنعته او اصحاب معمله ، وفى الجمعيات التعاونية ، والمؤسسات السياسيه التي ينخرط فى سلكها ، وينتظم فى عقدها ، مثلا حية ناطقة ترتسم فيها المزايا والسجايا ، والخلال الحميدة فعلا وقولا . وعلى السلطة العامة ان تسن اللوائح وتشرع القوانين لتنميتها فى النفوس وتقويتها . كالحق والعدل ، والمساواة والحرية ،

والعفة والنزاهة ، والشجاعة والوفاء ، والسخاء والبذل ، وحب الخير ، والتفاني في سبيل المجموع وتجريد النفوس من الانانية والطمع كل هذه لها معانيها الواضحة ، وعلاماتها البينة وتعاريفها السهلة ، وانما عقدها الانسان وابهمها لمقاصد مادية وغايات ذاتيه . فضاعت حقائقها ، وانطمست روائعها فاصحرت النفوس واجدبت الوجدانات وتاهت العقول . وليس لهذه الحالة النفسية الأليمة من علاج الا حملة قوية يقوم بها رجال التربية والتعليم ، واختصاصيو العلوم الاجتماعية لشرح الصدور ، وتنقية الضمائر مما علق بها من ادران ، وشابها من شوائب . فالانسان مثلا يجب عليه ان يحب وطنه ، ويفخر بقومه ولكن لا يعنى هذا ان يدعي التفوق على الغير ، ويطمع في حرية الغير ، وما يملك من مال وارض . ويستعبده ويستذله . فليس شرطا لحب الوطن ، وللفخر بالقومية ،ان يستتبعها العدوان على وطن الغير وقوميته ومقدساته هذه اسباب يتمسك بها المستبدون ، او يتعلق بها من يطمع في البغي والعدوان ليس هناك تفوق عنصري . ودماء نقية واخرى فاسدة .لا يؤيد هذا الادعاء علم ، ولا يقره منطق ، وبهذه المناسبة اود ان اتناول هذه الفكرة ، فكرة التفوق العنصري بشيء من التفصيل .

ان التفوق العنصري ، او تفضيل دم على آخر ، وترجيح امة على امة هذه الفكرة ليست حديثة في الوجود وانما هي قديمة وان اختلفت آفاق وابعاد ، هذا التفوق . فكثير من الامم ادعت التفوق لنفسها وتركت الامم الاخرى في مكانة اقل درجة او درجات منها .

وان افلاطون من قبل كان قد فرق بين الشعوب واعتبر الشعب اليوناني فوق كل شعب وذلك حين بحث النفس الانسانية وقسمها الى ثلاث قوى وهي القوة الشهوية اي القوة الشريرة المنحطة التي تصدر عن الاحساسات والتي يسودها عنصر اللذة والالم بالمعنى الحسى الخالص والقوة العاقلة وهي القوة العالية النبيلة والقوة الثالثة التي تتوسط هاتين القوتين وتسمى باسم القوة الغضبية

حيث قال ان الناس ليسوا متساوين في احرازهم لهذه القوى فعند البعض تسيطر القوة العاقلة وعند البعض الآخر تسيطر القوة الغضبية وعند فريق ثالث تسيطر القوة الشهوية وهي احط القوى الثلاث والاختلاف هذا كما انه يقع بين الافراد فانه واقع بين الاجناس والامم ولما كان اليونانيون في رأيه يمتازون بسيطرة القوة العاقلة على بقية القوى فهم افضل من غيرهم . واما الشماليون فانهم يمتازون بسيادة القوة الغضبية وان الفينيقيين والمصريين يمتازون بسيادة القوة الشهوية فترى من هذا التقسيم النفسي ، ان افلاطون يفضل الامة اليونانية على الامم الشمالية نفسها لأن ألامم الشمالية في نظره تسيطر عليها القوة الغضبية الحالة التى تجعلها اقل من اليونانيين درجة ، وأعلى من المصريين والفينيقيين درجة ، والمعروف ان الامم الشمالية اليوم هي التى ترفع لواء نظرية التفوق الجنسي ، ونقاوة الدم .

والمصريون القدماء كانوا يقولون بنظرية التفوق العنصري حتى انهم كانوا لا يسمحون لأجنبي ان يجلس معهم على مائدة واحدة وقد صرحت التوراة بهذه الحقيقة في معرض قصة النبي يوسف عليه السلام .

وبنوا اسرائيل كانوا يرون شعبهم هو الشعب المختار الذي اصطفاه الله من بين الشعوب وفضله عليهم تفضيلا . وارسطوا فضل العرق الابيض على غيره من العروق . واختص الشعوب الاوربية بهذا العرق واعطاها حق التفوق . والفرس القدماء ادعوا عين الادعاء والعرب في جاهليتهم وفي اسلامهم كانوا يقولون بالتفوق العنصري حتى ان اعتصامهم بهذه الفكرة قد ادى الى حروب طاحنة بينهم وبين غيرهم من الشعوب . ولعلهم في جاهليتهم كانوا اشد تمسكا بهذه الفكرة . ولا ننس ان حربا عوانا كانت قد نشبت بين الفرس وعرب العراق حين رفض احد ملوك الحيرة العرب ان ينكح ابنته من كسرى الفرس على جلالة قدره ، وعلو جنابه . ولما جاء الاسلام وازال الفروق بين العناصر ونطق فرقانه بأن لافضل لعربي على عجمي ألا بالتقوى وشدد في المساواة

لم يقو على القضاء عليها بالمرة فلما زوج صاحب الرسالة زينبا من زيد وكان مولى قامت قيامة قريش وثارت حميتها حتى انتهى الامر بطلاقها وتزويجها من صاحب الرسالة نفسه اصلاحا للحالة ، وتسكينا لثورة النفوس وقامت الامبراطورية الاموية فى الشرق ، والاموية في الغرب على سياسة التفوق العنصري هذه السياسة التي عاونت كثيراً على هدم صرحيهما ففكرة التفوق العنصري ليست حديثة العهد ، كما اوضحت ، فليس غريبا اذن ان نسمع اليوم عين النغمة ، وان تكرر امامنا المآسي الماضية . ويلوح لي ان قوة السلطان ، والشعور بالمكنة والسيطرة ، هما الحافزان لهذه الدعوى الباطلة والموريان لهذه النار المحرقة فاليوم ان قامت المانية تدعى بالتفوق العنصري ، او ايطاليا الفاشستية تجمع شتات الامبراطورية الرومانية المنقرضة ، فانما سبب ذلك ماوصلتا اليه من القوة والسلطان. على ان البريطانيين والاميركانيين ليسوا بأقل تشبثا بهذه الفكرة . والحقائق الثابتة تنطق فصيحة بأن الانكليز اكثر اعتزازا بعنصرهم، واغتراراً بدمهم ، من جميع الامم الاوربية وانهم فوق ذلك اثقل وطأة وامعن احتقاراً لغيرهم من الشعوب سيما الشعوب التى ساقها جدها العاثر ، الى ان تكون في قبضتهم وتحت تصرفهم . فهذه الشعوب الافريقية وهذه الشعوب الاسيوية ، من هنود ، وعرب ، وصينيين وغيرهم . هل ينظر اليهم البريطانيون اكثر مما ينظرون الى الحيوانات السائمة ؟. لم يقف بهم الامر الى ان يستصفوا ثرواتها ويستحوذوا على كل ذى قيمة في بلادها ، او ان يتحكموا فى ابنائها ، ويتصرفوا في ارواحهم وعقولهم ! بل انهم يمعنون في احتقارها ، لا لأنها شعوب في نظرهم اقل قدرا ، واوطأ مكانة ، من ان تتسامى اليهم ، او تتساوى في حالة من الحالات . وكذلك الاميركيون فكيف يعاملون الشعوب الحمراء ، والصفراء ، والسوداء في ممالكهم ، سيما السوداء منها ؟ ان تاريخهم حافل بالجرائم المنكرة ، عامر بالمجازر الدامية ضد هؤلاء الضعفاء المساكين . فما هو التفوق العنصري الذي يلومون عليه المانية

اليوم اذا لم يكن ما يقومون به بالفعل هو ابشع صورة لهذه الفكرة ، واظلم ناحية من نواحيها ؟ ان المانية ليست من الشعوب المستعمرة حتى يستطيع الباحث ان يحكم الى اي مدى تنفذ فكرتها في التفوق العنصري نعم كانت لها مستعمرات معينة محدودة قبل الحرب الكونية الاولى . ولكن التاريخ ينصف المانية كثيرا ويقرر انها كانت ارحم قلبا ، والين عريكة ، وارفق معاملة بأبناء مستعمراتها من الدول المستعمرة الاخرى سيما البريطانيين والفرنسيين . فالفرق بين الالمان ، والانكليز ان الاولين ، يقولون بفكرة ، ولكن الاخيرين يطبقونها بالفعل وان اولئك كانوا بشعوب مستعمراتهم رفيقين وعليهم هينين وهؤلاء اشداء متعسفين وبالتالي فان الالمانيين يقولون بهذه الفكرة اشباعا لميولهم الفطرية حيث فطروا على التنسيق والتنظيم فارادوا ان يشملوا الاجناس البشرية بأسباب التنسيق والتنظيم ويطبعوها بطوابع خاصة ليسهل عليهم تفريقها وتصنيفها نظريا واما الآخرون فقد فرقوا وصنفوا ونسقوا بالفعل ولغرض التحكم والاستعباد . فأي فريق اخطر على حياة الامم ، في ادعائه التفوق العنصري ؟ ان ادعاء العنصر الانكلو سكسوني بالتفوق العنصري اكثر اغراقا من الالمان انفسهم ، بل انهم يضعون الالمان في درجة اوطأ بكثير من البريطانيين والاميركيين . وهذا المستر (ستودوارد) مؤلف كتاب الحقائق العنصرية في اوربة . وهو من افاضل الكتاب الاميركيين ومن المع رجال العلم فيهم يسوق الادلة ويورد البراهين . في كتابه الذي قال انه نهج في وضعه نهجا علميا محضا ، ليصل الى نتيجة واحدة هي ان الشماليين « النورديكيون » هم انقى دما ، وارقى عنصرا من الاقوام الاوربية الاخرى وان الانكليز والاميريكانيين انما تجري في عروقهم دماء هؤلاء النقية واما الالمان فلم يبق فيهم من هذه الدماء شيء اذن فهم ليسوا كالانكليز والاميركيين في نقاء الدم ، ورقي العنصر لماذا ؟ لأن حرب الثلاثين عاما كانت قد امتصت منهم الدماء

النورديكية واستصفت منهم حيوية النورديكيين ونشاطهم ، فأي جاهل خامل ، او معتوه يصدق هذه النظرية ويقول ان الانكلز الذين سبق ان حكمتهم قبائل شعوب البحر الابيض المتوسط ، او ان الامريكيين الذين اختلطت دماؤهم بالدماء الحمراء والسوداء ، وامتزجت ببعضها امتزاجا لا يقبل التحليل ، ان دماء الامير كيين هذه تظل نورديكية سليمة ، وشمالية نقية ودماء الالمانيين قد اصابتها اللوثة ، وتطرق اليها الفساد ، والشعوب الاميريكية خليط ، مزيج ، من كل نوع من شعوب الارض ، الاوربية ، والافريقية والآسيوية بالاضافة الى ما كان في اميركة من سكان حمر ؟ اي انسان له مسكة من العقل وذرة من الذكاء يستسيغ مثل هذا الضلال ، ويقبل هذه المهاحكات ؟ وهكذا تضيع الحقائق العلمية في خضم النزعات السياسية ، وهوس النفوس المندفعة بدوافع الطمع والأنانية وحب استعباد الغير . ان الكاتب اراد ان يوثق عرى الروابط بين الشعوب الانكلوسكونية ، ويوفق بين الشعبين البريطاني والأميركي ، فاختار مثل هذا الموضوع العلمي البحت وسخره لأغراضه السياسية . فخلق من دماء البريطانيين والاميريكيين دماء نقية راقية ومن دماء خصومهم الالمان دماء ملوثة اصابها الانحلال . ولماذا اعتني في هذا العصر بترويج هذه الفكرة هذا الاعتناء ، فاذا كان لخير العلم ولمجرد الظفر بحقائق تاريخية ، فلا العلم يؤيد هذه الفكرة ، ولا الحقائق التاريخية تقرها . واذا كان القصد منها ايجاد وسائل لاثبات حق الشعوب القوية في السيطرة على الشعوب الضعيفة فلا داعي للاستظلال بظلال العلم للفوز بهذه السيطرة ، ذلك لأن العلم ليس اداة شر ، وانما هو اداة خير وانه لا يستهدف الكذب ولا هو من موضوعاته ومتى احتاجت القوة ، الى سند تستند اليه ، اذا هي وجهت في طريق الظلم والاعتساف ؟ على انه يمكن مناقشة هذه الفكرة من وجوه ثلاثة ، الاول هل ان التفوق العنصري حقيقة ثابتة يقرها العلم ؟ اي هل ان الدماء هي التي تكون خلق الشعوب وتحدث فيها التفاوت

الثاني اذا كان هناك تفاوت فما هو اثره ، وما هي حدوده ؟ الثالث هل اذا صح التفاوت يصلح ان يكون سببا لتحكم شعب في شعب ، وسيطرة امة على اخرى ؟

قبل كل شيء علينا ان نوقن بأن ليس في الامكان ان نجد دماء بعينها ، نقية ، وانما دماء الأمم كلها قد امتزجت بعضها ببعض ، وتغذت الواحدة بدماء الأخرى بأقدار متفاوتة وكميات متباينة بالنسبة لامتداد الفتوحات واستقرارها والمهاجرات واتساعها وبالنظر الى الصلات الأخرى بين الشعوب المختلفة وقوتها . وهذا الامتزاج حصل منذ القديم ، وأشتد كلما تقدمت وسائل النقل ، واسباب الاتصال واشتباك المصالح واستمرار الحروب . فالهند اصابتها الموجة الخطيرة التي زحفت عليها من اوربة ، قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عاما ، فأستقر فيها المهاجرون وتصاهروا وتواصلوا مع الأقوام الاصلية فكان ذلك الامتزاج الذي نرى سلالاته الآن . والفرس اجتاحوا اليونان بجيوش قدرت بمليوني جندي في عهد سرخس وهذه الرجال الكثيرة العدد التى وصلت الى البوسفور ومنه تناولت البلاد اليونانية ، فماذا عملت وهي فى طريقها اليها وكم من الأقوام تلقحت منهم ؟ وفتوحات الأسكندر الواسعة في الشرق وفتوحات روما الغربية وروما الشرقية وقد اشتملت على اقوام متباينة ، وشعوب متباعدة فهل ابقت شعباً من الشعوب سالماً من اللوثة ؟ واذا كانت فتوحات الأسكندر سريعة العمر ، فقد كانت نتائجها خطيرة وفتوحات الأمبراطوريتين الأخيرتين طويلة ، ثم ما أعقب ذلك من الفتوح العربية وطول استقرارها في اماكن كثيرة وفى بعض الأماكن مازالت فيها وان مر عليها ما يقارب الألف والثلثمائة عاما . وهذه الفتوح تناولت عدا فارس وما وراء النهر وسائر جهات الشرق اسبانيا برمتها وجنوبي ايطاليا ، وفرنسة والجزر المنتشرة في بحر الأبيض المتوسط وشمالي افريقيا برمته ثم الاجتياح المغولي الخطير الشأن والتوسع العثماني الواسع الأطراف فهل هذه

الفتوحات العظيمة ، المستمرة تترك الشعوب سليمة في دمائهـــا ، محافظة على نقاوتها ؟ وبعد عصر الاصلاح ونهضة الشعوب الاوربية فأية بقعة من بقاع المعمورة لم تصل اليها الشعوب الاوربيـــة ، ؟ والفتوحات تحمل معها كثيراً من أسباب الاختلاط والامتزاج تحمـل ورائها الصلات التجارية ونزعات التصاهر ، وميول الاستيطان في البلدان الجديدة وغير ذلك مما يجعل اختلاط الدماء ضرورة اجتماعية وقد حاولت الشعوب الاوربية التى تغلغلت في القارة الافريقية والآسيوية ان تحول دون التصاهر والتزاوج بين افرادها المستعمرين وبين اهالي البلاد المستعمرة ولـكن برغم هذه التدابير فالأختلاط موجود ، وموجود بكثرة . وكلما طال الزمن أمتدت وشائجه وتفرعت انسجته لأن الازدواج اذا منع بالقوانين ، فالاتصالات الجنسية لا تقبل مثل هذا المنع ذلك لأن القوانين لا تسيطر على القلوب والعواطف . فكيف تمنع ذات زوج رغبت في مواصلة فرد من أفراد الشعب الأصلي ، وكيف تحول بين نساء البلد ، اذا مالت قلوبهن الى رجال ابناء الشعب الفاتح؟. فالقول بأن هناك دماء نقية ، انما قـول يخـالف طبيعة الاشياء ويناقض الاوضاع الحقيقية التي عليها الشعوب . وقد اصبح الامتزاج ايسر واهون في العصور المتأخرة لسرعة وسائل النقل ولاشتباك المصالح ، بين الامم كافة .

ولا يعني أمتزاج الدماء ببعضها خسران الشعوب لمقوماتها ، وفقدانهـا كيانها . لأن الدماء وحدها لا تكون الشعوب وانما تكونها روابط عـدة مجتمعة فالدماء واللغة والدين والمصالح المشتركة والتاريخ المشترك والأرض وما تتركه مؤثراتها الطبيعية فى نفوس الافراد من مؤثرات ، والبيئات وما تكون فيهم من سجايا ومزايا وعادات هي التي تكون الشعوب وتنشىء فيها اخلاقهـا وطباعها الخاصة . فالشعوب التي تستوطن اليوم شـبه جزيرة العرب وبلاد الهلال الخصيب (سورية والعراق وفلسطين) ومصر وجميع بلاد افريقية الشمالية هى شعوب عربية وان امتزجت بها شعوب أخرى

كالبربر فى أفريقية والنوبيين والاقباط والشراكسة والاتراك في مصر والسودان والترك والاكراد والفرس فى الهلال الخصيب وتسمى كل هذه البلاد بلاداً عربية وان كانت فى الاصل عدا شبه الجزيرة ليست عربية ولكنها استوطنها الشعب العربي منذ اجيال سحيقة فى القدم ، وكون فيها الاغلبية الساحقة وحمل اليها تقاليده وعنعناته . ولعلنا نجد في بعض هذه الشعوب العربية تباينا في بعض العادات ، فهذه انما احدثتها طبائع البلاد المختلفة التى هم فيها . اذن نستطيع ان نقول ان هذه الشعوب عربية ولكننا لانستطيع ان نقول ان دماءها عربية خالصة لانها امتزجت بغيرها من الدماء ، وكان امتزاجها لحد كبير . وكذلك نستطيع ان نسمى الشعب الاسباني ، بأسمه وان كانت كميات كبيرة من الدماء العربية ما زالت تجري في عروق أبنائه. ان حياة ثمنمئة سنة لا يمكن ان يكون اثرها ، بسيطا ، سهل الاندثار . ولا تنجو امة من الامم قديمة او حاضرة من اثر الامتزاج اذن فدعوى نقاء الدم دعوى باطلة من اساسها واقامة نظرية التفوق العنصري على مثل هذه الدعوى الباطلة ضرب من الشعوذة الكلامية ليس ألا !.

والآن نعود ونقول ما معنى نقاوة الدم ، ورقيه ؟. ان بنى الانسان لم ينحدروا في الأصل من اباء وامهات متفرقة حتى يقال ان دماء هذا الأب وهذه الام خير من دماء ذلك الاب وتلك الام فالاستنتاجات العلمية ، والاستقصاآت الفيزيولوجية والجيولوجية والتدقيقات التاريخية كلها دلت على ان البشر نسلوا من أب واحد وأم واحدة . لقد قالت الكتب المقدسة المنزلة ان الاب آدم والام حواء وقال علماء الجيولوجيا وعلماء الاحياء ان الأنسان سليل تطور القرد البشري الذي نسل من اللبونات وسواء أخذنا بالرأي الديني أم بنظرية العلم فان جد الانسان واحد وان انسان اليوم هو محصول ذلك الجد وثمرته ، فالبشر اذن نسلوا من جد واحد وسيط دمهم من دم واحد ، وانهم حين انتشروا في هذه الاصقاع قد تكونوا تحت تأثير طبيعة كل صقع ، واشربوا عادات متباينة ، وتكونت

فيهم سجايا ومزايا مختلفة ،هي اثر تلك الطبيعة . فالدماء اذن واحدة ، ليس فيها فاضل ، ومفضول ، وراق ومنحط . ان مقومات الشعوب النفسية والبدنية من قوة وضعف ، وصالح ورديء ، وشريف وسافل ، ترجع الى العوامل الطبيعية التى استبدت بالارض التى عاش فيها كل شعب من هذه الشعوب والمحيط الذي اثر فيه فلو كان الشماليون (النورديك) استوطنوا المناطق الاستوائية في افريقية لكانوا هم اليوم ابناؤها . وبالعكس لو كان قد تهيأ لابناء هذه فى اول امرهم ان يصعدوا الى الشمال لكانوا هم (النورديك) الذين تفخر بهم الشعوب الاوربية . واذا كان ذلك كذلك فلا شرافة يختص بها قوم من الاقوام ، ولا اتضاع يمنى به شعب من الشعوب من ناحية الدماء . نعم ! قد تكون هناك مناطق تتوفر فيها نعم الطبيعة اكثر من غيرها ، ويكون الانسان الناشيء على تربتها اقوى ملكة ، واوسع تفكيراً ، واقدر على احتمال مشاق الحياة ولكن ما هو مدى هذا التفاوت ؟. اذا اعتنى الباحثون في تدقيقاتهم العلمية والتاريخية ، وكان بحثهم بروح علمية مجردة من نوازع الهوى ، فقد يجوز ان يخرجوا من بحوثهم وتدقيقاتهم بنتيجة لا تسر القائلين بفكرة التفوق العنصري . صحيح ان الشعوب صورة من طبيعة الارض التى تمكنت فيها وعاشت فى اجوائها ، وان خلقها مرآة لما في تلك الطبيعة من رفق ولين ، او قسوة وشدة . ومن كرم وسخاء ، او ضن وبخل ،ومن قوة ونشاط او تخاذل وارتخاء ، وان طبيعة الارضين تختلف وهذا الاختلاف يسبب الاختلاف فى قابليات الشعوب وكفاءآتها ولكن الطبيعة ليست ظالمة غاشمة ، فضة كزة الى درجة تجعل التفاوت بليغاً بين الشعوب كافة . فما عدا الشعوب المستوطنة في المناطق الاستوائية ومايصاقبها او المناطق الشمالية القريبة للانجماد نجد الشعوب الاخرى ، تتقارب في قواها العقلية وكفاآتها ومقوماتها الروحية . بدليل ان كلا منها قام بنصيبه فى اقامة الحضارات القديمة والحديثة . وقد تزدهر حضارة في ظل شعب من الشعوب

ثم تصوح ازهارها فتتساقط وتنتثر ثم تقوم غيرها مقامها فى ظل شعب آخر. وقد تدوم دولة لشعب ثم تزول ويبسم الزمن لشعب آخر ، فهذا التعاقب في الحضارات ، والتداول المتواصل بين الامم للحياة انطق شاهد على مانقول نعم! قد تكون حضارة احفل بالفوائد من الاخرى، ودولة شعب اضخم من دولة شعب آخر ولكن هذا التفاوت لا يؤثر في روعة الحقيقة التى امامنا لأن الحضارات المتأخرة تفيد من الحضارات السابقة لها وتضيف اليها اطايبها وكذلك في اقامة الدول حيث يستفاد من اخطاء الدول السابقة ، ويؤخذ بالصواب مما جاء على يدها . وبعد فاي امة لم تشترك في نصيب ما صغر او كبر ، في الحضارات القديمة والحديثة ؟ فهذه الصين وهذه الهند ، كل منهما كانت لها حضارة خاصة بها ، وهذه اليابان تقيم اليوم حضارة تدهش الابصار وهذه شعوب اما صفراء واما سوداء . وهذه الامة العربية في جاهليتها اقامت الحضارة اليمنية وصدرت عنها موجات الى مصر فكونت حضارة الرعاة (الهكسوس) والى فلسطين وسورية فاقامت فيها حضارات لعل اروعها الحضارة الفينيقية والى العراق فأقامت الحضارة الحمورابية ثم الآثورية هذا فى تاريخها القديم واما فى تاريخها الاسلامي فقد اقامت حضارتين رائعتين فى الشرق والغرب كانت اصول الحضارة الحاضرة ، وحضارة الامة المصرية غنية عن التعريف وهي امة افريقية والفينيقيون ، والقرطاجيون كانوا من موجات شبه جزيرة العرب والدولة السومرية فى العراق كانت مغولية ، كما ايدت الحفريات الاثرية ، واليونانيون الذين بهروا العالم القديم ، وما زالوا يبهرون العالم الحديث فى حضارتهم ، كانوا قد عبروا بمدنيتهم الى ايكا من شواطىء اسيوية . فهذه المدنيات التى مرت بها مراً ، هي اما افريقية واما اسيوية ، ومنشؤوها اما من العرق الاصفر ، او الاسود ، او الابيض .. وكل حضارة متأخرة استقت كثيراً او قليلا من منابع سابقتها ووردت من مناهلها . وهذه الحضارة التي تقيمها اوربة ، والولايات المتحدة ما هي الا فيض من تلك البحار ، وصوب من

ذلك الغيث نعم . انها اوسع آفاقا من سابقاتها ، واعمق اثراً منها . ولكن هذا الامر طبيعي لأنها خلاصة الحضارات ، ولقاح تلك العقول التي ابدعتها تضاف اليهـــا عبقرية الشعوب الجديدة ، سيما في مجالات العلوم الطبيعية .
واضاعة شعب من الشعوب المتحضرة سابقا كيانه في الوقت الحاضر ، او تداعي حضارة امة وقيام حضارة امة اخرى وانزواء امة كان لها مجد تالد وتغلب امة اخرى عليها لا يستدعي كل ذلك ان نحكم بتفرد الأمم المتمكنة اليوم بالنبوغ والعبقرية وقابلية الأبداع لمجرد انها قوية اليوم ، ونحكم على الأخريات بالبربرية والوحشية وانطفاء شعلة الذكاء والأقتدار فيها لمجرد انها ضعيفة ، لم تتوفر لديها أسباب الظهور والبروز فكل شعب من الشعوب المغلوبة على أمرها ، وكل أمـــة أصابتها النكبات بسهامها ، يجوز ان تعيد حيويتها ونشاطها ، وان تساهم في التقدم العقلي في هـذه الحضارة ، اذا مهد لها الطريق ، واهتبلت الفرص ووآتاها الحظ . فالتفاوت ليس كما يتوهم المتوهمون عميقا بين كفاءآت الشعوب وقدرتها بدرجـة يسوغ لبعضها الأستئثار بمنافع البعض الآخر أو يعطي لبعضها حق الحياة ، ويجعل الموت نصيب الأخرى . اذن ماذا يقصد من فكرة التفوق العنصري؟ . ولماذا لا يحق للأمم ذات الحضارات القديمة ، ان تسائل هـذه الأمم التي تدعى التفوق العنصري ، أين كان تفوقك طيلة القرون الأولى والقرون الوسطى ، وصدراً من القرون الأخيرة ؟ ولماذا تفوقك لم يظهر طيلة هـذه العصور ؟ على ان الحضارة الحديثة وان كانت اعمق اثراً من الحضـــارات السابقة ، فلا يزال الفضل معقوداً لواءه على تلك العقول التي اقامت تلك الحضارات القديمـة لأن الفضل للمتقدمين دائما ، حيث البدأ يكون أصعب ، وأشق وبالتالي يكون العقل البادىء أقـوى ملـكة ، ونتاجـه اثقل وزنا وحقـه في الفخر والمباهاة اظهر ، وبعد فلماذا تتفوق الآرية على السامية . هذه الساميـة التي سبق لها ان اقامت الحضارات الزاهرة ، وهدت الأنسانية دهوراً عـديدة

بما انجبت من انبياء مصلحين ، وحكماء بارعين وفلاسفة نابهين اما خصومة العالم المتمدين ، أو بعضه لليهود الذين هم ساميون ، فليس لأن هؤلاء لاحيوية فيهم ولا نشاط ولا قابلية للعمل والانتاج وانما بالعكس لأن فيهم حيوية قوية ونشاطا جما ، وقابلية خارقة للعمل والانتاج وانهم اصبحوا عقبات كؤدا فى سبيل أبناء البلاد الاصليين

وأما السبب الاصيل الذي أهاب بالشعوب الاوربية أو بعضها الى ان تلاحقهم وتتعقبهم فلكفاءتهم وقابليتهم كما أوضحت من ناحية ومن أخرى لما تكونت فيهم من طباع شاذة نتيجة تشردهم المتواصل ، وتشتتهم المستمر فى الممالك والبلدان . هذه الطباع التي خلقت فيهم روحية لا تشعر إلا بمنفعتها ولا ترتبط إلا بماديتها احتفاظا ببقاء نوعهم ، وحرصا على سلامتهم . حاربوا الامم كافة ، بحقدهم الدفين ، وبغضائهم الكامنة ، فبدأت الامم تكيل لهم الصاع صاعين ، وتتقفى آثارهم فهم لم يحاربوا لانهم ساميون ، وانهم لم يطردوا وينكبوا لانهم ساميون ،ولكنهم لأنهم يهودلهم طباع خاصة خطرة ، ونزعات غريبة مخيفة . اذن : فنظرية التفوق العنصري نظرية خاطئة لايدعمها المنطق ولا يقرها العلم ، ولا تؤيدها التدقيقات التاريخية . وان ابناء المناطق الاستوائية الذين قست عليهم الطبيعه وان كانوا يؤلفون اقلية فى المجموعة البشرية فهم يجب ان يعاملوا بعناية ورحمة بدلا من الشدة والقسوة ، وان توفر عليهم خيراتهم ، ويحتفظ لهم بثرواتهم وتصان حرياتهم بدلا من انتهاب تلك الخيرات واقتسام تلك الثروات وهدر تلك الحريات . لانهم ليسوا من نوع يختلف عن النوع البشري وما تأخروا ، أو اصبحت قابلياتهم محدودة ، وضعيفة نوعا ، إلا من أثر البيئة ، وفعل العوامل الطبيعية التى تعاورت تربتهم ومثلهم كمثل الاسكيمو ابناء الشمال من حيث ضيق التفكير ، ومحدودية قابلية الابداع ولم يفترقوا فى شىء سوى ان الاولين ، يعيشون بين الثلوج

وأجواء الزمهرير والآخرين يتقلبون في تربة حارة واجواء مرطبة تكتنفهم غابات وأحراش واشجار فارعة . وقسوة الطبيعة اذا زادت عن المعتاد ، تركت آثارها السيئة في الأبدان والأرواح . فهؤلاء يجب ان ينظر اليهم كأفراد عائلة اصابها ، المرض ، وان يعاملوا بالرفق ، واللين ، والسخاء والكرم والعناية الفائقة ، لأنهم من أعضاء الأسرة لا اكثر ولا أقل وليس للأسرة ان تتبرأ من بعض افرادها اذا مرضوا ، وان تتجاوز على حقوقهم وتصادر حرياتهم اذا هزلوا ومن حسن حظ الأنسانية ان خلق هذا النوع من الناس أقلية وان تركت الطبيعة الأكثرية قوية سالمة لا تفاوت بينها إلا بقدر يسير .

***

لكل هذه الأسباب لا يصح التمسك بنظرية التفوق العنصري . والتحكم بواسطتها ، بالشعوب ، وان أول واجب يلقى على عواتق رجال التربية والتعليم والمرشدين والآباء والأمهات ان يلقنوا النشء حب الوطن ، بطرق غير غير الطرق المألوفة الآن ، ويحرضوا على التمسك بالقومية ولكن بأساليب صحيحة ، سليمة من نزعات الشر ، ونوازع الغدر بالغير ، ان كثيراً من الأمم المعاصرة ، يتعمد رجال العلم فيها ، الكذب على التاريخ ، ويلفقون الحوادث الخيالية ويخلقون الأبطال الخرافية ليثيروا في ابنائهم ، نزوات القومية ، ونعرات العصبية ، لغرض العدوان على حريات الغير ، وعلى مقدساته ودفائنه وكنوزه ، واذا اعترضت عليهم اجابوك بأن الكذب يستساغ في سبيل ذلك ، والتلفيق يروق اذا كان القصد منه تقوية الروحيات والمعنويات ، والأختلاق مشروع لأجل التوسع ، فهل هذا صحيح ؟ وهل يؤمل تكوين الأخلاق الفاضلة في أفراد الشعوب ، اذا كانت نستباح حريات الأخلاق ، ويهتك ستار الفضيلة من ذوي الفضل فيها ، ومن قبل علمائها ؟

على ان الفتوح والاستبحار في الاستعمار ، والاكثار من الاستيلاء كل هذه أسباب وان كانت تجلب الخيرات ، للممالك الفاتحة ، وتغني الشعوب المستعمرة ، فانها تجلب معها ايضا عوامل الموت السريع ، وتقفر نفوس افرادها من السجايا والمزايا الجيدة وتصحر وجداناتهم من كل فضيلة وتكون الأمم المغرمة بالفتوح كالساعية الى حتفها بظلفها والقاضيـة على نفسها بيدها

وما يدرينا لو ان روما بقيت منكمشة فى ايطاليا محتفظة بجمهوريتها وسعت في تنمية ثقافتها في مهدها ، لأفادت نفسها والنوع الانساني اكثر من روما الأمبراطورية ولظلت تنعم بنعيم الحياة اطول امداً في اسعد حالة ؟. ولو ان الأمة العربية لم توزع قواها فى تلك الممالك الواسعة الأطراف التى استحوذت عليها ، لما انحطت قوتها سريعا ، ودب في اوساطها داء الخلاف مبكراً ؟. وهذه الدول المستعمرة ، والشعوب الضخمة التى تتصاول وتتصارع ، وتقتتل فيما بينها ، فى هذه الحرب ، ما يدرينا ماذا يخبىء لها المستقبل في طياته ، من شقاء قاتل ، وحياة قاتمة اذا ظلت على غرورها ، وبقيت على سياستها سواء فى ذلك الغالبة منها والمغلوبة ؟. ان العدوان على حريات الأمم ، والتوسع في هذا العدوان ، فضلا عما يحملان معها ، من أسباب الانحلال والاضمحلال للمعتدين فانهما يثيران عوامل الغيرة والحسد ، فى الأمم الأخرى المنافسة من جهة ومن جهة أخرى يلهبان نفوس ابناء البلاد المعتدى عليها بالثأر والانتقام فالحرب تكون موصولة الأطراف ، والمخاصمات ، تصبح دائمة الاستعمار فماذا يفيد المعتدى من عدوانه ؟ هب ان فريق الديمقراطيين هو الذي كسب الحرب ، فهل في قدرته ان يثبت دعائم السلم اعواما طويلة وهو ينزع الى قهر خصومه ، ويرمي الى الاحتفاظ بما أصاب من ممالك وشعوب ؟ ان القوة تخيف فى ظروف معينة ، والى اوقات محدودة والشعوب الموتورة ، والممالك التي تغلى فى بيئاتها مراجل الحقد والانتقام لا تستكين لهذه القوة إلا كما

استكانت مثلها من الشعوب والممالك في الماضي ، وفي الحاضر ، ولعل الاصطدام يكون بين الفريق نفسه . وكل العلائم تدل على ان هذا الفريق مؤلف من دول متباينة النزعات ، متباعدة المبادىء

وصفوة القول ان الغرور القومي الذي نريـده في المستقبل هـو ذلك الغرور الذي لا يمس كرامة الغير ، ولا حقه وليس من مقتضيات الفخـر والمباهاة ، العدوان وانما الفخر والمباهاة تكونان اسمى قدراً ، وابلغ اثراً في النفوس ، اذا استعملتا في طريق الخير ، وفي حدود الحق . فمعالجة هذه الناحية الروحيـة هي من أدق الواجبات واعظم المهام .

***

وكذلك التلقينات الدينية بما انها تؤثر تأثيراً بليغا في النفوس فيجب ان تتبع فيها طرق حكيمة . لأن الأديان انما انشأت لتهذيب النفوس ، وترقيق العواطف ، وتقويم الطباع ، فهي لم توجد لبذر بذور الشقاق والتفرقة بين ابناء البلاد الواحدة ولا يوجد دين من الأديان ليس فيه الشيء الكثير من المبادىء الأخلاقية السامية فلماذا يفسح المجال للمجـادلات والمهاترات التي تباعد بين القلوب ، وتباغض بين النفوس؟ ولما كانت الأديان اداة صلة بين الخالق وعبده ، فلماذا نسمح بأن تتجاوز هذا الحد وتخترق هـذا النطاق الطبيعي ؟ وهذا واجب مهم آخر ملقى على كواهل رجال التربية والتعليم ، والسلطة العامة المشرفة على تنفيذ انظمة التربية والتعليم . فليس من الصواب ان تلقن احـكام الدين ، في المدارس الحكومية ، والدور العامة . وانما محل تلقينها هو الدور الخاصة ، والمدارس الخاصة المعدة لغرض تنشأة الذين يقومون لأغراض المعابد ، والقيام بالطقوس الدينية لكل دين . واني لأذكر بأن والدي كان قد صمم على أرسالي الى الكلية الأميركية في بيروت في عهد طفولتي ولكنه لما وجد

نظامها يقضى على طلاب الكلية كافة ان يمارسوا الطقوس الدينية المسيحية امتنع عن ذلك. واني الآن، مهما كنت أمجد الحرية، على أنواعها، لا اسمح فى ارسال ابنائي الى اية مدرسة تفرض عليهم ممارسة طقوس دينية غير طقوسهم الدينية فرضا. لأن هذا نوع من الأكراه يناقض المبادىء العامة الاجتماعية وبرغم ان مبدأ حرية الأديان قد انتشر في الاوساط الانسانية فما زلنا نجد الدول المستعمرة تخلق في كل يوم اسبابا دينية لأفتعال ابناء البلاد المستعمرة فيما بينهم، وانها ترى في هذا العمل نوعا من العمل القومي، وصورة من صور النشاط الفكري، والدهاء السياسى. ان الاصلاح الاجتماعي لا يكون بهذه الاساليب، ولا تنمو جذوره اذا اشرب هذه الروحية.

***

ان المبادىء المالية والاقتصادية التي بحثناها في التكوين المالي والاقتصادى تفيد الى درجة كبيرة التنظيم الاجتماعي وتقليل الفروق الاجتماعية حيث تمنع تجمد الثروات فى ايدي قليلة من جهة ومن جهة أخرى تخفف من وطأة التحاسد والتباغض بين طبقات الشعب ولكن هذا لا يكفي للأستقرار الاجتماعي في كل شعب. فهناك الطبقات العاملة. وهى الكثرة فى كل شعب. وأعني بالطبقة العاملة، عمال المصانع والمعامل والحرف، وعمال الأرض اي « الفلاحون » فهؤلاء وان اطلق عليهم وصف « الفلاحون » نظراً لظروفهم الخاصة فهم عمال. فكما ان فى البلاد الصناعية يكون للعمال أثرهم الفعال فى أوساطها كذلك للفلاحين فى البلاد الزراعية عين الاثر فهؤلاء العمال، مازالوا يكافحون في سبيل تحسين معاشهم والترفيه عن حالتهم، من حيث السكنى، والوقاية الصحية، ومن حيث أجورهم، وعطلاتهم، ولكن توجد أمور كثيرة أخرى غير هذه تقتضي عناية السلطات المتواصلة. فالبطالة اصبحت

داء مزمناً وسببا من اسباب الفورات الاجتماعية في كل مجتمع صناعي . ولئن كانت ايام الحرب قضت على البطالة لالزام الجميع باعمال تقتضيها الحرب، وهي كثيرة مختلفة الوجوه، متعددة النواحي، ولكن حالة الحرب حالة طارئة لا تلبث ان تزول فتعود مشكلة البطالة الى الوجود اكثر قوة وأشد خطورة وعدا البطالة فان هناك ضرورات أخرى اقتضتها التطورات الاجتماعية فضمان حياة العامل اذا ما اصابته حالة من حالات العجز المختلفة عن القيام بأعماله أو اذا بلغ سن الشيخوخة أمر جوهري انا ما زلنا نسمع ان الخبير الاجتماعي والعالم الانكليزي المعروف السير (وليم بيفريج) يعد الآن تقريراً خطيراً ليرفعه الى السلطات الانكليزية ولا ندري هل يوفق الى حلول جديدة، واذا وفق هل تجد حلوله آذانا صاغية في الاوساط الانكليزية وأوساط البلاد المتمدنة الاخرى أم لا ؟ ولكن على كل حال فقد تنتظرنا حالات عصيبة وأزمات عسيرة الحل حينما تنتهي الحرب، ويأذن الله عز وجل بعودة السلام على العالم . ان الحرب الحاضرة ليست كالحروب الماضية، وانما هي حرب طاحنة، طحنت تحت كلكلها الانسان، وما انتجته يد الانسان، وما جادت به الطبيعة من مواد، وعناصر . ان القوة الشرائية في العالم اصبحت اليوم اقل بكثير مما كانت عليه، وكلما طال اجل الحرب ازدادت قلة . فحالة السلم المنتظرة، سترى ضعفا في القوة الشرائية غير معهودة، لفناء قسم كبير من بني الانسان الاقوياء النشطين المرحين الذين كانوا دعامة هذه القوة وسترى ملايين من الناس الذين كانوا يعملون في ميادين الحرب وحقولها، يعودون الى بلادهم، فيطمعون في عمل، يكتسبون من ورائه قوتهم، والمعامل والمصانع، والمحلات التي كانت معدة لهم فيما سبق، قد غير وقلب اكثرها الى اوضاع تفيد الاغراض العسكرية وليس من السهل اعادتها الى حالتها الاولى في وقت قصير . وسترى حالة السلم ايضا جيوشا كبيرة من المشوهين،

والضعاف العجاف ، وهي الآثار المحزنة التى تتركها وراءها مثل هذه الحرب الشاملة ، وهذا اضعاف خطير لجهاز الانتاج . وعدا ذلك فان الضعف في هذا الجهاز سيحس به اصحاب الاعمال وارباسها من نواح أخرى ، من ناحية فقدان الكثرة من الخبراء ، والفنيين ، والعمال الماهرين الذين غيبت اجسادهم ميادين القتال ، ومن ناحية المواد الخام التى تبددت في سبيل المقاصد الحربية ، والاموال التي انفقت لأغراض لا دخل لها فى تنمية المشاريع العمرانية ، وهل في الحرب غير التدمير الفجيع والخسران المبيد ؟ والعمال الذين سوف يهيئون انفسهم الأعمال المختلفة ستكون أكثريتهم أما من الشيوخ أو من كانت أعمارهم تتجاوز سني الشباب واما من الضعاف المهازيل ، أو من المشوهين الذين قد يستفاد منهم في ناحية من نواحى العمل ، وقوة انتاج هؤلاء تكون صورة لقواهم ، وقابلياتهم . فالشباب الاقوياء كانت قد سالت دماء اكثرهم وزهقت أرواحهم ، بين الحديد والنار . وسترى حالة السلم عدا ذلك نسلا جديداً جديراً بالرحمة والاشفاق ، لان الضعفاء لا ينسلون إلا ضعفاء على الاكثر ، وهذه حالة أجتماعية خطيرة تستدعى تدابير خاصة ، كما انها سترى نقداً متضخما ، لا يتناسب والحركة التجارية وبالتالي سترى حالة السلم ويلات ومصائب تصغر بجانبها ويلات الحرب ومصائبها ، وسيعاني آلامها ويتذوق مرارتها الغالبون والمغلوبون على السواء .

ان الاوضاع الخطيرة التى ستجابهها المجتمعات البشرية في حالة السلم ، تفرض على الشعوب وحكوماتها ان تتعاون تعاونا وثيقا للتخفيف من هذه المصائب والويلات ، ولخلق حالة مستقرة تكفل منافع المجموع فلم يعد فى الامكان ان تسوى قضايا العمال بينهم وبين ارباب المصانع والمعامل أو بين الفلاحين وملاكي الارض : وانما تشمل طبقات الشعب برمتها والحكومة . يجب ان يكون هناك معدل استفادة معينة لمعدل اعمال معينة . وان يكون

اشتراك فى تدابير التخلص من العوز والفاقة من العمال واصحاب رؤوس الاموال وكذلك الحكومة فكان الأفراد من عمال وفلاحين، واصحاب رؤوس الأموال من اصحاب معامل ومصانع، ومتاجر يشتركون فى مقادير معينة يدفعونها لصندوق الضمان فعلى الحكومة ان تضع من المقادير ما يكفي لسد النقص الحاصل فى هذا الصندوق . وان يكون جميع افراد الشعب يفيدون من فيض هذا الصندوق في الحالات الخاصة التي تعين بلوائح وقوانين ومن هذه الناحية تكون واجبات الدولة شاقة وصعبة ، ومتشعبة في آن واحد . لأن هذا التنظيم الأجتماعى يتطلب تشريعات دقيقة ، وانظمة وافية واساليب قوية ، ومراقبه صارمة ، ولأضطرار الحكومات الى المساهمة فى مشروع الضمانات ضد العوز الناشيء من اسباب شتى . فقد تضطر الى ابقاء مستوى الضرائب الباهضة التي فرضت اثناء الحرب أو تخفيفها بنسب قليلة الى مدة سنين بعد الحرب الى ان تنظم الحالة الاجتماعية ، وتطرد الحركة التجارية إذ كلما انتظمت الحالة الاجتماعية ، واطردت الحركة التجارية قلت نسب النقص في صندوق التأمين وبالتالي يخف العبء على خزينة الدولة . ومثل هذه التدابير الاجتماعية من شأنها ان تقلل اذا لم تعدم الفروق الاجتماعية بين طبقات الشعب وتزيد فى تآلفها واتحادها وتثير حميتها وغيرتها ، وعدا ذلك فعلى الحكومات ان تضع تصاميم لمشاريع كبيرة لتشغيل الايدي العاملة ، وان ما احدثته هذه الحرب من تخريبات وتدميرات في البنايات وفي المصانع ، وفي الطرق ، والسكك الحديدية ، وفي الجسور والنواظم والاعمال الاخرى الهندسية ، كل هذه تيسر وضع مثل هذه التصاميم التي تفيد العمران من ناحية ، وتؤمن حاجات الايدي العاملة من ناحية أخرى . وثم واجب آخر ملقى على عاتق حكومة كل شعب بعد الحرب ، وهو ابقاء اشرافها على تحديد اسعار الحاجيات ، واستمرار سيطرتها على التوريد والتصدير الى زمن

ما ، لأن ماعانته الانسانية من أزمات قاتلة بعد ان وضعت الحرب الـكونية الماضية اوزارها يقضى على رجال الحكم في كل دولة ، ان تتدبر الحالة ، وان تتجنب الاخطاء التي وقعت في الماضى واماعن تضخم النقد ، وتركيز العمـلة على اسس معينة ، تأتلف والتقدم العالمي ، وتفي بحاجـة التبادل الاممي فمن الأمور التي تناقش في غير هذا الموضع .

التكوين الدولي !

- أ - تمهيد

مثل الأمم كمثل الافراد . فكما أن الأفراد في كل جمعية بشرية بسائق الضرورة الاجتماعية يتصل بعضهم ببعض ، لتأمين حاجاتهم ، وتوفير الرفاهية لكل منهم ، كذلك الأمم مضطرة الى ان تختلط بعضها ببعض ، وتتواصل لتأمين حاجاتها ، وتوفير الرفاهية لأفرادها ، وهذا الاختلاط الأممي والتواصل الدولي ، انما هما ضرورة اجتماعية لا مفر منها . ولقد كانت الامم في العصور الخوالي ، تتصل ببعضها بشتى الاسباب ومختلف الطرائق . ففي حالة السلم كانت القوافل التجارية والاساطيل البحرية تغذ السير رائحة آيبة متنقلة من من مملكة الى أخرى ، ومن أفق الى أفق آخر تصدر منتوجاتها ، وتجلب وتستورد منتوجات الأمم الأخرى ، وكانت المهاجرات متصلة ، والمهاجرات تجلب معها ، تقاليد وعنعنات واخلاقا جديدة الى البلدان المستوطنة حديثا ، ثم كانت الاتصالات الجنسية والمصاهرات وما تنتج من آثار وعلاقات ، وفي حالة الحرب كانت الجيوش ، تحمل معها لحد كبير أسباب الاختلاط والامتزاج واشتباك المصالح . والحروب كانت لا تهدأ ، ولا تقف عند حد . وهذه الحملات العسكرية ، والفتوحات ، كانت من أقوى أسباب الاتصال الأممي فالأمم اذن في حالة امتزاج مستمر ، واختلاط دائم منذ قديم الأزمان

ولكن هذه الحالة الدائمة المستمرة ، اذا كانت محدودة الآفاق بطيئة الحركة والتطور في القرون الأولى والوسطى ، فقد اصبحت في العهود الحديثة عظيمة الخطورة ، ذلك لأنها متناسبة مع التقدم الصناعي ، والنضوج العقلي ، تناسباً طرديا . فهي اذن في حالة ازدياد مستمر ، وازدياد خطير . ان التقدم في العلوم الطبيعية ، قد سبب التفنن في انواع الصناعات ، ودفع بالمنتجين الى ان يبرعوا في صنوف الأنتاج المختلفة ، لتطمين رغبات المستهلكين ، وهذه الصناعات ، وصنوف الأنتاج تفتقر الى اسواق تنفق فيها ، والى مستهلكين يدفعون اقيامها ، وقد أدى هذا التقدم في ميادين الصناعة والانتاج ، الى التقدم في استنباط الوسائط السريعة التي تنقل بها هذه المواد وقد لعبت وسائط النقل ووسائله ، برية كانت أم بحرية ، أم جوية ، في الايام الاخيرة ادواراً مهمة في هذا المضمار ولما كانت الحضارة القائمة مادية صرفة ، فقد اصطبغت الصلات الأممية ، بالصبغة المادية ، وسادتها الروح النفعية . فالفتوحات الحديثة ، وأسباب الحروب الجديدة ، كلها وليدة هذه الصبغة المادية ، وأثر تلك الروح النفعية . واصبحت صلات الأمم وعلاقاتها ومصالحها المشتبكة مؤسسة على الفكرة الأقتصادية قبل ان تكون مؤسسة على أي نوع من الأفكار الاخرى . وهذا فرق عظيم ، بين العهود الماضية والعهد الحديث . لاشك في ان كثيراً من الفتوحات الماضية ، والأصطدامات الدموية القديمة كانت تكون لأغراض اقتصادية ، ومنافع مادية . ولكن كان في جانبها ايضا فتوحات واصطدامات اخرى لم تكن ذات علاقة بالمسائل الأقتصادية والمنافع المادية . فمثلا حروب طروادة ما كانت دوافعها ، إلا دوافع الشرف ، والثأر للعرض المنتهك وفتوحات الأسكندر الكبير كانت قائمة على فكرة توحيد الأمم ، وتحقيق مبدأ الاتحاد العالمي . ولقد كان الاسكندر مخلصا في فكرته هذه ، متحمسا لتحقيق هذا المبدأ . ففتوحاته لم تكن ذات صلة بمنافع مادية ، ولم يكن يقصد

من ورائها تدمير الممالك ، وانتهاب خزائنها ، واستعباد ابنائها . وانما بالعكس نجده رفيقا بأبناء البلاد المفتوحة ، آمراً لقواده وجنوده ان يتصاهروا مع أبناء البلاد المغلوبة ويفيدوا من ثقافتهم ، كما يفيدون هم بدورهم ، اصهارهم الجدد بثقافاتهم . و كان في كل مملكة يجتاحها ، ينصب من أبنائها حكاما عليها ، وما كان يبادىء مملكة بالعدوان ، أو يسبب لها أذى ، اذا هي وافقته على فكرته ، وعاونته في مهمته . والفتوحات الاسلامية ما كانت في اول امرها ترمي الى غاية مادية ، ومنافع ذاتية وانما كان مبدأوها أعلاء كلمة الله العليا ، وهداية الناس كافة الى دين التوحيد وحروب الثلاثين عاما لم تكن إلا اصطداما دمويا بين البروتستانت ، والكاثوليك كما ان حروب السلطان سليم العثماني مع الشاه الصفوي الايراني ما كانت إلا بين المذهبين الاسلاميين الكبيرين ولكن حروب العصور الحديثة لم تكن إلا لغايات مادية ، ومنافع أقتصادية . والسبب في ذلك كما ذكرنا مراراً ، ان الحضارة الحديثة حضارة مادة ومنفعة بينما فى الحضارات السابقة كانت لها جوانب روحية ذات أثر . ان الحرب شر من دون شك ولكن الأمم فى الماضى قد تقدم على هذا الشر بأمل ان تحوز على الخير . او انها كانت تفكر في الخير على الأقل ، عند ايقاعها هذا الشر فدعوة الوثنيين الى التوحيد لم يكن يفكر فيها الا لأقرار الخير وان سلكت اليها طريق الحرب ، التي هي شر وفكرة توحيد الأمم فكرة خير محض وان اريد تحقيقها بالقوة . ولكن الأمم الحديثة تسلك سبل الشر لأجل الشر . فهي تقدم على الحرب لتعتدي على مافى ايدي الأمم الأخرى من أسباب الحياة . وهذه الحالة الأليمة التي وصلت اليها البشرية قد دفعت بالكثيرين من ذوي الضمائر الحرة من علماء حكماء وفلاسفة عظماء الى ان ينعوا على الحضارة القائمة ماديتها ، وان يعلنوا بمرارة وأسف ، خيبة البشرية في مثل هذه الحضارة التي وان سمت من ناحية المادة ، فهي قد انحطت بالأنسانية درجات عما كانت عليه

في العهود الماضية من ناحية الشعور والعواطف والروح

ونتائج التوسع والفتوحات، تختلف في شدتها ولينها ، في قسوتها ورفقها بالنسبة الى الغايات التى تستهدفها وهذه حالة طبيعية لا تستدعي نقاشا كثيراً . لذلك نقول لما كانت في الفتوحات والتوسعات الماضية جوانب روحية ، فقد كانت أخف وطأة على الأنسانية من الفتوحات والتوسعات الأخيرة التي هي مادية صرفة . ولا يهمنا كثيراً الاصلاحات الشكلية التى قامت بها دول العهد الجديد ، من الغاءها الرق ، وتنظيم الحقوق الدولية ، تنظيما يكاد يوهم الناس بأن هناك ما يسمى عدل او انصاف عالمي فالحوادث المادية ، قد اثبتت بادلة محسوسة ان هذه الأصلاحات انما بقيت آثارها في الاقوال والخطب ،والكتب، فالرق قد استشرى دأوه فساد الأمم الحرة والألوان على اختلافها ، وتعددت قيوده ، وأحكمت حلقات أصفاده أضعاف ما كان عليه في ايامه الأولى . والحقوق الدولية لم يعد لها أثر بالمرة ، والعدل العالمي ، قد انمحت آثاره ، وزالت معالمه . لقد لمسنا العدل في قرارات عصبة الأمم، ذلك العدل ،الذي صبغ البلاد المحكومة من الاقوياء ، بدماء ابناءها الأبرياء ، وشعرنا بمدى رعاية الأمم الكبرى التي يكرر زعماؤها نغمة احترام القانون،وسيادة العدل ،للحق والقانون في الدول الضعيفة التى اجتيحت في خلال هذه الحرب لقد اقاموا من الدعاية ، منابر كذب وبهتان ، بعد ان جعلوا حجارة هذه المنابر ، من رؤوس الاحرار والمفكرين ، والذادة عن حرمات بلادهم المنتهكة . هذا تشرشل وروزفلت واضرابهما في الوقت الذي يعلنون العالم فيه ، ان القانون يجب ان يسود العلاقات الدولية ، ويتهجمون على سياسة دول المحور ، يقدمون على اجتياح بلاد ايران المحايدة ، ايران التي كانت تربطها بالدول المجاورة لها معاهدة صداقة وسلام دائمين . ولم تكن ايران في طريقهم الى عدوهم ، كما كانت البلجيك وهولاندا والدانيمارك في طريق الالمان فهؤلاء الزعماء الذين يتشدقون بضرورة

سيادة القانون واحترام استقلال الامم ، يعملون فى استباحة القانون وهدم استقلال الأمم لضرورة ولغير ضرورة ، لسبب وبدون سبب . والغريب ان ما يقومون به من أنتهاك حريات وسلب حرمات، وسفك دماء ،واستباحة بلاد كانت آمنة مطمئنة ، انما هو العدل بعينه ، والانصاف بذاته . ولكن اذا قامت دولة أخرى بحركات عسكرية في بلاد أخرى بقصد الدفاع عن كيانها ، ودفع خطر الدول المتآمرة ، تكون هذه الدولة متناسية القوانين الدولية ،معتدية على حريات الغير؟ فهل كانت الحقوق الدولية تسمح لبريطانية،مثلا ان تصطدم فى السواحل النروجية مع سفن اعدائها ، والمياه الساحلية هى ملك للدولة ،والتجاوز عليها ، انما هو تجاوز على سيادتها وسلطانها ؟ وهل تسمح لها ايضا ان تلقى فى المياه النروجية الالغام وتبث فيها وسائل التدمير والخراب ، وتجهز الحملات العسكرية ؟ فمن قام بهذه الاعمال المنافية لحقوق الدول فى أول الامر ، هل الانكليز او الالمان .؟ وماذا ينتظر من الالمان غير سبقهم الى الاستيلاء على هذه المناطق الحيوية من الناحية العسكرية ؟ فأنهم لو تأخروا قليلا لكانت القوات الانكليزية شاغلة بلاد النروج . اذن فأن المسألة كانت مسألة زمن فقط وان الالمان كسبوا الوقت وحالوا دون القوات الانكليزية في تلك البلاد فلماذا كان الانكليز نصراء العدل وحماة القانون والالمان خصوم العدل ، طغاة جفاة ؟. واذا كان في نظر الديمقراطيين اختراق الجيوش الالمانية حدود البلجيك وهولندا نقضا للقواعد الدولية ،مع انها واقعة في طريقها الى عدوها فماذا نسمى عمل البريطانيين في اجتياحها ايران وهي بلاد ذات استقلال ليست واقعة في طريقها الى عدوها ؟

أني لست في صدد تأييد حق فريق ، وانكار فريق آخر في هذه الاعمال وأني مازلت اعتقد بأن حريات الامم يجب ان يحرص عليها بأي صورة كانت وبأي ثمن كان . وليس من حق أحد التجاوز على حق الآخر .

وانما أرى حالة الدفاع تبيح أتيان أنواع المحظورات القانونية . فلو ان ملكي قائم في واد ويحجز بينه وبين خصمي مرتفع من الارض تعود ملكيته لشخص ثالث . فمن واجبي ان احرص على حق الشخص الثالث في ملكه ما دام خصمي يحرص عليه . ولكنى اذا شممت بوادر من شأنها ان تجعل هذا المرتفع من الارض في يد خصمي ، اينحدر علي منه ويسلبني ما املك ويقضي علي . فمن واجبي ان اهتبل الفرصة لأسبقه في الاستيلاء على هذا المرتفع لأن ترددى في ذلك يجعلني لقمة سائغة في حلقه . واذا استوليت عليه فلا أكون باغيا وانما الباغي هو خصمي الذي بدأ فى التجاوز على هذا المكان الخطر علي . ولم يقع في النروج غير هذا . ان البادىء كانت الجهة البريطانية واما ما حدث في ايران وسورية وغيرهما من المستعمرات الفرنسية المهيضة الجناح التي لم تكن فى حالة حرب مع الديمقراطيين ، فان ما اقدمت عليه بريطانية في هذه الممالك لم يكن له أى مبرر لأنها لم تكن واقعة في طريقها الى خصمها حتى يقال ان الضرورات العسكرية حتمت عليها ذلك لاسيما في ايران فالتجاوز البريطاني على ايران عدوان محض ولا دافع الى هذا العدوان سوى الشره في الاستعمار ، واستفحال داء الطمع في هذه الامبراطورية التي لم يعرف التاريخ خصما لحريات الامم مثلها . واملى استطيع ان أفي هذه الناحية حقها في موضع آخر اكثر ملائمة من هذا الموضع .

فالقصد من هذه الملاحظات المتواضعة هو التدليل على ان ما جاءت به هذه الحضارة من اصلاحات ، تعتبر زينة لها ومفاخر لم تكن الا اصلاحات قولية لاتؤيدها الافعال وان فلاسفة هذا العصر وحكماءه ما زالوا على حق في خيبة آمالهم فيها لأنها ملأى بالشرور مترعة بالمفاسد .

وقد يقال ان اميركة ، فى حضارتها تعد غصنا من اغصان هذه الحضارة القائمة ، ونبعة من نبعاتها وهي ما زالت تدافع عن حريات الأمم وانها

دخلت في الحرب الكونية الماضية لأجل تحرير الأمم وانها تدخل الحرب ثانية لعين الغرض، وانها لم تتبع سياسة استعمارية وليس لها مطمع في اي بلد من بلاد العالم فاذا كانت هذه الحضارة حضارة مادية صرفة لما كنا نلمس هذا الشعور الانساني في اميركة ذات الحضارة عينها؟. الحق ان اميركة مازالت تناشد الأمم في ضرورة احترام القوانين الدولية، والحرص على استقلال الامم الضعيفة. ولكن نشدانها الأمم لتحترم القوانين الدولية، واظهارها الحرص على استقلال الأمم الضعيفة انما هما ناشئان عن اغراقها في ماديتها وشدة حرصها على نفعها ومن تمسكها بمصالحها. فهي ليست حريصة على القوانين الدولية، وانما هي حريصة على ماديتها، وهي ليست متفانية في حب انصاف الضعفاء، لتحرص على استقلالهم وحرياتهم، وانما هي تدافع بهذه الفكرة عن مصالحها المادية، ومنافعها الذاتية. فالامة الاميريكية أشد الامم تمسكا بالمادة، وتعلقا بأسبابها. ولم يكن لويس ديكنسن مسرفا في الغلو حين وصف اميركة المادية ذلك الوصف الرائع في كتابه معرض الآراء الحديثة، على لسان الصحفي «آرثر إلس»: فهي مادية وعظيمة الخطر في ماديتها.

ان اميركة قد وهبها الله عز وجل بلاداً مترامية الاطراف فسيحة الارجاء، غنية في المواد الخام، خصبة كثيرة الخيرات، لا يعوزها سكان دربوا على طرق استثمارها، والاستفادة من موادها، فهي في غنى عن الاستعمار. ولصناعاتها ومنتوجاتها اسواق كبيرة متسعة تزخر بالمستهلكين فالدنيا الجديدة برمتها شمالها واواسطها وجنوبها كلها اسواق لها، وعدا ذلك فانها قد اقتسمت اسواق بلاد الصين مع الدول الاستعمارية الكبرى، وان نصيبها من اسواق الصين كان نصيب الاسد. والامبراطورية البريطانية ذات الاملاك التي لا تغيب عنها الشمس، فان اسواقها، مفتوحة كذلك للمنتوجات

الاميركية . فهي تتساهل معها وان تشددت مع الدول الاخرى ، لأسباب سياسية ليس هنا محل بحثها فالامة الاميركية تملك اسواقا تجارية اوسع بكثير مما تملكه بريطانية نفسها واكثرها قريب اليها فهي لا تشبه مثلا بريطانيا تضطر لأجل ان تعيل شعبها ، او ان تصرف منتوجاتها ، وتحافظ على نشاط صناعاتها ، ان تجوب الآفاق البعيدة لتقتنص شعباً تهوى عليه وتزدرده او رقعة من ارض تجعلها مستعمرة لها ، لتنفق على اهاليها بضاعتها ، او تستفيد من مواد الخام الموجودة فيها . ومع ذلك فان الامة الاميركية لا تخلو من فكرة استعمارية وان كانت محدودة فهي تملك الفيلبين وكوبا ، والجزر المنبثة في الباسيفيك واهالي كل هذه الممالك الواسعة الأرجاء من الشعوب الملونة التي لا تربطها رابطة بالامة الاميركية وليس لها اي مبرر غير القوة لاستعمارها . فهي برغم عدم افتقارها الى الاستعمار فيها ميل الى حد ما الى الاستعمار . وان سياسة مونرو ، التي تقتضي عدم تدخل اميركة في الشؤون الاوربية ومشاكلها ، انما هي أثر من آثار المادية في الامة الاميركية . لأن الغاية التي ترمي اليها هذه السياسة هي ان تجعل الدنيا الجديدة ، في نجوة من التزاحم الاوربي ، لتبقى خالصة الى الامة الاميركية فهي خطة دفاعية قوية تحمي بها منافعها ومصالحها . ويمكن للباحث ان يقدر مادية الأمة الاميركية من الخطوات التي خطتها إن في الحرب الماضية ، وان في هذه الحرب الضروس فهي لما شعرت بأن الصين كانت تدخل ضمن نفوذ الامبراطورية اليابانية من جهة ، ومن جهة اخرى لما وجدت وضع الامبراطورية البريطانية مزعزعا نظرا للانتصارات الحاسمة التي نالتها دول المحور ، ثارت ثائرتها ، وقامت قيامتها لأنها تعد الامبراطورية البريطانية حصنا طبيعيا لها ، سيما انها منذ فجر هذا القرن بدأت تخشى نفوذ الشعب الالماني ، الممتاز بنشاطه ، وذكائه ، المتفوق بقابلياته ، في الجمهوريات الاميركية الجنوبية وكلما زادت الصلات

الالمانية بها وثوقا ضاقت هي بها ذرعا . واستشاطت غيضا . ففي الحرب الاولى تذرعت بتجاوز الأسطول الالماني على سفنها فأعلنت الحرب ولكن في هذه المرة لم تجد ذريعة تتخذها سببا لاعلان الحرب ، ذلك لأن المانية الجديدة ، المانية الريخ الثالث كانت ابعد بصراً ، واعمق تفكيراً من المانية القيصرية انها تجنبت كل عمل من شأنه ان يكون ذريعة للحرب ، وأبدت حلماً غريبا ، وصبراً عجيبا حيث اغضت البصر عن كل الاعمال الاستفزازية التي كان يقوم بها روزفلت وتغافلت عن كل المساعدات الحربية ، والمعاونات المادية التى كانت تقدمها اميركة الى الانكليز . ولكن روزفلت لم يكفه ذلك مع المانية ، وانما مال الى اليابان ، وأخذ يشتد عليها ، ويستفزها ، فكانت الحرب بينها وبين دول المحور فى نهاية الأمر فلو كانت اميركة امة خير تحب السلام العالمي حقا ، لأصبحت رسول سلام ، لا موقدة نار الحرب ، او على الأقل لما كانت معينة على استمرارها ، واشتداد سعيرها . بل لكانت تنظر الى اسباب الحرب ، نظرة المحايد ، الذي يريد ان يصل بنظره الى قرارة الحقيقة . فان وجدت المانية على باطل كانت عليها ، والا كانت بجانبها او على الأقل تلتزم الحياد التام واسباب الحرب واضحة ان المانية طلبت عودة الدانزيغ اليها وان يعدل وضع بولونية في الممر ، حيث لا يجوز ان يكون فاصلا بين جزئي بلاد واحدة ، والدانزيغ ، والممر كلاهما ارض المانية . ويجوز ان المانية كانت تنوي المطالبة بمستعمراتها ، ومع ان قضية المستعمرات لم تبحث او لم تكن من اسباب الحرب ، فلا ادري لماذا يحق لغير المانية ان تملك المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس ، ويبخل عليها بمستعمرات محدودة الرقعة ، محدودة السكان ، كانت قبل ربع قرن تحت تصرفها ، وهي الدولة الضيقة رقعة الارض المزدحمة السكان ؟ فهل اذا طالبت بهذا الطلب تكون خارقة حرمة القوانين ومستهترة بالحقوق الدولية ، ومستعبدة العالم المتمدين ؟ ولماذا هولندة مثلا

تستعمر بلادا تتجاوز نفوسها الستين مليونا ، ومن اغنى بلاد العالم ، مع ان شعبها لا يتجاوز السبعة ملايين ، والمانية ذات الثمانين مليونا من الانفس لا يسوغ لها ان تتصرف في جزء من عشرين جزءا مما تتصرف فيه هولندة ؟ اي عدل هذا العدل ، وأي منطق هذا المنطق ؟ وبالتالي كيف لا نحكم بمادية اميركة ، وانها لا تختلف عن الدول الديمقراطية المستعمرة الاخرى ؟

فالعقبات التى تعترض التكوين الدولي ، هى هذه النزعة المادية القوية التي خالطت دماء الامم المستعمرة ومازجت ارواحها ، وان قواعد السلم لا تلبث ان تنهار مهما صرف في تشييدها من جهد ، وبذل من عناء ، اذا لم تكن هناك زواجر روحية ، وروادع نفسية تقف بالامم المتحاربة ، عند حدود الحق ، وتلهم زعمائها وقادتها الرشد والصواب .

ان طرق تكوين الدول داخليا مهما كانت صائبة وحكيمة فهي لا تثمر ثمرها المطلوب ما لم يحكم بناء التكوين الدولي ، وتنتظم صلاتها تنظيما يمنع أسباب الخلاف ، والاصطدام فيما بينها . لقد كان مشروع تأليف هيأة دولية تمارس حق الاشراف ، على الصلات الدولية ، وتحسم الخلافات التي تتكون فيما بينها من حين لآخر ، وفق قواعد قانونية وأصول مضبوطة ، أمنية من أماني محي السلام العالمي ، وبغية الحكماء المصلحين في الماضى البعيد والقريب .

* * *

ان فكرة وضع العلاقات الدولية تحت سيطرة قانونية دولية ، ليست حديثة فقد تطورت هذه الفكرة بالنظر الى تطور الحضارة الانسانية ، وتأثيرها فى العلاقات بين المجتمعات البشرية المختلفة . وقد قسم علماء القانون الدولي ، العهود التى مرت فيها هذه العلاقات الى ثلاثة عهود . الاول يبدأ منذ شعور المجتمعات البشرية بحاجة بعضها الى بعض الى قيام الامبراطورية الرومانية . والعهد الثانى يبدأ من قيام الامبراطورية الرومانية الى توقيع

معاهدة وستفالية عام ١٦٤٨ والعهد الثالث يبدأ من تاريخ هذه المعاهدة الى يومنا هذا .

أما العهد الأول فلم تكن فيه العلاقات الدولية قائمة على مبادىء واضحة والتزامات متقابلة صريحة بين الدول او الشعوب كافة . وانما كانت الدول تقيم علاقاتها على اساس من القرابة في الدم أو الاتحاد في الدين . وان علاقة تقام على مثل هذين الأساسين لابد ان تكون ضيقة الافق لا تتعدى مجموعة معينة ، من المجموعات الدولية . فمثلا ان المجموعات الاسرائيلية كانت تقيم علاقتها على اساس الدين والعنصر وتعتبر الأمم الأخرى غريبة عنها فلم تلتزم تجاهها بالتزامات ، ولم تعترف لها بحقوق . كما ان المدن اليونانية كانت تتحد اذا ما هاجمها شعب غريب ، أو اذا كانت هي تقرر مهاجمة بلاد غير يونانية لسبب من الأسباب . ولكن على كل حال نجد ان العلاقات الدولية بين المدن اليونانية كانت في كثير من الأوقات تخضع لسلطة هيأة منتخبة وتلتزم بمقرراتها كما نجد انها كانت تحسم منازعاتها بطريقة التحكيم . وعلى هذا الأساس قام حلف دلفي وبلبونز . ولما كانت روما قانعة برقعة ايطالية سواء في عهدها الأول أم في عهدها الجمهوري ، فانها كانت تعقد معاهدات مع الأقوام المجاورة لها، في ايطالية وتنظم علاقاتها معها على ضوء هذه الاتفاقيات كاتفاقياتها مع السابنيين وغيرهم من الشعوب الايطالية مثلا ولما طمعت في خارج ايطالية وتوسعت في فتوحاتها تغير وضعها تماما لقد اصبحت امبراطورية. وصارت هذه الأمبراطورية موئل جميع الشعوب التي تخضع لها مباشرة أو بالواسطة ومن هنا بدأ التحول ودخلت العلاقات الدولية في عهدها الثاني ولعلنا نستطيع ان نجعل عهد الأمبراطور تراجان ٩٨ - ١١٧ بعد الميلاد مبدأ لهذا العهد . ومن النتائج الطبيعية لمثل هذا العهد ، ان تشيع فكرة خضوع العلاقات الدولية لسيطرة دولة واحدة، ذلك لأن الأمبراطورية الرومانية كانت

تسمو سمواً مطرداً في النفوذ وفي السلطان فلم تكن دولة أخرى تنازعها النفوذ وتنافسها في السلطان وقد كان الامبراطور حكما وكانت الدول والشعوب المتنازعة فيما بينها ، تلجأ الى حكمه في اغلب الاحايين ولكن هذه الفكرة ، فكرة سيطرة دولة واحدة، على العلاقات الدولية لم تستمر طويلا فقد تلاشت بانهيار الامبراطورية الرومانية . غير انها بعثت من جديد على عهد شارلمان ولكن مالبث ابناؤه ان اقتسموا فيما بينهم الامبراطورية وتوزعوها ولما نهضت البابوية واخذت هذه السلطة الروحية تنافس الملوك ذوي السلطات الزمنية ، غاض تماما ، معين هذه الفكرة ، فكرة سيطرة الدولة الواحدة على الصلات الاممية . وقد جر هذا التنافس الروحي والزمني ، اوربة ومن ورائها العالم الى محن وشدائد ، وجلب عليها الشرور . وقد كانت الحروب الدينية ، بين الصليبيين والاسلام تارة ، وطوراً بين البروتستانتية والكاثوليكية دائمة الأوار متصلة الاستعار . ولم تحد من شرورها وويلاتها الا معاهدة وستفالية عام ١٦٤٨، وبهذه المعاهدة ختمت الحرب الثلاثين عاما الدينية بين معسكري الكاثوليك والبرونستانت لجائعها ، وانهت مجازرها . على ان هذه المعاهدة قد تمخضت عن مبدأين ما زال العالم يرتكز على دعامتيها، وان كان هذا الارتكاز يختلف قوة وضعفا بالنظر الى نفسيات الشعوب تارة وطوراً الى ما يجد من الظروف والاحداث والملابسات . وهذان المبدآن هما أولا الاعتراف بسيادة كل أمة حرة على بلادها المعروفة الحدود . وثانيا : الاعتراف بالتساوي في معاملة الرؤوس المتوجة وان كانت ممالك الملوك تختلف ضيقا واتساعا وسلطانها يتفاوت قوة وضعفا . ومع ذلك فقد شهد مطلع القرن السابع عشر الذي في منتصفه عقدت هذه المعاهدة ، آراء ومقترحات جديرة بالتقدير من شأنها ان تهدي ساسة الامم وقادتها الى خير المبادىء التي يجب ان تقوم عليها الصلات الأممية والى أحسن القواعد التي يجب ان تستمد اليها العلاقات

الدولية . لقد آلمت « سلى » وزير هنرى الرابع ملك فرنسة الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانات فانبثق عن عقله الجبار ، مشروع اسماه هو « بالمشروع الأعظم » يدعو فيه الى تكوين جامعة تضم الشعوب المسيحية بالقارة الأوربية . وذكر الدول التي تتكون منها هذه الجامعة مع استبعاده الروسية بأعتبار انها أمة غير متحضرة واحوالها مضطربة فضلا عن بعدها عن دول القارة الأوربية كما يطالب في هذا المشروع بتقرير مبدأ حرية التجارة بين الدول الأعضاء وبأتباع طريقة التحكيم فى المنازعات التى تحدث بين اعضاء الجامعة. ثم تلاه العلامة (ايمريك كروشيه) فوضع مشروعا هو أوسع افقا من السابق ، وأدنى الى الخير حيث دعا فيه الى انشاء عصبة او مجلس من الاتراك والبابا والاباطرة والملوك المسيحيين وبهذا يكون قد تخطى الحدود الدينية بأدخاله الأتراك عضواً فى هذه العصبة . وطلب ان تتخذ أحدى المدن المحايدة مقراً للعصبة التي تقوم بتسوية كل خلاف ينشأ بين اعضائها ، وحتم على الأعضاء ان يقسموا بأحترام كل ما تصدره العصبة بأغلبية الأصوات دون تمييز بين مسائل الأجراءات والمسائل الحيوية التي تمس سيادة الشعوب ومصالحها وفي هذه النقطة نجد المشرع يذهب الى أبعد مما رآه واضعو ميثاق عصبة الأمم . وايمريك كروشية ، قد أشار فى مشروعه هذا بضرورة مقاومة كل مدين يرفض الرضوخ للقرار الصادر ، بقوة السلاح بغية اقامة سلام شامل . فهو اذن قد طلب استعمال الاجراءآت العسكرية الفورية ضد المتمردين من اعضاء العصبة وفى عام ١٦٢٥ أصدر العلامة (هوجو جروشيوس) كتابه (قانون الحرب والسلم) وقرر فيه مبدأ وجوب تطبيق المبادىء التي تحكم حقوق الأفراد والتزاماتهم في ظل القانون المدني ، على العلاقات الدولية حيث اعتقد بأن احترام هذا المبدأ من الدول من شأنه ان يمنع الحروب فيما بينها ولأجل تحقيق هذا المبدأ يجب

ان يكون هناك عقد تلتزم بتنفيذه الدول ،وانه يقترح التحكيم لدى مؤتمر دولي لفض الخلافات وتسوية المنازعات . وأما (ويليام پن) فأنه قد أرتأى أولا تأليف برلمان من الدول الأوربية يضع قواعد عادلة يرعاها الحكام وتعرض عليه أسباب الخلاف كافة . ثانيا : في حالة رفض احدى الدول الرضوخ لقرار البرلمان او اذا تباطأت في تنفيذها الى ما بعد الأجل المضروب وعمدت الى الحرب وجب على بقية الأعضاء ارغامها على احترام القرار الصادر في موضوع النزاع . ثالثا : منع التنافس في التسلح بين الأعضاء على ان لا يمس شؤون الدولة الداخلية أو سيادتها او ايراداتها . ونحا نحو هؤلاء الأعلام كثيرون من اعلام الفكر المتأخرين كـ (سان بيير) و (بنتام) و (كانت) ووضعوا مشاريع ، واقترحوا مقترحات في الوسائل المؤدية الى منع الحروب ونشر السلام العالمي ، عن طريق مؤسسة دولية ، او قوة دولية ذات سلطان شامل كان في وسع واضعي ميثاق عصبة الأمم ، ان يقتبسوا منها كثيراً ، ويفيدوا العالم المتعطش الى السلام والطمأنينة ، اكثر .

اجل ! كان الأمل في مشروع عصبة الأمم انه يكفل الحاجة الأنسانية ، وبأستمرار الأصلاح فيها ، تكون الانسانية قد اقتربت رويداً رويداً من اهدافها السامية . ولكن حظها السيء ، قد حاد بمؤسسي هذا المشروع عن جادة الصواب ، فوقعوا في اغلاط واخطاء تعذر اصلاحها منذ يوم بدائهم في العمل الأنشائي . فكان العمل في الحقيقة ليس انشائيا ، وانما كان هداما ، وقد سبق ان بينا طرفا من تلك الأغلاط والأخطاء . فالتكوين الدولي القادم ، اذن متوقف على مبلغ ما تحمله نفوس القادة والزعماء من النيات الحسنة ، وما تتمثل في عقولهم ، من صور رائقة ، وما تتفجر به ضمائرهم ووجداناتهم ، من عواطف صافية ، وقد آن لهم ان يفكروا عميقا ، ويتأملوا

طويلا فى المآسي التى مرت ، بالبشرية بسبب هذه الحرب ، والدمار الذي منيت المعمورة به ، والمصائب والويلات التي ذاق صابها ، كل من الغالبين والمغلوبين ، ليشخصوا الداء ، فيضعوا له الدواء ، قبل ان يفكروا في تأليف الهيأة الدولية ، التي مازلنا نسمع من كل فريق وصفا لها يختلف عن وصف الآخر . فالموضوع روحي ، أدبي ، قبل ان يكون ماديا متجسما . فهل توجد فى الدول نية حسنة لازالة أسباب الحروب ؟ فاذا توفرت هذه النية سهلت التدابير الأخرى الكافلة لتحقيق هذه النية . انى لا ارى ذلك بعيداً وان كانت الطريق وعرة ، كثيرة الحفر والاخاديد فأفلاطون وضع جمهوريته وقام في محاولات لتحقيقها ففشل ثم عاد ووضع « قوانينه » التى عدل بها كثيراً من آرائه التي كان قد بثها في جمهوريته وجعلها ايسر تطبيقا ، واسهل تنفيذاً ومع ذلك فانه ابقى على جمهوريته كما هى ثقة منه بأنه سيأتي زمن يمكن فيه تحقيقها وكثير من رجال الحكمة ، وفلاسفة المدرسة الافلاطونية يرون في الامكان تحقيق جمهوريته . اذن فلماذا لا نأمل ان يتحقق السلام العالمي وان تتوافر النيات الحسنة للعمل فى هذا السبيل ، بمنشآت دولية ومؤسسات قانونية هى أقل قيوداً من جمهورية أفلاطون ، بل وقوانينه بعد ان ادرك الجميع ان الحروب العصرية ، وما يستعمل فيها من وسائل التخريب والتدمير تقضى على حياة الجميع ، الغالبين والمغلوبين ، وان ما يخسرونه في زمن يسير لا تتداركه الانتصارات ، ولا تلافيه جهود اجيال ؟

واليوم الذي اضم فيه هذه اللمحات الفكرية بعضها الى بعض وان كان مواليا لدول المحور حيث فى أيديها المبادئة فى كل ميدان من ميادين القتال فلا ندرى ما تخبؤه الأيام المقبلة لدول المحور — وطالع الحرب كما اوضحت فى دفاعي امام المحكمة العسكرية العرفية ، متغير ، — فقد تنعكس الآية ، وينقلب الوضع ، فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا فان قلت

على الفريقين المتخاصمين ، عندما يقدمان على المفاوضة بشأن الصلح ، ان لا يكررا الأخطاء الماضية ، بمعن الغالب في افناء وتمزيق أوصال المغلوب فانما هو قول صادر من اعماق قلبي حيث كلاهما في الحقيقة مرهق ومتعب ، وكلاهما ممزق الأوصال موشك على الفناء ،فليس هناك غالب أو مغلوب ، ومنتصر ومندحر لذلك من صالح الانسانية ، ان يتعاونا في التعمير والانشاء ، من جديد ، وأن يقيما الصلح على دعائم قوية ، وقواعد ثابتة فقد ارتوت الارض من الدماء ما يكفيها لآجال طويلة ، وشبعت الطير والحيوانات الاخرى من لحوم الانسان الى حد التخمة ، وظفرت النزوات الانتقامية التي كانت تعتلج الأفئدة وتخطر في النفوس بما ارادت ، فأصابت سهامها المقاتل ، ودمرت ، وخربت واهلكت مافيه الكفاية .

وأول واجب ينتظر المسؤولين عن السلم العالمي ، هو النظر في حقيقة الوضع ، واعادة بناء الامم على ضوء هذه الحقيقة . وقد يقال كيف يتم بناء الأمم ، وعلى أي الأسس يكون هذا البناء . فهناك أمم متحاربة مازالت محتفظة بكيانها ، وأخرى فقدت هذا الكيان . وهناك امم صغيرة تمارس نوعا من السيادة فى اراضيها ، ولكنها في عين الوقت خاضعة لنفوذ بعض الدول العظمى ، وهناك شعوب تدار من قبل الدول ادارة استعمارية ، وتحكم حكما مطلقا ، وليس لها كيان خاص ، او نوع من الحكم الذاتي وهى التى يطلق عليها « المستعمرات » سبب هذه الحروب المستمرة ، وعامل الاختصام الدائم ، فهل تظل على حالتها الراهنة او يكون لها نظام خاص؟ وفي الحق ، انه لا سبيل الى صلح دائم ما لم ينظر الى هذه الاعتبارات نظراً دقيقا ، ويفكر فيها تفكيراً صحيحا عميقا .

***

ان الأمم لا تكونها الدماء فقط ، او التاريخ فحسب ، او المصالح المشتركة لا غير ، او الدين ، او اللغة وحدها وانما تكونها مجموعة من

هذه الروابط . فالدماء والمصالح المشتركة والتاريخ المشترك والدين واللغة والارض الواحدة ، كلها عوامل لتكوين الشعوب وخلق الامم . وليس شرطا ان تتوفر جميعها لتكوين امة ، وانما يجوز اجتماع بعض هذه الروابط ليكون كافيا لخلق الامة ، غير ان الاساس المهم ، والرابطة العظمى هما المصالح المشتركة والتأريخ المشترك . وقد يكون في بعض هذه المجموعات ، رابطة اللغة او الدم اقوى من رابطة الدين ، وفي الاخرى بعكس ذلك . فالامة البريطانية ، مكونة من ابناء الجزيرة البريطانية ، وان كان فيهم ، سكسونيون ، وويلزيون ، واسكتلنديون ، وبريطونيون . فقد كونتهم كأمة مصالح مشتركة وتاريخ مشترك قديم وكذلك ممتلكاتها كندا واوستراليا ، ونيوزيلاندة ، فهم بريطانيون روحا وان لم يكونوا كلهم كذلك من ناحية الدم . ولكننا لا يمكننا ان ندخل ضمن هذه الأمة الامم الاخرى التي حكمتها بالقوة كالهنود وجنوبي افريقية والصومال ، وغينية الجديدة والملايو وبورما وما الى ذلك من الامم العديدة وان كان هناك تاريخ مشترك ومصالح مشتركة لأن هذه المصالح المشتركة وهذا التاريخ وهذه الاتصالات المادية كلها كانت وما تزال قائمة على اساس التغلب والتحكم وان الفورات والاضطرابات دائمة الوقوع في هذه الممالك . فبينها وبين الامة البريطانية نزاع متصل واقتتال متتابع . وهذه الحالة غير موجودة في الممتلكات البريطانية المشار اليها آنفا .

والامم العربية قد كونها الدم والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة والأرض الواحدة فشبه الجزيرة عربية وبلاد الهلال الخصيب بلاد عربية ومصر والسودان وشمالي افريقية برمته بلاد عربية أقام فيها العنصر العربي بعد ان خرج من شبه جزيرته ، عصوراً كثيرة وعاش فيها عيشة متصلة وغرس فيها تقاليده وعنعناته ونشر فيها آدابه ولغته ، ودينه . فهي بلاد

عربية وبالتالي فان اهلها امة عربية .

فعلى هذا القرار ينظر الى الامم الاخرى فيعاد بناؤها . فالامة الفرنسية امة قائمة بذاتها وحدود بلادها معلومة . وكذلك الأمة الالمانية ، والأمة الروسية ، والأمة البولونية . وانما سبب الاختلافات المستمرة ، هو العمل في ضم بلاد الى اخرى لا رابطة بينها وبين البلاد التى ضمت اليها ، وفي اخضاع شعب او فريق من شعب لسلطة شعب آخر غريب .

فالامم التى ما زالت محتفظة بكيانها ، واستقلالها ، سواء كان هذا الاستقلال تاما ام ناقصا كما في بعض البلاد الشرقية ، ومنها البلاد العربية فمن السهل الاحتفاظ بكيانها ورسم حدودها ، ان هذه الامم يجب ان تحكم نفسها بنفسها ولا يكون هناك استقلال تام او استقلال ناقص ، لكونها من الفريق الغالب ، أو من الفريق المغلوب

وينظر كذلك في امر الأمم الناقصة السيادة ، او المحرومة السيادة . فان كانت تمت بنسب الى مدنية قديمة . وكانت لها جهود في بناء الحضارات القديمة او الحاضرة فمن الانصاف ان يفسح لها المجال ان تعيش حرة مستقلة وان تحكم نفسها بنفسها ذلك لأن مساهمتها في اقامة الحضارات في عهد من عهود التاريخ دليل ناطق على حيويتها ، وعلى قابليتها . ومهما كان الحال فان مدى الاختلاف بينها وبين الامم التى أقامت المدنية الحاضرة ليس بعيداً من ناحية قوة التفكير وقابلية الابداع والاختراع . فالصين والهند ، والامة العربية ، والتركية ، والفرس وغيرهم كل هؤلاء شعوب لها حضارات قديمة ، ولأبنائها القدماء جهود محمودة في سبيل تقدم الانسانية فلا مبرر للتحكم فيهم والسيطرة عليهم وانهم يستطيعون ان يساهموا في الحضارة القائمة ، ان تهيأت لهم أسباب المساهمة ، وتوافرت لهم عوامل الحياة والانبعاث . واذا قيل ان في هذه البلاد مواد ابتدائية ، تصلح للصناعات ، وان فيها كنوزاً

ودفائن تفيد الحضارة وانها ان بقيت في أيدي اهاليها ، تبقى مدفونة في جوف الارض ، او مهملة على سطحها لعدم قابليتهم من الاستفادة منها ، فيجوز تنظيم طريق الاستفادة من هذه المواد والخيرات من قبل الهيأة الدولية التي سنبحث فيها بعد قليل والاستفادة من هذه المواد والخيرات ، بطريق المسالمة ، افضل من طريق العنف والقوة .

أما الشعوب الاخرى التي لم تسبق لها مدنية وحضارة والتي قست عليها الطبيعة بعض القسوة فحدت من قابلياتها الفكرية واضعفت فيها النشاط الضروري ، لاقامة الحضارات ، فيجوز ان تدار من قبل هذه الهيأة الدولية ، او تدار بطريقة الانتداب تحت اشراف هذه الهيأة الدولية ، على شرط ان يكون هدف الانتداب عليها يرمي الى مدها بالمقومات المقتضية وتدريبها وتثقيفها بقدر ما تستطيع قابليات ابنائها ان تحتمل التدريب والتثقيف هذين وان يحتفظ بخيراتها وكنوزها ، او تستغل بصورة مفيدة لها ، ومفيدة لتقدم الحضارة القائمة في وقت واحد وبالتالي يجب ان ينظر اليها كشعوب جديرة بالرفق والحنو لا الغلظة والشدة .

ولا يتصور انقاذ العالم من مخاطر الحروب وويلاتها في المستقبل اذا لم تسد هذه الروحية الزعماء والقادة الذين يقودون الشعوب ويضعون لها اسس الصلح القادم . ففكرة الاستعمار واستعباد الشعوب الضعيفة يجب ان تزول بالمرة وكذلك فكرة الانتقام من الدول المغلوبة .

اننا ما زلنا نسمع من افواه وقادة وزعماء الدول الديمقراطية التهديدات المتكررة لمحاكمة زعماء الفاشيست والنازية ومعاقبتهم بالعقوبات الصارمة التي يستحقونها وانهم سيؤلفون محكمة دولية خاصة لمحاكمتهم . لنفرض ان الجبهة الديمقراطية ربحت الحرب وجمعت زعماء الفاشيستية والنازية في صعيد واحد وبدأت تحاكمهم محكمة دولية ألفت لهذا الغرض . فعلى أي قانون يكون

العقاب ؟ فالحكم بعقوبة يشترط قانون ارتكبت الجرائم ضده - فهل تعتبر معاهدة فرسايل قانونا ملزما للمجموعة الدولية ، وان زعماء دول المحور ارتكبوا ضده جرائمهم ؟. ان معاهدة فرسايل ليست ظالمة وغادرة فى نظر دول المحور ، أو في نظر المانية على الاقل وهي زعيمة دول المحور وانما هي كذلك فى نظر الدولة الامريكية وهى أقوى سند للجبهة الديمقراطية وبفضل جهودها ، بقيت الامبراطورية البريطانية حية فى الوجود ، وفي نظر الروس السوفيت وهم العامل الاول فى اضعاف الجهاز الحربى المحوري . فالامريكيون كانوا قد نبذوا معاهدة فرسايل لانها ظالمة ،وابتعدوا عن اجواء عصبة الامم لانها لم تقم على اسس العدل والانصاف . والدولة الروسية تعتبر نفسها من ضحايا معاهدة فرسايل فقد اقتطعت منها الدويلات التي أحدثت على البلطيق وضم جزء كبير من روسيا البيضاء ، ومن اوكرانية الى الدولة البولونية . فأول من يقوم على خرق حرمة هذه المعاهدة الجائرة ، هم الامريكيون ،والروس ، وهم القسم الاكبر ، والشطر الاقوى في الجبهة الديمقراطية واذا كانت هذه المعاهدة بهذه الكيفية فكيف يساق الاتهام ضد هؤلاء الزعماء ؟. وهل ان عدل المحكمة يدفعها الى الحكم على رجال المانية وقادتها ، لانهم طالبوا باعادة بلاد المانية كانت تستولى عليها امة اخرى لا تربطها بها رابطة ؟ فان كان عدلهم من هذا النوع فهل يؤمل ان يكون سلم عالمي ، دائم ، او الى أمد طويل على الاقل ؟ فالسلم الدائم يقضي على الجميع تناسى الاحقاد والضغائن ، وكبت النزعات والثورات النفسية وإن السلم العالمى يقضي فوق ذلك ان يشعر الجميع بأن الحرب التى وقعت كانت نتيجة اخطاء التصرفات السابقة ، وان الجميع اشتركوا في هذه الاخطاء كل بنسبة وضعه وبقدر قابليته . فلما كانت المسؤولية تشمل الجميع ، فعلى الجميع ان يتحملوا ما اصابتهم به الحرب من كوارث ، وليس لهم بعد ذلك غير التعاون على اقامة

عالم أفضل ، وايجاد نظام دولي يكفل السلام العام الدائم . وليس من الحق ان نفترض الغالبية في جهة الديمقراطيين فقد تكون في جهة المحور وان البوادر ما زالت تشير الى ذلك . فهل في وسع المحور بعد ان ينتصر أن يعيد الأخطاء السابقة ، ويغرق العالم في الدماء مرة اخرى في المستقبل القريب؟ ان المانية نفسها خبرت ما يثيره الظلم في النفوس من الحفائظ والاحقاد وانها جربت بنفسها كيف انها استماتت في العمل لاعادة تسليحها ولانبعاثها من جديد برغم التحديدات الصارمة التى فرضت عليها وبرغم الاشراف الدقيق على نواحي نشاطها . والأمم التي يصيبها الخسران ، وتقهر فيها ما في الامة الألمانية من النشاط والحيوية ، وفيها ما فيها من قوة الأبداع والأختراع وفيها ما فيها من القدرة على العمل ، والشجاعة في سبيل اعادة كيانها ، واسترداد عزتها فمها ضربت حولها من اسيجة تحد من هذه القابليات وتضعف من هذه القوى فلن تستطيع ان تبلغ بسلطانها قرارات النفوس ، وتتحكم في الارواح . أنها سوف تعمل ما عملت هي ، وسوف يعود الاصطدام من جديد . اذن فسواء كان المنتصرون المحوريين ، أم الديمقراطيين ، فعلى الجميع ، أن ينتزعوا من عقولهم فكرة الانتقام او فكرة الاستئثار بالمنافع او فكرة الاستعمار التي هي سبب كل هذه المصائب التي عاناها العالم .

وبعد كل ما تقدم نفترض ان التكوين الدولي قائم على اساس التعاون الدولي ، وتجنب فكرة الاعتداء على الشعوب او استعمارها والتحكم فيها وبهذه الفكرة وهذه الروح نرسم الخطوط الآتية :

اولا : تتمتع الامم المحتفظة بكيانها والأمم المحرومة من هذا الكيان وكانت لها حضارة سابقة او مساهمة في الحضارة القائمة بسيادتها . وأما شعوب المناطق الاستوائية وما يصاقبها وكذلك ما يماثلها من الشعوب الاخرى الشمالية ، التي قست عليها الطبيعة وحدت من قابلياتها ، العقلية والنفسية

فتدار أما بمعرفة الهيأة الدولية المنشأة وأما تحت اشرافها وفق الشروط التي سيجيء بحثها .

ثانيا : ان ينزع السلاح من الدول كافة وتقوم قوات « مليش » كافية لمحافظة الامن الداخلي في كل دولة و تجهز بالاسلحة المقتضية تحت اشراف الهيئة الدولية اما الاساطيل البحرية الحربية فتستحوذ عليها الهيئة الدولية وانما يعطى بأشرافها لكل دولة بحرية ما يكفي لحراسة سواحلها الداخلية فقط من هذه القوات البحرية وتمنع المعاهدات السرية مهما كان موضوعها ويحترم مبدأ التحكيم في فض المنازعات الدولية : هذان هما المبدآن العامان .

- ب - تأليف الهيئة الدولية

تتألف الهيئة الدولية من مجلسين . مجلس عصبة الامم . والمجلس الاعلى . فالمجلس الاول ، أي مجلس عصبة الامم يجوز ان يتعدد فيه المندوبون للدولة على ان لا يزيد عدد الممثلين لكل دولة عن اثنين وبالضرورة تتعدد الاصوات بقدر عدد الممثلين . والدولة التي لها الحق في ان يكون لها اكثر من مندوب واحد هي الدولة التي تزيد نفوسها عن العشرين مليون نفس مثلا أو التي انتدبت لارشاد بلد ما بأشراف الهيئة . وتنتخب الدول ممثليها في هذا المجلس ، من مجالسها التشريعية ، أو هيآتها الشعبية . ليكون هذا المجلس ممثلا لارادة شعوب الدول المنضمة اليه . وأما تعدد الاصوات فأنه مبدأ وان لم تأخذ به عصبة الامم البائدة فقد سبق ان اخذ به حتى في الازمنة القديمة فمثلا ان حلف دلفي اليوناني كان قد اعتبر لكل عضو صوتين اثنين . وكان هذا الحلف منعقداً في الحقيقة بين دول أو مدن ذات سيادة هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذا المجلس يقرب من ان يكون برلمانا لشعوب الدول

واعضاء البرلمانات وان كانوا على الاكثر يمثلون احزابا معينة ، فانهم حين يصوتون ، تعد اصواتهم بقدر عددهم لا بقدر عدد الاحزاب الممثلة في كل برلمان .

اما المجلس الاعلى فانه يتكون من اعضاء تنتدبهم الحكومات المنضمة الى الهيئة الدولية ويكون عدد المندوبين فيه بقدر عدد الحكومات . أي يكون لكل دولة مندوب سواء في ذلك الدول الكبيرة ، والدول الصغيرة . يجتمع المجلسان وينفضان في وقت واحد ولا يجوز الجمع بين عضويتي المجلسين . اما كيفية اجتماع المجلسين واوقاته والتصويت وطرق حل المشاكل المعروضة عليهما وما الى ذلك من الامور فانها تعين بأنظمة خاصة يقررها مؤتمر الصلح الذي يقيم هذه الهيئة ويجوز ترك بعضها الى كل من المجلسين . وتكون مخصصات المندوبين والممثلين لدى المجلسين على عواتق دولهم المتبوعة .

مهام مجلس عصبة الأمم :

— أ — تعرض المشاكل الدولية على جميع انواعها ، والمنازعات على تباين اشكالها على مجلس العصبة في اول الأمر . وبعد ان تحقق في اللجان الخاصة بالطرق التي عينها المجلس تعرض عليه فيعطي قراره بالاتفاق او بالاكثرية .

— ب — للمجلس ان يؤلف لجان تحقيقية ولجان فنية وعلمية واي نوع من اللجان الأخرى التي يراها ضرورية . وهذه هي التي تقوم بالتدقيقات الاولية وتعرض نتائج تدقيقاتها بتقارير تكون موضع المذاكرة في اجتماع المجلس . وهذه اللجان تكون من اعضاء المجلس كما يجوز ان يكون فيها العلماء والخبراء الفنيون من خارج اعضاء المجلس .

— ج — يركز العملة على اساس دولي ثابت ويوحد القوانين التجارية بين الدول سيما المتفرقات الكمركية .

ــ د ــ يكون للمجلس ممثل لدى كل دولة ذات سيادة يشرف على حسن تطبيقها لمقررات العصبة ويراقب شؤون العملة ، والسلاح وصلات الدولة بغيرها من الدول وهل هناك معاهدات سرية ام لا ويرفع تقاريره الى رياسة مجلس العصبة لعرضها على المجلس .

ــ هـ ــ يكون في كل بلد منتدب عليه ممثل للمجلس يراقب سلوك الدولة المنتدبة . وترفع بواسطته شكاوي الاهلين الى مجلس العصبة .

ــ و ــ تكون نفقات الممثل ونفقات دائرته على عاتق المجلس .

ــ ز ــ على الدولة او البلد الذي يقيم فيه ممثل العصبة ان يسهلا عليه مهمته ويضعا تحت تصرفه الوثائق والمستندات التي يطلبها على ان تكون ذات علاقة بمهمته .

ــ ح ــ مندوبو الدول لدى العصبة هم الذين يمثلون دولهم المتبوعة في الخصومات الدولية ولا يشتركون في التصويت في القضايا المتنازع عليها فيما بين دولهم .

ــ ط ــ تعرض الموازنة العامـــة في اول الامر على مجلس العصبة ويجري تدقيقها ومناقشتها بالصورة التي تجريها الدول البرلمانية ثم تعرض على المجلس الاعلى شكليا فاذا اعادها الى مجلس العصبة فيكون قرار هذا المجلس بشأنها قطعيا .

ــ ي ــ لما كان رئيس المجلس واعضاء مكتبه دائميين فلا يجوز ان يكونوا من وزراء الدول او الموظفين فيها . ان وظائفهم في مكتب رياسة المجلس لا تقبل الجمع مع وظائف او مناصب دولهم المتبوعة .

ــ ك ــ تكون حتما لجان دائمية ثلاث . الاولى للنظر في التقارير المرفوعة من قبل ممثلي المجلس لدي كل دولة ذات سيادة . والثانية للنظر في التقارير المرفوعة من قبل ممثلي المجلس لدي كل بلد منتدب عليه

وشكاوى اهله وتقارير الدولة المتعدية ودفاعها . الثالثة للنظر في الادعاءات الدولية ضد بعضها البعض وفي مشاكلها . ان التقارير والشكاوى والادعاءات ترفع الى رياسة المجلس وهذه بدورها تحيلها الى اللجان المختصة .

— ل — للمجلس ان يصدر قرارات استشارية وارشادية فيما له علاقة بمكافحة الاوبئة والمخدرات والانظمة الكمركية وأسس التربية والتعليم والى غير ذلك من الامور التي من شأنها ان تهذب النفوس او تنشط التجارة او تحسن الحالة الاقتصادية والصحية وتقرب وجهات النظر بين الدول والامم

— م — ترفع جميع قرارات المجلس الى المجلس الاعلى الا اذا كان قد قبل بها الطرفان المتنازعان ، وكان موضوعها خلافيا بين دولتين او دول معينة .

— ن — تؤلف لجنة خاصة لتنظيم الموازنة العامة لتأسيسات الهيئات الدولية وقواتها المسلحة لكل عام .

— س — المجلس ان يؤلف اللجان الفنية والعلمية ، بقدر ما تدعو اليه الضرورة للنظر في امر توزيع المواد الخام المبذولة في بلد ، والمحروم منها بلد آخر لغرض تنشيط الصناعات ، والتقدم في مختلف النواحي التى تقتضيها الحضارة القائمة كما ان للمجلس حق بيان الطرق والاساليب التى يجري بموجبها التبادل التجاري والتعاون الاقتصادي او الصحي بين مختلف امم العالم .

مهام المجلس الاعلى

— أ النظر في قرارات مجلس العصبة وتأييدها او اجراء التعديل فيها

ما عدا الموازنة العامة فان القرار القطعي فيها مودع الى مجلس العصبة .

ب ـ قرار المجلس الأعلى قطعي ما عدا الموازنة العامة .

ج ـ يكون لمنتدبي الدول المتخاصمة حق الكلام أمام المجلس الأعلى حين النظر في قضايا دولهم المتبوعة مثل ما كان لهم امام مجلس للعصبة .

د ـ رئيس المجلس الاعلى هو القائد العام للقوات البرية والجوية والبحرية التي توضع تحت تصرف الهيأة الدولية وبقرارات من المجلس يعين وكيله او وكلائه والقواد الآخرين لهذه القوات ، وهو الذي يوزعها على المناطق والأماكن المخصصة لها . والمجلس الأعلى هو الذي يقرر عدد القوات التى تحتاجها الهيأة الدولية كما انه هو الذي يقدر ما لكل دولة او بلد من حق في السلاح والتجهيزات الحربية الاخرى ، وعدد القوات التى تخصص لكفالة الامن العام للدولة او البلد .

هـ ـ ينعقد كمحكمة عليا ، لمحاكمة ومعاقبة من يتمرد على القرارات النهائية لكلا المجلسين ويتحدى هيبة الهيأة الدولية ، من رجال الدول وقادتها وكذلك لتعيين مسؤولية الدولة المتمردة .

و ـ المجلس الأعلى هو الذي يقدر مقادير الاقساط التى تدفعها كل دولة ذات سيادة لتلافى نفقات الهيأة الدولية ومؤسساتها وقواتها بعد استشارة مجلس العصبة .

ز ـ رئيس المجلس الأعلى وأعضاء مكتبه دائميون ولا يجوز ان يشغلوا مناصب وزارية او حكومية في دولهم المتبوعة طيلة اشتغالهم فى مكتب الرياسة .

ــ ح ــ لا يجوز الجمع بين عضوية المجلس الأعلى وعضوية مجلس العصبة.

ــ ط ـ للمجلس أن يؤلف لجان فنية وعلمية وتحقيقية من أعضاء المجلس أو من غيرهم. وعلى كل فعليه أن يكون اربع لجان دائمة احداها للميزانية والثلاث الاخريات للقيام بالشؤون الوارد ذكرها في مادة «ك» السابقة.

ــ ي ــ يقوم منـدوبو الدول المتخاصمة بتمثيل دولهم المتبوعة ولا يجوز لهم التصويت في القضايا المتخاصمة فيها دولهم.

متفرقات

ــ أ ــ كل دولة ذات سيادة مجبورة على الانتظام في سلك الهيأة الدولية.

ــ ب ـ لا يجوز الخروج من الهيأة الدولية. والخروج يعتبر تمرداً يستوجب ترتيب العقوبات السريعة.

ــ ج ـ محافظة الأمن في البحار المكشوفة وتعقيب القرصان من واجبات قوات الهيأة الدولية المسلحة.

ــ د ـ الاختلافات الدولية على أنواعها لما كانت واجبـة العرض على مجلس العصبة قبل اتخاذ أي اجراءات عسـكرية من الدول ذات العلاقة، فكل حركة عسكرية اعتدائية تصدر من الدول المتخاصمة تستوجب اتخاذ الاجرآات العسكرية الفورية من قبل قوات الهيأة الدولية المسلحة.

ــ هـ ـ في حالة اشتباك قوات الهيأة الدولية المسلحـة مع دولة متمردة، يجب على الدول كافة ان تقدم المساعدات المادية والمعنوية حسب طلب القيادة العامة بالنسبة لمقدرة كل دولة. والتأخر أو التردد في ذلك يستوجبان عين المعاملة التي تجري بحق الدولة المتمردة.

و — الدول المختلفة فيما بينها يجوز لها ان تسحب ادعاآتها وشكاواها في مجلس العصبة أو في المجلس الأعلى اذا أتفقت فيما بينها على حل الخلافات القائمة بينها حلا سلميا بشرط ان لا يكون قد صدر ، بشأنها قرار المجلس الأعلى الذي تعتبر قراراته قطعية .

ز — يجوز ان يدعى المجلسان للأجتماع في غير المدة المعينة لاجتماعاتهما السنوية الاعتيادية إذا اطلبت ذلك اكثرية أعضاء مجلس من المجلسين للنظر في أمور مستعجلة وتكون دعوتهما ضرورية في حالة تمرد دولة أو فريق من الدول ، واشتبكت قوات الهيأة الدولية بالحرب معها أو معه .

ح — يكون لكل رئيس من رئيسى المجلسين نائب واحد على الأقل على ان لا يكون الرئيس ونائبه من رعية دولة واحدة .

ط — لا يجوز ان يمارس مندوبو الدولة المتمردة أو فريق الدول المتمرد كل اعمالهم في كلا المجلسين ولا في لجانه أو في مكتبي الرياسة واذا كان رئيس احد المجلسين من رعية الدولة المتمرد يقوم نائب الرئيس بواجبات الرياسة الى ان ينتخب رئيس جديد في محله في اول اجتماع يعقده المجلس .

- ج - تعليقات !

١ — إن الهيأة الدولية المقترحة ، تتناول كل المجموعات الدوليه في المعمورة ، سواء كانت في اوربة أم في آسيا أم في أفريقية أم في أميركة أم في اوستراليا . وليس صحيحا التفريق بين الامم على أساس القارات أو على أساس العنصرية أو غير ذلك من اسس

التفريق ، التي ولع بها السياسيون . ذلك لان المصالح قد اشتبكت والمنافع قد امتزجت ، والاتصالات من جميع النواحي قد اشعدت وتكاثرت بحيث لا يمكن لأمة من الأمم أن تختص بامة واحدة أو بفريق من الأمم في تطمين حاجاتها واشباع رغباتها فقد يجوز أن تكون هناك دولة اوربية لها مصالح وعلاقات في ممالك آسيوية اكثر مما لها في اوربة نفسها . وكذلك فقد نجد دولة شرقية ، ترتبط بروابط سياسية أو اقتصادية بدول اوربية اكثر مما ترتبط به بدول شرقية . فالتفريق بين الشرق والغرب ، أو بين أوربة أو آسيا في التكوين الدولي ، انما هو ضرب من العبث اللهم إلا اذا يراد بهذا التفريق القضاء على حيوية وحرية الشعوب الاسيوية. فمثل هذه النزعة لا يمكن ان تؤدي الى استقرار عالمي دائم ، وكما ان في الشعوب الاوربية رجولة وصفات اخرى تمنع استرقاقها فكذلك توجد عين الصفات في الشعوب الاسيوية . فالشعوب قد تنبهت ووسائل الماضي لم تعد مجدية للمستعمرين . لهذا فمن الضروري ان تكون الهيأة الدولية المقبلة مفزع الجميع ، وموئل الجميع .

٢ — ان الانتظام في سلك هذة الهيأة الدولية اعتبر اجباريا وفرض فرضا على كل دولة ذات سيادة تفاديا للأخطاء التي وقعت في الماضي ، حيث ان امتناع بعض الدول الكبرى عن الانضمام للعصبة قد جعل سلطة العصبة محدودة ، وهيبتها منتقصة كما ان المبدأ الاختياري الذي تقرر للانضمام للعصبة قد جعل الخروج منها ايضا ميسورا لأي سبب تافه . فاصبحت العصبة لا تمثل الا فريقا من الدول ، وهذا الفريق نفسه بضغط الظروف السياسية والاحوال العالمية اضطر الى ان يداري الدول المنفصلة او الخارجة على مبادىء

العصبة ويداجيها وبذلك سقطت هيبة العصبة بالمرة ، وضاعت الجهود التي بذلت في سبيل انشائها . ولأجل ان تكون هناك هيأة دولية ذات كيان وذات سلطان فمن الضروري ان يكون الانضمام اليها الزاميا ، والبقاء فيها كذلك .

٣ — اعتبرت الأمم التي ما زال كيانها مضمونا وعامرا ، او الأمم التي كانت لها حضارة قديمة ولكن لأسباب شتى اضاعت كيانها واستقلالها ، اعتبرت هذه الامم ذات حيوية ونشاط فلا يجوز استعمارها ، والتحكم في ابنائها لأنهم ليسوا اقل قابلية . في حكم انفسهم بأنفسهم من الأمم الاوربية . وقد اوضحنا اسباب ذلك فيما تقدم . وعدا ذلك فان مثل هذه الامم يصعب فيما بعد استخذائها لئلا تكون عاملا من عوامل فقدان الاستقرار العالمي . فضلا عن ان الفكرة الاستعمارية اذا بقيت على قوتها فلا تلبث الامم المنافسة في مضمار الاستعمار ان تصطدم اصطداما دمويا مرة اخرى . فتجنبا لكل هذه الغوائل يقتضي ان يقضى على مبـدأ الاستعمار بمعناه المعروف الآن . اما الاستفادة من خيرات ومواد بلاد هذه الامم فمن الميسور الحصول عليها بالطرق السلمية وبتصويب وترتيب الهيئات الدولية نفسها وقد ذكر ما يكفل هذه الغاية . اما الامم الاخرى التي قست عليها الطبيعة فحدت من قابلياتها فانها تدار اما بواسطة الهيئات الدولية مباشرة واما بطريقة الانتداب . وقد افترضنا الطريقة الثانية هي التي ستقبلها الدول ولكن هذا الأنتداب لا يماثل الانتداب الذي سبق ان مارسته عصبة الامم البائدة . فهذا الأنتداب يستهدف قبل كل شيء خير البلاد المنتدب عليها ويحتم على الدولة المنتدبة ان تبذل مجهودها لرفع المستوى الثقافي

والصحي ، والمعاشى لأهل البلاد المنتدب عليها وقد اشترط ان يكون لمجلس عصبة الامم ممثل في كل بلد منتدب عليه يراقب كيف تؤدي الدولة المنتدبة الأمانة التى وضعت فى عنقها ثم هــو يقبل الشكاوي من أهالي البلد المنتدب عليه ليعرضها فوراً على مجلس العصبة . صحيــح انه ليس له رأي في أدارة البلاد التي يمثل فيهـا مجلس العصبة وليس له حق التدخل فى شؤونها ولــكنه يصبح واسطة بين العصبة وبين ابناء البلد بينما انظمة العصبة السابقة كانت تفرض ارسال شكاوي البلاد المنتدب عليها بواسطة الدولة المنتدبه نفسها . وهذا فرق بين الحالتين عظيم أما عدم اعطائه صلاحيـة التدخل في شؤون البلد . أو حق حسم الخلافات المتـكونة بين أهل البلاد ، والدولة المنتدبة ،فذلك أمر ضروري لحسن جريان المعاملات ولتلافي الفوضى والأرتباك فلايجوز ان تكون سلطتان عاليتان فى مكان واحد ، وحاكميتان تسودان بلداً واحداً ،الأمر الذي يخالف النواميس الطبيعية . ويناقض القواعد المنطقية .

٤ — ان وسائل الأعتداء المادية تتمثل بالقوات المسلحة من برية وبحرية وجوية ومالم يقض على هذه الوسائل فلا يكون هناك سلم دائم . لذلك يجب ان يكون نزع السلاح ليس مجرد نظرية يتغنى بهـا الخطباء على المنابر ورجال الدول في المجالس ، والكتاب في الصحف والكتب . فالدول تستطيع ان تحتفظ بالقوات المسلحة التي تـكفل في داخلها النظام العام ، وتنفيذ القوانين وحماية مياهها الساحلية ان كانت من الدول البحرية ، ولقد جعل أشراف الهيأة الدولية من ناحية التسلح اشرافاً حقيقياً فعليا . فالمجلس الأعلى هو الذي يقرر القوات المسلحة التي يجب ان تحتفظ بها كل دولة سواء من ناحية العدد

أم من ناحية العتاد وأنواع الأسلحة ، لتحقيق الغاية المنوه عنها ، ألا وهي محافظة النظام العام الداخلي ،وتنفيذ القوانين،وحماية المياه الساحلية ان كانت من الدول البحرية أي ذات سواحل بحرية .

ومن الطبيعي ان المجلس المشار اليه لايقرر هذه القرارات الخطيرة إلا بعد درس أوضاع كل دولة وتعرف حاجاتها ، من قبل لجان ذات اختصاص . وقرار المجلس في هذا الشأن قطعي . لأن القطعية اذا لم تكن امراً محتوما فلا تنفك الاعتراضات تتواتر ، والاحتجاجات ، تتكاثر حيث كل دولة تطمع في المزيد من قواتها وسلاحها . ومصانع الأسلحة ومعامل العتاد ، واحواض السفن ، وما الى ذلك من الأماكن التي تنتج فيها أنواع الأسلحة ، تكون تحت مراقبة الهيأة الدولية الصارمة . فلا يمكن ان تنتج إلا المقادير والأنواع ، التي تجيزها هذه الهيأة . ولتأمين سيطرة الهيأة الدولية وتثبيت سلطانها على الدول كافة ، على أسس وطيدة يقتضي ان تختص هي وحدها بأمتلاك القوات المسلحة والسلاح ، والأساطيل البحرية الحربية ، والجوية بالأقدار التى تعينها هى ، لتنفذ مقرراتها بواسطتها ، ويبني على ذلك ان تأمين سلامة البحار المكشوفة يكون على عاتق قواتها . ولما كانت هذه القوات تفتقر الى قائد عام يمثلها ، ويتزعمها فقد اعتبر رئيس المجلس الأعلى قائداً عاما لها . وانه بمعاونة المجلس يعين القواد ، والضباط ، واماكن اقامة القوات والأساطيل ويبين طرق توزيعها ، واتجاهاتها . وفى هذه الحالة لا تبقى حاجة لخوف الدول الصغيرة من تجاوزات الدول الكبيرة ، ولا الكبيرة تكون في وضع يمكنها من الطغيان والتعسف بالدول الصغيرة .

وهنا يصح للسائل ان يسأل هل ان الدول مجبورة على الغاء التجنيد

في ممالكها ، وسد المدارس والكليات التي تخرج الضباط، والمستودعات التي تدرب الجنود وتهيئهم للجندية .؟

ان تحديد القوات المسلحة ، في كل دولة ، وايداع مهمة الدفاع عن حدود الدول ومصالحها الى الهيأة الدولية لا يقتضى الغاء التجنيد أو سد المدارس والكليات والمستودعات العسكرية بل ان ابقائها ضروري للسلامة العامة . فالقوات المسلحة لكل دولة تحتاج الى تدريب عسكري وهي في حاجة الى قواد وضباط يشرفون على هذا التدريب ويقومون به ويبذلون جهدهم لرفع مستواه وكذلك القوات المسلحة العامة التي تكون تحت تصرف الهيأة الدولية فهي في أمس الحاجة الى هذه المعاهد العسكرية . وغير هذا وذاك فقد يجوز ان يحصل تمرد من قبل دولة كبيرة أو فريق من الدول وتكون الهيأة الدولية في حاجة الى قوات مسلحة اكثر عدداً مما هو موجود لديها لصد عدوان الدولة الكبيرة أو فريق الدول . فاذا لم تكن هذه القوات مهيئة ومستعدة للعمل ، فقد يضطرب وضعها وتندحر، فالقوات المدربة الاحتياطية ضرورة دولية لا مندوحة منها . اذن فالتجنيد ، ومعاهد التعلم العسكرية ، ضرورية . ولكنها على كل لن تكون في الوسعة التي كانت عليها الدول اثناء تمتعها بالحرية المطلقة في تكوين قواتها المسلحة . ولكن يجوز ان تكون الخدمات الاجبارية اقصر إذ بينما هي في السابق كانت سنتان أو ثلاث ، أو اكثر من ذلك فقد تكون مدة الستة شهور أو السنة او ما بينها كافية .

— ٥ — ومن وسائل الاعتداء الدولي المعاهدات السرية والاتفاقات الخفية . وهذه قد سببت نكبات عالمية هائلة في الماضي . فالقضاء على هذه

الطريقة الدبلوماسية الخطرة من أولى الخطوات لاستتباب الهدوء واستقرار السلام في العالم . ان الحرب الكونية الماضية كانت نتيجة هذه الاتفاقات والمعاهدات السرية وبينما كانت تختمر فكرة تحريم المعاهدات السرية اثناء الحرب العالمية تلك ، لما تحقق من خطرها على السلامة العامة ، فان انجلترة عقدت معاهدة سايكس - بيكو السرية مع فرنسة ، كما انها منحت وعدها لليهود في فلسطين بعين الطريقة . فالدول الكبرى لا يهدأ لها بال إلا بأقلاق الراحة العامة بالاتفاقات السرية . فأعطاء نهاية حاسمة لهذه الطريقة اصبحت ضرورة تقتضيها مصالح الدول كافة لاسيما الصغيرة منها لتأمن على مصائرها . وقد جاء ذكر تحريم المعاهدات السرية غير مرة في مشاريع الاعلام الحقوقيين المنوه عنها قبل قليل .

— ٦ — ان وجود ممثل لمجلس العصبة ، في كل دولة ذات سيادة وممثل له في كل بلد يكون تحت الانتداب من الضرورات التي اقتضتها طبيعة الوضع الجديد فالهيأة الدولية يجب ان تكافح وسائل الاعتداء ولاجل ان ينجح كفاحها ، يجب ان تكون ملمة بكل ما يقع في داخليات الدول من احداث ، من شأنها اقلاق الراحة العامة ، والسلام العالمي . فمهمة الممثل في هذه الدول ذات السيادة ، هي مراقبة تنفيذ الدولة التي يقيم فيها ، لمقررات العصبة ، بصورة عامة ولمراقبة انتاج المعامل ، والمصانع التي تعد وسائل العدوان ، وهي السلاح بأنواعه ، ولملاحظة النشاط في هذا السبيل وللحيلولة دون الاتفاقات السرية ، بصورة خاصة . ويشترط في هذا الممثل ان لا يكون من رعية الدولة الموفد اليها ليكون حراً في عمله ولئلا تؤثر فيه النزعات القومية ، والعواطف الوطنية ، فالهيأة بواسطة ممثليها

تستطيع ان تتعرف الى حقيقة الأوضاع والحالات فى جميع الدول ذات السيادة وعلى ضوء هذه الحقيقة تصدر قراراتها .

٧ - تأليف الهيئة الدولية من مجلسين ، أقوم سبيل لحفظ التوازن بين الدول الصغيرة والدول الكبيرة من ناحية ومن ناحية اخرى لتمكين الهيأة من تنفيذ اشرافها ومن تقوية سلطانها على الدول كافة وقد اعتبر عدد المندوبين لكل دولة في مجلس العصبة متفاوتا بالنسبة لاتساعها وكثرة نفوسها أو لما القيت عليهامن واجبات دولية، وهذه حالة طبيعية . لأن الدولة الصغيرة يكفى ان يكون مندوب واحد لها ليلم بشؤونها وليدافع عنها فى المجلس ولكن اذا كانت كبيرة ، أو كانت قائمة بمهمة الأنتداب فيقتضى ان يكون هناك أكثر من مندوب ، ليتعاونوا فيما بينهم ، ويتشاوروا حينما توضع مشاكل وقضايا دولهم المتبوعة موضع البحث في المجلس أو لجانه . و لما كانت قرارات هذا المجلس غير قطعية ما عدا الميزانية فلا خطر على مصالح الدول الصغيرة من هذه الناحية . ولكن المجلس الاعلى الذي اعتبرت قراراته قطعية فقد روعيت فيه المساواة بين الدول ذات السيادة من دون تمييز فيما بينها.وهذا اكبر ضمان لحقوق الدول الصغيرة ، ولا يعني هذا الأختصاص الذي يتمتع به هذا المجلس ان قرارات مجلس العصبة لا اهمية لها بالعكس فان لقراراته أهميتها الخاصة فهو ينير بقراراته هذه عقول أعضاء المجلس الأعلى ويضع لهم الحقائق عارية مكشوفة بالنظر لما يضم بين دفتيه من رجال علم وفن وتجربة وفضل ويسهل لهم اصدار القررات الصحيحة . ولكن في عين الوقت ، يجوز أن يندفع المجلس المشار اليه فى بعض القضايا ويقرر بعض القرارات

بتأثير العاطفة أو بشتى التأثيرات الاخرى فيكون المجلس الأعلى معدلا لهذا الاندفاع مخففا من حدته عدا ذلك فبعض المهام لا يصلح اسنادها الى مجلس واحد يتفاوت فيه عدد(١) اعضاء مندوبي الدول أما حرصا على حرمات العدالة من ان تنتهك وأما خشية على المصلحة العامة من ان تصاب بسوء. فالمجلس الأعلى له صفة قضائية حيث له محاكمة المتمردين على مقرراته، أو اللذين يبدأون العدوان ضد احدى الدول المسالمة. فمن مقتضيات العدالة ان تتساوى في هذه الحالة آراء الدول وللمجلس حق القيادة للقوات المسلحة الموضوعة تحت تصرفه، وله حق تقدير نصيب كل دولة من القوات المسلحة، التي يجب أن تبقى فيها. فتساوى آراء الدول في مثل هذه الأمور، أمر تقتضيه المصلحة العامة للدول.

وقد يجوز أن تعترض على هذا، الدول الكبرى قائلة انه من الخطر أن تكون للدول الصغيرة هذه السيطرة في المجلس الذي تعتبر قراراته قطعية لأن الدول الصغيرة تكون دائما اكثر عدداً من الدول الكبرى كما انها بحسب تكوينها تكون من طبيعتها مقاومة هذه الدول والنزوع الى الاضرار بمصالحها؟ والحق ان الخطر الذي يتهدد العالم انما يتأتى من الدول الكبرى قبل كل شيء. فالدول الصغرى لا تتمنى الا أن تسلم على مصالحها، وتنجوا من عدوان الدول الكبرى عليها فاذا اطمأنت على كيانها فهي لا ترغب في مقاومة الدول الكبرى أو الأخلال بمصالحها التي يقرها عليها القانون الدولي، ووافقت عليها الهيأة الدولية على ان الدول الصغرى تكون في اكثر الأحايين هي المفتقرة الى مصانعة ومجاملة

«١» يكون لكل مندوب صوت، حيث اعتبر هذا المجلس ندوة تمثيلية للأمم.

الدول الكبرى ، لا العكس . اذن فالخوف من الدول الصغرى لا محل له . هـذا من جهة ومن جهة اخرى فليس شرطا ان تمر كل قضية من المجلس الأعلى . فقد يجوز ان ينتهي الخلاف في قضية ما ، قبل اصدار مجلس العصبة قراره فيها اذا اتفق الطرفان المتخاصمان بينهما على تسوية الخلاف بينهما بصورة سلمية ، او بعد صدور القرار اذا رضي به الطرفان المتخاصمان وحتى بعـد صدور القرار من هذا المجلس وقبل صدور القرار القطعي من المجلس الأعلى فللقطرين سحب قضيتهما وحلها بينهما بصورة سلمية فالقضايا التي يصدر المجلس الأعلى قراره بصددها قد تكون محدودة .

٨ — ان مندوبي الدول في كلا المجلسين وان حدد عددهم ، فهذا التحديد لا يمنع حضور وزراء الدول أو فنييها أو اختصاصيها أو محاميها في كلا المجلسين للأدلاء بوجهـة نظر دولهم المتبوعة على أن يسبق أخبار بذلك لرياستي المجلسين . وان لا يشتركوا في التصويت فيه .

٩ — انه من الواجب ان يكون اعضاء مكتب الرياستين دائميين وكذلك الرئيسان . لأن ممثلي المجلسين المنبثين في الدول والبلدان دائبون على رفع تقاريرهم ، ومستمرون على مراقبتهم وعلى تأدية واجباتهم الاخرى . وفي كلا المجلسين توجد أربع لجان دائمة هي في الحقيقة المنظمـة لأشغال المجلسين والمرتبة لها ، والواسطة بين ممثلي المجلسين ، إذن فمكتبا الرياسة في شغل دائم ، وعمل متواصل وقد يجوز ان تقع حوادث تستوعب اجراءات عسكرية ورئيس المجلس الأعلى ذو صلاحيات خاصة في توجيه هـذه الاجراءات العسكرية والجيوش العسكرية وسوقها والقيام بشؤونها المختلفة .

وعدا ذلك فقد تكون هنــاك لجان اخرى اقتضي أن تعمل في مجالات خاصة عينت لها ، وهذه تفتقر الى مرجع ترجع اليه في شؤونها من حين لآخر . لقد كان في عصبة الامم الغــابرة سكرتارية دائمة تقوم بتنظيم اجتماعات العصبة وتهيئــة اعمالها ولكن الوضع في الهيأة الدولية المقترحة يختلف اختلافا بينا ووضع العصبة المنوه عنهــا . ولما كانت اشغال أعضاء المكتبين ورئيسيها متصلة ، ودائمة فيكون من الطبيعي ان يتجردوا من كل صفة رسمية في دولهم المتبوعة حتى لا يكونوا تحت تأثيرها أو منقادين لأوامرها . حيث انهم اصبحوا ملك الهيــأة الدولية التي يعملون تحت رايتها .

— ١٠ — وقد منع الجمع بين عضويتي المجلسين لمحافظة استقلال كلا المجلسين عن بعضهما . ولحفظ التوازن بين حقوق الدول الممثلة فيهما .

—١١— وقد اشترط ان يكون اجتماع كلا المجلسين في وقت واحد ، ولمدة معينة واحدة لأن شخصية الهيأة الدولية القانونية مكونة من كليهما كما أن اجتماعهما في وقت واحد ، ولمدة معينة وأحدة ، مما يسهل انجاز الأعمال وحل القضايا والمشاكل الدولية بالسرعة الممكنة . وانه لمن الخطر التراخي في حل القضايا الدولية وتركها معلقــة . على أنه يجوز أن تجد امور ذات بال تستلزم الحسم السريع ، في وقت لم يكن فيــه المجلسان مجتمعين ، فاذا طلبت اكثرية أعضاء أحد المجلسين دعوة المجلسين لحلهــا وحسمها يكون من واجب مكتبي الرياسة تنفيــذ الطلب ودعوة المجلسين للنظر في تلك الأمور المستعجلة . أما اذا كانت قوات الهيــأة الدولية قد اشتبكت في حرب مع قوات احــدى الدول المتمردة ، أو فريق

الدول المتمرد فيكون الاجتماع محتوما حتى ينتهي الاشتباك وتعاد الامور الى نصابها . لأن هذه الحالة الدقيقة تقتضي المراقبة الشديدة ، واتخاذ اجراآت مستعجلة لا يتيسر اجراؤها والمجلسان في عطلتهما .

١٢ — لقد أثبتت التجاريب ان العقوبات الاقتصادية لا تكون رادعة ، للدول الباغية . وانما بالعكس فانها لا تزيد الحالة إلا تأزماو تحرجا . ذلك لأن العقاب اذا لم يكن رادعا فهو مع انه لا يمنع العدوان قد يترك آثاراً سيئة في نفس الدولة المعتدية . فتزيد في حنقها على الهيأة الدولية وتتحين الفرص للايقاع بها . ولكن اذا كان العقاب رادعا ، مانعا للعدوان ، فبايقاعه على الدولة الباغية ينتهي كل شيء وانها تصبح في وضع لا تستطيع معه العمل ضد الهيأة الدولية . فاذا يأست الهيأة الدولية من اصلاح ذات البين بين دولتين متخاصمتين ، او انها لم تفلح في كف دولة ما عن بغيها وعدوانها ، فمن الواجب عليها ان تتخذ معها خطة حازمة سريعة ، وهي تنفيذ عقابها ، بالاجراآت العسكرية الفورية ومن الطبيعي ان تشفع اجراآتها هذه بالايعاز الى الدول كافة ان تقطع صلاتها الدبلوماسية والاقتصادية معها . وان من أهم عوامل سقوط هيبة عصبة الامم السابقة من الانظار كان تراخيها في ترتيب العقوبات وبدءها بالعقوبات الاقتصادية غير المانعة ولا الرادعة وفوق ذلك ابقاؤها على صلاتها الدبلوماسية مع الدولة الخارجة على مقرراتها . والذي لم تفده عبر الماضي كان العمى اولى به وأجدر .

من لم تفده عبراً أيامه
كان العمى أولى به من الهدى !..

١٣ – ان عدم استقرار العملة واختلاف الأسس المستندة اليها في المجموعات الدولية قد سببا وما يزالان يسببان الارتباكات في التبادل التجاري الأممي ، والاضطراب في الحركات الاقتصادية ويحدان من نموها ويقللان من نشاطها . وان معالجة هذه الناحية اصبحت أمنية الأمم كافة من دون تمييز . لأن المعدن الذي كان واسطة للتداول ، واساساً ترتكز عليه عملة الدول المختلفة ، والذي مازال يعتبر اساسا لعملة بعض الدول ، وهو الذهب ، اصبح غير ملائم لما كان يصلح له في الماضي لأسباب شتى قد اوسعها بحثاً الماليون المختصون ، والاقتصاديون النقادون . ومن بسائط الأمور التي يشعر بها كل انسان ، هو عجز هذا المعدن عن القيام بمهمة التداول في هذا العصر ، الذي اشتبكت فيه مصالح الأمم ببعضها واتسع نطاق التبادل التجاري فيما بينها ، واختلفت انواع الانتاج باختلاف تعدد الأذواق ، وحصل فيه الاغراق في التأنق الذي استشرى داؤه في المجتمعات البشرية ، من ناحية اللباس ، والطعام ، والشراب والسكنى ، والتريض ، ومن ناحية تطمين الرغبات والشهوات ومالى ذلك عدا ما اقتضته مستلزمات الحضارة القائمة والتأسيسات الدولية ، في مجالات الانفاق الأخرى . فالذهب اصبح لا يكفي لمثل هذا التبادل الواسع الآفاق والصرف الذي لا ينتهي الى نهاية ولا يحد بحدود . وعدا ذلك فان هذا المعدن الثمين قد اختزن في ممالك معينة ، وحرمت منه بقية ممالك العالم . وقد ظهر التفاوت العظيم في اختزان هذا المعدن في ابان الحرب الماضية حيث جذبت الصناعات الاميريكية اغلبه واختزنته الدولة الاميريكية في خزائنها فكانت الأمة الأميريكية قبل الحرب الحاضرة مالكة لأكثر

من ثلثي ذهب العالم برمته . وقد زاد ادخالها لهذا المعدن في هذه الحرب ، حيث امدت فرنسة وبريطانية بمقومات الحرب ، ووسائلها وهاتان الدولتان هما الدولتان اللتان كانتا تدخران بقيـة الذهب العالمي تقريبا بعد الولايات المتحدة الامريكية . فكيف يصبح هذا المعدن اساسا لعملة الدول المختلفة ، اذا كان محجوزا في ناحيـة واحدة من نواحي العالم ؟ صحيـح ان بعض الدول قد شعرت بالصعوبة المتأتية من بقاء هذا المعدن اساسا لعملتها ، فخرجت عن قاعدة الذهب ولكن هذه القاعدة الجديدة لم تسد المجموعة الدولية فهذا الاختلاف الجديد ، الاختلاف بين اخذه اساسا للعمـلة ، او الخروج عليه ، قد سبب صعوبات جديدة ، وزاد في ارتباك التبادل التجاري العالمي .

ان اعطاء رأي حاسم فى هذا الموضوع الدقيق ، ليس من اختصاص فرد واحد ، أو دولة واحدة . انها مشكلة فنية ، علمية دولية ، يقتضي درسها من قبل لجان مؤلفة من شخصيات مشهود لهم بالتفوق العلمى ، والخبرة الممتازة فى هـذا الموضوع ، وان تكون القرارات الحاسمة بشأنها صادرة عن هيأة دولية ، لها سلطانها القوى وسيطرتها القانونية على الدول كافة . لذلك ارتؤي ان حلها يناط بالهيأة الدولية المقترحة . وتنظيم اسس العملة ، وطرق التبادل التجاري الأممي من شأنه ان يؤدي الى اعادة النظر في القوانين التجارية النافذة المفعول في كل دولة ذات سيادة اما العصبة السابقة فأنها لم تكن هباء تماما . انها ما عدا المجالات السياسية التي فشلت فيها كانت قد خدمت الانسانية فى مجالات اخرى . وأرشدت الأمم الى اتخاذ كثير من الوسائل الواقية ، أو التدابير الفنية ، والعلمية التى من شأنها رفع

مستوى الأمم ، من نواح مالية ، وثقافية ، وصحية . ومن جملة ما قامت به وضعها اسسا قوية للمعاملات الكمركية . وقد أخذ كثير من الدول بقسم كبير من هذه الأسس كما انها نصحت بتوحيد القوانين التجارية ، وأوضحت الأسس العلمية التي تحقق هذه الغاية ففكرة توحيد القوانين التجارية ليست فكرة جديدة ، وانما هي فكرة قد اشغلت الأذهان قبل هذه الأيام ، وصرفت في سبيل تحقيقها جهود محمودة ولعل الهيئة الدولية المقترحة تفوز بتحقيق هذه الأمنية الغالية . والحق ان تحقيقها ليس امراً مستحيلا فأن القواعد التجارية ، وطرقها ، وأحكامها التي تضمنتها قوانين الدول المختلفة كادت ان تكون متقاربة . فهي لا يعوزها غير التنسيق الكامل . والانسجام التام .

— ١٤ — إن الاستعمار الذي تتهالك عليه الدول الكبرى وتتنافس فيه لم يكن الدافع اليه شهوة الحكم فحسب . وفي الحق ان الحكم او بالأصح التحكم في الشعوب الضعيفة ان هو الا وسيلة لتحقيق غاية . والغاية هي استثمار بلاد الشعوب وأبنائها . فلأجل صرف افكار قادة الشعوب الكبرى القوية عن الاستعمار على شكله الحاضر ، من جهة ومن جهة اخرى لتطمين رغباتهم ، يجب ان تسعى الهيأة الدولية بما لديها من وسائل ، في توزيع المواد الخام ، وما يفيد تقدم الحضارة بصورة عادلة ، وبالمقادير المناسبة وعلى شروط تمليها الحكمة ويرضاها الانصاف لا الاستئثار ونوازع الغرض والهوى بين الدول التي هي في حاجة اليها . ليس من حق الشعوب ، أن تحرص على المواد الخام وخيرات بلادها وتمنع الأمم الاخرى عن الاستفادة منها بحجة انها المالكة لها وصاحبة السيادة في ممالكها وان توزيع موادها وخيراتها برغم ارادتها يكون تجاوزاً على حقوقها

وانتها كالحريتها وسيادتها . ان حياة التحضر ، تفرض التعاون على الأفراد وعلى الامم ، على السواء . والبلاد ليست متساوية في نتاجها ، او متعادلة في غنائها وخصوبتها ، وما في بطنها او على سطحها من مواد تفيد الصناعة ، والأعمال الاقتصادية الاخرى .
ولا تزدهر الصناعة في العالم ، وتنتظم المعاملات الاقتصادية على اختلافها اذا لم تتعاون البلاد فيما بينها لتأمين الرفاهية العالمية ، والسعادة العامة . فالبلاد الزراعية في حاجة الى انتاج البلاد الصناعية والبلاد الصناعية مفتقرة الى انتاج البلاد الزراعية . والبلاد الصناعية او الزراعية فيها بعض المواد ، ومحرومة من مواد اخرى كثيرة فبلاد ترى فيها الحديد بكثرة ولكن ليس فيها نفط ، واخرى فيها نفط ولكن ليس فيها حديد ، وثالثة صالحة لزراعة المطاط ، ورابعة غير صالحة لزراعة مثل هذه المادة ، الى غير ذلك من الحالات التى تجعل البلاد جميعها محتاجة بعضها لمعونة الاخرى ففى الحالة الحاضرة تحصل الأمم القوية المعتزة بسلاحها ، على بغيتها ، بالقوة وعن طريق الظلم والاعتداء . واذا سألتها لماذا هذه الأعمال غير الانسانية أجابتك بأنها مضطرة الى ذلك لتموين صناعتها بالمواد الخام التي لا يمكن الحصول عليها إلا بهذه الطريقة ، وان هذه الأعمال التى ينظر اليها كأنها غير انسانية فانها تؤدي الى تقدم الصناعة ، والى الترفيه عن الشعوب المتمدينة فهي اذن أعمال انسانية لأنها مستهدفة خيرها . فلو ان هناك هيأة دولية تحول دون احتكار الممالك لموادها الخام الفائضة عن حاجتها ، وتنظم التبادل على اسس علمية وفنية ، وتجري التوزيع بطريقة عادلة ، لما بقي عذر للأمم تعتذر به او حجة تعتصم بها لتبرير عدوانها ، فالتوزيع

ضروري ، والاحتكار مضر . التوزيع ضروري لأن العالم في تقدم ، وما يصلح لهذا التقدم لا يجوز ان يضن به . والاحتكار مضر . لأنه يوقف النشاط العالمي ، ويضعف الحركة العمرانية ويشل النظام الاقتصادي . والاحتكار من ناحية اخرى يدفع بالامم القوية المفتقرة الى مواد الخام ، الى الاجراآت العسكرية أو الى الطرق الأخرى التي من شأنها ان تكدر صفاء السلام العالمي ، وتقلق الراحة العامة . فمن صالح الامم الضعيفة اذن ان تجود بخيرات بلادها وموادها وتقايض بها مع الامم الاخرى لتفيد وتستفيد من جهة ، ولتأمن شر العدوان على سلامتها ، وكيانها من جهة اخرى .

— ١٥ — ان وجود ثلاث لجان دائمة ما عدا لجنة الموازنة بجانب مكتب الرياسة في كل مجلس ، ضروري لاستمرار نشاط الهيأة الدولية ولادامة مراقبتها على الدول ذات السيادة والبلدان الموضوعة تحت الانتداب ، ولئلا يطرأ ضعف أو فتور في أعمال الممثلين الموفدين في مجلس العصبة ، أو تبقى تقاريرهم مهملة ، فاللجان هذه هي التي تفحص ما في هذه التقارير من معلومات ، وهي التي تتخذ الاجراءات المقتضية عليها حتى اذا ما جاء دور انعقاد المجلس تكون الاشغال المطلوب انجازها ، والتقارير التي يراد النظر فيها منسقة وجاهزة .

— ١٦ — ليس من المصلحة ان يستمر مندوبو الدولة المتمردة أو فريق الدول المتمرد في ممارسة اعمالهم في كلا المجلسين او في لجانه او في مكتبي رياسة المجلسين لأن صلة الهيأة الدولية تنقطع فوراً بالفريق المتمرد ولا مجال للتعاون مع مندوبيه في أي حال . واذا كان الرئيس لأحد المجلسين أو كلاهما من رعية الفريق المتمرد يقوم نائب

الرئيس بواجبات الرياسة الى ان ينتخب المجلس عوضه في أول اجتماع يعقده . لذلك فان وجود نائب لكل رئيس ضروري واذا كان نائب الرئيس من رعية هذا الفريق المتمرد فبوجود الرئيس لا يطرأ خلل على نشاط مكتب الرياسة ، او اللجان الدائمية الأخرى ومع ذلك فنظراً لأهمية المنصب فمن اللازم ان ينتخب في محله آخر عند اجتماع المجلس الذي يعود اليه . وعلة عدم انتماء الرئيس ونائبه لدولة واحدة ، لئلا يكون هناك نفوذ لدولة واحدة بواسطة هذين المركزين الخطيرين من جهة ومن أخرى ليستطيع كل منها ان يقوم بواجبات الآخر فيما اذا حصل تمرد من دولة أو فريق من الدول وكان احدهما رعية تلك الدولة او هذا الفريق لئلا يطرأ خلل على فعالية ونشاط المجلس .

١٧ - تصدر قرارات المجلسين بأغلبية الأصوات دون تمييز بين مسائل الأجراءات والمسائل الحيوية التي تمس سيادة الشعوب ومصالحها ذلك لأن اصدار القرارات بالأجماع فى المسائل الحيوية كما نص عليه ميثاق العصبة قد أوجب تأخيراً ،واحدث ارتباكا . وكذلك اذا نص على ضرورة توفر اكثرية بنسبة عالية كالثلثين أو ثلاثة الأرباع فانه يؤدي الى عين المحاذير . وقد وجدنا فى مشروع « ايمريك كروشية » نصا يفيد ضرورة صدور القرارات بأغلبية الأصوات دون تمييز بينها .

* * *

هذه محاولة فكرية للتنظيم الدولي داخليا وخارجيا وليس من شك فيان

الصورة التي رسمت لهذا التنظيم لا ينتظر ان تكون دقيقة ، رائقة ، والقائم برسمها يعيش في ظلمات السجن ، تتنازع نفسه الآلام المبرحة ، والأحزان المضنية ولكنها هي محاولة تستهدف اغراضا سامية ، ومقاصد نبيلة ، لا يستحيل تنفيذها ، ولا يعسر تحقيقها ان خلصت النفوس وحسنت النيات ، وصفت السرائر وتعاونت العقول على العمل في سبيل الخير !

* * *

فالأمم لا يستحيل عليها ان تقيم في داخل ممالكها نوعا من الحكم يتميز عن انواع الحكم التي جربها العالم قديما وحديثا وثبت فشلها . فالنوع المقترح ، هو الارستقراطية الفاضلة ، الارستقراطية التي تقوم على اساس العلم والكفاءة والفضل فهي ليست ارستقراطية القرون الوسطى التي كان قوامها الظلم للرعية ، والدم والامتيازات الخاصة . ولا هي ارستقراطية فاضلة ولكنها معقدة صعبة التحقيق ، عسيرة التنفيذ كأرستقراطية افلاطون ولا هي ايضا ارستقراطية ارسطو ينتفع بها الاحرار فقط ، ولا يصيب من خيرها من وضعهم طابعهم السيء في مصاف الارقاء والعبيد ، وحتى ارستقراطية افلاطون ، ومن قبله سقراط كانت قد نزعت عن طائفة من الطوائف الانسانية وهم العبيد الارقاء السجايا الانسانية وجردتها من الفضائل البشرية كما نزعتها عنها وجردتها منها ، ديمقراطية بريكلس ، وسولون ، فالارستقراطية المقترحة هي مزيج من محاسن الارستقراطية ومحاسن الديمقراطية وهي ايضا لا تقبل المقارنة مع الديمقراطية الحاضرة المزيفة ، المفسدة للأخلاق ، المستهترة ، المبذرة لثروات الأمم ، الدافعة بالأمم القوية الى ان تستبد بالأمم الضعيفة . ولا مع النظام الديكتاتوري الفردي كما هو الحال في روسية السوفيتية والجمعي كما في تركية اوسويسرة انها ارستقراطية جمعت اطايب أنواع

الحكم ومحاسنه وتجافت رذائله ومساوئه بقدر الأمكان لقد أخذت من الديمقراطية الصحيحة الحرية الشاملة للجميع فلا رقيق ، ولا عبيد ، ان الجميع احرار . واخذت منها طريقة انتخاب الحكام المسؤولين واخذت منها حرية الرأي على أختلافها، وحرية المعتقد على أنواعها، وساوت بين الطبقات والطوائف امام القانون وفي تكافؤ الفرص . واخذت من الأرستقراطية محاسنها ، فأشترطت ان يكون الحكام من طبقة اختصت بالدراية والحنكة والمعرفة . فلا يجوز لها ان يسمو اليها من كان قليل البضاعة من ناحية التثقيف مستغلا نفوذه الشخصي ، او ثروته ، أو قوة العصبية التي يمت اليها . ثم هي مع ذلك لم تهمل ما تشكو منه الطبقات الفقيرة أو العاملة ، وهي الجمهرة في كل أمة ، والكثرة في كل بلد . كما انها لم تضيق على نشاط العبقريات ، ولم تقعد بالعقول النيرة والنفوس الطامحة ، عند حافة اليأس والقنوط ، انها ارضت امانيهم وآمالهم ، وأشبعت رغباتهم ، من ناحية الربح المادي ، بأقدار معينة . مناسبة ، ثم هي قضت قضاء مبرما على التحكم الفردي ، أو الأستبداد الجمعي . لأن مثل هذا التحكم ، انما هو شر خالص ، وفساد محض (١) .

وفي التنظيم الخارجي ، حاولت هذه الفكرة قبل كل شيء احلال السلام العام بين الأمم كافة ، والقضاء على أسباب التنافس ، والتنابذ والتنافر ولأستمرار تحقيق هذه الغاية انشأت الهيأة الدولية ذات الصلاحية الواسعة ، والسلطان الشامل ، على الصلات الخارجية للدول جميعها من دون ان تؤثر تأثيراً جوهرياً على سيادة الشعوب أو الدول في داخلياتها . واذا كانت الطاعة لمقررات الهيأة الدولية واجبة ، على كل دولة ، وبلد ، فأن صور الحكم في الداخل تظل منوطة برأي اهل كل دولة وبلد ، على ان لا تكون معارضة

(١) ينظر كتاب السياسة لأرسطو حيث اعتبر نظام الحكم المختلط خير نظام يمكن تطبيقه في الممالك الوسيعة الآفاق

مع مقررات الهيأة الدولية . ذلك لأن مصدر الشر الذي اجتاح العالم ومازال يجتاحه ، على الأكثر انما هو الحرية المطلقة التي تتمتع بهـا الدول والأمم في صلاتها الخارجية . وعدم وجود هيأة قانونيـة عليا ، تشرف على هـذه الصلات ، وتحول دون تأزمها واحتدامها وتقف في سبيل من يبغي العدوان ، وينزع الى الشر انما ضرره عام تتأثر به المجموعة البشرية جميعها بخلاف فساد أنواع الحكم الداخلية ، فانما ضرره يكون قاصراً على الأمة التي تعاني نتائج هذا الفساد فأهميته اذن تأتي بالدرجة الاخيرة . فصورة الحكم المقترحة للتنظيم الداخلي ، انما هي مجرد فكرة يجوز الأخذ بها أو لا يجوز بخلاف الصورة المقترحة للتنظيم الخارجي فانها يجب ان تكون حقيقة ، ونافذة .

مناقشة خاطفة !

وليست هذه الفكرة المتصورة لقيام هيأة دولية قانونية تخضع لهـا المجموعة الدولية ، سهلة الاستساغة ولاهى لذيذة المذاق لدى الدول الكبرى التي أقامت عظمتها على حساب الامم الضعيفة، وثبتت مجدها على اساس حرمان الغير حريته ، وكيانه . وسلبه حق الانتفاع بخيرات بلاده . وليس بعيدا أن تثور ثائرتها ، وتتشنج اعصابها لدى سماعها كل نغمة تضعف من سلطانها ، وتوهن من سيطرتها . بل لعلها تقوم وتحتج على وجود مثل هذه الهيأة الدولية ، من نواح كثيرة اهمها ناحيتان . الاولى : إن هذه الهيأة تمس سيادة الأمم وتخل فى حق حاكميتها اخلالا كبيراً والثانية ان ايداع مهمة توزيع الثروات والمواد الخام الى هذه الهيأة ضرب من العبث ، ونوع من اللعب ، لاستحالة قيامها بهذه المهمة لأسباب كثيرة . من حيث صعوبة تقدير حاجة كل امة الى نوع من المواد ، وتقدير انصبة الأمم من هذه المواد ، واستحالة ايجاد اسس يقوم عليها أمر التوزيع وتقدير الانصبة وما الى ذلك من الاسباب العديدة التى لا تدخل تحت حصر .

أما عن الناحية الاولى ، وهي ناحية اخلال الهيأة الدولية ، بسيادة الأمم وحق حاكميتها فنقول . صحيح ان هذه الهيأة الدولية في هذه الصلاحيات الممنوحة لها ، والحقوق المعطاة لها ، اذا لم تخل بسيادة الامم وحق حاكميتها فأنها على كل حال تحد منها لحد كبير . وهذه حالة طبيعية ، وضرورة اقتضتها السلامة الدولية ليس فى الامكان التغاضي عنها ما دمنا نطمع فى ان ننقذ

البشرية من المجازر الدامية ، والمذابح الهائلة . على ان تحديد الحرية ، سواء للفرد أم لأمة من الأمم ، امر استلزمته طبيعة الاجتماع فالانسان ، وهو حيوان مدني بطبعه ، كلما انتظم فى سلك جمعية ، وكلما تقدمت هذه الجمعية في مضمار الرقى والتقدم يفقد من حريته شيئا فشيئا الشيء الكثير . الا ترى انه لو خلق في مكان منعزل بمفرده لما احتاج الى قانون ينظم حياته ولا الى عادات او عرف او تقاليد يخضع لها لأنه في هذه الحالة لا تكون له حقوق يطلب من غيره احترامها ،ولا واجبات عليه نحو غيره ؟ فالحقوق والواجبات تنشؤها حالة الاجتماع هذه من بسائط العلوم الاجتماعية ، ومن قضاياها المسلم بها من قبل كل ذي عقل سليم . فلما كانت حالة الاجتماع تنشىء هذه الحقوق والواجبات ، إذن فكل تقدم فى حالة الاجتماع هذه ، يستلزم نشوء عادات أو عرف أو تقاليد جديدة متنوعة. وهذه ضروب متنوعة لتحديد حرية الفرد وكلما اوغلت هذه الحالة فى الرقي والتقدم ، تكون وسائل تنظيم الحقوق والواجبات ، معقدة ، وأسباب استقرار النظام العام فيها ، مختلفة متباينة ، فتضطر الجمعية البشرية هذه الى الاكثار من سن النظم والقوانين لتكفل تحقيق هـذه الاغراض ، ولتسهل في عين الوقت الحركة التقدمية التي هي دائمة ومستمرة .والقوانين والأنظمة تحد من حرية الانسان وتضيق عليه آفاقه ولا يقال فى هذه الحالة ان هذه القوانين والانظمة لا لزوم لها لأنها تفقد الفرد الجانب الكبير من حريته . لأنها ضرورة من ضروات الحياة وبدونها لا يستقر نظام ولا يطرد تقدم في أي مجال من مجالات الحياة المتعددة لذلك لا يمكن أن نتصور وجود حرية مطلقة . فالحرية محددة ، وانها دائما معرضة للتحديد ، وانها ابداً تحت ضغط المصلحة العامة وسيطرتها. إذن فالحرية ، هي قدرة الانسان على عمل كل شيء اباحته القوانين اولم تمنعه . فان قام بعمل ما ، كانت القوانين والانظمة قد نهت عنه ، فانه يكون قد اضاع من حريته بقدر

خطورة العمل الذي اجترحه نحوها . وكذلك التساهل في تنفيذ القوانين والأنظمة يؤدى الى الفوضى ، كما ان تفسيرها تفاسيرلا تأتلف وروحها ، ولا تنسجم مع الاغراض التى وضعت لأجلها لغاية التنكيل بالناس والتشديد عليهم ، يؤدي الى الحكم الفردي وكلتا الحالتين تنتهى الى الاستبداد .

وليست القوانين والأنظمة وحدها هي التي تحد من حرية الفرد ، وانما العادات ، والعرف والتقاليد التي لم تنص عليها القوانين والانظمة ولم تأبه لها فهذه أيضا تحد من حريته وتضيق عليه مجال حياته لأن على الفرد ان يحسب للرأى العام ، حسابه وأن يقدر الآداب العامة حق قدرها . والرقي المستمر للأمم ، وضرورات الحياة المدنية ، وتنظيم اتجاهاتها ، كل هذه أسباب داعية الى الاكثار من هذه الوسائل المضعفة لكيان الحرية في كل فرد . وبمعنى أوضح ان الحضارة والحرية بالنسبة للفرد ، متناسبان تناسبا عكسيا فكلما زادت الحضارة اتساعا ، ونمت وازدهرت ، ضاقت حرية الفرد ، وضعفت وهزات . ومثل الأمم من هذه الناحية كمثل الأفراد سواء بسواء . ذلك لأن التقدم الحاضر قد جعل من المتعسر بل من المتعذر بقاء امة لوحدها واكتفائها بنفسها فكما ان الاجتماع بالنسبة للفرد حالة فرضتها عليه طبيعته كذلك اتصالات الامم ببعضها أصبحت ضرورة اجتماعية لا سبيل الى التخلص منها . والاتصال الاممي أو الدولي ، لم يكن واهنا وضعيفا في زمن من الأزمان فهو اتصال دائم ، مستمر . بل انه اتصال مستمر في تطوره دائم فى اشتداده ، وكلما زادت المدنية رسوخا ازداد قوة ومتانة ، وكلما تحسنت وسائط النقل ، ووسائل السفر ، توثقت عراه ، وانتظم عقده . وهذه الكثرة النامية ، والزيادة المطردة ، في هذه الاتصالات الدولية ، قد انشأتا قواعد تعارفت عليها الدول ومبادىء قالت بها ، ولئن كانت حالة الحرب ، تضعف من شأنها من وقت لآخر ففي حالة السلم ، وفى حالات كثيرة من حالات الحروب أيضا ، تلتزم

بها الدول ، وتحافظ عليها بقدر الامكان. لماذا كل ذلك ؟ لأن الجميع كانوا وما زالوا يشعرون بأن من صالح العالم ، ومن خير الانسانية أن تكون هناك قواعد ، دولية تحترمها الدول ، كما تحترم الأفراد القوانين الخاصة بها .
وعلى ذلك يقولون عن الحقوق الدولية انها قانون دولى ، او قوانين دولية ، وان كانت هذه التسمية الأخيرة لا تصح الآن لفقدان سلطة عليا لها حق تنفيذ القانون . وأما الرأي العام الدولي ، مع اهميته فلم تكن له هذه السلطة العليا . والجهود السياسية قد عملت فى سبيل انشاء مثل هذه السلطة ولكن النزعة المادية التي مازالت تجيش بقوة في صدور قادة الأمم الكبرى وزعمائها ، هي التى كانت تحول دون هذا الأنشاء .
فالذي نتصوره ، هو امكان انشاء مثل هذه السلطة العليا . وهذه لاتكون إلا في ايجاد هيأة دولية قانونية تفرض سلطانها على الدول كافة ، اما اذا لم يكن لها هذا السلطان فلا تكون هناك هيأة دولية قادرة على تنفيذ القانون الدولي واذا كان لابد لها من هذا السلطان فيجب ان تتنازل كل دولة عن جزء من سيادتها وتتطامن . ولا يكون تنازلها وتطامنها هذان ، مخلين بكرامتها أو عابثين بسيادتها . لأنها واقعان بمحض اختيارها ، وفى سبيل الخير العام الذي لا يمكن الوصول اليه إلا بها .

وأما الناحية الثانية وهى ناحية توزيع المواد الخام وصعوبة القيام بهذه المهمة ، فانها ليست بهذه الدرجة من الخطورة بحيث ان يقضى من اجلها على مشروع ينقذ الانسانية من الشرور التى كانت وما تزال ترهقها أرهاقاً عنيفاً ، لأن للهيأة الدولية المقترحة خبراء واختصاصيين يعملون تحت رايتها ، كما يوجد فى حوزتها ممثلون ومندوبون في كل دولة ذات سيادة وفي كل بلد وضع تحت الأنتداب ولكل من هؤلاء اعوانه ودوائره فهم يزودون الهيأة الدولية بنتائج بحوثهم وتتبعاتهم ، ويجمعون لها المعلومات الصحيحة ، ويسدون اليها

الآراء الناضجة ، وهم غير متأثرين بعواطف خاصة ، وميول شاذة لأنهم ليسوا من رعية الدولة او البلد ، الذى يقيمون فيه ولا لهم مصالح ذاتيـة او دوافع أخرى تجعل أعمالهم ، مشوبة بالشبهات ، عـدا ان رجال الصناعة ، والاختصاصيين والخبراء في العالم قد سبق لهم وامدوا دولهم بكل صغيرة وكبيرة وعن كل ما في ممالك العالم ، من خير ، ومنابع ثروة ومواد أولية تفتقر اليها الصناعات . وفي الحق ، ان كل شيء متوقف على النوايا ، والعزائم، فان كانت النوايا خالصة ، والعزائم صادقة فلا يقف في سبيلها شيء ولا يعوقها عن العمل عائق ولماذا نفكر بعيداً ، فلنأخذ مثلا دولة من الدول ، ارادت ان تنظم موازنتها العامة . فوزير كل وزارة يطمع في ان يكون نصيب وزارته من الاعتمادات او فى من نصيب غيرها ، ويناقشون ، ويتجادلون وتصـل الحالة فى بعض الأوقات الى ان تنشق الوزارة على نفسها أو تترك مسؤولية الحكم . ولكن الميزان الحقيقي للاعتمادات فى يد وزير المالية ولذلك يشترط فيه ان يكون عدا غزارة علمه ، قويا في حجته رصينا فى موقفه ، ذا سيطرة ونفوذ ليكف كل وزير عن تجاوزه الحد المرسوم له ويوزع الاعـتمادات توزيعا تقتضيه مصلحة الدولة ، لا مصلحـة الوزير . وانه يستطيع ان يقوم بمثل هذا التوزيع بالنظر الى المصالح والمؤسسات التى تعمل تحت ادارته وتمده من وقت الى آخر بما يطلب من معلومات . ولئن كانت مهمة الهيأة الدولية في هذه الحالة ، اكثر صعوبة ، وموقفها ادق وضعا وأشد حراجة فهي تستطيع ان تتغلب على كثير من الصعوبات ، وتجتاز اكثر المواضع الدقيقة ، والمواقف الحرجة وتصدر قراراتها المطمئنة للعدالة والضامنة لرضاء الجميع ، وذلك بما لديها من وسائل وما تحت تصرفها من لجان ذات اختصاص ، وقدرة على اسداء النصائح الصحيحة ، وابداء الآراء العلمية والفنية الناضجة .

عناصر الحياة في الامة العربية!

ولعل قائلا يقول ، ان هذه الآراء انما أوحتها اليك وضعية الأمة التي تمت اليها ، فلو انك من امة عظمى ، لها مواردها الضخمة ومستعمراتها الغنية ، وممتلكاتها الزاخرة ، بالخيرات ، ولها كيانها المرموق ، لما تتشبث بمثل هذا الآراء التي تفيد الأمم الضعيفة وتجهز على قابليات وامكانيات الامم القوية الناشطة في كل مضمار . وفي الحق ان مثل هذا القول لا يتيسر لمثلي جرحه بسهولة ، وان هذه الحجة التى اجابه بها من حيث قوتها ليس فى الامكان التغلب عليها أو اضعافها . لأنى من دون شك امت الى امة قد حاربتها الغبراء والخضراء ، وناجزتها الأجيال والعصور ، وقاوتها الأحداث والظروف . فهي مجزءة محطمة ، برغم كثرتها ، وهي ضعيفة مهملة ، وان كانت ممالكها واقطارها ، واسعة شاسعة ، غنية ثرية ، وهي محكومة برغم نزوع اهلها الى الحرية بطبيعتهم ونفورهم من الاستخذاء بغريزتهم . وهي لا يحسب لها الآن حساب برغم ما تحتل من أماكن ومضايق ذات خطورة سياسية وعسكرية واقتصادية . ولكن برغم كل ذلك فليس شعوري بضعف امتي هو الذي اوحى الي بهذه الآراء ، ولا قنوطي من انبعاثها من جديد ، هو الذي دفع بي في هذه الطريق . ولماذا تكون الآراء المسالمة وقفا على الضعفاء ، والتشبث بأسباب الخير محصوراً بالفقراء ، ولماذا يفكر الأقوياء فى اسباب قوتهم فقط ، والأغنياء بالاحتفاظ بغناهم فحسب ولا يفكرون بغير ذلك مما يؤول الى خير الانسانية ، وسلامة البشرية ؟

ان الشر لكونه شراً يجب ان يتحاماه الضعيف ، كما يتجنبه القوي ، وان الخير لكونه خيراً ، يجب أن يسعى اليه القوي ، بقدر ما يعمل له الضعيف . فليس صوابا أن يقال للضعيف الذي تشبث بالخير ، انك لا تتشبث به إلا لكونك ضعيفا كما انه ليس من الرشد ان يظل القوي راكبا رأسه ، مزهواً بما يملك من أسباب القوة ، ولا يعترف بحق الضعيف . ولعل صروف الدهر ، وغير الزمان ، لم تبق على القوي قوته ، ولا على الضعيف ضعفه . فالقوي اليوم ، قد كان فيما مضى ضعيفا ، وقد يجوز ان يعود سيرته الاولى في المستقبل والضعيف ، اليوم قد كان قويا في الأيام الخوالي ، وربما يبسم له الحظ مرة اخرى ، فيستعيد قوته ونشاطه . على انني لست قانطا من انبعاث الأمة العربية من جديد ولا يائسا من عودتها سيرتها الأولى فمقومات الأمم ، من حيث كثرة النفوس وخصوبة التربة وغنائها ، والمواقع الممتازة والأماكن المصطفاة التي تحتلها ، وقابلية الأبداع ، والقدرة على التحضر والتمدين كل هذه متوفرة ، ومتوفرة بكثرة في الأمة العربية ، فهي تكاد تبلغ السبعين مليونا في نفوسها ، ثم هي تمتلك أغنى تربة في العالم ، وأثقلها بالخيرات ، وهي فوق ذلك تحتل المواقع الممتازة ، والأماكن ذات الخطر ، وبلادها وممالكها متصلة ببعضها ، لا تفصل بينها شعوب غريبة ، ولا ممالك اجنبية . هذه شبه الجزيرة العربية على سعتها فليس يحتلها شعب غير الشعب العربي منذ العصور السحيقة في القدم الى يومنا هذا ، وهذا الهلال الخصيب المتصل بها الممتزجة تربته بتربتها منذ القدم ، وهذه مصر ، وافريقية الشمالية الى مضيق جبل طارق ومنه الى الساحل الاطلنطي ، كلها بلاد آخذ بعضها برقاب بعض ، يعيش فيها شعب واحد ، دينه واحد ، ولغته واحدة ، وعاداته وتقاليده واحدة الا شيئا قليلا هو أثر التربة وفعل الاجواء . وليست الخطورة باتصال هذه الممالك والأصقاع ببعضها فحسب ولكن خطورتها في اهمية المواقع الجغرافية . فالبحر المتوسط انما هو في

الحقيقة بحر عربي . لأن الأمة العربية تستقل بجانب من أوله الى آخره والأمم الأوربية جمعاء لا تشرف الا على أقل من ثلثي جانبه الآخر . وجبل طارق ، وان كان على جانب منه سيادة اجنبية ولكن الجانب الآخر في يد الامة العربية ، والسويس يخترق بلاداً عربية صميمة ففتاحا البحر الأبيض المتوسط اذن في يد عربية . كما ان السويش وباب المندب ، هما في يد عربية وهما مفتاحا البحر الأحمر كذلك . وشبه الجزيرة عدا البحر المتوسط من جانب ومن جانب البحر الأحمر ، فأنها متصلة كذلك بالبحر المحيط الهندي . والتعاريج الكثيرة ، على السواحل العربية ، والموانى الطبيعية والصناعية ، فيها مما تعطى لبلاد العرب أهمية خاصة ، وغير هذا وذاك ، فهناك قابلية الأبداع ، والاستعداد للتحضر والتمدين فى هذه الأمة الكثيرة العدد ، المنبثة في هذه الأرجاء الوسيعة الزاخرة بالمواد الخام والمتصلة ببعضها . فهذه الأمة وان كانت قد غفت أجيالا عديدة بعد تأدية رسالتها تأدية أثارت اعجاب العالم ، ودهشته فقد لاحت فى الافق تباشير يقظتها ، فهي برغم ما منيت به من تفكيك أوصال وتمزيق اشلاء ، وتبعثر اطراف فقد أخذت تشعر بوجودها وتقدر اهميتها ، ففي كل صقع من أصقاعها وثبة ، وفي كل مملكة من ممالكها انتفاضة تثبت حيويتها ، وتدل على عزيمتها . فمن الوهم الباطل أن يتجاهل امرها ، ومن الغرور المحض أن يفكر في القضاء على حيويتها ونشاطها فلم يعد التحكم فيها امراً هينا لينا ولا التصرف بمقدراتها سهلا ميسوراً . لأن مقومات حياتها متوفرة من ناحية ومن ناحية اخرى فقد عصمتها الطبيعة من الاندثار بمواقع طبيعية لا تقوى عليها القوى الاصطناعية مها عظمت واذا هي عجزت عن أن تأخذ مكانتها تحت الشمس في هذه الأيام فليس ما يمنع أن تأخذه بعد حقبة من الزمن ، والسنون والأجيال ، في أعمار الأمم ، ليست شيئا مذكوراً ، ما دام العمل فى سبيل الحياة متواصلا ، والمقومات المسهلة لهذا العمل

ميسورة . إذن فلست اشعر بضعف لاني امت الى الأمة العربية ، ذلك لأني مقدر أهميتها وعارف بسر حيويتها . واذن فان ما اقترحت من مقترحات ، وما ابديت من آرآء لم يكن منشؤه الضعف وانما بالعكس فان منشأه القوة . ولم ابتغ من وراء ذلك الا خير الانسانية وسعادة الجنس البشري ولو اني كنت من الأمم ذات القوة والسلطان اليوم ، لما تغير رأيي وتبدل موقفي . على ان امعان الحضارة القائمة في ماديتها وتجاهلها الجوانب الروحية ، والمقومات النفسية تجاهلا كليا قد افزعا حكماء الأمم المختلفة ، وفلاسفتها ورجال العلم والأخلاق فيها ذلك لأن المادة شر والشر لا يعقب الا شراً خالصا فمثل الانسانية العليا ، انما تتجلى صورها رائعة في النفوس المهذبة ، والفضائل المؤدية الى سبل الخير فالأهمال البالغ للنفوس وتركها على سجيتها وبذل العناية القصوى في مجالات العلوم الطبيعية المحببة للمادة ، ولكل شيء مادي وحصر النشاط الانسانى فيها فقط ، كل ذلك مما جعل الانسان ماديا قاسيا ، لا يفكر الا في نفسه ، ولا يرغب الا في اشباع انانيته ، وان لا يتردد فى ان يسلك اي سبيل كان لأجل الوصول الى غاياته المادية ، شراً كان أم خيراً . وهذه النزعة المادية العنيفة في قوتها هي التي دفعت بالأمم الى التنافس فى الاستعمار والتسابق في أعداد القوات اللازمة ، وأسباب التدمير والتخريب الضرورية ، للظفر بالفوز فى هذا الكفاح المجرم ، والصراع الأثيم . واذا كانت العلوم الطبيعية ضرورية ولازمة لتقدم الحضارة فى الميادين المادية ، فان العناية بالعلوم الاجتماعية والنفسية اصبحت أشد ضرورة وأكثر لزوما لتقدم الحضارة فى الناحية الروحية واقامة مثل عليا تحتذيها النفوس الشاردة ، وبهتدي بنورها من اضل الطريق . لذلك يقتضى اعادة النظر في النظم الاجتماعية ، والأسس القانونية واجراء التغييرات الجوهرية فيها لتلافي ما فات وتدارك ما مضى وهذا لا يكفي وانما يقتضي فوق ذلك ان يتناول التغير انواع

الحكم واساليبه واسسه ، فى داخل كل امة ، أو في اتصالات الامم ببعضها
وهذا ما اهاب برجال العلم ، والحكمة والفلسفة بل والسياسة في كل صقع
من الأصقاع التى نفذت اليها اشعة المدنية وأنوار الحضارة الى ان يقترحوا
أنواع المقترحات ، لأقامة عالم جديد ، اوفر حظاً واكثر رخاء ، وأسعد حالا ،
من العالم الذي نحن فيه الآن ، والى ان يبحثوا أنواع المشاريع بعقول لا
تأثير للهوى عليها ، وبنفوس عامرة بنزعة الأنصاف . ولئن كانوا هؤلاء وما
زالوا قلة ، وما برحوا احاداً ، فان ما ألم بالعالم المتمدين من نوائب ونوازل
ما يكفي لأعادة المغرورين الى صوابهم ورشدهم ولأن يأخذوا بما تراه القلة ،
من آراء وما تسديه الآحاد من نصائح .

نحن والانكليز !

والآن أعود واسائل نفسي قبل ان يسألني الغير ، هل انى فيما أبديت من آراء ، واوضحت من أفكار ، من شأنه ان يؤيد ما ادعيت ويثبت ما زعمت بأنها كانت منزهة عن الهوى ، بعيدة عن نزوات النفس ، خالصة من شوائب التحيز ، واذا كان ذلك كذلك فما هذه الهجات العنيفة ، والاندفاعات الشديدة ضد بريطانيا . أو ضد الديمقراطيات ، التى تتزعمها بريطانيا ؟. ليس من شك فى أني مغيض ومحنق ، وكل عربي ، عانى ما عانى من عنت بريطانيا وارهاقها ، ورأى ما تقاسيه بلاده من شدائد ، وما ينصب على امته من بلاء لا يسعه الا ان يكون مغيضا محنقا . والمظلوم اذا شكى ، والمصاب اذا أن وتوجع ، والجريح اذا تألم وضجر لا يقال له لم كل ذلك ، او انك خصم مرؤتك مشوبة ونفسك متهمة لا يقبل منك قول ، ولا تسمع لك شكوى . وشأني مع بريطانية شأن المظلوم الشاكي ، والمصاب المتوجع والجريح المتألم لا اكثر ولا أقل وليس من الحق ان اكون متهما بالتحيز او موصوفا بالعدوان اذا جلوت الحقيقة ، ولذت بالحق ، واستنصرت العدل . وانما المتهم بالتحيز والموصوف بالعدوان ذاك الذي يغير صورة الحقيقة ويبدل فى الحق ويتشبث بالباطل . على انى لم اكن خصما للشعب البريطانى ، ولا مستخفا بسجاياه وتقاليده او مستهينا بمزاياه وقابلياته وانما انا خصم سياسة حكومته وعدو وسائلها الاستعمارية الخطرة التي تتبعها مع الأمم والشعوب سيما تلك التى وضعها سوء طالعها في طريق الهند . وقد أبديت غير مرة فكرتى هذه ،

واعلنتها في مناسبات عدة . وكنت اتمنى ، ومازلت اتمنى ان يكون هناك مجال للتفاهم بيننا وبين شعب هذه الحكومة ، أو سبب يسهل اتصال روحينا بعضها ببعض . حيث للشعب العربي أسباب مبررة كثيرة تسوقه سوقا ، الى مصالحة الشعب البريطاني ، والعمل معه ، أسباب سياسية ، وعسكرية ، واقتصادية وناهيك بها من أسباب ! . فالشعب العربي قد سبق له ان وحد مساعيه مع بريطانية وحارب معها جنبا الى جنب وسفك دماء بنيه ومزجها بدماء ابنائها في الحرب الماضية ، وتوثقت معها عرى صداقة ، ومودة . ثم ان الشعب العربي الذي ما زال فتيا في الحياة الاستقلالية تعوزه الخبرة ، وتنقصه المعرفة ومن صالحه ان يسد عوزه ويكمل نقصه ، بخبرة ومعرفة الشعب الذي اختلط به وسبقت له صلة به وهو الشعب البريطاني . وفوق ذلك ان موقع البلاد العربية الجغرافي ، واتصالها من اكثر جوانبها بالممتلكات البريطانية ، يجعلان من الشعب البريطاني خير مساعد لها في أمورها الاقتصادية ومعاملاتها التجارية . وخير حليف لها اذا ما فاجأتها قوة أجنبية طامعة ، وداهمتها جيوش لا قبل لها بردها وصدها . وما اكثر هذه القوى ، على حدودها ، وما أقرب هذه الجيوش اليها ؟ . ولكن حكومة الشعب البريطاني بدل ان تفيد الشعب العربي وتستفيد منه ، فأنها اعلنت عليه الحرب في كل مجال من مجالات الحياة المتعددة ، وناهضته في كل ميدان من ميادين النشاط حرمته الحرية ، وسلبت منه نعمة الاستقلال التى كان يجاهد في سبيلها ، واختطفت منه خيراته ، وداست بأقدامها مقدساته وكرامته ، وكأنها لم تطفء غلتها منه ، ولم تشف صدرها بعد . ولقد كبر عليها ان تجده يتحرك بجسده المسلهم وقد صعب عليها ان تراه ينظر بنظره المدرهم فهي تريده جسداً هامداً لا حراك فيه لأن الحركة دليل الحياة ، وهى تريده أعمى لا يبصر ، لأن العمش يهدى الى الطريق . لذلك تجدها ممعنة في ارهاقه ، موغلة في إيلامه ، متشددة في الاجهاز عليه . وليس غريبا منها

ان تكون معه كذلك لأن مقومات الحياة فى هذا الشعب متوافرة ، وعوامل الانبعاث ميسورة ، وبلاده أنماهي بلاد لا يكون مبالغا من يقول عنها انها قطعة من جنان الخلد ، رفق بها باريها فمنحها مختلف الخيرات ، ووهبها ما شاء كرمه وفيضه من ضروب اسباب النعيم ، فكيف يهون عليها ان تفلت منها مثل هذه البلاد الجميلة الغنية ، وكيف تستطيع ان تحتفظ بها اذا لم تنتزع مقومات الحياة من شعبها انتزاعا ، وتقضى على عوامل الانبعاث فيه قضاء مبرما وهي ان فعلت ذلك بالبلاد العربية ، فانما تفعل ما فعلته مع غيرها من البلاد ، وهي ان عاملت الشعب العربى هذه المعاملة فأنما تعامله بمثل ما عاملت به غيره من الشعوب . ولست أريد ان ابحث أسباب شكوى الشعب العربى ، واكشف عن الجروح الدامية فى جسده المضنى فى هذا المكان فلبحث ما عاناه ويعانيه هذا الشعب الباسل ، من بريطانية مكان آخر ، ولا أريد كذلك ان أقيم مناحة وأنصب مأتما ، أؤبن فيها الشعوب العديدة التى قتلتها بريطانية والبلاد الواسعة التي استباحت حرماتها لأن هذا ليس من شأن هذه المذكرات التعرض له من جهة ، ومن جهة أخرى فأنه من الجور الفاضح على عظمة بريطانية الأستعمارية ، ان يستقل مجلد واحد ، بتأريخ استعمارها الذي يتصبب ارواحا بريئة ويسيل دماء كريمة ، ولكني أود ان استعرض قليلا من الحوادث التاريخية وشيئا من كفاحها ضد حريات الأمم التى ما زالت محتفظة بكيانها ، وحيويتها ، فلعل هذا الأستعراض يعطينا صورة حقيقية للجشع البريطاني ، ومقياسا صحيحا نستطيع ان نقيس به ، انانية هذه الأمبراطورية الضخمة ومحاربتها لكل أمة توسمت فيها الحياة ، وشامت منها دلائل التقدم والنهوض . واذا قدر لنا ان نفوز بهذه الصورة كاملة ، وبهذا المقياس سليما فيكون في وسعنا ان نتصور مبلغ فجيعة الشعوب والأمم المستضعفة بالأستعمار البريطاني ويكون فى مقدور كل احد ، ان يصدر حكمه الصحيح ، ويبدي رأيه الصائب في

الشكاوي المرة ، التي تصدر عن رجال هذه الشعوب ، من حين لآخر بصورة عامة ، وفي الانتقادات التي مرت بالقارىء او التي ستمر به في هذه المذكرات بصورة خاصة . حيث انه اذا كانت الحكومة البريطانية تناصب الشعوب الحرة الكبيرة العداء ، وتقاوم الدول الحية وتناجزها الحرب لتفل من حدة نشاطها وحيويتها ، وتتعقب النهضات القومية لتجهز عليها وهي في مهدها . اقول اذا كان هذا شأنها مع الدول الحرة ذات القوة والسلطان فكيف يكون شأنها مع الشعوب التي اخضعتها وتوفقت الى ابتلاعها وازدرادها والبلاد التي تحكمت بها واحكمت فيها اسباب هذا التحكم ؟

ان التاريخ لم يعرف دولة من الدول خاصمت النهضات القومية بقوة وناهضت حريات الأمم بأندفاع كبريطانية كما ان الانسانية لم تشاهد ضريبا لها في طرق المكر والخداع للأجهاز على الأمم واستغلال مقومات حياتها من بين جنوبها . ذلك لأنها درست حياة الامبراطوريات المستعمرة البائدة . ومحصت السبل التى سلكتها والطرائق التى اتبعتها وكان درسها متقنا وتمحيصها دقيقا وأضافت الى هذا الدرس والتمحيص المتقنين الدقيقين اختباراتها وقابلياتها لذلك كانت وما تزال صعبة المراس فى استعمارها ، شديدة الوطأة على البلاد التى تظفر بها . وان فوزها فى ميادين السياسة الاستعمارية قد انمى فيها غريزة الاثرة والانانية ، وقوى فيها نزعة الطمع والجشع الى حد كبير وكان من أثر النفسية الاستعمارية القوية ان دفعت بها الى مناجزة الشعوب الحية ، ومقاومة كل حركة فيها ترمي الى النهوض بها ، خوفا على املاكها الواسعة من ان يكون لها منافس فيها ، وحرصا على بقائها في نجوة من كل امة تفشىء لها أسباب القوة لتكون دولة مستعمرة مثلها . وعلى ذلك لما كادت لسبانيا تلم اطرافها ، وتتوسع غربا وبمخر اسطولها عباب البحر الاطلنطي حتى ساورت بريطانيا الغيرة ، وداخلها الحسد ، ولم يهدأ روعها ، وتسكن نائرتها الا بعد

ان قضت على الأرمادة ، اسطول اسبانيا الذي كانت تعتز به ، وتنشر على اشرعته رايتها الاستعمارية و كذلك قاومت البرتغال، وطاردت اسطولها فورثت الكثير من مستعمراتها ثم تعقبت الفرنسيين وزاحمتهم ، إن في اميركة ، وإن في الهند ، وإن في مصر فكأنما كانت فرنسة تسعى جهدها ، وتبذل مجهودها لتمهد لبريطانية سبل الاستعمار وتسهل لها الاستيلاء على الممالك ، واخضاع الشعوب .
ولكن بريطانية ليست بالدولة القنوع فتكتفي بما أصابت من خير كثير ، ونالت من نعم وفيرة فهي تريد كل شيء لنفسها وتريد فوق ذلك أن تمنع كل شيء عن غيرها ايضا . وكانت تجن جنونا اذا ما توافرت اسباب الحياة لشعب من الشعوب وأراد الانعتاق من نيرها . فهي لا تنفك تؤلب عليه عوامل القضاء عليه وتسخر افراده انفسهم ، فان عجزت عن ذلك ولم تجد وسيلة إلا الاصطدام فلا تتردد في هذا الاصطدام . ولقد كان هذا شأنها مع الأمة الأميركية فانها لما ادركت فشلها من الاجهاز على حيويتها بأيدي بنيها شنت عليها حربا عوانا ولكنها انتهت الى غير ما كانت تأمل، فقد انتصرت جيوش واشنجتون عظيم الأمير كان ولم يكن لبريطانيا ندحة عن الاعتراف بالأمر الواقع وصادقت على حرية أميركة واستقلالها ولكنها مع ذلك آلت على نفسها ان لا تدع واشنجتون يهنأ بثمار انتصاره وان لا تترك للشعب الأميركي الفتي الذي نال حريته مخضبة بدماء بنيه ، وانتزع استقلاله من مخالب الأسد البريطاني انتزاعا ، فرصة يلم بها اطرافه ، ويجمع شتاته ويستعيد قواه فساجلته الحرب وناجزته الصراع تارة بالسر والخفاء وطوراً بالجهر والعلن . ولعل الشعب الأميركي كان اشقى الشعوب مع بريطانيا حيث كانت لسهامها غرضا ولدسائسها هدفا ، منذ فجر حياته الاستقلالية الى ما بعد الحرب الأهلية ، وهي فترة خطيرة اجتازتها اميركة، ومواقف دقيقة تخطتها ،و كانت بريطانيا مصدر تلك الكوارث المباشرة تارة وطوراً مسببتها او مسهلتها .

لم تصادق بريطانية على استقلال الأمة الأميريكية الا بعد حرب ضروس دامت ثمانية أعوام كاد واشنطون عظيم اميركة أن يلقى السلاح يائسا قانطا . لو لم تتداركه الأمة الفرنسية وتنجده بالقائد لافاييت وقواته . ولكن بريطانيا لم تشأ ان تعطى هذه الأمة الفتية فرصة تمكنها من اصلاح ما افسدته الحرب الشعواء ، وتعمير ما خربته اسباب الحرب وادواتها المهلكة . فقد الزمت الاميريكيين في معاهدة باريس عام ١٧٨٣ بأن يدفعوا ديون بريطانيا كاملة وان يصونوا المحافظين اعوانها في اميركة من كل تعرض واحتفظت بمقاطعات معينة منها اوسويكو وديترو وماكينو الى ان ينجز الاميريكيون تعهداتهم وهذه طريقة تنتهجها بريطانية دائما ازاء الدول والأمم لتجعل منها اسبابا جديدة للاعتداء على حرياتها واستقلالها في الأوقات المناسبة . ولقد وافق الاميريكيون على ما فرضته بريطانيا عليهم لأنهم كانوا يريدون ان يعطوا نهاية للحالة التي كان عليها وطنهم وقد ارسلوا الى البلاط البريطاني ألمع شخصية لديهم بعد واشنطون وهو جون آدامس ليكون ممثل دولتهم المتحدة الناشئة . وقد استقبل ملك الانكليز جورج الثالث الممثل الاميريكي بحرارة وقال له « .. اني سوف اكون صريحا معك اني آخر من قبل باستقلال اميركة في هذه المملكة . اما وقد منح الاستقلال فسأكون آخر من يسعى الى نقضه » وهذه كلمات جميلة خلابة تشع بالأمل ، ولكن هل وفى الانكليز بعهد ملكهم ، أو هل ان مليكهم حقق ما وعد به ؟!

ان الاميريكيين قد نهضوا بوطنهم نهضة جبارة وسارت خطواتهم في طريق التقدم متزنة سريعة . لقد نشطوا الى تعمير ما خربته الحرب ، واحيوا الأرض الموات ، وخضعوا الى رسوم وتكاليف باهضة ليمكنوا دولتهم من سداد الدين ، ولتنشيط الحياة الاقتصادية جذبوا الى بلادهم البكر العناصر القوية في أوربة فبدأت سيول المهاجرة تتدفق . وكلما زخرت هذه السيول ،

زخرت البلاد بالعمران واكتظت بالنفوس ، وزادت اميركة في قابليتها التجارية وبناء الاساطيل التجارية وحسنت وسائل النقل الداخلية من برية ونهرية ، واختطت لنفسها خطة الحياد ازاء الحروب التي انغمست فيها أوربة بعد ثورة فرنسة الكبرى لاسيما بعد سطوع نجم نابليون فهذه الحركة المترعة بالأمل ، التى بدأتها اميركة ، وهذا الموقف الحيادي الذي وقفته فاعتبلت فيه فرصة ملائمة لتظهر نشاطها وتبدى حيويتها قد اذهل بريطانية ، وتركها تضرب اخماسا بأسداس . فبدأت — على عادتها — تبث حبائلها في الاوساط الاميريكية ، ونشطت تحرض الهنود الحمر على العصيان والتمرد ، واعدة زعيمهم تكومسه بشتى الوعود باذلة له الاموال والعتاد فأثارتهم في عام ١٨١١ فأنزلت بهم القوات الأمريكية ضرباتها المميتة ولكنه مالبث عام ١٩١٢ إلا ان شهد أميركة مشتبكة بحرب دامية مع بريطانية وقد أستمرت هذه الحرب طيلة ثلاث سنوات كاد استقلال اميركة ان يزول فيها، وقد اطلق الامريكيون على هذه الحرب اسم حرب الاستقلال الثانية. لاهميتها وفي هذه الحرب مكن البريطانيون الهنود الحمر من ان يبيدوا الاسراء الاميريكيين جميعهم اولئك الاسراء الذين تمكنوا منهم في واقعة نهر ريسن . ولا يزال الأميريكيون عندما يكونون في موقف حرج ووضع يائس يهتفون « تذكروا ريسن ! » . ولما زحفت الجيوش البريطانية في صميم البلاد الاميريكية ودخلوا واشنطن عاصمة الاتحاد هاجموا الكابيتول والبيت الابيض مقر رئيس الجمهورية والبنايات الحكومية الاخرى فهدموها وحرقوها وسلبوا ما فيها من اثاث وتحف ، ونفائس نادرة ولم تنج بناية ولا موقع ممتاز من الهدم والحرق، حتى انهم اجتاحوا دائرة تسجيل الاختراعات وارادوا نسفها وحرقها لو لم يكن ينبؤهم احد حراسها بأن هذا المكان لايعود نفعه الى الاميريكيين وانما يعود الى خير الانسانية برمتها ، لانه لا يضم إلا

ماله صلة بالمخترعات والاكتشافات العلمية وقد كان للوحشية التي اظهرها الانكليز والجنود الحمر في هذه الحرب أثر عميق في نفوس الاميركيين كافة. ولئن انتهت هذه الحرب بمعاهدة غيفت . في اواخر عام ١٨١٤ فقد ظل الانكليز حرباً على الامة الاميركية يفتهزون عليها الفرص ذلك لانها أمة ابدت حيوية في الميدان الاقتصادي العالمي، وقابلية في ساحات الاختراعات والاكتشافات. وما تظنون في بريطانية؟! ان المعروف عنها انها ضد تجارة الرقيق فانها هي التي حرمت هذه التجارة في العالم ولكن هل تصدقون انها نصرت الجهة القائلة بتجارة الرقيق على الجهة القائلة بالغائها في اميركة؟! من المعلوم ان الحرب الاهلية التي وقعت بين ١٨٦٠ و١٨٦٤ بين المقاطعات الاميريكية كان سببها انتخاب ابراهام لنكولن زعيم الجمهوريين القائل بالغاء الرق فلما انفصلت المقاطعات الجنوبية من الاتحاد احتجاجا على هذا الانتخاب وبادأت الوطن الام العداء، قابلها ابراهام لنكولن بعزمه الذي لا يفل، حتى اخضعها الى الحق بعد حرب طاحنة وهذه الحرب قد جعلت مستقبل اميركة محفوفاً بالمخاطر ايضا لأن احدى عشرة مقاطعة من أصل ٣٤ مقاطعة كانت قد انفصلت وكان على رأس الانفصاليين زعماء مشهود لهم بالكفاءة والقدرة وحسن السمعة. ففي هذا الظرف الدقيق تتقدم بريطانية الى العصاة الانفصاليين بالذخائر والعتاد، وتجهزهم بالبوارج والسفن الحربية مع انهم يريدون ان يبقوا على الرق، وأن ابراهام لنكولن يريد القضاء عليه، وقد لعبت السفينة الحربية «الاباما» التي باعتها بريطانية الى الانفصاليين ادواراً مهمة سببت تلف كثير من القوة البحرية الامريكية مع ان بريطانية اعلنت سياسة الحياد هي تعلن سياسة الحياد ولكنها تمد جهة وتمسك عن جهة. على ان الامة الاميريكية لم يكن الشر الذي يصيبها وهي في حالة صداقتها معها بأقل خطراً على سمعتها وكيانها من الشر الذي كان يصيبها في حالة اختصامها معها. والدليل على ذلك ما عاملت به اميركة في الحرب الماضية. فما عدا انها

ابتلعت مالها ، فقد عرضت سمعتها للسخرية والازدراء ، وعبثت بمبادىء ويلسون عبثا مزريا !..

وفرنسة ماذا لقيت من بريطانية ؟ دع عنك منافستها في الحقل الاستعماري وترسمها آثارها واقتطافها ثمرات جهودها في أميركة ، والهند ، ومصر وغير ذلك من البلاد الغنية التربة الزاخرة بالمواد الخام ، المكتظة بالسكان ، فلقد وقفت في سبيلها بعد ثورتها في ١٧٨٩ ، وكادت لها وألبت عليها دول أوربة وحرمتها مما كسبه نابليون من بلاد ، وتيجان ، وما حصلت عليه فرنسة من صيت وشهرة ونفوذ في العالم ، ولم تعد السيف الى قرابه ، الا بعد ان اخرجتها من الحرب ذليلة ، وإلا بعد ان ساقت امبراطورها اسيراً الى جزيرة سنت الن يقاسي ضروب الاهانات ، وأنواع الأعنات والارهاب . والامبراطور أو رئيس الدولة ، هو رمز مجد أمته ، وعنوان شرفها . فأهانته اهانة للأمة التي تولى زعامتها ، والتشدد عليه جرح لعزتها وكرامتها ، سواء كان هذا الامبراطور ، أو رئيس الدولة ، محبوبا أم مكروها من شعبه ، مشروعا أم غير مشروع . على ان نابليون كان أقرب الى قلوب الفرنسيين من غيره من الملوك وأخف ظلا عليهم من غيره من الزعماء والقادة .

لقد استطاع نابليون ان يقضي على الدول الأوربية أو على أكثريتها ، أما عن طريق الحرب واما عن طريق المسالمة وعقد المعاهدات والاتفاقات ولم تتصلب تجاهه ، وتظل دائبة في مناوأته دولة سوى بريطانيا لأنها كانت وما تزال لا يروقها ان ترى امة تزاحمها في عظمتها ، وتنافسها في توسعها ايا كانت . فصدمة فرنسة التي لم تفق منها الى اليوم ، لم تكن الا بيد بريطانية ، وما يدرينا على أية حالة كانت تكون خارطة اوربة اليوم لو بقيت الامبراطورية النابليونية سليمة ولم تنزل بريطانيا فيها ضربتها الحاسمة ؟ على ان بريطانية لم تكتف بذلك وانما ظلت تراقب التطورات في داخل فرنسة بعيون تقدح

بالشر ، وتتبع خطواتها بهمة لا يعتريها فتور ولم تمديدها وتصافحها الا بعد ان وجدت الحياة تدب في عروق الشعب الالماني قوية، فعادت تحوك للشعب الجديد الناهض ،حبالها وتنصب شباكها . حينئذ فقط بدأت تتملق الشعب الفرنسي الذي سامته خسفا ، واذاقته ضروب الاهانات ، وعملت المعجزات لكي توسع شقة الخلاف بينه وبين جاره والشعب الفرنسي يسير ورائها ،ويقبع خطاها كأن لم تكن بينه وبينها احداث ! .. أجل ! نقلت ثقلة نشاطها من الجانب الفرنسي والقته على الجانب الالماني لا نها وجدته أشد خطراً عليها ، واكثر مساسا بمنافعها ومصالحها واتجهت بكل قواها لتعترض سبيل تقدمه ، وتقيم فيه العقبات ، ولتضعف من القوة الجديدة التى اخذت تنمو نمواً غير مشهود ، ولأجل ان تحقق اهدافها ، فقد استغلت طيش نابليون الثالث ونزقه استغلالا ماكرا ، ودفعته الى التصلب والتشدد تجاه العاهل البروسي في قضية ترشيح احد امراء البيت المالك البروسى لعرش اسبانيا ولكن جاءت الحرب السبعينية خلاف ما كانت تنتظر فانقلبت الآية واصبح الشعب البروسي ، لا يتكلم باسمه بعد صلح فرسايل وانما يتكلم بأسم الامبراطورية الالمانية فزاد سلطان هذا الشعب الضخم بعدده ، القوي بسجاياه ، المبدع بعقله ، وتغلغل نفوذه في الأقطار واجتاحت صناعته ومخترعاته الامصار وبريطانية لا تلين عريكتها ، ولا ينفذ صبرها ، ولا تفقدها توازنها الامور الجسام . فهي ان فشلت فى الحرب السبعينية فقد فازت في الحرب الكونية الماضية وثأرت لكبريائها من هذا الشعب العنود . فجزأته وأوهنته ، وضربت على قابلياته ونشاطه اسيجة سميكة من الفولاذ فشمخت بأنفها ثانية وعادت تسخر العالم لما تريد ، بعد ان اعتقدت بأنها تخلصت نهائيا من المزاحم الخطر الجديد .

وفي الوقت الذي كانت تقاوم فيه فرنسة او المانية ، كانت تصفي على يدها ،الامبراطورية العثمانية بأسم الصداقة التقليدية ، ومن أشد المواقف

اثارة للنفوس ان ترى اموالك ونفائسك يختطفها منك الخاطف وهو يدعي صداقتك وانت لا حيلة لك إلا موافقته على ما يدعيه . لأنك اذا ترددت قليلا سبب هلاكك واضاع عليك حياتك فوق اضاعته اموالك ونفائسك وهكذا كان شأن الامبراطورية العثمانية المتداعية مع الامبراطورية البريطانية الصديقة المتفانية في صداقتها . فهي لم تكن تمنع الاعتداء على الامبراطورية العثمانية في أول الامر ، بل ان هي انصفت سكتت والا ففي كثير من الاحايين كانت المشجع فى الخفاء على الاعتداء . فان فازت الامبراطورية العثمانية حرمتها ثمرة هذا الفوز بشتى الوسائل وان هي اندحرت ساومت صديقتها واقتطعت منها ما كانت تريد . مع العلم ان فوز الامبراطورية العثمانية كان نادراً بل معدوما اذا استثنينا فوزها على اليونانيين ثم رجوعها الى حدودها الاصلية بناء على ضغط الدول الاوربية وفى طليعتها بريطانية . واما اندحاراتها فقد كانت متسلسلة لا تعرف الانقطاع وباستمرار اندحاراتها وتسلسلها كانت التصفية البريطانية للامبراطورية الصديقة مستمرة ومتسلسلة ايضا . ويكفي نظرة واحدة الى خارطة الامبراطورية العثمانية ، وما اصاب الامبراطورية البريطانية منها لتدلك على مبلغ قيامها بواجب الصداقة ، وعلى مقدار وفائها للدولة التي وضعت ثقتها فيها . فبريطانية عدا الجزر المهمة كقبرص وغيرها ، فقد وضعت يدها على مصر والسودان ومضيقي السويس وباب المندب ، والجزيرة العربية وبلاد الخليج والهلال الخصيب ما عدا الشام (سورية ولبنان) وهذه هي زهرة الممتلكات العثمانية ، والدرة الثمينة التي كانت تتألق في تاج السلطان العثماني . واكثر هذه البلدان العربية قد استولت عليها بريطانية سلما ، وعن طريق المكر والخداع حيث قوت الأمراء والشيوخ فى المناطق المختلفة وحرضتهم على الانتقاض على الدولة العثمانية صديقتها . ولم تأخذ منها عن طريق الحرب ألا العراق وفلسطين . وأما بلاد اوربة العثمانية فقد تقسمت وتجزأت الى دول

صغيرة مستقلة بعضها عن بعض ولم تستطع ان تستعمرها بريطانية لأن شعوبها من جنس أوربي اولا وثانيا لأنها مسيحية وثالثا لأن دولا كبرى صديقة لبريطانية كانت تتبناها . ومع ذلك فقد سخرتها بريطانية اقتصاديا واغرقتها برؤوس اموالها ولكن عداء بريطانية قد اشتد وجيبه لما شعرت بأن هناك حركة تقدمية ، ونشاطا جديدا في البلاد التركية يتزعمها مصطفى كمال بعد ان اصبح الخليفة العثمانى العوبة بيدها تسخره الى اغراضها وتسوقه امامها سوق العبيد . وكأنها ارادت ان تثبت صداقتها لهذا الشعب من جديد ، وتبدى عطفها عليه للمرة الاخيرة فسعت سعيا مشكورا لتدق آخر مسمار في نعشه كما اعلن ذلك لويد جورج رئيس حكومتها آنئذ فأمدت حكومة اليونان بأنواع السلاح والعتاد والكراع وألبتها عليه ولكن سوء حظ لويد جورج لم يسعفه بفوز خطته ونجاح تدبيره فسقط مقهورا وولى مدحورا ، ونجا هذا الشعب المنكوب بصداقة بريطانية من الموت بأعجوبة ، وبتضافر عوامل واسباب خارقة وقد سبق ذكر بعضها فى احدى المناسبات .

وهذه ايران الوديعة المسالمة ارادت بريطانيـــة ان تبتلعها فى عام ٩٢٠ وفرضت عليها تلك المعاهـــدة الجائرة التي قضت على كل أمل في الحريـــة والاستقلال لهذه الدولة ولكن ظروفا غير منتظرة طرأت فأجبرت بريطانية على ترك البلاد لأهلها . ولو لم تشب نار الثورة العراقية قوية فاضطرت بريطانية الى ان تسحب قواتها المنتشرة فى ايران آنئذ ، ولو لم تعد الحياة الى روسيـة السوفيتية ، لكان مصير ايران الذي لاقته في عام ٩٤١ قد تقدم عشرين عاما . ولكن الثورة العراقيـة ، من جهة وعودة التنافس الروسى ـ البريطاني في ايران الى وضعه السابق ، بأستعادة روسية السوفيتية قوتها ، من جهة كانت عوامل من شأنها ان ترجىء نهاية ايران . على ان بريطانية ما أنفكت تناجز ايران ، فى خلال العشرين عاما التى مرت بين ٩٢٠ و ٩٤١ . وتهتشباكها

واحابيلها . وكان يزعجها بوجه خاص ما كانت تجده في الشعب الايراني من عزم صادق لتقويم نفسه ورفع مستواه لعداوتها المتأصلة لكل حركة قومية ونهضة انشائية ، فما آذنت الفرصـة ، وتم الاتفاق بينها وبين روسية إلا واجتاحت جيوشها كرة أخرى البلاد الايرانيه وأخضعتها الى مشيئتها بحجة واهية يخجل الانسان من مناقشتها لوضوح بطلانها .

قلت أني لا أريد ان أورخ الاستعمار البريطاني أو أحصي اعتدآءات بريطانية على الممالك والشعوب وأنما أريـد أن اضرب بعض الامثلة وأسرد شيئا من الحوادث التاريخية لتأييد ما ذهبنا اليه ، وقلنـا به ، ولرسم صـورة تمثل حقيقة الجشع البريطاني ولنضع مقياسا نقيس به انانيتها وميلهـا القوي الى الاعتداء على الحقوق .

وهذه الأمثلة والحوادث التاريخية قد شاهدنا بعضها بأعيننا والبعض الآخر قد تحدث به الينا تاريخ العصور الحديثة وما هي إلا قطرة من بحـر الاعتداء البريطاني ، فماذا فهمنا منها ؟ فهمنا ان الامبراطوريـة تأسست على العدوان وسقيت أصولها بالدماء . وقامت صلاتها مع الممالك والشـعوب على مقاومة الحريات والنهضات فيها وكلمـا أمعن الانسان في تاريخ بريطانيـة تمحيصا وتدقيقا كلما زاد ايمانه بهذه الحقيقة . أذن فكيف يمر الباحث في الشؤون الدولية ، من دون ان يسجل لهذه الامبراطورية احـداثا ووقائع تمتزج فيها الدماء والدموع والآلام ؟ والغريب في أمر هذه الامبراطورية انها ان فازت على أمة وقضت عليها فبها وإلا فانها تخلق أسبابا جديدة ، لتجعل من تلك الأمم التي لقيت منها ما لقيت ، آلة صماء تستعملها في أغراضها وانها على الاكثر تنجح في ذلك . فهذه اميركة التي وصفنا طرفا من أخبـارهـا مع بريطانية وهذه فرنسة وهذه تركية الجمهورية أقول ان هذه الدول برغم ماحدث بينها وبين بريطانية فانها كانت وما تزال تنفذ مشيئتها وتسير وفق

ارادتها ففرنسة قضت على كيانها في سبيل بريطانية وأميركة قد وضعت مستقبلها في كف القدر مرة أخرى وكانها لم تعتبر بحوادث القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر فهي لم تعتبر ايضا بالدروس القاسية التي القتها بريطانية عليها وعلى رئيسها ويلسون بعد ان انتصرت في الحرب الكونية الأولى بفضل معاونتها لها، وهذه تركية تضع يدها في يد بريطانية التي قاومت الحركة الأنشائية بعد الأنقلاب العثماني عام ٩٠٨ وناهضت الحركة الكمالية واستصدرت احكام الأعدام على مصطفى كمال ورفقائه في الجهاد من الخليفة بأعتبارهم عصابات ثائرة، وحاولت ان تدق آخر مسمار في النعش العثماني بتجهيزها اليونان وتسييرها عليها فماذا يعني ذلك؟ هل ان هذه الدول أصبحت من الغفلة بحيث انها لا تميز صديقها عن عدوها، وصالحها عن طالحها، أم هي المصالح الدولية والمنافع المشتركة قد دفعت بها الى هذا التساند والتعاضد، أم حظ بريطانية وطالعها؟. ليس من شك في ان العقول التي كانت وما تزال تسير هذه الدول ليست بالعقول التي تغشاها الغفلة ويسودها النسيان لأن أساليب بريطانية لم تعد خافية على العقول البسيطة والأفهام المتوسطة فكيف يجوز ان تخفى على رجال مثل هذه الأمم وقادتها. وانما اكبر الظن انها المنافع المشتركة والمصالح الدولية هي التي هيأت لبريطانية هذه الأجواء الصالحة، ومكنت لها من تسخير هذه الأمم لتحقيق مطامعها واهدافها. وليس من حقنا ان ندعى المعرفة بالمصالح الاميركية اكثر من ابنائها، أو نزعم الحرص على منافع فرنسة أو تركية اكثر من رجالها ولكن هناك أوضاعا عامة واضحة، وقضايا دولية مبسوطة لكل ذي عينين ومثل هذه الاوضاع والقضايا يسوغ لكل أحد ان يبدي رأيه فيها.. فلنأخذ فرنسة مثلا فما هي منفعتها في معاداة المانية ومصافاة بريطانية مع ان الأولى جارتها، وليس لها مستعمرات تصطدم منافعها بها والثانية بعيدة عنها ولها حالات، من استعمارية أو انتدابية أو مطامع

توسعية من شأنها ان تصطدم بها فى اكثر الاوقات وبالفعل فقد حصل الاصطدام غير مرة ؟ يلوح لي ان العداء الفرنسي - الالماني قائم على نزعات عاطفية اكثر مما هو قائم على أسس واقعية ، (١) ومصالح مادية . فقضية الالزاس واللورين ، كانت جرحا نغارا في صدر الامة الفرنسية ، وصدمة عام ٨٧٠ هزت مشاعرها هزاً عنيفا بحيث اصبح من المتعذر تناسي آثارها وآلامها . ولكن صدمة فرنسة العنيفة القاتلة هي ليست صدمة عام ١٨٧٠ وأنما هي في الحقيقة صدمة تلك الحروب المتسلسلة التي اثارتها عليها بريطانية وانهتها بواقعة واترلو ونفي امبراطورها الى جزيرة سنت ألن . فلولم تمن فرنسة بتلك الصدمة التى زعزعت أركانها ، وضعضعت بنيانها لما انيح للبروسيين ان ينشطوا ذلك النشاط العجيب ولما تمكنت الدويلات الالمانية الاخرى ان تنضوي تحت العلم البروسي وتتكون من الجميع تلك الامبراطورية الضخمة التى تخشاها فرنسة كما تخشاها الامبراطورية البريطانية فاذا كانت الاحداث التاريخية تعمل عملها فى العواطف ، وتسيير الاتجاهات السياسية فمن حق فرنسة ان تناجز بريطانية لأنها هي التي هدت الكيان الفرنسى ، وغضت من عظمتها، في كفاحها المتواصل ضد امبراطورية نابليون الاول وما قبلها سيما فى عهدلويس الرابع عشر من ناحية ومن ناحية أخرى فهي التى استغلت نزوات نابليون الثالث فدفعته الى مصاولة الشعب البروسي دفعا فكانت نتيجة المصاولة ذلك الانحدار الذي اشتهر به عام ١٨٧٠ والانصاف يدعو فرنسة كذلك ان تتذكر ان حرب ١٨٧٠ لم تثرها المانية على فرنسة وانما اثارتها فرنسة على المانيا وكانت فى اثارتها معتدية لأن السبب الذي لوح به نابليون الثالث كان قد انتهى

(١) في يوم ١٧ مارت ٩٥٠ صرح الجنرال ديغول بأنه لايرى سبباً لعدم التصافي بين الشعب الفرنسي والشعب الالماني أو عدم نسيان احقاد الماضي التي كانت تثيرها الدسائس الخارجية

برفض المرشح الالماني لعرش أسبانية وقد كان هذا الرفض ترضية كافية للغرور الفرنسي ولكن نابليون الثالث لم يكتف بذلك وانما اراد تعهداً من عاهل بروسية بأن لن يتقدم أمير الماني فى المستقبل ليرشح نفسه الى هـذا العرش . وما معنى هذا الطلب غير المعقول ، اذا لم يفسر بأنه كان يراد به الاغراق فى أهانة الشعب البروسي ممثلا بملكه . والامعان فى إيذائه بشعوره ؟ ان بريطانية كانت تفيد من ذلك النزاع ، وانه كان من صالحها ان تشتبك فرنسة بالشعب البروسي الذي بدت عليه مخايل القوة والنشاط عوض ان تشتبك هى به فلعل ان تكون نهايته على يد غيرها . ولكن ذلك النزاع لم يكن بوجه من الوجوه مفيداً لفرنسة . وكذلك فان الانصاف يدعو فرنسة ان تتذكر بأن المانيا كانت سخية في مؤتمر فرسايل ولم تكن ممعنة في التشديد على فرنسة المقهورة . وان معاملة بسمارك في ١٨٧٠ لم تكن تشابه معاملة كليمنصو عام ٩١٨ . على ان الجروح كانت قد تكافأت والدماء قد تهاترت بانتصار عام ٩١٨ ولم تعد المانية تفكر في اعادة الالزاس واللورين اوفى التحرش بالمصالح الفرنسية . واذا كان هناك حق يجوز الاشادة به ، فيجب علينا ان نتذكر المحاولات الالمانية المختلفة لتقريب وجهة النظر بين الشعبين الالمانى والفرنسي والتعهدات المتكررة على لسان المسؤولين في المانية بشأن انصراف نية الرايخ الثالث بصورة باتة عن المطالبة بالالزاس واللورين . فما هى اذن منافع فرنسة ومصالحها التى تدعوها الى أن تشتبك فى حرب مع امة تسعى الى مسالمتها ، وترغب فى مصافحة يدها ؟ فالصراع الحقيقي هو بين بريطانية والمانية . لا بين فرنسة وبين المانية . لأن بريطانية ليس من شيمتها أن ترى امة تنهض على قدميها ، وتنبض عروقها بدم الحياة ، وتتركها وشأنها . وهذه شنشنة عرفت عنها ذاقت علقمها فرنسة نفسها غير مرة . فبريطانية هي التى كانت في حاجة الى صداقة فرنسة بعد ان خفقت اجنحة النسر الالماني في سماء اوربة ولولاها لما بقي لبريطانية نفوذ في

الاوساط الاوربية ولا مكانة مرموقة في مؤتمراتها ، أو كلمة نافذة في تسيير سياسة دولها . فبفضل فرنسة احتفظت بالهيبة والنفوذ فماذا جنت فرنسة من تضحيتها مصالحها في سبيل بريطانية ؟ ان بريطانية ليست لها صداقة ترتكز على مثل عليا ، وانما صداقتها وليدة المنافع المادية الخالصة فهي تنشيء الصداقات ، لتأمين هذه المنافع ، وتثير العداوات والخصومات بغية الاحتفاظ بهذه المنافع . ولقد مر بنا بحث عن مدى الصداقة التي كانت تربط الامبراطورية البريطانية بالامبراطورية العثمانية وكيف كان هلاك الاخيرة بسبب اعمال الاولى وانها في الاخير عزمت على دق آخر مسمار في نعش صديقتها التي استصفت خيرة املاكها ، وعيون ممتلكاتها ولا تعدو الصداقة الانكليزية الفرنسية هذا النوع المادي من الصداقة . فهي ساعدت فرنسة بعد اندحارها في واقعة سيدان وتسليم امبراطورها . ولكن هل ان بريطانية كانت عاجزة عن ان تدفع الكارثة قبل حلولها أم لا ؟ اللهم ! نعم ! لقد كانت قديرة على ذلك ، وفوق ذلك كان الملكة فيكتوريا ارادت مخلصة أن تتدخل في النزاع قبل استفحاله والحت في تنفيذ ارادتها ولكن غلادستون وزيرها الاول وزعيم الشعب البريطاني وقتئذ حال دون ذلك . حال دون تنفيذ ارادتها لانه كان يرغب من صميم قلبه ان تقع الحرب . وتسفك الدماء لعل بريطانيا تتخلص من المزاحم القوي الجديد ولكن حجته الظاهرة التي ادلى بها امام ملكته كانت ليس هناك منفعة لبريطانية من هذا التدخل . كأنه لا يجوز لبريطانيا أن تحقن الدماء أو تسعى في حقن الدماء الا اذا كانت هناك مصلحة مادية لبريطانيا . ومعلوم ان التدخل الذي رغبت فيه فيكتورية لم يكن يكلف امبراطوريتها نفقات أو اتعابا لا قبل لها بها فما معنى اعتذار الرئيس البريطاني بأن ليس هناك منفعة للامبراطورية من هذا التدخل ؟ ولكن بعد أن اندحرت فرنسة هو نفسه طلب الى ملكته أن تتدخل لصالح فرنسة لأن

التدخـل أصبح نافعا للامبراطوريـة البريطانيـة . فماذا نفسر احجامه الأول عن التدخل وأقدامه في آخر الأمر على التدخل اذا لم تكن منفعة بريطانية في نظره في أول الأمر كانت تقتضي اصطـدام فرنسة بمزاحمهـا الجديد ولـكن لما وجد الدائرة تدور على فرنسة لا على هذا المزاحم دلف الى الى ملـكته يطلب منها التدخل والى الدول الاوربيـة الاخرى يستنصرها ويستنجدها لحقن الدماء واحلال صلح شريف بين الأمتين الاوربيتين ؟ وبريطانية قد نفست عن المانية كثيراً في مواقف عدة في الفترة التي مرت بين الحربين العالميتين ازعاجا لفرنسة لأنها وجدت فيها نشاطا لا تأنس له واندفاعا يمس كبريائها ونفوذها في اوربة . لذلك لم تؤيد فرنسة في اقتراحاتها حينما اعادت المانية السار والرين ، وقابلت هذه الحركة الألمانية الجريئة باغماضة عين . فهي تريد ان تحتكر كل شيء لنفسها ، السلطان ، النفوذ ، الأموال البلدان ، الشعوب . واذا طمع شعب من الشعوب فى شيء فيجب ان يكون برأيها وبالقدر الذي تقدره هى ، وان كان هذا الشعب حليفا لها ، وأثبت صدق وفائه لها فى مواقف لا تعد ، ومناسبات لا تحصى ولماذا نذهب بعيدا ولدينا مثلان رائعان ما زالت ذكراهما طرية فى الأسماع ، ندية في الأذهان ؟ ارادت القيادة العليا البريطانية في اوربة أن تهرب بقضها وقضيضها من دنكرك الى الجزيرة البريطانية ، والجيوش الألمانية كانت آخذة بخناق الجنود البلجيكية يومئذ ولما رأى ملك بلجيكا حراجة موقف جيوشه واقتنع بأن لا فائدة مرجوة من استمرار المقاومة وتكثير عدد الضحايا بدون مبرر قرر الاستسلام مع جيوشه . وهذه حالة عسكرية يتلبس بها كل قائد ويضطر اليهـا كل ملك او رئيس دولة . لأن الاستسلام بعد تأدية واجب الدفاع ليس امراً منكراً او غريبا ولـكن بريطانية اقامت الدنيا واقعدتها ضد الملك وار كان حربه ورمتهم بالخيانة والصقت به وبهم انواع التهم . ولماذا كل ذلك ؟ لأنه لم يأمر

جنوده ان يموتوا الى آخر واحد منهم ليشاغلوا العدو و ايهيئوا بذلك لجنودها سبيل الهزيمة ؟ ان الهزيمة من دون مقاومة لا تكون خيانة لان المنهزمين بريطانيون . اما ملك البلجيك ورجاله وجنوده فانهم خائنون لانهم سلموا بعد قتال عنيف ، ودفاع مجيد .

ونسيت بريطانية ان البلجيك ليست هي التي اعلنت الحرب على المانية وانما بريطانية هي التي اعلنتها ونسيت ان ما ذاقته وتذوقه الشعوب والممالك الأوربية من مرارة هذه الحرب انما كا بسببها ونتيجة لجشعها وانانيتها ونسيت كذلك الضحايا التى قدمها الشعب البلجيكي والمواقف الجريئة التي وقفها مليكه نسيت كل ذلك ورمتهم بالخيانة لانهم لم يفنوا انفسهم لاجل نجاة جنودها الناكصين الى ارض الوطن . أية انانية هذه واية قسوة ؟ تطلب الفناء لجيوش عددها يربو على الاربعمئة الف لا ناقة لهم في هذه الحرب ولا جمل ، لتنقذ اقل من نصف هذا العدد ، من جنودها الذين كان عليهم ان يصمدوا للموت لانهم جنود الدولة التى اعلنت الحرب .

ولم يكن نصيب فرنسة من الجحود ونكران الجميل من بريطانية ، بأقل مما لاقت البلجيك وغير البلجيك . فهذه فرنسة التى تأثرت خطى بريطانية في سياستها واستسهلت كل صعب فى سبيلها وضحت بكيانها ، وبشبابها وببلادها وبتاريخها الحافل بعظائم الامور لم تكن في نظر بريطانية الا خائنة حينما اضطرت اضطرارا لعقد الهدنة وانقاذ الجزء الباقي من الدمار ولماذا ؟ لانها لم تواظب على قذف بنيها فى افواه المدافع وعلى تعريض ما تبقى من الوطن الفرنسي للتخريب والتدمير . لذلك كانت فرنسة خائنة ولكن بريطانية التي لا تجود بالعدد القليل من المدد الذي سبق ان ارسلته الى اوربة للاشتراك في الحرب فتعيده مسرعة عن طريق دنكرك فهي مخلصة وفية ولم تعدل الصحف

البريطانية ، لهجتها ولم يتطامن ساستها وقادتها في تصريحاتهم وبياناتهم ضد فرنسة الابعد ان اتصل بهم ديغول واتباعه فحينئذ فرقت بريطانية بين فرنسة الخائنة وفرنسة الوطنية وهكذا تجد بريطانية لا تقيم وزنا لصداقة ، ولا تقدر تضحية حليف ، الا بقدر ما يصيبها من نفع مادي . فمثلها العليا المادة . والمنفعة والمصلحة . ويمكن أن نلخصها بالمادة . والآن كلما اندحرت الجيوش البريطانية وقواتها الاخرى في ميدان من الميادين الحربية تهرع الى المستعمرات الفرنسية او البلاد التي تحت نفوذها وتستولي عليها فبالأمس قضت على سورية واليوم تتحفز على مداغشقر وغدا ربما على غربي افريقية أو شمالي افريقية كأن لها على فرنسة ثأراً او دينا تلاحقها من اجلها ، حتى في أيام محنتها وساعات شقائها . ولحظات نزعها .

ولو كانت فرنسة تلتزم الحياد لما جرأت بريطانية على الحرب مع المانية . ولو كانت فرنسة متفقة مع المانية وهذا ما كانت تسعى اليه المانية للعبت في السياسة العالمية ادواراً لم يسجل التاريخ مثيلا لها . ولكنها اسلست قيادتها الى بريطانية التي لا تفكر إلا في مصلحتها ، ولا تسعي إلا لأجل منافعها فأصابها ما اصابها . ولا ندري أنعزوا ذلك الى حظ فرنسة السيء أم الى طالع بريطانية الحسن أم الى اسباب مازالت خافية على الجميع ؟

ليس في وسعي ان انفى اثر الحظ وانكر وجوده بالمرة . لأني وجدت كثيراً من جبابرة العقول يعترفون . بالحظ وأثره في الفرد وفي المجتمعات وهذا ماكيا فيللي الذي يعد من الطراز الأول من مفكري أوربة فانه قد عقد فصولا ممتعة في كتاب الامير وذكر حوادث تاريخية واقعية متنوعة يسند النجاح فيها الى موآتاة الحظ ، والفشل فيها الى إدبار الحظ . وانما كان يعلل مفعول الحظ ، تعليلا يختلف عما يعلل به الحظ اولئك الذين لم يوهبوا عقله ، ولم تمنحهم الطبيعة عمق تفكيره . فهو يقول ان نصف الفوز قد يعود الى الحظ والنصف الآخر يعود الى الكفاءة والقابلية فقد يساير الحظ فرداً من

ذوي العقول الصغيرة ويسمو به الى مكانة رفيعة ولكنه لقلة تدبيره، ولضعف حيلته في الاحتفاظ بهذه المكانة الرفيعة، لا يلبث أن يهوى من عليائه، ويتحطم. والآخر يسايره الحظ كذلك ولكن له عقلية ناضجة، تمكنه من الاحتفاظ بما وصل اليه وله قابلية مدبرة تقوى على التغلب على كل ما يعترض سبيله من عقبات كؤود فيطرد فوزه. ويضرب مثلا لذلك البابا اسكندر بورجيا الذي اوتي حظا حسنا وعقلا كبيرا معا. ولعل وصول القائد الالماني بلوخر بقواته الى ميدان واترلو بينما كانت جيوش ويلينكتون تعاني مرارة الهزيمة وانقاذه الموقف في المعركة، يعد نوعا من الحظ الحسن بالنسبة للحلفاء، ومن إدبار الحظ بالنظر الى نابليون. ويعزو فيكتور هوغو وصول بلوخر بالسرعة التي لم تكن منتظرة، سلوكه طريقا قصيرا لم يكن يعلم به وانما اشار عليه بسلوكه احد الرعاة الذين صادفهم في طريقه بطريق الصدفة. وسواء كان هناك شيء يسمى « الحظ » أم لم يكن فقد تفشال صدف وطواري، وتتضافر اسباب وعوامل، خفية أو ظاهرة تسبب الفوز والنجاح، أو تسبب الفشل والخيبة. وان من يحسن انتهاز تلك الصدف والطواري، والتصرف بتلك الأسباب والعوامل، يصيب الغاية والهدف، ومن قصر في ذلك لحقته الخيبة ومنى بالخسران، فالمسألة اذن مسألة عقل وأدراك قبل ان تكون مسألة صدف ومفاجئات. وبريطانية من ابرع الأمم في استغلال الصدف والطواري، ومن أمهر الشعوب في استغلال الأسباب والعوامل، التي تهيء لها الفوز والنجاح. وهذه حقيقة لا يجوز لنا انكارها عليها برغم خصومتنا لسياستها لذلك استطاعت ان تسير السياسة الفرنسية لصالحها دائما لأنها كانت تعرف كيف تلمس العرق الحساس من عروق فرنسة ولأنها كانت تجيد التصرف في استغلال عواطف هذه الأمة اللاتينية القوية الاندفاع، السريعة التهيج، الملتهبة الأحساس، فنجحت في تصوير الاخطار الألمانية، على فرنسة وفازت في تمثيلها دور الحريص الصادق في حرصه على المنافع الفرنسية والكرامة

الفرنسية مستغلة الحوادث التاريخية واسباب النزاع العاطفية . وكما انها ضربت على الأوتار المثيرة لعواطف فرنسة ونجحت في ذلك ، فهي كذلك ضربت على الأوتار المادية لتثير مخاوف اميركة من توسع سلطان النازية ، وتعلقت بصلات الرحم والقربى تعلقا شديداً . لقد صورت تدهور الصناعة الاميركية ، وضياع ثروتها ان فازت المانية تصويرا بارعا من ناحية ومن اخرى فقد ناشدتها المعونة والمساعدة مستنصرة بحميتها الانكلوسكونية لائذة بدمائها « النورديكية » الشمالية . وان اميركة آمنت بهذا التصوير ، ورأت نفسها ملزمة بأمداد ذوي قرباها ، وبني عمها . ولكنها نسيت الصراع الذي قام به واشنطون في النصف الاخير من القرن الثامن عشر ، ونسيت المعارك المتسلسلة التي اثارتها بريطانية عليها تارة بصورة مباشرة ، واخرى عن طرق غير مباشرة طيلة قرن كامل تقريبا منذ فاز واشنطن العظيم بطرد القوات الانكليزية من الوطن الأميركي . وخلال ذلك العصر الرهيب المترع بالمصائب والنوائب تزجيها بريطانية على الوطن الأميريكي ازجاء ، وترسلها عليه ارسالا ، لم تكن بريطانية تفكر بصلة الرحم ولا تحفل بالدماء النورديكية ان تسيل غزيرة في سهول اميركة وحزونها ولكنها تلمست هذه الصلة ، وبصرت عينها هذه الدماء بعد ان قطعت الرجاء من عودتها الى اميركة آمرة ناهية ، وبعد ان نهضت الأمة الاميريكية على قدميها وبريطانيا واقفة حيرى ، تقطع نياط قلبها الغيرة ويحز فيها الحسد ويرمضها حقد دفين . وهل يظن روزفلت انه خدم امته بخروجه على قاعدة مونرو ومغامرته بمستقبل وطنه للدفاع عن مصالح بريطانية الاستعمارية بينما لا توجد هناك اسباب تبرر له هذا الخروج وتلك المغامرة ؟ وعدا ذلك فأن بريطانية وعدت اليهود بالوطن القومي في فلسطين على حساب الشعب العربي ولليهود سيطرة مالية ، ونفوذ اقتصادي متغلغل في الاوساط الاميريكية

وانها لا تتردد في ان تمنحهم الهلال الخصيب العربي برمته اذا هم اعانوها في احالة اميركة الى جانبها فلماذا لا ينظم اليهود حملاتهم القوية العنيفة في اميركة ، ليوجهوا سياسة روزفلت شطر سياسة تشرشل ؟ وما يمنع اليهود ان يستبسلوا في هذا الميدان ، ويثأروا لأبناء قومهم الذين شردتهم النازية عن البلاد الألمانية ، ويصيبوا بلادا واسعة يقيمون فيها دعائم صهيونيتهم، وان يضربوا عصفورين بحجر واحد ؟ فأميركة اذن قد انساقت بقوة اليهودية المتمكنة فيها ، وبمهارة السياسة البريطانية ولم تكن هناك منافع أميركية معرضة للخطر ، أو مصالح مستها المانية او في نيتها ان تمس بها في المستقبل . وهكذا تجمعت اسباب وعوامل وتهيأت فرص ومناسبات استغلتها بريطانية استغلالا بارعا ، وتصرفت فيها تصرفا ماكرا فخدعت امة تمتاز بثقافتها وحضارتها وبرزت بصناعاتها ومخترعاتها لتدرأ الأخطار عن ممتلكاتها وتدفع المصائب والويلات عن جزيرتها . وماذا يهمها هي ؟ لقد صرعت فرنسة ولم تقو بعد على النهوض ، وتخضبت اوربة بالدماء ، فكيف تظل اميركة سالمة من الرزايا والمحن ؟ فان كانت العاقبة اندحاراً ، فليس وحدها التي تموت ، لقد ساقت الى الموت قبلها أمم اوربة جمعاء ، وها هي تموت ومعها العالم الجديد برمته . وان كسبت الحرب ، وانتصرت فليس روزفلت بأعظم من ويلسون ، ولا هو بأوسع نفوذاً منه ، ولا انضج عقلا . اما وانها قد اعادت ذاك العظيم الى عالمه الجديد يجرر اذيال الخيبة فهي مطمئنة من ان مصير روزفلت سوف لا يكون أقل سوءاً من مصيره وان نهايته سوف لا تكون أخف حزنا وأيسر ألما . واني اكاد في هذه اللحظة والحرب في اوجها — احس مصير روزفلت ماثلا امامي ، في حالتي الانتصار والاندحار !! .. (١)

«١» الحق : ان الاندحار أصاب الدولتين وانهما الآن في شغل شاغل لمكافحة الدعاية الشيوعية ودسائسها في العالم .

ويجوز ان تظن تركية بأنها قامت بتعهداتها تجاه بريطانية وأرضت كبريائها . فأن هي تظن ذلك فقد تخطىء خطاء عظيما . ان تركية قد خدمت بريطانية في موقفها الحيادي المشبوب بميل ظاهر اليها ، وأنقذت الشرق الأوسط والشرق الأدنى من نفوذ جيوش المحور اليها . وانها لو كانت قد تساهلت ، أو لو انها اتفقت مع المانية ، لأنهدت أمبراطورية بريطانية في الشرق ولأنهارت بأقل من لمح البصر . فموقف تركية قد أفاد بريطانية كثيراً ، ولكن بريطانية لا تقنع بذلك . فانها بالمساعدات المادية التي تعهدت بها الى تركية ، وبتحالفها الذي عقدت احكامه وبنوده معها ، كانت تنتظر ان تنجرف معها في الحرب ، وتفنى شعبها في سبيل سلامة الشعب البريطاني ، وهي قد أشارت عليها بذلك لما أقتربت الحرب من الحدود التركية ، وانهارت الدولة اليونانية ، وانها قد لحت اليها لما اندفعت قوات روميل الى الحدود المصرية متعقبة جيوش الجنرال أوكينلك ، ولكن تركية تصاممت عن ندائها ، وتغاضت عن اشاراتها وتلميحاتها . وبريطانية لا تقيم صداقة لها مثل عليا ، وانما تقيمها على المنافع المادية المحضة ، وانها لا تقبل بعذر يؤيده الحق ، ويعززه الصواب ، ما دام هذا العذر يسبب لها كدا ونصبا ويكلفها خسائر . فهي ان سكتت عن تركية اليوم فانما تسكت على مضض ، وان هي ابتسمت لها فأنما تبتسم ابتسامة صفراء تنطوي على حقد مشبوب ، وروح تضطرم بالبغضاء . واذا كان بقاء تركية قائما على التنافس على الدردنيل فبريطانية قديرة على استنباط الوسائل المؤدية الى فض هذا التنافس واعطاء نهاية له فهي لا تعدم براعة تقودها الى الفوز ، ومهارة تؤدي بها الى الانتصار سيما اذا خرجت ظافرة منصورة . وبريطانية فوق ذلك تشرف على اقطار مجاورة لتركية فيها كميات غير قليلة من العنصر الكردي . ومواطن هذا العنصر مناوحة أو قريبة من الاناضول الذي يشتمل على عدد ضخم من

الا كراد . فيكفي لبريطانية ان تنشط الفكرة القومية ، وتوقظ العواطف العنصرية ، في هذا العنصر القوى ، الشجاع فتضطرم نار الثورة في اكثر بلدانها وتخلق لها مشاكل متصلة لا تنتهي إلا بأنتهاء الحياة فيها . وهذه حركة ميسورة لبريطانية ، لا تفتقر الى اثارتها الى مجهود كبير . أو مهارة فائقة .

وان ربح المحور الحرب ، فمستقبل تركية أشد ظلاما ، واكثر تعرضا للأخطار لما اصابه منها من دعايات عدائية ، ووقفات لا تبررها خطة الحياد . على ان المانية لم تكن يوما مسيئة الى تركية وانما بالعكس فقد كانت خليلتها في الحرب الماضية وشريكتها في المصائب ، التي صبتها على كليها دول الحلفاء المنتصرة . فكان منطق الحوادث يقضي على تركية ان لم تسارع الى جانب المانية ، فهي على الأقل تلتزم الحياد التام المطلق ، وما التزمته . ولئن اعتذرت تركية بخوفها من مطامع ايطالية في بلدانها فهذا الخوف لا اساس له لأن المانية أقوى من ايطالية ، وانها اذا اخلصت الى تركية فليس في قدرة ايطالية ان تخرج على ارادة المانية . مع ان الحالة بالعكس في صلات تركية ببريطانية . فبريطانية لا تلتزم صديقا ، إلا اذا كانت هناك منفعة مادية وهذه سجيتها . وأني لا أقول ان المانية أو غيرها من الدول متجردة من المنافع المادية في صداقاتها ومحالفاتها وانما أقول ان لألمانية ولمثل المانية من الأمم العسكرية ذات النفسيات القوية مثلا عليا، تمنعها من الغدر بالصديق ، والفتك بالخليل من دون أسباب قوية مجبرة . فهي بقدر ما تلاحظ منفعتها تلاحظ الشرف والأحتفاظ بالتقاليد ، وتنفيذ الوعود القولية والعهود الخطية ولكن بريطانية تختلف عنها بأنها لا تلاحظ إلا منفعتها فقط ، ولا تتردد في أتيان أي نوع من أنواع المنكر اذا قضت بذلك منفعتها سواء لديها في ذلك العدو أم الصديق . وهذا تأريخها حافل

بالشواهد التى لا تقبل النقض ، والأمثلة التى لا تحتمل الجدل والنقاش .

هذه مجرد احتمالات يقتضيها منطق الحوادث وطبيعة الأوضاع السياسية التي مرت بنا . وكما انه لا قلب للسياسة كما يقولون فقد يجوز ان لا يكون لها منطق ايضا . والذى أرجوه مخلصا ان يكون الشعب التركي فى نجوة من الاعتداءات وان تتيسر له سبل التقدم والنجاح . لأنه شعب صديق مجاور ، تربطنا به روابط تأريخية ومصالح مشتركة ، وتصلنا به وشائج قربى ودين قوية ولئن فات الشعب العربي ان ينعم اليوم بنعيم الحياة الحرة ، وان ينغمر بنور الاستقلال فقد يسره على الأقل أن يتلمس هذا النعيم في جاره المسلم وان يتحسس النور وهو ينبعث من بيت صديقه الشرقي .

وصفوة القول فأن بريطانية قد انفردت بأساليبها السياسية وتوحدت ببراعتها في انشاء الصداقات ، واحداث الفتن والاضطرابات ، وبرزت على جميع الأمم فى ماديتها وأنانيتها ولا يسع المتتبع تاريخ نشاطها ، في ميادين الاستعمار وفي تسيير السياسات المتباينة إلا ان يتملكه العجب ويساوره الاندهاش من هذه القابلية . ومن هذه الناحية كانت فجيعة الوطن العربى بأستعمارها أليمة ونصيبه فى الشقاء من سلطانها عظيما ورزؤه كبيراً .

عمل متواصل !

قال « كانت » . « . . حاسب نفسك اذا سقطت واذا خدعت فالذنب ذنبك واذا قعد بك العجز والفاقة فمعنى ذلك انك لم تعمل شيئا لتكون غنيا ... » . ذلك لان الله عز وجل عندما خلق الانسان قد اودع فيه قوة مدركة ووجدانا بهايدرك الخير والشر ويشعر بالجمال وفتنته ، والقبح ومعرته ، ومنحه ارادة تشير عليه وتوجه سيره في هذه الحياة ، وفرض عليه المسؤولية لقاء تفضله عليه بهذه الارادة . ولذلك كان « كانت » كان مصيبا حقا حين وجه خطابه للانسان فقال له حاسب نفسك اذا سقطت واذا خدعت فالذنب ذنبك واذا قعد بك العجز والفاقة فمعنى ذلك انك لم تعمل شيئا لتكون غنيا . والحركات الشعبية ، والنهضات القومية توجدها قوى الانسان وتسيرها ارادته ، فان نجحت فمعنى ذلك ان القائمين بها كانوا قد احتاطوا لكل امر ، وتدبروه واحكموا خططهم ، واحسنوا التصرف في تنفيذها ولم يتركوا منفذاً يتسرب منه الوهن والضعف ، فتجنبوا بيقظتهم وحسن التصرف مواطن الخطأ ، واتقوا موارد الفشل والخيبة وان خابت فمعنى ذلك انه كانت هناك اسباب دعت الى الخيبة اغفلها القائمون بالحركة او تهاونوا في اتقائها او انهم لم يقووا على الصمود في وجهها . فلافوز ولا نجاح من غير سبب ، كما لا فشل ولا خيبة من دون دواع اوجدتها . هذه هي سنة الكون ، الثابتة التي لن يعتريها تغيير ولن يتناولها تبديل . وان الحظ الذي قال به كثيرون من المفكرين فلم يكن في الحقيقة الا

ملائمة ظروف ، وتوافر فرص وصدف ، استغلها المحظوظ والمجدود ففاز ببغيته ومناه فلو لم تستغل لما كان هناك فوز اذن فالاستغلال ، والتصرف الحسن لهذا الاستغلال هما سبب نجاحه وهما اثر من وجدانه ، وثمرة من ثمرات قوته المدركة . لا الظروف ذاتها ، ولا الفرص ولا الصدف نفسها .

لقد مر خلال البحوث السابقة كثير من الشواهد والامثلة الواقعية (١) ضربناها في سبيل تلخيص الاسباب والعوامل التي ادت اما الى نجاح الحركات والنهضات واما الى اخفاقها وخيبتها . وكانت هـذه الشواهد والامثلة ، حقائق واقعية منها ما شاهدناه في حال حياتنا ، ومنها ما حكته الينا الحقائق التاريخية ، ونسجته لنا ايدي المؤرخين والمفكرين ، وصورته عقولهم وافكارهم . والحركات العربية التي انتهت بالاخفاق ، كغيرها من الحركات التاريخية اصاب القائمون بها في مواطن ، واخطأوا في مواطن ولما كانت اخطاؤهم غلبت اصاباتهم ، فقـد حقت عليها الخيبة ، وفرض عليها الفشل والخذلان .

ولئن حاولنا استقصاء اسباب الفشل ، واستجلاء عوامل الخيبة فليس هذا معناه اننا نريد ان نوهن العزائم بالنقـد ، وان ندعوا النشء ورجال المستقبل الى اليأس والقنوط بالتجريح . بالعكس فانما نبتغي من وراء كل ذلك تقوية العزائم وشحذ الهمم ، واثارة النخـوة والحمية من جهة ومن جهة اخرى تجنب الاخطاء ، واتقـاء السقطات لتكون الحركات المقبلة اجـدى نفعا ، واحكم تدبيراً . والخيبة ليست عاراً ، ـ كما قلت مراراً ، ـ وانما العار السكوت عند الخيبة ، والاستسلام القاتل بعد الخذلان . في الامة التي تجري في عروق بنيهـا دماء الحياة ، وتعمر نفوسهم عناصر القوة ، تكون الخيبة اقوى حافزاً ، للهمم واعظم اثراً في اعداد النفوس الى النشاط والكفاح . ولقد

(١) ما جاء ذكره في هذه المقدمة او في اصول الـكتاب التالية .

كان الرومانيون يستمدون قوتهم من هزائمهم، ويستوحون نشاطهم وفعاليتهم من اندحاراتهم اكثر مما كانوا يستمدون ويستوحون من انتصاراتهم وغالبياتهم. ولقد كان اندحار المسلمين في واقعة أحد سببا لانتصاراتهم التي انتهت بسقوط مكة في ايديهم وتغلغلهم في داخلية شبه الجزيرة كما ان خيبتهم في واقعة مؤوتة كانت عاملا قويا لنشاطهم في خارج الجزيرة واخضاعهم القطر الشامي. والذي يقرأ تاريخ الاسلام بأمعان يستطيع ان يدرك ما احدث الاندحاران، في أحد وفي مؤوتة من ألم في نفوس المسلمين، وما اثار هذا الألم من همم وألهب من عواطف، وشحذ من عزائم، هيأت لهم الانتصارات المقبلة. والتاريخ العربي، طافح بالأمثلة متأق بالشواهد، لكل نوع من الابحاث التي سبق بسطها وانما يتجنبها المؤرخ، ولا يمسها الكاتب لأن اكثر رجالنا واعظم شبابنا - مع الاسف - يلمون بتواريخ الأمم الغربية عن العرب، اكثر من إلمامهم بتاريخ امتهم وحوادث وطنهم، ولما يريد الكاتب والمؤرخ ان ينفذا الى صميم ارواح القارئين ببحوثهما ونظرياتهما، يضطران الى اقتطاف امثلتهما، واختطاف شواهدهما من تاريخ الغرب ووقائعه. ولهذا السبب ابتعدت في بحوثي عن التاريخ العربي وان كانت النفس به عالقة. واغفلت شواهده وامثلته في كثير من المواطن وان كانت الروح بها مفتونة والهة.

والآن اعود مرة اخرى الى تاريخ الأمم الغربية لانتزع من بين متونه الامثلة والشواهد. فاروي قصتي عظمة المانية واتحاد ايطالية لنعتبر بحوادثهما ونتعظ بوقائعها.

أ - اتحاد المانية

قلت غير مرة ان عظمة المانية نشأت عن كارثة «يه نا» حين اجتاح اراضيها نابليون بجيوشه الجرارة ولم يقف زحفه إلا بعد ان أذل برلين،

وأخضعها لسلطانه . فكارثة « يه نا » التى انتهت بأن تقع برلين صريعة تحت سنابك خيل نابليـون ، كانت للألمان مثار آلام موجعة ، ومصـدر احزان مروعة ايقظتهم من رقدة ، ونبهتهم من غفلة كانوا فيهـا سادرين . ثم تلا ذلك قيام العلماء في الجامعات ، والشباب المثقف بحملة انتقادية قاسية تناولت كل شيء في المانية . والمانية في ذلك الوقت ، وان لم تكن بلادها خاضعة للحكم الاجنبي سيما بعد ان قهر نابليون واعاد مؤتمر « فينة » تنظيم أوربة ، ولكنها كانت في شر الاوضاع ، وارداً الحالات ، لأنها كانت مجزأة الى ٣٦ دويلة صغيرة كل دولة قائمة بذاتها ، لاصلة لها بالأخرى إلا عن طريق مجلس « الديه ت » الصورى الذى كان يعقد جلساته في فرانـكفورت . وهذا المجلس الذى كان يضم ممثلين عن هذه الدويلات وعن الامبراطورية النمسوية لم يكن في الحقيقة إلا ممثلا لارادة ملوك هذه الدول ، لا شعوبها ، عدا ان تمثيله لهؤلاء الملوك كان تمثيلا زائفا وشكليا ايضا . وما كان فى الامكان ان يكون غير ذلك لأن طبيعة الوضع فى البلاد الألمانية ، وجوهر النظام الذى كان يقوم على اسسه هذا الوضع كانا يوجبان تلك الحالة فالمجلس كان ينظر فى القضايا المشتركة بين هذه الدول وكان لزاما عليه ان يصدر قراراته باتفاق الآراء . ولما كان ملوك هذه الدول يختلفون بطبيعتهم ويتناحرون بالنظر الى مصالحهم الشخصية فلم يكن من الميسور له أن يصدر قرارا ما فى أية قضية كانت مهما كانت ضئيلة الأثر قليلة الخطورة الا بعد مرور سنين عديدة ، والا بعد فوات المصلحة . فلنأخذ مثلا حسم قضية الرواتب المتداخلة التى كان طلبها محامو الامبراطورية القديمة فى عام ١٨١٦ فلم يتم الا فى عام ١٨٣١ والديون الحربية للسنين التي تخللت ١٧٩٢ و ١٨٠١ لم تنته تسويتها الا فى عام ١٧٤٣ بل ان الديون الحربية التي نشأت عن حرب الثلاثين عاما المشهورة لم تؤد الا بعد عام ١٨٥٠ وان التعليمات التي دونت فى عام

١٨٢١ لتنظيم وتنسيق جيش الهيأة المتحدة الالمانية لم يؤخذ بها الا بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٣٦ . ان تاريخ هذا المجلس مليء بالحوادث والوقائع المادية التى تثبت انه لم يكن ذا أثر فعال في تكوين المانية وتقدمها ، ولم يكن صالحا لان تعقد الامة الالمانية الآمال عليه . والامة الالمانية كانت فى حاجة ماسة الى حركة نشطة تنقذها من التجزأة التى مزقتها واوهنتها ، والى قادة حازمين يأخذون بيدها ويهدونها سواء السبيل . وكان احرارها ومفكروها يدركون ادراكا عميقا حراجة الوضع ودقة الموقف وان وطنهم انما كان يضطرب بين الحياة والموت ، فاما سكوت ينتهي بالموت ، واما نهضة عنيفة تعيد له الحياة خصبة ممرعة . ولقد ذاقوا ضربات نابليون ، وتجرعوا علقم الاحتلال وصابه ، وما دامت فى جانبهم الامة الفرنسية الذكية النشيطة الجريئة فلا مفر لهم من جمع شتاتهم وتوحيد كلمتهم واتحاد افكارهم والا فلا مصير لهم غير الفناء .

ولقد حاولت الطبقات المثقفة والمتعلمة وعلى رأسها الفلاسفة ، واساتذة الجامعات ان تقوم بحملة جريئة ضد الاوضاع القائمة آنذاك فبدأت بمطالبة القوانين الاساسية للبلاد ، ومنح شعوبها الحرية في الكلام والاجتماع والنشر وانقاذها من سلاسل العبودية ، لتهيء نفسها الى الاتحاد وتكوين المانية المتحدة . وانعقدت لهذا الغرض فى ١٨٤٦ مؤتمرات جرمنية تبادل الرأي فيها علماء الالمان ورجالهم . وفى عام ١٨٤٨ انتهت اضطرابات برلين وفينة بمنح الملوك القوانين الاساسية لدويلاتهم وجمع المجالس التأسيسية لهذا الغرض . وفي فرانكفورت عقد الاحرار الالمان برلمانا تحضيريا ، جمع أعضاؤه من نواب المجالس النيابية للدويلات الالمانية . وقد قرر هذا المجلس انشاء برلمان لجميع البلاد الالمانية ، ينتخب اعضاؤه عن كل ٥٠٠٠٠ الماني عضو واحد وقد حصل الاتفاق على تنفيذ هذا القرار الخطير وبالفعل تكون البرلمان المنتظر وبدأ بسن قانون أساسي لالمانية المتحدة ، كما عهد بمقام الامبراطورية بصورة

موقعة الى أحد امراء البيت المالك النمسوي . والف هذا بدوره « الوزارة الامبراطورية » .

ولما بدىء بتصديق مواد القانون الاساسي أخذت تعترض سبيل البرلمان عقبتان خطيرتان . اولاهما كيف تتكون المانية المتحدة ومن أي البلاد وثانيهما من يكون امبراطوراً ، هل تودع الامبراطورية الى امبراطور النمسة ام الى ملك بروسية ؟ وكانت العقبة الاولى ذات اهمية خاصة ، فاذا تغلب عليها البرلمان تلاشت اهمية العقبة الثانية بطبيعة الحال لانها فرع للاولى .

ان السبب الموجب الى الاتحاد ، والحافز الحقيقي الذي دفع برجال المانية المثقفين المفكرين الى تنظيم الحملات التى انتهت الى هذه الاجراآت انما كانا ناشئين عن الخوف من تكرار المآسى التي حلت بألمانية في عهد نابليون لذلك كان المفكرون يطمعون فى تكوين المانية متحدة ، مؤلفة من العنصر الالماني الخالص بزعامة بروسية وآخرون كانوا يقولون بفكرة اوسع من هذه الفكرة ، كانوا يقولون بانشاء المانية الكبرى التي يجب ان تؤلف من البلاد الالمانية والبلاد النمسوية في وقت واحد ، وتكون زعامتها فى عائلة هابسبورغ النمسوية .

فالبرلمان اصطدم بهذين الرأيين وسبب هذا الاصطدام انقسام اعضاءه الى قسمين غير ان حزب المانية الصغرى كان قد تغلب على المانية الكبرى واصدر البرلمان قراره باغلبية ٢٦١ ضد ٢٢٤ ، بتكوين المانية الصغري المؤلفة من جميع البلاد الالمانية ماعدا الامبراطورية النمسوية وانتخب ملك بروسية ملكا لها . وكان انتخاب ملك بروسيا حلا طبيعيا للنقطة الثانية . ولكن عقلية الملوك فى القرن التاسع عشر لم تكن قد انطلقت من عقالها بعد ، فهى ما زالت تعتقد بالحق الالهي وانه ليس للشعوب الحق ان يمنحوا التيجان الى الملوك وبناء على هذه العقلية ، فقد امتنع ملك بروسية ان يتلقى تاج المانية

المتحدة ، من الشعب الألماني لأن تاجا يتلقاه من الشعب انما هو تاج « من طين ومن خشب » فهو لن يتلقى التاج الا من نفسه وإلا من اقرانه و انداده فهذا الرد المفاجيء ، قد سبب غضب الاحرار ، او سخط الجمهوريين منهم بالاخص ثم بتحريض امبراطور النمسة واغرائه قام الملوك الآخرون بسحب ممثليهم من المجلس واخذ كل واحد منهم يطارد الاحرار في بلاده ويتعقبهم وبهذه الصورة انتهت هذه المساعي جميعها بالخيبة، واختفي كل القوانين الاساسية من البلاد . ولكن ملك بروسية ابقى قانون بلاده الاساسي، على انه قد افهم الشعب بأن مجلسه لا يتعدى المجلس الاستشاري لا اكثر ولا اقل حتى ان النواب كانوا في التشريفات الرسمية يأتون بعد الضباط الذين رتبهم لا تزيد عن الرئيس في الجيش .

ومنذ عام ٨٥٠ الى ١٨٦١ كانت تسود الاوساط الالمانية الارتباكات الفكرية والحيرة الروحية . فالعلماء والمثقفون كانوا لا يدرون كيف يوحدون بين هذه الرؤس المختلفة الأفكار المتباينة الاغراض والاهداف فان جمعوها تحت الراية البروسية اخذ امبراطور النمسة يدس الدسائس ، ويفتل الحبال لتشتيت جمعهم ، وتفريق كلمتهم ، وان أمالوها الى الراية النمسوية قامت قيامة الأكثرية الألمانية القائلة بالافتراق عن النمسة لأن البلاد الألمانية اذا اتحدت في ظل راية النمسة فقدت عنصريتها وزال أثرها كأمة حيث ان الاكثرية غير الألمانية الموجودة في الامبراطورية النمسوية تغطى عليها ، وتبتلعها وكان يؤيد هذه الاكثرية في دعواها الحقة ملك بروسية ورجاله .

وفي عام ١٨٦١ وبفضل وصول بسمارك الى مقام المستشارية تعينت خطوط الجهاد الألماني واضحة ، ورسمت السياسة الألماني بدقة واتقان قرر هذا الداهية ان يوحد المانية « بالحديد والدم » لأن طريق السلام قد انسد، وخطة الملاينة قد باءت بالفشل غير مرة ،فهو لا يريد ان يعيد التجارب

الفاشلة ، ولا يعاود الخطط الفاسدة .

درس الأوضاع درس خبير حكيم ، وبحث المشاكل بحث مدرك عليم فخلص بنتيجة واحدة ، هي لم يعد في الطاقة تحمل تدخلات الامبراطورية النمسوية في الشؤون الألمانية . وعليه فيجب ان يقام الاتحاد الألماني المنتظر على اساس طرد الامبراطورية النمسوية من ساحة العمل ، والتكتل حول ملك بروسية ليعطي حداً للتنافس بين العائلتين المالكتين ، ولما كان طرد الأمبراطورية النمسوية من ساحة العمل الألماني لا يمكن ان يتم الا بحرب ، وان بروسية ليست مستعدة لمجابهة القوات النمسوية فقد اعتبر اعادة تنظيم الجيش الالماني وتنسيقه عماد سياسته الداخلية . ولما كان يخشى ان تؤدي الأجراآت التي صمم على انجازها ، الى اتفاق الدول الخارجية ، فقد جعل خطب ود الدول ذات العلاقة او كسب رضاها عماد سياسته الخارجية . اذن فقد اقام سياسته العامة المؤدية الى الأتحاد على ركنين احدهما داخلي وهو تقوية الجيش وثانيهما خارجي ، وهو مسايرة الدول ذوات العلاقة والعمل في كسب رضاها ، ومداراتها .

ان اصلاح الجيش كان يقتضي الانفاق ، والترخيص للأنفاق كان يستلزم الرجوع الى رأي البرلمان ، ولم يكن سهلا على بسمارك ان يقنع اعضاء البرلمان بالترخيص له بالأنفاق بنطاق واسع واكثريتهم كانت تجتنب الحرب وتنزع الى الأقتصاد . ولكن بسمارك تقدم بطلباته غير عابىء بما كان يجري في أروقة البرلمان من مؤامرات تقف في سبيله وتقعد بمشروعاته . فلما جوبه بالرفض حل المجلس ثم استأنف الطلب فجوبه بالرفض مرة أخرى ، عندئذ أخذ ينفق على الجيش ، ويزيد فيه من دون ان يراجع المجلس بل أخذ يقدم الى المجلس الأعتمادات بعد ان تكون قد انفقت وتم امرها واصبح المجلس بعد ذلك مجلسا استشاريا محضا لا كيان له ولا سلطان على

ان بسمارك وان أغضب الامة فى شخص مجلسها ، فقداستطاع ان يكون لها جيشا لجبا مدربا احسن تدريب ، ومنسقا اروع تنسيق . ثم مال الى الناحية الخارجية فأطمع نابليون الثالث امبراطورفرنسة في معاونته لتحقيق اغراضه في بلجيكا وسواحل الرين فكسبه الى جانبه كما انه ساعد امبراطور روسية في اخضاع البولونيين الذين كانوا قد أعلنوا عصيانهم في ١٨٦٣ فنال رضاه وفي عين الوقت افلح ان يجعل ايطالية في جانبه بوعده اياها بـ « ونه تيا » واما بريطانيا فانه كان يعتقد بأن لا مصلحة لها تدعوها الى التدخل وبهذه الصورة استطاع ان يجعل الامبراطورية النمسوية في عزلة تامة وان يأمن جانب هذه الدول ، على اساس انها اذا لم تكن متحالفة معه فهي على كل حال سوف تكون ملتزمة جانب الحياد . فيما اذا حدث حادث بينه وبين النمسة وبدأ يتحين الفرص ويتربص بالنمسة الدوائر ويهيء أسباب الحرب ضدها .

ففي عام ١٨٦٤ هاجمت بروسية والنمسة هولشتاين وشله زويغ واصبحتا في حالة حرب مع الدانيمارك . فاعطيت هولشتاين الى النمسة وكانت شله زويغ نصيب بروسية .

وفي عام ١٨٦٦ هاجمت بروسية هولشتاين بحجة ان النمسة تروج فيها الأفكار الانقلابية فعرضت النمسة الأمر على مجلس « الديه ت » فقرر لمصلحتها .

ان قرار المجلس هذا ، قد دفع ببروسية الى ان تعلن أنحلال الأتحاد الشكلي الذي كان يمثله مجلس « الديه ت » وبواقعة واحدة، سحقت بروسية القوات النمسوية وحطمتها .

فهذا الأصطدام انتهى بنتائج ثلاث :

(١) طرد النمسة من هيأة المانية المتحدة وتحكم بروسية بالبلاد الالمانية برمتها وفي ضمنها شله زويغ وهولشتاين

(٢) الحاق كل من « هانوورا ، وهس ، وناساو ، وفرانكفورت » ببروسية بالقوة .

(٣) عقد اتحاد من بروسية وما الحق بها من جهة ومن الدول الالمانية الشمالية التي ظلت محافظة على استقلالها ، على ان يكون ملك بروسية رأس هذا الاتحاد . وان ينتقى مستشار الدولة من وزراء بروسية بارادة الملك . وان يؤلف مجلسان أحدهما يطلق عليه مجلس الاتحاد وهو يؤلف من مندوبي الحكومات الداخلة في الاتحاد وثانيهما يسمى بالرايخشتاغ وهو يؤلف من من النواب المنتخبين .

وفي كانون الثاني ١٨٧١ وفي فرساي أعلنت الامبراطورية الالمانية بعد اندحار فرنسة . على ان هذه الامبراطورية لم تغير الوضع في المانية المتحدة حتى انه لم يكتب قانون اساسى لها . وانما بقيت الحالة على ما كانت عليه ولم يتبدل غير الاسم فقط وغير انضمام الممالك الالمانية الجنوبية الاربع الى الاتحاد ، والحاق الالزاس واللورين بألمانية

ان هذه العظمة التي لخصت حكايتها في بضع صفحات ، لم تنشأ الا بين الحديد والنار ، وفي وسط الدموع والآلام ، ولم تمد رواقها على الارض الالمانية ، الا بعد اندحارات اليمة ، وخيبات وهزائم مثيرة للشجون . انه من اليسير على المرأ ان يقرأ قصة تطورات أمة ، ويلم بمجهودها ومساعيها ، ولكنه ليس من اليسير ان يقدر قيمة تلك التطورات ، واهمية هاتيك المساعي والجهود الا بعد تأمل طويل وتدقيق دقيق ان . المانية الى ان تعززت ببسمارك لم تكن واثقة من حياتها ، وتعبير اصح انها الى تلك اللحظات لم تكن قد عينت طريقها ، واختطت خطتها . لقد كان فيها بانون مشيدون ، وقد كان فيها مخربون هدامون . وقد كان الخطر يكتنفها من خارجها بقدر ما كان يعمل في داخلها . والهمم والعزائم ، اذا ارادت امراً ، امضته ، مهما كان صعبا ، عارما . انها

تلهم النفوس الصبر على الشدائد والمكاره ، وترزقها رباطة الجأش وقوة الجنان فى الازمات والملمات، بل انها تستغل الاندحارات والهزائم كما تستغل الفتوح والانتصارات . وماذا يظن فى المانية المندحرة المستسلمة في عام ١٩١٨؟ انها نشأت نشأة جديدة اخرى كانت فيها اكثر اتحاداً ، واشد قوة من المانية القيصرية ، او المانية الامبراطورية . فلو كانت عناصر الحياة فيها ضعيفة واهنة لزنحتها مصيبتها ، واذهلتها كارثتها ، ولكنما القوة المتفجرة في عروق بنيها لم يهدأ اغتلامها وصخبها إلا بعد ان اعادت الى المانية فتوتها ، ونشاطها ، بصورة اكثر روعة، والطف رونقا . فالعظمة الالمانية اذن كانت وما تزال وليدة الآلام والدموع وربيبة المصائب والنوائب ، وصفية الهزائم والاندحارات .

- ب - اتحاد ايطالية

وكما كان شأن المانية العظيمة فكذلك كان شأن ايطالية المتحدة . لقد كانت في فجر القرن التاسع عشر تعبيراً جغرافيا فقط كما قال مترنيخ ولكن هذا القول قد جرح كبرياء الايطاليين الشاعرين بكيانهم ، واهاج عواطف المثقفين منهم ، واثار نخوتهم وحميتهم فعملوا جاهدين في سبيل احياء مجد روما ، واعادة سلطان ايطالية وكيانها . وقد افلحوا في عام ١٨٤٨ ان يعيدوا الى المقاطعات الايطالية المتجزأة حرياتها ، وان يضطروا امراءها وملوكها الى ان يعلنوا القوانين الاساسية الكافلة للحريات العامة . ولكن الحركة لم تكن محكمة التدبير ، فعادت على المقاطعات المذكورة شراً ، وباءت على بنيها بالويل والثبور ، ورجعت بهم الى الحالة التي كانوا عليها قبلا ، واصبحت ايطالية من جديد تعبيراً جغرافيا فقط ، ولا شيء غير ذلك . لقد اعاد ملك نابولي الادارة المستبدة ، بعد ان امدته كل من فرنسة واسبانيا والنمسة بجيوشها والنمسويون احتلوا مقاطعة « روماني » والبابا اعاد الادارة المستبدة السابقة في روما . ولقد طردت النمسة جيوش سارديفيا من لومبارديا ، وقضت على جمهورية فنيسيا

الحرة ولم تعد في ايطالية حكومة وطنية حرة ، تستطيع العمل في سبيل ايطالية ، او ترفع الصوت عنها الا حكومة صغيرة انزوت في ساردينيا لقد عاد النفوذ الأجنبي الى الأرض الايطالية ، اشد عنفا ، واقوى سلطانا واثقل وطأة ، حتى ان « دازه‌غليو » وهو احد اركان الحركة ، وزعمائها المفكرين ، قال « .. اني لا استطيع ان اقرر ماذا سيكون لا مناص لنا من ان ننظر الى ان ينتهي انحدارنا الى اعماق الهاوية حتى نعود فنجمع شتاتنا ، ونعيد تنظيمنا . فاذا جمعنا انفسنا واعدنا تنظيمنا فيجب علينا ان نستأنف العمل ولكني واثق من اني سوف لا أعمر الى ان يحين اقتطاف ثمرته . »

فهذه الكلمات التي يمازجها الحزن والألم ، ويطفوا عليها الأمل والقوة ، توضح لنا الى اية درجة كانت الخيبة مريعة والفشل فجيعا . لقد انحدرت ايطالية بسبب هذه الحركة الى الهاوية ، ولكن دازه غليو لم ييأس فانه يعلن عزمه على جمع شتات ايطالية واعادة تنظيمها ليستأنف العمل من جديد وان كان هو لا يؤمل ان يقتطف ثمرته . ولئن حرمته الأقدار ثمرته فلتكن نصيب بنيه وليرقد هو في قبره منعما ما دامت ايطالية ماضيه في سبيل الجهاد ومعتزمة الحياة الحرة .

لقد بدأ الايطاليون يجمعون شتاتهم ، بعد خيبة حركة ١٨٤٨-١٨٤٩ ويعيدون تنظيمهم كان مفكريهم اخذوا يستقصون اسباب الخيبة ، وعوامل الخسران ويبحثون الأخطاء ويدققون في السقطات . فخلصوا من جميع ابحاثهم وتدقيقاتهم ، واستقصاآتهم ، بنتيجتين اثنتين هما أس الداء وسبب البلاء . اولا ان ايطالية لا يمكنها ان تقوم لها قائمة ما لم تحدد موقفها الداخلي وتعينه تعيينا تاما يدرأ اسباب الخلاف ويقضي على عوامل التفرقة . ولقد كان الايطاليون منقسمين على انفسهم حين قاموا بحركة ١٨٤٨-١٨٤٩ فقد كان فريق منهم يعمل للملكية وفريق يعمل للجمهورية وقد كان

اختلاف الفريقين في نوع العمل سببا لاضعافهما كليهما امام القوات الاجنبية المترصدة لهما الخانقة عليها. نعم. ان الايطاليين كانوا مجمعين على تخليص الوطن الايطالي من السلطان الاجنبي ولكن ماذا يفيد اجماعهم على الغاية اذا كانوا مختلفين في الاسباب والطرق الموصلة اليها؟ وكيف تندحر القوة الأجنبية اذا كانت القوة الوطنية غير متراصة الصفوف، ولا متماسكة الأجزاء؟!.

فهذا ماززيني يتزعم ايطالية الفتاة ولا يريد لايطاليا غير الجمهورية وذاك مانين يؤيد هذا المبدأ ويتولى بنفسه رياسة جمهورية البندقية وتلك الأحزاب الملكية التي تؤيد عائلة سافووا ولا ترغب في ان تجد عرش ايطالية في غير ابنائها. فاذا لم تتفق وجهات النظر، وتتوحد طرق الكفاح فليس من سبيل الى الفوز والنجاح مهما بذل الفريقان من جهود جبارة.

وثانيا ان ايطالية - وأكثر بلاده خاضع لسلطة اجنبية قوية - لا يتصور لها النجاح في أية حركة ما لم تعضدها قوة اجنبية خارجية. ان الاعتماد على النفس شيء جميل ومبدأ قويم من دون ريب ولكن للاعتماد حدوداً، وان له ظروفا وحالات معينة لا يتعداها. ففي كثير من الحالات والظروف، لا يكفي الاعتماد على النفس اذا لم يقو بأسباب خارجية، ويسند بعناصر تزيده قوة ومضاء. وكانت ايطالية في حالة ووضع لا تكفيها لاجتياز ظلمات الأستعباد الاستنارة بمبدأ الاعتماد على النفس وحده لأن طريق جهادها، كان مظلما وكان مليئا بالحفر والأخاديد الى درجة لا تستطيع معها عبوره الا ان تستهدي بنور قوي الأشعاع، جمعت عناصره من قوى متعددة.

وكما هيأ القدر لالمانية بسمارك يقوم بعبء تقويمها، وتقدمها فقد هيأ القدر كذلك الكونت كافور لايطالية. لينهض بها ويأخذ بزمام امورها.

وكان كافور رئيس حكومة ساردينيا، المملكة الايطالية المستقلة الوحيدة.

لقد أقام سياسته على مبدأين الاول توحيد صفوف ايطالية في الداخل

وتوجيهها نحو هدف واحد هو تكوين ايطاليه بزعامة عائلة سافوا حاكمة « بيمونتي » والثاني كسب عطف الدول الاجنبية وطلب معونتها . فسياسته الداخليه اذن : كانت ترمي الى جمع كلمة الملكيين والجمهوريين والاتحاديين وحشرهم في صعيد واحد وتوحيد جهودهم ليؤيدوا اتحاد ايطالية بزعامة ساردينيا وليستظلوا براية الملكية فيها . وقد أيد الجمهوريون والاتحاديون سياسة كافور الملكية وتنازلوا عن فكرتهم الجمهورية بعد ان وثقوا بأن نجاة ايطالية لاتتيسر الا بالعمل تحت راية ملك سردينيا الايطالي وقام مازيني فألغى حزبه الجمهوري المسمى بحزب ايطالية الفتاة وأسس بدله حزب الاتحاد القومي مبدأه تحرير ايطاليا على أساس الملكية ومانين رئيس جمهورية البندقية الذي كان قد التجأ الى باريس بعد اندحاره في عام ١٨٤٩ اعلن تأييده للملكية كذلك . وخاطب امراء عائلة سافووا المالكة بقوله المشهور « ... يا أيها الأمراء . ابعثوا ابطاليا الى الوجود فاني معكم ! ليكن الاتحاد والاستقلال شعارنا ودستورنا ! ... » .. ولمانين هذا موقف رائع ازاء رجال الحكومة البريطانية حين عرض عليه أحدهم اقتراحا يرمي الى تسوية المسألة الايطالية بانشاء ادارة تسوية ملائمة . حيث اجابه برسالة جاء فيها « . انه من الدناءة لأمة ان تخضع لحاكمية أجنبية . نحن لا نطلب ادارة تسوية ملائمة وانما نطلب منها ان تغادر بلادنا وتتركنا وشأننا .. » .

فكافور قد اتخذ كل ما يقتضي من التدابير لتوحيد كلمة الايطاليين وتوجيه أحزابهم وجبهاتهم السياسية الى هدف واحد هو العمل المتواصل لانقاذ ايطالية بزعامة عائلة سافووا الملكية . وبعد أن استوثق من هذه الناحية أخذ يعمل في حقل السياسة الخارجية لكسب الدول ذوات العلاقة الى جانبه واول خطوة خطاها في هذا السبيل اشتراكه في حملة القريم وارساله جيشا قوامه ١٥٠٠٠ نفراً وبهذه الحركة أولا استطاع أن يكسب عطف

فرنسة وبريطانيا وثانيا كسب لحكومته حق الاشتراك في مؤتمر باريس الذي انعقد في عام ١٨٥٦ لتسوية المشكلة العثمانية ـ الروسية وكان يرمي من وراء اشتراكه في هذا المؤتمر الى بسط مظالم النمسة في الوطن الايطالي لممثلي الدول فيه .

وقد استغل كافور فرصة وجود نابليون الثالث على رأس الحكم في فرنسة كأمبراطور له سلطة ديكتاتورية ، استغلالا عظيما لصالح ايطاليا . حيث ان نابليون كان من جملة أعضاء الحزب السري الذي الف في عام ١٨٣١ لانقاذ ايطالية فهو من مؤيدي استقلال الوطن الايطالي والعاملين في سبيله . وقد زاد كافور بتصرفاته الحكيمة في ثقة نابليون به وعطفه على مقاصده السياسية . فانه عدا اشتراكه في حرب القريم نزولا عند ارادة نابليون فقد وعده كذلك بالحاق سافووا ونيس بفرنسة وفي الحق ان حركة اتحـاد ايطاليا لم تأخذ شكلها الحاسم الا منذ ١٨٥٩ أي منذ أن عقد الاتفاق بين كافور ونابليون . وبناء على هذا الاتفاق فقد أعلن نابليون وكافور الحرب على النمسة وقد احتلت الجنود الفرنسية لومبارديا برمتها ولكن نابليون سرعان ما عقد الصلح مع النمسة لأسباب تخص فرنسة فقط فاضطر كافور الى ان ينحو نحوه ، ويتعقب أثره فتصالح كذلك بعد ان كسب لومبارديه وفي خلال الحرب قام الاتحاديون في كل من توسكانا وبارم ومورون فاعلنوا في هذه المقاطعات القانون الأساسي البيمونتي اي « سارديفيا » ووحدوا دوائر البرق والبريد والغوا الرسوم الكمركية بين البلدين وبالأخير طالبوا بالانضمام الى « بيمونتى » وبعد اجراء تصويت عام تم الالحاق في عام ١٨٦٠ ولم يبق خارج الاتحاد سوى نابولي وروما فأما نابولي فقد وجه اليها غاريبالدي بترتيب خاص من كافور .هاجم غاريبالدي جزيرة صقلية برفقة ١٠٦٧ فدائيا ومنها اجتاز حدود نابولي ففر ملكها وتبعثرت قواته فوقعت صريعة تحت اقدام احرار ايطالية فأعلن غاريبالدي دكتاتوريته فيها

لم يكن في وسع كافور ان يهاجم حكومة البابا لأن نابليون الثالث كان يحميها فاتجه صوب بروسية يسايرها ويترفق معها ولم يحل عام ۱۸۷ وتقع الكارثة على نابليون حتى اهتبلها كافور فرصة موآتية فدخلت جنوده روما، واعلنها عاصمة لايطالية ولم يمر ربع قرن على هذه الحادثة حتى سمت ايطاليا الى صف الدول الاوربية المعظمة. فالصبر على الشدائد والأمل في الحياة، والعمل المتواصل بحزم وارادة، كل هذه كانت اسبابا قوية لتبعث امة كانت في اول القرن التاسع عشر تعبيراً جغرافيا فقط ثم صارت في اواخره احدى دول أوربة المعظمة.

* * *

فالأمم حين تعمل في سبيل حريتها، وتتحرك من أجل سيادتها وكرامتها الوطنية، قد تعتور طريقها عقبات، وتقوم في وجهها صعاب بل قد تمنى بمصائب وويلات، وتصاب بخسارة في الأرواح وفي الأموال وبأندحارات وهزائم لم تكن في الحسبان ثم تعود فتجمع أطرافها، وتستأنف نشاطها وتندفع الى الأمام، وتظل تكرر هذه الأندفاعات الى ان تظفر بما كانت تصبو اليه. وان قابلية الأمم وجدارتها للحياة انما تقاسان بما تبدي من روح عارمة، وصبر على المكاره، وقوة في العمل لتحقيق الأمل، وان فشلت مراراً واندحرت اندحارات متعاقبة!.

* * *

ان الحركات العربية التي تشع حقاً وصدقا قد باءت بالفشل. وهذه خاتمة أليمة بلا ريب. ولكن هذا الفشل يجب ان يكون لنا مصدر قوة جديدة، نستأنف بها العمل ونندفع بها الى الامام. ان في كل أمة فريقا من أبنائها يحاربون أمانيها ويقاومون آمالها، ويثبطون العزائم، ويحبطون المساعي والاعمال الوطنية. وقد يجدون في خيبة حركة، وفشل مشروع، خير فرصة يستغلونها لبث سموم آرائهم، واشاعة فندهم ولغبهم في أوساط

الامة . ان مهمة الاحرار مكافحة هذه الجرائم الفتاكة ، واستئصال شأفتها واحباط مساعيها قبل كل شيء انما اذا خسرنا المعركة فقد كسبنا الشرف كسبنا الشرف لأن الشعب العربي قد أشهد العالم أجمع ، على أنه شعب أبي لا يرضي الضيم ولا الاستعباد ، ولا يقبل ان يستنيم الى الاجنبي أو يخضع لارادته . واذا كان قد دحر امام قوة لا تتكافأ ولا تتناسب مع قوته فليس في هذا الاندحار ما ينقص رجولته ، أو يغض من شرافة مقاصده ونبل غاياته .

ليس في وسع القوة ان تزيل معالم الحق ، أو ان تطمس انواره . ونحن ما دمنا ننشد حقا ، فلن تنتهي جهودنا ومساعينا بالخسران فلابد من يوم أغر محجل ، نفرض فيه أرادتنا ، ونعتز بالحق الذي كنا ننشده . والدهر لا تصفو مشاربه لأحد سيما للظالمين وعبره واضحة ، جلية ، وعظاته بينة فصيحة وساء فأل من ركبه شيطان الغرور ، وجمحت به نزوة الضلال فظن نفسه من المؤبدين .

نحن لا نخاف الاحرار والمخلصين المؤمنين بحق وطنهم عليهم والمقدرين واجباتهم نحوه . ان هؤلاء في جانبنا في كل وقت ما دامت غايتنا شريفة ، واهدافنا واضحة ، سواء فزنا بالظفر ، أم اصابنا الاندحار . لان الحق مفهومه واحد لا يتغير بالاندحار او بالظفر ، فكما ان من كان ينشد الحق ، ولم يسعفه القدر بالظفر به لا يجعله اندحاره مبطلا ، فكذلك من يطلب باطلا فظفر به لا يمكن ان يكون غير مبطل ذميم .

ثار عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي واعلن خلافته في الحجاز . أني لا أريد ان احقق في أي جانب كان الحق . ولكن على كل حال ان عبد الله حين خرج على عبد الملك كان يشعر في قرارة نفسه أنه أحق منه في الخلافة ولكن غريمه قد ضربه بالحجاج القوي الشكيمة

الغليظ القلب فقهره . حتى آل أمره الى ان ينزوي فى المسجد الحرام والى ان يبقى فى قلة من الاعوان والرفاق . لقد بذل الحجاج له الامان فأراد هذا ان يستمزج رأى أمه اسماء ذات النطاقين فلما وافاها وصف لها حاله ، وكيف ان رفاقه منهم من قتل ومنهم من خارت قواه وتزلزلت أرادته وانه لم يبق معه إلا الاقل من القليل فبماذا تظنون تجيب الأم ابنها فى مثل هذا الموقف الذي قد تغشاه سحاب الموت وأحدق به ربابه ؟! انها كانت اسمى من ان تنصح أبنها بالاستسلام وتفضيل الامن على حياته وعدم تضحيتها والقذف بها في ميدان الشرف عزيزة كريمة . قالت له وهي تشمه وتتلمسه لانها كانت عمياء قد قاربت المئة عاما ، « ... يا بني !. لا يلعبن بك صبيان بني أمية عش كريما ومت كريما . فان الموت لابد منه انك اما ان تكون على حق فكيف تجفوه واما ان تكون على باطل فكيف ساغ لك سفك دماء المسلمين ؟ » اجابها أني أخشى ان يمثل بي . قالت « . ان الكبش اذا ذبح لم يأمن السلخ ...» ولم تكتف بذلك فقد اخبرته بانها خارجة تراقبه فى ساعة الكفاح ، لتشد من قوته ولتدفعه الى الاستبسال دفعا ، وما كان عبدالله بحاجة الى الاثارة والتشجيع فهو ابن الحرب وابوها ، ولكنها القوة فى الروح ، والقوة في الايمان قد سمت بأبنة الصديق فأوحت اليها بأن تقف من أبنها البكر هذا الموقف الذي يتأرج طيبا ويشع نوراً . ولقد كان عبد الله عند حسن ظن أمه به فقد قاتل الى ان قتل دون معتقده ، وفي سبيل فكرته .

ان الايمان بالحق وحده قوة . والمؤمن الصادق في أيمانه اذا صمم وأراد فأنه يأتي بالعجب العجاب . على ان الحقوق قد تختلف في الجوهر والكيفية ، كما تختلف صلة المؤمنين بها قوة وضعفا . فالحق الشخصي وان كان محترما ومقدسا ، ولكن الحق العام هو اكثر حرمة وقدسية وكذلك يختلف الحق

العام نفسه من حيث الأهمية والمكانة . فحق الملكية ، أو الخلافة ، وان كان ذا صلة كبرى بالأمة وبكيانها ، فأن حق انقاذ الوطن من العدوان الأجنبي هو أعظم أهمية وأسمى مكانة . ومعنى ذلك ان الذب عن حياض الوطن واستخلاصه من السيطرة الأجنبية هو واجب يفرض على كل فرد تأديته بأمانة واخلاص ، قبل ان يفرض عليه واجب السعي لتركيز الملكية أو الخلافة في شخص ما من الأشخاص المكونة لمجموع الأمة وكذلك صلة المؤمنين بالحق قد تختلف قوة وضعفا . فليس من شك مثلا ان عليا ابن ابي طالب رضوان الله عليه كان أحق في الخلافة من معاوية . كان احق منه ليس لقرابته الواشجة بالنبي العربي ، وللصفات والسجايا الكثيرة التي تجعله اكثر قابلية لتحمل عبء هذه الأمانة فقط وانما لاتفاق كلمة ذوي الحل والعقد عليه ومبايعتهم له . وكذلك شأن يزيد بالنسبة الى الحسين بن علي . فأن بيعة يزيد كانت باطلة لأنها أخذت بالقوة والعنف . ولو خير المسلمون في وقتها لما كانوا ليختاروه خليفة والحسين بن علي حي في الوجود .

والنزاع الذي قام بين الخليفة الأموي عبد الملك وبين عبد الله بن الزبير وادعاء كل منهما بالخلافة وصلة كل منهما بهذا الحق ، كانت أقل قوة من صلة الامام علي ، وأبنه الحسين بدون شك . إذ لو حققنا في الموضوع لجاز ان نصل الى نتيجة واحدة هي ان الاولين كلاهما ليس له أي حق فيها لوجود من هو خير منه في الاسلام في عهده . لكن اذا نظرنا الى كليهما ، واذا اعتبرنا ان لا ثالث لهما يطالب بالخلافة واردنا ان نحكم ارادتنا فيها ، فنختار أحدهما لكان هو انا مع ابن الزبير لأنه بلاشك ، كان اكثر غيرة على مصالح المسلمين ، وأشد حرصا على أقامة شعائر العدل والانصاف في الرعية من عبد الملك ، وبالتالي فأنه يكون اكثر صلة بحق الخلافة من عبد الملك . أني أقصد من وراء هذه الملاحظات المتواضعة الوصول الى نتيجة واحدة ، هي ان

الحق قد تتفاوت درجته بالنسبة لأهميته وخطورته ، وقد تتفاوت كذلك صلة المؤمنين بهذا الحق او مدعيه بالنظر الى بعضهم البعض ومع ذلك نجد الايمان بنوع من هذا الحق ، ايمانا صادقا يؤدي الى مواقف رائعة ومشاهد مثيرة للاعجاب . بغض النظر عن الفوز او الخيبة فيها فكيف اذا كان الايمان بحق من اسمى الحقوق مكانة ، وكان المؤمنون من أشد الناس صلة به؟ ان الحق في الخلافة وان كان في طليعة الحقوق العامة التي تستلزم التضحية في سبيلها ، ولكن حق الوطن على بنيه اذا تحكم فيه اجنبي اكثر قدسية من هذا الحق ، واولى بالذب دونه والدفاع عنه واذا كنا قد اكبرنا ايمان المدعين بهذا الحق ، في أشخاص الرجال الذين يعتقد المسلمون بأنهم اولى من المتغلبين عليه فلماذا نستهين بأيمان الذين قاوموا الأجنبي وارادوا انقاذ الوطن من سلطانه ؟! فان كنا ماديين لا شأن لنا بالنوازع الروحية ولا حرمة لنا للأوامر الدينية فمن واجبنا ان نستقل بوطننا وان نستغل خيراته لمصلحتنا وحدنا . وان كنا مؤمنين بالدين الاسلامي مقتفين آثاره وعاملين بأوامره ففرض علينا ان نكون في حالة جهاد دائم ما دام وطننا يئن تحت الطغيان الاجنبي الذي لا تصلنا به صلة ، ولا تربطنا به وشيجة .

لقد خطب ابو بكر حين ولي الخلافة في الناس فقال بعد ان حمد الله واثنى عليه. اني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتموني على حق فاعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني اطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ... » لقد طلب لمن يسددوه اذا رأوه مال الى الباطل وعلق أطاعتهم له بأطاعته لله عز وجل ، فان هو عصاه كانوا في حل من طاعته . لانه لا طاعة مع معصية ولم يكن منفرداً في موقفه هذا ، فقد حذا حذوه ابن الخطاب وابن عفان وابن ابي طالب وحسبك من هم .

ان هؤلاء الخلفاء الذين رافقوا صاحب الرسالة ، فكانوا في حياته

وزرائه وبعد ان لحق بباريه خلفائه انما يمثلون في اقوالهم واعمالهم حقيقة الاسلام الصافية الرونق ، النقية الجوهر .

والدين الاسلامي لم يأمر المستظلين برايته ، الناهلين من معينه ان يكتفوا بسيادتهم في بلادهم ، وانما امرهم ان يجاهدوا في سبيل اعلاء كلمة الله وان يخوضوا المعارك في سبيل هذه الغاية المشرفة مستبسلين مستميتين في خارج بلادهم ايضا يدلك على ذلك موقف الخليفة الثاني من ابي عبيده ابن الجراح قائد جيوشه في الشام حين لامه لوما شديدا على ابقاء جيوش المسلمين بعيدين عن مواطن الجهاد ولفسحه لهم المجال ، لتذوق غضارة العيش ، ورفاه الحضارة خوفا منه على قوة معنويتهم من ان تنحط وعلى نشاطهم من ان يصاب بتخاذل وفتور .

ان ديننا هذا مدى نظرته الى الحياة العزيزة الشريفة كيف يعقل انه يرضى للمسلمين ان يكونوا اذلاء في ديارهم ، مستعبدين في بلادهم ، وان يستكينوا لهذا الذل ، وذلك الاستعباد ؟!

ان الحركات العربية ، انما قامت على مبادىء وطنية ، تقول بها الاحكام الدينية ، وتدعو اليها الشريعة المحمدية والمبادىء الوطنية لا تتعاكس والمبادىء الدينيه سيما المبادىء الدينية الاسلامية لأن المبادىء الوطنية التي كانت شعار القائمين بالحركات لم تكن ترمي الا الى انقاذ الوطن من الاستعباد الأجنبي وتحكمه المقيت وايداعه الى ايدي بنيه لينعموا فيه على اختلاف طوائفهم وادیانهم والحركات العربية كانت معروفة المقاصد ، واضحة الاهداف . انها لم ترم الى منفعة شخصية ، او تحقيق مطامع ذاتية . بالعكس فان المنفعة الشخصية والمطامع الذاتية ، انما كان يمكن الوصول اليها بسهولة عن طريق عدم القيام بها ، عن طريق السعي في تثبيط العزائم ، واضعاف الهمم . فهي فوق انها لم تكن ترمي الى منفعة شخصية او تحقيق العربية .

ذاتية فقد كانت مغامرة خطرة ، وتضحية عظمى في سبيل الله والوطن انها كانت مغامرة خطرة وتضحية عظمى في سبيل الواجب والواجب انما هو التضحية ، هو الحياة لله وللناس لا لأنفسنا فقط كما عرفه بحق الفيلسوف السياسي « جول سيمون »

نعم قد تسمح القـدرة احيانا بان يكون الواجب هينا ولكنها غالبا تضطرنا الى ان نتوجه نحوه بين الاخطـار والآلام والى ان ننسى لأجله الذوق والمنفعة والمحبة والبغضاء والى ان نبذل في سـبيله حق الحياة . فاذا خبأت ثوابا للرجل الشريف فانما تخبؤه له في طيات القبور . واذ كان هذا الثواب عظيما فقد غالت بثمنه ...

وفي الحق ان الواجب يكون غالبا شاقا وصعبا ، لأنه قائم على التضحية، وعلى الفناء في سبيل الله والناس . ولا يفرض في الواجب الفوز والنجاح دائما فحسب المرأ ان يؤدي واجبه عن طيبة خاطر وطمأنينة فلا يبالي بعدئذ أكان بفوزه ارتفع الى العيوق . ام بخيبته هبط الى الحضيض . فعلى كلتى الحالتين ، انه ارضى الله والناس ، وانه كسب المثوبه ونال الجزاء من التاريخ والاجيال المقبلة . ان الذين يبنون احكامهم على النتائج فقط من دون التفات الى الجوهر والحقيقة ، انما هم قوم وهنت نفوسهم ، وهزلت ارادتهم ، واضاعوا سـبيل الرشـاد . ان النتائج لا تصلح في اي وقت من الاوقات ان تكون معياراً توزن به الاعمال ، ولا مقياسا تقاس به الجهود والمساعي ، انما الاعمال تقدر بجواهرها وتقاس بحقائقها .

عقبتـــــان

ان الشعب العربي متفرق فى اقطار عديدة ، وممالك واسعة مترامية الأطراف ولكل قطر بيئته، ولكل مملكة وسطها، وكما ان البيئات والاوساط تختلف فكذلك تتباين التأثيرات الخارجية فيها ، والقوات التي تضغط عليها وتتحكم في شعوبها ولكن برغم كل ذلك فلا يسعنا ان نستهين بالعوامل التي تقارب بين هذه الممالك والاقطار والأسباب التي تكون من شعوبها وحدة ظلت قائمة ، محتفظة بجوهرها ، امام حوادث التاريخ ، وتقلبات الزمن . والعراق كجزء من هـذا الكل ، متأثر بتلك العوامل ، متصل بهاتيك الأسباب واذا اردنا ان نبحث امراضه ، وادواءه مثلا ، فليس لنا ان نكون بعيدين عن هذه العوامل والأسباب التي تتفاعل فى كل بيئة عربيه ، او مملكة عربية . صحيح ان لكل بيئة عربية . ولكل مملكة عربية لها ، ظروفها الخاصة ، وطباعها الخاصة ، وحالاتها الخاصة ولكن هناك طبعا عاما تخضع له هذه الشعوب المتفرقة باعتبارها منحدرة من اصلاب واحدة ، وتجري فيها دماء واحدة ، واثرت فيها حوادث تاريخية واحدة وحالات عامة ، قدتلبست بها بصفتها مجموعة أمة عربية ، شرقية ، مسلمة ، تحتل اماكن ومساكن لها خطورتها العالمية من ناحية الزراعة والاقتصاد والسياسة ، ومن ناحية تحكمها في مواصلات الأمم ، وسيطرتها على الطرق التجارية والعسكرية . ويلوح لي ان هناك عقبتان كؤدان تحولان دون حرية هذه الشعوب واستقلالها ، او بتعبير أصح بأن هناك عقبتان يستغلها العالم المتمدين ضد الشعوب العربيـة .

اولاها خارجية لها صلة بالسياسة الخارجية واخراها داخلية قد سيطر منها دم الشعب العربي ، وانبعث منها تكوينه وخلقه . فالأولى حرمان الشعب العربي من المعاونة الخارجية او صعوبة حصوله عليها والثانية طبع الشعب العربي وخليقته .

العقبة الأولى ...

لقد مرت بنا في البحوث السابقة ، تفاصيل وافية ، عن نهضات الشعوب ، ومطالباتها في حريتها واستقلالها ، سواء ضد الادارات المستبدة التي كانت قائمة فيها ، أم ضد تحكم الأمم الأجنبية فيها . والذي يعنينا من هذه التفاصيل ، هي التي لها صلة بالنهضات والحركات التي قامت ضد تحكم الأمم الأجنبية .

لقد فهمنا من هذه التفاصيل ان أمة محكومة من أمة أجنبية اخرى ، اذا ارادت أن تنجو من ذل هذا التحكم ، وتفلت من قيوده اصبح لزاما عليها أما أن تركن الى مساعدة امة أجنبية اخرى لتأخذ بيدها ، وتسير بها في طريق الحياة . وهذه قاعدة عامة ، وأما ان تنتظر فرصة التنافس الدولي واختلال التوازن فيه لتجود عليها المجموعة الدولية بالحرية والحياة . ولما كان الطريق الأخير ، متوقفا على الفرص والمصادفات ، فان الطريق الأول كان على الأغلب هدف الزعماء والقادة في كل امة تريد الحياة والنجاة .

ان أثر المعونة الأجنبية في بعث الامم وخلقها كان قويا في كل دور من ادوار التاريخ ولكن قوة هذا الأثر اخذت تنمو وتطرد في نموها كلما نمت المدنية الحاضرة ، واطردت في نموها . ومعنى ذلك ان قوة اثر المعونة اصبحت تتناسب تناسبا طرديا مع تقدم المدنية وهذه احدى نتائج المدنية المادية القائمة ، الخطرة على حياة الأمم وحرياتها ذلك لأن تقدم المدنية

اذا كان يتناسب مع قوة أثر المعونة الخارجية تناسبا طرديا ، فمعناه ان تقدم المدنية يتناسب تناسبا عكسيا مع حريات الأمم واستقلالها . وزيادة فى فى الأيضاح اقول . ان الأمم المحكومة في العهود السابقة كانت تستطيع ان تنال حرياتها ، واستقلالها بطرق وأساليب هى أيسر من الطرق والأساليب التي يجب عليها ان تسير بمقتضاها في ظلال المدنية القائمة في عهدنا الحاضر . ذلك لأن نسبة التفاوت بين قوة الأمة الحاكمة ، وقوة الأمة المحكومة كانت أقل من النسبة بين القوتين فى الوقت الحاضر . واذا كانت النسبة قليلة فالأمل بالفوز والنجاح ، يكون اكثر ضمانا مما لو كانت النسبة كبيرة . فقبل اختراع الماكنة ، والبخار والكهرباء كانت الأسلحة التي تستعمل فى الحروب معروفة وكان للقوى العضلية والحيلية أثر كبير فى الاستفادة من تلك الاسلحة. كما ان وسائل التموين ، ووسائل النقل لا تعدو الحيوانات التى لها قابليات محدودة ، في تلك العهود كان فى وسع الامم المحكومة ان تنال حريتها واستقلالها بجهود اقل ، بل انها قد تظفر بما كانت تريد بمفردها من دون حاجة الى معونة خارجية . ولكن بعد اختراع الماكينة ، والبخار والكهرباء فقد انقلبت الاوضاع تماما ، وتغيرت الاسلحة تغيراً كليا . اصبح الفكر هو المهيمن في الحروب بدل القوى العضلية والحيلية ، واصبحت الماكينة هى التى تعمل عملها الفتاك عوض السهم ، والسيف الرمح ، فماكنة المدفع الرشاش ، وماكنة المدفع ، وماكنة الدبابات وماكنة الطائرات هي التي تقرر النتائج فى الحروب وأمست القلاع والحصون ، والخنادق ، وما الى ذلك من الموانع التي تعملها يد الانسان لا تقوى على الصمود امام نيران هذه الانواع من الماكنات . بل ان الموانع الطبيعية أخذت تتداعى ، وتتصدع من هول فتكاتها وعظيم تخريباتها . ثم ماكنات السيارات والطائرات وماكنات السفن اخذت تلعب دورها الخطير في تنظيم التموين ، وتنظيم النقل وتقريب

البعيد . ان الامة القوية المتحكمة ، التي استحضرت اسباب القوة ، وعبأت مختلف اسلحتها النارية اخذت تهدد الامة المحكومة ليس من الارض فحسب بل من الارض ، والبحر والسماء على السواء . ولما كانت الامة الحاكمة تعمل قبل كل شيء لتجريد الامة المحكومة من جميع انواع الاسلحة الحديثة ، فاصبحت النسبة كبيرة بين قوتها ، وقوة هذه الامة . فمها غلت فيها الروح الوطنية وكمنت فيها قوة المقاومة فهي لا تقوى على مجابهة نيران الاسلحة الحديثة .. اذن فأن المدنية القائمة ليست في جانب الامم الضعيفة ولا يمكن ان تكون فى جانبها في وقت من الاوقات. انى ضربت امثلة كثيرة ، وابنت وقائع متعددة تاريخية (١) توضح هذه النقطة فلا وجه لاعادتها هنا ايضا . فالنتيجة التي نخلص اليها من هذه الملاحظات البسيطة هي ان الامم المحكومة تزداد امامها الصعوبات والعقبات كلما ازدادت المدنية تقدما ، واستحدث العقل البشرى انواعا جديدة من الاسلحة . واذا كانت الامم المحكومة تحتاج الى المعونة الخارجية فى العهود السابقة فكم بالأحرى ان يتضاعف احتياجها ، اليها ، فى هذا العصر ؟..

وهذه الأمم التي أنبعثت من جديد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتلك الأمم التي وجدت في القرن العشرين انما اكثرها قد نال الفوز والنجاح بفضل المعونات الخارجية . وأما الأمم التي خلقها التنافس الدولي ، أو التي بعثتها الموازنة الدولية فهي ما زالت ، قليلة العدد ، وضئيلة الأثر في توجيه الانسانية . فلولا معونة فرنسة لم يستطع واشنطون ان يقيم صرح الحرية فى العالم الجديد ، ولولا تدخل الدول الأوربية العظمى لاسيا بريطانية وروسية لما تكونت دول البلقان . ولولا فرنسة أولا والتصادم البروسي - الفرنسي ثانيا لما انبعثت ايطالية برغم جهود بنيها العظيمة في حركات عام

(١) لقد وردت شواهد كثيرة في هذه المقدمة واصول الكتاب الثلاثة الاخرى .

١٨٤٨ - ١٨٤٩ . ولولا كسب بسمارك عطف الدول الروسية والفرنسية والايطالية لما استطاع ان يكون الاتحاد الالماني في عام ١٨٦٦ ولولا حياد الدول الاوربية في التصادم البروسي - الفرنسي لما اعلنت الامبراطورية الالمانية في ١٨٧١ . هذه حقائق يحكيها لنا التاريخ البعيد والقريب ، لا ندحة لنا من الاقتباس من انوارها والسير على ضيائها . واليوم الذي نحن فيه لا يحاكي أيام القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر بل انه لا يشبه الربع الاول من القرن العشرين . وان صعوبة التخلص من التحكم الاجنبي فيه قد تضاعفت ، بصورة تدعو أبناء الامم المحكومة الى ان يفكروا في مصائر أممهم تفكيراً عميقا ويبحثوا مشاكلها بدقة ولباقة اكثر من ذي قبل بكثير .

واذا قلنا ان المعونة الخارجية أمست ضرورة لا غنى عنها لكل أمة تطمع في حريتها وأستقلالها فليس معنى ذلك انها لا تعمل من جانبها لتنظيم شؤونها ، واعداد نفسها وتهيئتها لخوض المعارك الاستقلالية . ان أول عنصر من عناصر الفوز ، هو الثقة بقوتها ، والاعتماد على مواردها والاتكال على سواعد بنيها وقابلياتهم . ان الوقود لا يحرك الماكنة اذا كان فيها خلل ، أو اصاب آلة من آلاتها العطل . فالوقود انما يحرك الماكنات السليمة ، الكاملة الاجزاء والآلات . وكذلك الامة اذا لم تكن مهيئة نفسها ، ومستحضرة جميع أسباب النهوض فمن العبث ان تطلب المعونة من الخارج وان تفيد من هذه المعونة . فالصعوبة التي اشرنا اليها ، وقلنا انها تزداد بأزدياد تقدم المدنية القائمة انما نريد بها ان الامم المحكومة اليوم مهما أعدت نفسها واستحضرت أسباب القوة لها ، فلا يؤمل الفوز ما لم تدعم بمعونة خارجية للاختلاف الكبير بين قواتها وقوات الامم الحاكمة لها ، والتفاوت العظيم بين الاسلحة التي تعتمد عليها الامم الحاكمة ، والاسلحة التي يفرض وجودها في ايدي ابناء الامم المحكومة

مع ان الحالة لم تكن بهذه الدرجة من الخطورة في العصور السابقة واما الأمم التي ركنت الى الهدوء والرضى بحالة الذلة والاستكانة فلا تنجيها من ذلتها واستكانتها معونة خارجية ، ولا عطف دولي .

فالآن وبعد ان عرفنا أن المعونة الخارجية ضرورة لا مفر منها ، فأين يمكن ان يجد العرب حليفهم ؟ ومن أي جانب يستطيعون ان ينالوا المعونة ؟ وهل في إمكانهم ان ينالوها ؟!.. ان الاجابة عن هذه النقاط ليست من الأمور السهلة كما يظن لأول وهلة . لأن الشعب العربي له حالات خاصة تميزه عن باقي الشعوب الاوربية ، أو المسيحية التي نالت حريتها واستقلالها بفضل المعونة الخارجية . انما يحول دون معونته عاملان خطيران ليس من الهين التغلب عليهما . هما موقعه الجغرافي ، وشرقيته واسلاميته . لا أدري ألحسن حظ الشعب العربي أم لسوء حظه انه يحتل اماكن تنظر اليها الأمم الاوربية المسيطرة على العالم اليوم ، بقوتها المادية ، بعيون تتقد بالشره والطمع . انها زاخرة بالمواد الخام التي تحتاج اليها الصناعة الاوربية ، وانها خصبة مُمرعة تفتقر الى إنتاجها الزراعي الشعوب الاوربية التي ضنت الطبيعة على اكثر اراضيها وقيعانها بالخير . وانها الجسر الذي تمر من عليه قوافل أوربة التجارية والذى يوصل الغرب بالشرق . وانها زاخرة بالنفوس التي تصلح لاستهلاك الانتاج الاوربي . ان شمال أفريقية جميعه في أيدي العرب ، من الساحل الاطلنطي الى السويش ومن السويش الى فلسطين ومن فلسطين الى سورية الى العراق ثم شبه الجزيرة العربية وسواحلها العجيبة التي تكثر فيها الموانى الصالحة لرسو السفن ، ولنشاط الحركة التجارية العالمية . فهم يهيمنون على البحر الابيض المتوسط وهم الموصلون بين البحر المتوسط وبحر المحيط الهندي من طريقين ، من السويش وباب المندب ، ومن البصرة وما اليها . وان البحر الاحمر انما يعد في الحقيقة بحراً عربيا خالصا تقريبا . وفي هذه البلاد

ذات الخطورة من ناحية التجارة، والسياسة وسوق الجيش، شعب تربو نفوسه على السبعين مليونا . وهذه النفوس الكثيرة العدد انما متصلة ببعضها لا تحجز بينها بلاد اجنبية عنها في العرق والدم . فماذا نفهم من هذا الوضع ؟..

نفهم من هذا الوضع : ان الأمم الأوربيــة التي سيطرت على العالم وموارده بقوتها المادية كانت وما تزال تعتبر البلاد العربيــة بلاداً جديرة بالاستعمار ، حرية بالاستغلال لتنشيط صناعاتها ، ولتصريف منتوجاتهـا ، وللاحتفاظ بممتلـكاتها الأخرى بالمرور منها اليها . ولما كان استعمارها واستغلالها لا يتأتيان إلا بالقوة والسيطرة التامة فمنافع هذه الأمم المشتركة تسوقها حتما الى الاتفاق فيما بينها ضد ابناء هذه البلاد والى ترك الخـلافات الأخرى جانبا اذا كانت هذه الخلافات تؤدي الى زوال منافعهـا في بلاد العرب . وان هذه الدول لم تفتأ تراقب كل حركة أستقلالية تحاول القيام بها الأمة العربية وتسعى للقضاء عليها بمختلف الأساليب . ووفـق خطط مرسومة تتفق عليها فيما بينها. فكيف يجد الشعب العربي حليفا له يأمل منه معونة في يوم من الأيام اذا كان منظوراً اليه محلا للاستغلال هو وبلاده ؟. فمشكلة العرب السياسية متأتية من هذه الناحية . والوقائع التاريخية المادية مازالت تؤيد هذه الحقيقة وتؤكدها . ولعل اكثر الأمم الأوربية مناهضة لآمال الشعب العربي ، وأمانيه هما الأمتان البريطانية والفرنسيـة . فاذا ارادت بريطانية مثلا ان تستصفي لها مصر نجدها تتفق مع فرنسة على هذه الخطة وتمنح فرنسة لقاء مساعدتها إياها في اطلاق يدها في مصر ، حرية التصرف في مراكش واستنادا الى هذا الاتفاق تضع فرنسـة يدهـا على مراكش ، أو اذا طمعت فرنسة في سورية ولبنان فانها تطلق يد بريطانية في العراق ، وفلسطين وسائر بلاد شبه الجزيرة . واذا قامت حركة استقلالية في سورية تعاونت السلطتان على اخفاقها الواحدة تضرب وتطارد والأخرى تسـد

الحدود ، وتمنع الفارين والملاحقين من الالتجاء اليها . وكذلك اذا حصلت نهضة وطنية في العراق حاربتاها الدولتان بجميع الطرق والوسائل . واذا كان التعاون بين هاتين الدولتين فيما يتعلق بالأمة العربية واخضاعها تعاونا صميميا فان تعاونهما مع الدول الأخرى الطامعة أو المتحكمة في الأقطار العربية الأخرى لا يقل صميمية واخلاصا . فقد رأينا فرنسة تخف الى مصاولة عبد الكريم الريفي حينما استفحل أمره ضد الأسبان وكاد يقضي على نفوذهم في بلاد الريف فأشتركت الدولتان الكبيرتان الأوربيتان ضده . خفت فرنسة الى نجدة الأسبان لأنها لا تريد ان تفوز حركة وطنية عربية في منطقة عربية مجاورة لمراكش العربية التي تسيطر عليها هي وتتحكم في ابنائها خوفا من ان تدب الروح الوطنية في هذه المنطقة العربية ايضا . وكذلك ايطالية لما ارادت ان تدوخ ليبية العربية وجدت معونة صادقة وتأييداً حاراً من الأمم الأوربية . ولم يخطر على بال احدى تلك الأمم ان تحول بين ايطالية واستعباد شعب عربي وديع ، ذلك لأن ليبية كانت جزءاً من بلاد تركية المسلمة أولا ولأن شعبها شعب عربي مسلم ثانيا . فتعاون الأمم الأوربية ضد الشعب العربي والبلاد التي يحتلها هذا الشعب الكثير النفوس القوى الشكيمة لم تفتر حدته ولم تخف وطأته الى يومنا هذا .

ان الحضارة القائمة التى بزت الحضارات السابقة فى اكتشافاتها واختراعاتها وابداعها ، لم تغير حقيقة الانسان ، ولم تبدل في ميوله واهوائه ونفسيته وان غيرت فى طرز حياته ، وبدلت في طرق معيشته واساليب تفكيره . فالأنسان الذي حكم على سقراط بأن يشرب السم ، أو الذى اقام مجزرة العرب المسلمين في الاندلس أو الذى اقام مجزرة بارتلمي ، أو أثار حرب الثلاثين عاما او الذى حكم على « آبيلار » و « ديكارت » بالسكوت وعلى « بره نو » بالموت وعلى « غاليله » بالسجن أقول ان هذا الأنسان ما زال يعيش فى القرن

العشرين باهوائه وميوله، وانانيته وزهوه وكبريائه . واذا كان هناك شيء من التغير والتبدل فأنما هو في الشكل والصورة، لا في الأصل والجوهر، واذا كان الانسان الذى جاءت على يده هذه المنكرات وغيرها وغيرها كان يعمل بدافع الأخلاص والتفانى فى سبيل الدين، فأن المنكرات والجنايات التي يشاهدها عصرنا هذا وتسقسيغها حضارته انما تبررها لديه المنفعة المادية ومغريات الأستعمار والاستغلال فالظلم واحد والجنايات متماثلة في قوتها، والميول والأهواء هي هي . ولعل انسان القرن العشرين قد غلظ قلبه وأشتدت ميوله وأهوائه اكثر من سلفه لأن الذى يحفزه الى الظلم والعدوان وارتكاب الجنايات والموبقات عامل المادة والمنفعة بالدرجة الأول وعامل الدين بالدرجة الثانية بينا ذاك الانسان كان الدافع له العامل الديني في الدرجة الاولى . واذا وجد أثر للمادة والمنفعة فى عمله فأنما يأتي بالدرجة الثانية . ولئن كان لا يصح التفاضل فى حالات الظلم والعدوان لأنها شر في حد ذاتها فأن الواقع يضطرنا الى ان نقرر بأن الظلم والعدوان اللذين تثيرهما المادة والمنفعة يكونان دائما أثقل عبئا وأعظم خطراً من ذينك اللذين تثيرهما الروح الدينية .

فالعرب اليوم تعمل ضد مصلحتهم قوتان هائلتان . المادية الأوربية والروحية الدينية . واننا لنخطأ اذا تهاونا في أمر القوة الثانية ومنينا انفسنا بأن التطور العقلي قدازال التعصب الديني ومحا من النفوس نعراته . صحيح ان خطره قد قل عما كان عليه في القرون الوسطى ولكن قوته ضد الشعوب الشرقية مازالت ذات خطر . ان هذه القوة قد لعبت دورها الخطير في تقويض دعائم الأمبراطورية العثمانية المسلمة وانها مازالت تلعب دورها ضد الأمم العربية المنتشرة فى اقطارها المترامية . فليس من السهل على الشعب العربي ان يجد له حليفا في الأمم الأوربية شفيقا عليه حريصا على حريته واستقلاله

ولكن هل ان هذه الحال تدفعنا الى اليأس والقنوط ولا نحاول ان نصافح يد احداها، او ان نصادق بعضها لنحقق اغراضنا القومية ونأمل منها المعونة والمدد ؟

ان ارادة الانسان لا تقهر. فاذا صمم وأراد بجد وحزم لن ترده عن تصميمه وغرضه العقبات والصعاب مهما كانت صليبة صليدة.

اننا جربنا الأمم التي حاربت آمالنا، وخاصمت نهضاتنا، واعترضت سبيلنا. وقد احتككنا بالعالم الغربي فاطلعنا على كثير من مقاصد أممه، وغايات حكوماته، ففي وسعنا ان نتلمس طريقنا على ضوء تجاريبنا ومعلوماتنا. ان البلاد العربية تقتسمها بالدرجة الاولى الأمتان البريطانية والفرنسية وبالدرجة الثانية تتحكم فيها ايطاليا واسبانيا. ومن الطبيعي ان نقول أن هذه الدول باجمعها لا تصلح للحلف العربي، ولا يؤمل منها الخير للشعب العربي. ففرنسة وايطاليا واسبانيا قد اختبرنا شدة وطأتها وصرامة حكمها، بالفعل. فهذه الأمم الثلاث شديدة الشره في استعمارها قوية الاندفاع في طريق الاستغلال والانتفاع وهي فوق ذلك كاثوليكية المذهب، العنيف بتعصبه الحاد في خصومته الدينية. وأما بريطانيا فانها وان كانت اكثر تساهلا من الناحية الدينية لأن مذهبها بروتستاني، فهي عنيفة في طمعها، قاسية في اساليبها الاستعمارية وانها فوق ذلك ترى في البلاد العربية اهمية خاصة لوقوعها على طريق الهند، فلا يعقل ان تهادن الشعب العربي، وتفسح له طريق الحياة بالمرة وعدا ذلك فقد اصبحت بريطانيا خصما لدوداً للشعب العربي من ناحية تشجيعها الوطن القومي الصهيوني في فلسطين، وسعيها المتواصل، في سبيل تمكين اليهود في فلسطين واذا امكنها في بلاد الهلال الخصيب العربية كافة. والسياسة الصهيونية لن تكون غير خصيمة وعدوة للسياسة العربية. ان جنوح السياسة البريطانية لتعضيد سياسة الوطن القومي اليهودي قد محى كل أمل في امكان الوصول

الى اتفاق بين الشعب البريطاني والشعب العربي في المستقبل . هذه نقطة جوهرية لا يمكن ان يتناسى اهميتها وخطورتها كل فرد عربي .

لو لم تكن بريطانية نزاعة الى الاستعمار بعنف وقوة ، ولو لم تكن تؤيد سياسة الوطن القومي اليهودي لجاز ان تكون خير حليف يتمنى الارتباط به الشعب العربي نظراً الى الصلات التاريخية بين البلادين والى امكان الاستفادة من قابلياتها ، والى سهولة الاتصال بها وبممتلكاتها . ولكن ما كل ما يتمنى المرأ يدركه :

وأما أميركة فلقد كانت في الماضي مقتفية سياسة العزلة ، فلم يشأ شعبها ان يتدخل في شؤون العالم وسياسته الا بقدر ما تسمح به المنافع الأميريكية المتفقة مع القاعدة الأساسية التى قامت عليها سياستها الخارجية وهى قاعدة « مونرو » ولكنها فى هذه الحرب الضروس قد استطاعت بريطانيا بلباقتها وكياستها ان تأخذ روزفلت عظيم الأميريكيين بيدها وان تكسب بسببه الشعب الأميريكي . وقد لاحت بوادر كثيرة تدل على ان روزفلت يسير في سياسته في الطريق التي سارت عليها بريطانية وفرنسة من قبل ، اي انه اخذ يميل الى التدخل فى الشؤون العالمية ، والى الاستفادة من السياسة الاستعمارية التي كان الشعب الأميريكي يتظاهر بالنفور منها والابتعاد عنها . وان أميركة اليوم فوق كل هذه التطورات التي حدثت في سياستها الخارجيه وميولها ، تعيش تحت ضغط اليهود المالي فى بلادها . ان رأس المال اليهودي في أميركة وهذه المجموعة اليهودية القوية فيها التي تقارب الاربعة ملايين من الانفس قد دفعتا بالأمة الأميريكية الى الحرب دفعاً ، وتوفقتا في تحقيق اكثر اغراضها وامانيها بالاضافة الى الجهود البريطانية . وان الحكومة الأميريكية - ولا اقول الشعب الأميريكى - اخذت تشجع وتعضد الوطن القومى اليهودي والسياسة الصهيونية بحرارة وحماسة اكثر من بريطانية . وهذه البادرة

الخطرة المخيفة من شأنها ان تجعل الشعب العربي في يأس وقنوط من عطف اميركة او ان شئت فقل من عطف الحكومة الأميريكية .

فلم تبق لدينا من الأمم الأوربية المهمة التي يرجى خيرها ويتقى شرها بالنسبة الى الشعب العربي ، غير الأمتين القويتين، الألمانية والروسية ، الاولى نظامها نازي والثانية شيوعي .

ان روسية لا تهتم بالدين ولا تأبه لفوارقه واختلافاته . لأنها امة لا تعترف بالدين ، ولا تسمح له بأن يجري نفوذه في اوساطها . وهذه مزية كبرى بالنظر الى منافع الشعب العربي ومصالحه . وروسية فوق ذلك لا تقر بالسياسة الأستعمارية ولا تبرر استعباد الأمم والتحكم في مقدراتها وانها تقول بهذه السياسة لأن مبادىء مذهبها قائمة عليها ولأن مصلحتها تقضي بها لأضعاف الدول الاستعمارية الكبرى المنافسة لها وبالاضافة الى كل ذلك فان بلادها الواسعة الأرجاء وتقاليدها السابقة ، مما تهيب بها الى الاتصال بشعوب الشرق الاوسط التي يكون الشعب العربي في طليعتها . فأمل الاستفادة في معونة الشعب الروسي ، كبير والرجاء في حكومته عظيم ولكن الشعب العربي حريص على تقاليده وعنعناته ، متمسك بآدابه وتاريخه ، حدب على دينه وقوميته . فهو يأبى ان يتخلل اوساطه وبيئاته ، نظام لا يقر الأسرة ولا يحترم الدين ، ولا يأبه بالتقاليد والعنعنات ، ولا يهتم بالقومية والوطنية . لذلك يصعب عليه التقرب من الشعب الروسي الذي يدين بالشيوعية الهادمة لكل هذه العناصر التي يراها هو ضرورية لحياته . ولكنه قد يضطر الى التقرب من هذا الشعب اذا يأس من معونة الأمم الاخرى كافة ، وقنط من رحمة الناس عليه . (١)

(١) ولكن تصرفات الحكومة الروسية في خلال الحرب الكونية وما بعدها وسيطرتها على دول البلطيق ودول شرقي اوربة ثم تعاونها مع الانكليز والأميريكيين في=

واما الشعب الالماني سيما البروسي منه فأنه قبل كل شيء بروتستاني المذهب والأمم البروتستانية كما بينت غير مرة تكون على الأكثر اكثر تساهلا من الأمم النصرانية الاخرى ، الكاثوليكية او الارتودوكسية على ان الشعب الالماني بالنظر الى نوع الثقافة التى درج عليها ، والفلسفة التي قامت عليها مدنيته ، فانه اكثر الأمم البروتستانية تساهلا في المسائل الدينية فالشعب العربي لا يخشاه من هذه الناحية بتاتا والشعب الالماني اذا كان ذا ميول استعمارية فانه على كل حال لم يلطخ تاريخه بجنايات الأمم المستعمرة الاخرى ومنكراتها هذه حقيقة ليس في مقدورنا نكرانها . واني وان قلت انه ذو ميول استعمارية فلأني لا اريد ان ادفع عنه هذه التهمة بالمرة لأنه سبق وان استعمر بعض المقاطعات ولأنه ما زال يطالب باعادتها اليه بعد ان سلبتها منه معاهدة فرسايل .

والشعب العربي انما يأمل من الشعب الالماني خيراً لأسباب كثيرة عدا ما ذكر آنفا منها . ـ أ ـ ان الشعب الالماني عدو اليهودية . فهو اذن خصم طبيعي لسياسة الوطن القومي الصهيوني في فلسطين فمن هذه الناحية تتفق مصالحه ومصلحة الشعب العربي ـ ب ـ ان الشعب الالماني منافس عنيد لكل من بريطانية وفرنسة . وبريطانية وفرنسه هما الأمتان القويتان القاهرتان للشعب العربي ، والمتحكمتان في مقدرات بلاده وخيراتها . ومن مصلحة الشعب العربي ان يستفيد من هذا التنافس ويستغل لمصلحته هذا التزاحم ـ ج ـ ان الشعب الالماني قد خبر أهمية الشعب العربي ، وخطورة البلاد التى يحتلها كما انه قد ألم بكثير من أخلاقه وعاداته وعنعناته ، ومن اندفاعاته ، وحركاته في سبيل نوال حريته واستقلاله . فليس من مصلحته ان يسير مع هذا الشعب في

= بعث دولة اسرائيل من العدم ومحاربتها الامال والأماني العربية كل هذه قد خيبت آمال العرب اجمعين وأصبحوا لا يفرقون بينها وبين الشعوب المستعمرة ، الرأسمالية .

الطريق التي سارت عليها كل من بريطانية وفرنسة وانما مصلحته تقضي عليه بأن يماشيه في آماله وامانيه ، ليكسبه الى جانبه اولا ، وليضرب عدوتيه اللدودتين بريطانية وفرنسة ثانيا .

ان هذه الاسباب لها اثرها الفعال في توجيه السياسة الألمانية لصالح الشعب العربي . اني لا ابرىء المانية من المنفعة المادية ومن اطماعها في البلاد العربية ، ولكني أقول ان المنفعة والأطماع المادية اذا كانت معتدلة فهي لا تضر بمنفعة الشعب العربي . ان الشعب العربي ، لم يقل لبريطانيا ولا لفرنسة اني أضن عليكما بكل شيء ، واحرمكما من كل منفعة تطمحان اليها في بلادي . لم يقل هذا القول لهما وليس من مصلحته ان يقول لهما هذا القول . لأن صلات الشعوب والأمم انما تقوم قبل كل شيء على تبادل المنافع ، والاشتراك في المصالح ولا توجد امة من الأمم المستقلة منها وغير المستقلة لا تحتاج الى منتوجات ومواد الأمم الاجنبية عنها . ان الأمة التي تقول بحرمان الأمم الأجنبية من خيراتها انما هي تلك التي تريد ان تعيش في عزلة عن العالم وما من امة في هذا العصر ، بقادرة على مثل هذه العيشة ، المنعزلة او على استساغة مثل هذه الحياة الجافة المجدبة . ولكن بريطانية وفرنسة اخذتا الشعب العربي بأساليب الرق المرهقة ، ورمتاه بالدواهي القاصمات .

اني واثق بأن الهوة التي درجة اصبحت عميقة وسحيقة في عمقها بين الشعب العربي ، وبين كل من بريطانيا وفرنسة انه ليس من المعقول ان نتصور امكان اجتيازها في يوم من الأيام في المستقبل . وقد كانت ثقتي هذه وليدة الأسباب التي من اكثرها في البحوث السابقة وان ثقتي هذه هي التي كانت تدفعني دوما الى القول بأمكان الاستفادة من الشعب الألماني .(١)

(١) لم تعد المانية ذات موضوع اليوم بعد ان اندحرت وانهارت . ولم تعد مصلحة الشعب العربي في التعاون مع شعب مندحر ولكن أين يجد الشعب العربي حليفه؟ فهذه النقطة قد أعيد بحثها بتفصيل في كتابي « العالم العربي بعد الحرب الكونية الثانية » على ضوء نتائج هذه الحرب

ان الحرب ما زالت تطحن الرجال وتدك معالم المدنية بوسائلها المخربة . وان جبهة المحور مازالت سليمة ولكن طالع الحرب قد يتغير وقد يكسب الحلفاء الحرب وتندحر المانية . فبوسع الشعب العربي حينئذ ان يتجه صوب الأمة الروسية(١) واذا احسن قادته التصرف ، وكانوا حذرين متيقظين فانهم يستطيعون ان يدركوا مبتغاهم في الأمة الروسية من دون ان يمس بنيان وسطهم الاجتماعي أي ضرر . واذا خرجت روسية ظافرة مع الحلفاء ، فأن الصفاء بينها وبين حلفائها هؤلاء لا يدوم طويلا لأن طبيعة مبادىء نظاميهما متناقضة فالتنافس بينهما سوف يعود أعنف قوة واصاب عوداً . والأمم المظلومة من واجبها ان تستغل التنافس الدولي ، والاختلاف الأممي لمصلحتها واني واثق من ان روسية لن تترك الحلفاء يتمتعون بانتصاراتهم هادئين ناعمين. فلابد من الاصطدام والتناحر في يوم من الايام(٢) . وميادين الاصطدام سوف تكون ايران والعراق وسائر البلاد العربية المجاورة لأن بريطانية لا تتصل بها الا عن هذه البلاد .

لو كانت هناك أمم شرقية مسلمة مستقلة استقلالا تاما ، تصلح للاستفادة من معونتها ومساعدتها فبالطبع ان هذه الدول الشرقية المسلمة تكون أجدر من غيرها بالاتفاق معها . ولكن الأمم الاوربية التي تعاونت على الشرق طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم تترك أمة شرقية مسلمة واحدة يركن اليها فبانهيار الأمبراطورية العثمانية قد فقد المسلمون آخر ملجأ لهم يلجأون اليه عند اشتداد الخطوب . واما قيام الجمهوريه التركية على انقاض الأمبراطورية

(١) اكرر واقول ان روسية لم تعد صالحة لتكون حليفة أو صديقة للشعب العربي وقد ذكرت الاسباب بالتفصيل في كتابي « العالم العربي بعد الحرب الكونية الثانية ».

« ٢ » ان الأصطدام الادبي بين المعسكرين قد حصل بالفعل فالنبوءة الاولى قد صدقت ولكن نبوءة امكان استفادة العرب من هذا الاصطدام قد كذبت وا اسفاه !..

العثمانية فيها شيء من القوة والحياة وان كان باعثا الى سرور المسلمين وغبطتهم ولكن هذه الجمهورية قد اتعظت بالحوادث وأعتبرت بالعبر التي مرت على الامبراطورية التي قامت هي على انقاضها فهي منذ ان انبعثت من جديد الى يومنا هذا، لم تفتأ تتقرب من دول الغرب، وتنفض من على جسمها رداء الشرقية، والعصبية الأسلامية، وبدأت تتغافل عن كل ما يمس الدين، والشرق وحصرت همها بالسياسة الأوربية، واتجاهات المدنية الأوربية. اننا لا نشك لحظة فى ان رجالات تركية الحديثة يشعرون بعاطفة ولاء وميل فى قرارات أنفسهم لفوز ونجاح الأمم الشرقية المسلمة ويرجون لها الحياة الحرة والاستقلال. لأن الزمن الذي مر على تكوين نظام دواتهم الجديدة، أقصر من ان يتناسوا فيه هذه الصلات الروحية، والروابط الدينية ولكنهم لا يستطيعون الجهر بهذه العاطفة، حرصا على كيانهم من ان ينهار، وحفظا لأستقلالهم من ان تعود الأمم الغربية لأجتثاثه من أصوله. وانهم لذلك معذورون. وأما الأمة الايرانية والافغانية فليس موقفها بأحسن من موقف العرب.

لعل اليابان بصفتها دولة شرقية، تقضي مصالحها بابعاد النفوذ الغربي من آسيا، يستفاد من معونتها ومساعدتها. ولكنها لسوء الحظ بعيدة عن البلاد العربية، ولم تسع هي لتزيد في اتصالاتها بنا على انه من المفيد ان يكون هناك اتصال بينها وبين البلاد العربية. وان تبدأ البلاد العربية بهذا الاتصال لتستفيد من معونة هذه الامة العظيمة الشرقية اذا لم تكن من الناحية المادية فمن الناحية الأدبية، وفي الاوساط الدبلوماسية والمؤتمرات السياسية. لأن المعونة لا تنحصر فى الأمور المادية فقط وقد يجوز ان تكون المعونة الادبية في حالات خاصة، اكثر فائدة للأمم المستضعفة من المعونات المادية وفي الوقت الذي تتسابق فيه دول أوربة لتكوين جبهة أوربية أو اتحاد أوربي لا يعقل ان اليابان تغفل عن ضرورة وجود اتحاد آسيوي تقوم هي

بزعامته ، بصفتها اكبر أمة في آسيا . ففي حالة فوز المحور في الحرب بنتيجة مهادنة شريفة يجوز للشعب العربي اذن ان يستفيد من اليابان بقدر ما يستفيد من المانية . واذا اندحرت فالآية سوف تنقلب تماما .

* * *

ولقائل ان يقول ما هي فائدة العرب من اعتمادهم على المانية أو روسية وهما ليستا متصلتين بالبلاد العربية مع ان بريطانية وفرنسة متصلتان بها ومجاورتان لها . فكيف يتصور ان تعاونا البلاد وهما بعيدتان عنها مع ان التعاون محتمل مع بريطانية وفرنسة في كل وقت لاتصال الحدود ، واشتراك المصالح ؟.

ان هذا القول يصدق على المانية ولا يصدق على روسية . لأن روسية قريبة من البلاد العربية ولا يحجز بينهما غير البلاد الايرانية التي هي منطقة للنفوذ الروسي فيها شأن عظيم . ومهما كانت الحال . فان عدم الاتصال ربما يكون من الميزات الخاصة التي تحبب للشعب العربي التوادد مع المانية أو مع روسية . لأن الأمم الضعيفة مهما بعدت عن الامم القوية التي ترجو معونتها ومساعدتها تكون اكثر أمنا على مستقبلها وأشد ثقة بسلامة سلطانها . وليس فرضا على الامة المطالبة للمعونة ان تكون مصاقبة لأرض الامة المطلوبة معونتها . ان الأمة الفرنسية امدت البلاد الاميريكية في نهضتها ضد بريطانية وبينهما البحر الاطلنطي . والامم البلقانية استقلت عن الامبراطورية العثمانية وبينها وبين بريطانية او روسية حواجز طبيعية وامم مستقلة من القديم . وان هذه الحواجز والموانع لم تمنع عنها المساعدات المادية ، كما لم تمنع المساندات الروحية والادبية المؤثرة . والمانية وروسية تستطيعان بمختلف الطرق وشتى الوسائل ان تعينا البلاد العربية في نهضاتها من الناحيتين المادية والادبية اذا شاءتا ذلك .. ألم تخف بريطانية وفرنسة لنجدة بولونيا حين هاجمتها المانية في أوائل هذه الحرب ؟! أما كانت الوفود البريطانية في موسكو تعمل لعقد

اتفاق بينها وبين روسية قبل اتفاق موسكو مع برلين ؟!. لم تكن بريطانية مصاقبة للبلاد البولونية كما انها لم تكن قريبة من البلاد الروسية اذن فهل في وسعنا ان نقول ان سيـاسي بريطانية كانوا قد اضاعوا رشدهم بالمرة في اقدامهم على مثل هذه الاتفاقات ؟! . فالاتفاق قد يقع بين أمم وممالك منفصلة بلادها بعضها عن بعض ولـكن تربط بينها المنافـع المـاديـة ، والاسباب السياسية. وعلى هذا الاساس فلا لوم ولا تثريب على الشعب العربي اذا مال الى جانب المانية ، او انه طمع في المعونة الروسية . (١) على انه قد يجوز ان يكون هذا البعد في المسافة بينه وبين المانية او روسية مما يدعو رجاله وزعمائه الى ان يفضلوا الاتصال بهما على غيرهما من الامم . لأن التجاريب والوقائع المادية قد اثبتت غير مرة ، ان الامم القوية المجـاورة للأمم الضعيفة حـين اقـدمت على انجاد بعض هـذه الامم الضعيفة انتهت نجـدتها ومعونتها ، بوضع يدها عليها .

لقد كان الرومانيون ينجدون الامم الضعيفة ثم يلحقونها بامبراطوريتهم او يجعلونها تحت اشرافهم وسلطانهم . وكانت تسهل عليهم عملية الالحاق او الاشراف بقدر ما تكون تلك البلاد ، قريبة منهم . وكذلك فان معونة الفرس لعظيم اليمن سيف ابن ذي يزن كانت قد انتهت بوضع اليمن تحت اشراف الفرس وسلطانهم . وان موسى ابن نصير حين هاجم الاندلس لم يكن يفكر بالحاقها بالامبراطورية العربية في أول الامر وانما هاجمها ، ليعاون صاحبها الشرعي اورليان على غاصب التاج فيها لوذريق بعد استنجاد الاول به ولـكن بعد ان عبرت جيوشه العدوة ، راقته تربتها ، وجذبت نفسه ربوعها ، فاستصفاها للامبراطورية العربية . وان امير تونس زيادة الله ابن الأغلب لما فتح جزيرة

(١) هذه كلها مجرد احتمالات كانت ترد على الخاطر عند تدوين هذه الارآء والذكريات اما الان فلا محل لها لأن المانية انتهت وروسية قد افصحت عن نواياها

صقلية انما كان مدفوعا بروح المعاونة « لفيمي » الثائر ضد الامبراطور الجرمني فى الجزيرة فلو لم تكن الممالك المنجدة قريبة من البلاد المنجدة لما وقعت الاخيرة في ايدي امراء الاولى . ولعل من اكبر العوامل التي ساقت بريطانيا وفرنسة الى ان تعبثا بمواثيقهما وعهودهما للعرب ، واقتسامهما البلاد العربية بينهما بينما كانت صفتهما صفة المنجدين لها ، كان قرب هذه البلاد منهما واتصالها بممتلكاتهما . والويل كل الويل للأمم الضعيفة اذا انجدتها أمم قوية قريبة منها ، متصلة بها ، وطامعة فى خيراتها وكنوزها .

العقبة الثانية !

قدم النعمان ابن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم فأفتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم لا يستثنى فارس ولا غيرها فانكر كسرى - وقد اخذته عزة الملك - على النعمان موقفه وتفضيله العرب على سائر الأمم وندد بالعرب وفضل جميع الأمم عليهم في كلام طويل فاجابه النعمان « ... واما الأمم التى ذكرتها فأي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها قال كسرى بماذا ؟. قال النعمان .. بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الممالك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر اذ غيرها من الأمم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحر . واما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة وأما انسابها

وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها . حتى احدهم ليسأل عمن وراء ابيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب ألا يسمي آباءه أباً فأبا . حاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل من غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير ابيه . فأما سخاؤها . فان ادناهم رجلا الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه وحموله وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى ان يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر . واما حكمة ألسنتهم فان الله تعالى اعطاهم في اشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وابلاغهم في الصفات ماليس لشيء من ألسنة الاجناس . ثم خيلهم افضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الفضة والذهب وحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفين ولا يقطع بمثلها بلد قفر . واما دينها وشريعتها فأنهم متمسكون به حتى يبلغ احدهم من نسكه بدينه أن لهم اشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه واخيه وهو قادر على اخذ ثأره وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . واما وفاؤها فأن احدهم يلحظ اللحظة ويومىء الايماءة فهي ولث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه وان احدهم يرفع عوداً من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وان احدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضي حتى يفنى تلك القبيلة التي اصابته او تفنى قبيلته ، لما اخفر من جواره . وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون ماله . واما قولك ايها الملك ، يئدون أولادهم فانما يفعله من يفعله منهم

بالاناث أنفة من العار . وغيرته من الازواج . وأما قولك انافضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها فما يتركوا مادونها إلا احتقاراً له فعمدوا الى اجلها وافضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شحوماً واطيبها لحوماً وأرقها البانا وأقلها غائلة واحلاها مضغة وأنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه . وأما محاربتهم وأكل بعضهم بعضا وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الامم اذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها بالزحف اليها وانه أنما يكون فى المملكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم . وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من اداء الخراج والورث بالعسف ... » ! ...

فعجب كسرى لما اجابه النعمان به وقال انك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل اقليمك ولما هو أفضل ثم كساه كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . ولما عاد النعمان الى الحيرة جمع وجوه العرب وألف منهم وفداً الى كسرى ليلقى بين يديه الخطب التي تكشف عن عقول العرب الراجحة واحلامهم البعيدة الغور ، فكان ما كان من أمر الوفد مما هو مسطور فى الكتب مشهور ذكره في الاوساط العربية كافة .

ان وصف النعمان هذا الوصف لقومه كان وصفا رائقا رائعا . ولست أريد ان احقق صدق حكاية النعمان ، وصحة وقوع حادثة الحكاية واورد الادلة على ذلك خشية الاطالة والخروج عن الصدد ، وانما في مقدوري ان اقول انه اذا كانت الحكاية غير صحيحة فى تفاصيلها ، فهي صحيحة في مجملها واذا كانت الجمل والتعابير ليست للنعمان في الفاظها وحروفها فليس بعيداً ان يكون النعمان قد تكلم بمعناها ومغزاها . على أن طبع العرب الذي عاشوا

عليه قبل النعمان وما بعد النعمان الى يومنا هذا مما يؤيد ان وصف النعمان كان صادقا ، ومتفقا مع واقع الحال واذا اراد أجنبي ان يتغلغل في الأوساط العربية الحرة ، في نجد وتهامة وفي مواضع مختلفة من اليمن فانه لا يرى امامه إلا قوما كما وصفهم النعمان برغم تقادم الأزمان ، وتوالي العصور . فلسنا نكون بعيدين عن الصواب ، إن وثقنا بحكاية النعمان هذه ، وصدقناه في وصفه لقومه لقيام الأدلة المادية بجانبه ، فماذا نفهم من هذا الوصف؟ نفهم ان الشخصية الذاتية قوية في العرب ، قوة تركت في كل فرد منهم أثرها العميق وطابعها الواضح فالقوة في الشخصية الذاتية ، أو القوة في الروح الفردية كانت طابعا يميز العرب عن غيرهم من الأمم وظاهرة عمت أوساطهم ونفذت في صميم مجتمعاتهم برغم تباعد الأقطار التي يحتلونها ، والممالك التي يستوطنونها. وان هذا الطابع أو هذه الظاهرة النفسية قد سايرتا الشعب العربي في مختلف ادوار حياته ، وتوالي عصور تأريخه . وهذه الناحية من أخطر النواحي التي يجب ان يعالجها مثقفو العرب ، وعلماؤهم ، وزعماؤهم وقادتهم . لأنها اذا كانت تنطوي على مفاخر جمة ففيها اخطار جمة ايضا . ان النعمان قال وقوله حكم قاطع صحيح ، ان ترك العرب لعادة الانقياد لرجل منهم يسوسهم ويجمعهم انما مبعثه كثرة البيوت التي تدعى الفضل فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من اداء الخراج والورث بالعسف . فهو ان ساق قوله هذا مساق الفخر والمباهاة بعزة العرب وكمون القوة العنيفة في شخصياتهم ، فأن هذه القوة أو بتعبير أصح ان هذه الفردية القوية هي التي سببت لهم المصائب والشدائد وهي التي انحدرت بهم الى دركات الذل والعبودية وقعدت بهم عن مجاراة الأمم في الحياة الحرة السعيدة مع انهم يربون على السبعين مليونا من الأنفس ، ذلك لأن أنفسهم أبت ان تطيع قادتها ، وان تخضع لرجل معين يسوسها ويجمعها عن رضا منها واختيار ، فذلت الى الاجانب وخضعت

لهم مضطرة مكرهة . مصدقة لقول زهير ابن ابي سلمى :

ومن يعص اطراف الزجاج فأنه
يطيع العوالي ركبت كل لهذم !...

فالروح الفردية العارمة هذه ، قد أبت عليهم ان يجتمعوا ، على أمر ، وان يوحدوا صفوفهم لبلوغ غاية ، وحببت اليهم التفرقة والتشتت وسهلت عليهم التنابذ والتنافر والتناحر فأصبحوا ضعفاء بفرديتهم امام الاعداء المتساندين المتجمعين ضدهم . كان التنوخيون في العراق يأبون مصافاة الغساسنة في الشام وكان الغساسنة يمتنعون عن مصالحة بني اعمامهم التنوخيين في العراق ولكن التنوخيين في عين الوقت كانوا يصافون الاكاسرة ويوالون الفرس والغساسنة بدورهم كانوا يضحون بأنفسهم ويسخون بكل غال لديهم في سبيل البيزنطيين . كان اليمانيون ينصاعون لمرازبة كسرى في وطنهم ويتطاحنون هم فيما بينهم ، ويتطاول بعضهم على بعض في الحسب والنسب والمكانة في العشيرة والبيت .

جاء الاسلام ونهى عن العصبية الجاهلية ، واعلن الاخاء والمساواة ونبذ السخائم والاحقاد وما كادت تنصرم سنون على الحماسة الدينية والغيرة على المعتقد الجديد الذي أدى بالعرب الى السلام والمهادنة فيما بينها ، حتى عادت العصبية تتلمس طريقها الى المجتمع العربي ، ونائرة الخلاف تنفذ الى صميم الوحدة التي أقامها الدين الحنيف . فتصدع كيان الامة وتمزق الشمل ، فسطت الجموع الحاشدة على الخليفة الثالث فضرجوا شيبته بالدماء ثم انفتلوا يختصمون فيما بينهم . فمنهم فريق سار في لواء الخليفة الرابع ومنهم فريق انخزل الى جانب معاوية فاحتربا ثم نشأ فريق ثالث وهم الخوارج يحاربون الفريقين ، ويستحلون دماء الطرفين . فهذه الوحدة العربية التي كونتها الديانة الاسلامية الجديدة وهذه الفتوحات العظيمة التى امتدت في سلطانها المترامي الاطراف

كومضة البرق في كبد السماء ، أو خفقة جناح الطائر في اجواء الفضاء قد بدأت تتلاشى وتختفي بالتدريج . وقد بدأ تلاشيها وأختفاؤها ولما تمر على النهضة العربية الاسلامية مدة العصر الواحد . ومن يستطيع ان يجرح قول مونتسكيو حين بحث العوامل التي تهيأت لامتداد عمر المملكة البيزنطية(١) « ... كان من المنتظر ان يقضي على المملكة البيزنطيـة على يد العرب ، الذين انبعثوا جديداً من الجزيرة ولكن هؤلاء ما كادوا يوسعون سلطانهم حتى اختلفوا فيما بينهم فنجت بذلك بيزنطة من المصير الذي كان محتما عليها ؟ .

أختصمت الأموية مع الهاشميـة ، ثم لما دالت الدولة الامويـة بفعـل الاعاجم ، والعرب معا ، وقامت الدولة العباسية في الشرق والاموية في الغرب تجددت المجازر في الشرق وأشتدت الخلافات فمنهم من يؤيد سلطان العباسيين ومنهم من يؤيد حق الطالبيين (وترى هنا الهواشم انقسموا على انفسهم ايضا فأصبحوا ، اما عباسـيين واما طالبيين) ومنهم من كان يعمـل في السر وفي العلانية لتقويض السلطان العربي ، مهما كان استناده ، عباسيا كان أم طالبيـا أم أمويا واقامة السلطان الاعجمي في مقامه وبقيت هذه الدولة تتداولهـا ، ايدي الامراء من فرس واتراك وديلم الى ان لفظت أنفاسها وكذلك الدولة الاموية في الغرب ، فقد مزقتها الخلافات . فما كاد القرن الرابع الهجري ينسلخ حتى ودعت الحياة وقامت على انقاضها دويلات ، متناحرة فيما بينهـا ، متناكرة تستصرخ الأجنبي لينصر بعضها على بعض ، حتى انتهى الامر بأن أنزوى السلطان العربي في اسبانيا الوسيعة الارجاء ، بغرناطة وما اليها ، وفي هذا الجزء الصغير ايضا لم يكفوا عن خبثهم وفسادهم فظل عبد الله الكبير الملقب بالزغل يقاتل ابن اخيه عبد الله الصغير ، وعبد الله الصغير يهاجم الكبير وكل منهما يستنجد بالفرنجة الى ان هاجم غرناطة فردیناند الكاثوليكي لحارب

« ١ » كتاب أسباب عظمة روما وانحطاطها . لمونتسكيو

تحت لوائه عبد الله الكبير ابن اخيه عبد الله الصغير انتقاما منه وكراهيـة له فاندحر الصغير امام القوة الغشوم فقبض فرديناند على ناصية الحال هناك فطرد الصغير من وطن آبائه واجداده ، وثنى بالكبير ايضا فهلك الخصمان المتناحران بعد ان سلما العرب وبلاد العرب هناك الى ذلك الظالم الباطش فكان بذلك آخر عهد العرب في هاتيك الأطراف .

ونحن إذ نعيد ذكريات المآسي فلا يجب علينا ان ننسى الخصومة العنيفة بين المضرية واليمانية وما تركت ورائها من آثار سيئة ، ومعالم دامية سـواء أفي الشرق أم في الغرب . فقد كانت هذه الخصومة جاهلية ولـكن بينما كان من المتوقع ان تنتهي بأنبعـاث الدين الجـديد في الجزيرة فأنها بالعكس فقد أزدادت عنفا وقوة . فهذه تقول نحن أحق بالملك لأنه متسلسل فينـا وتلك تقول نحن أحق بالملك لأن النبوة نزلت فينـا وانوارها انما شعت من جانبنا . وبقيتا على هـــذا التناحر والتهارش الى ان اسكتهما الأجنبي بقواصمه ودواهيه فلم تعد تسمع منهما غير ألانين الموجع ، والتألم المفجع وأختفت في ظل الصغار والأستحقار . حقوق الطرفين في الملك فلا تسلسل الملك فيهم انجدهم، ولا نزول النبوة عليهم اسعفهم .

لقد غشى النعاس العرب فرقـــدوا عصوراً عـديدة كلها شر وكلها مصائب وإحن وكلها ظلام دامس ولما أخذوا على صيحـات الأنسانيـة في هذه العهود ، التى تحرك فيها حتى الصخر الأصم ، يستفيقون من ذلك الرقاد الطويل المتعب عادوا الى عصبياتهم ، وركنوا الى تناحرهم وتنابذهم يأط بهم عرق الفردية النابض ، وتغتلم فيهم روحيتهـا المتأججـة فلم يعتـبروا بالدواهي المفزعات ، ولا بالماضيات الموجعـــات قام الحسـين المعظم فى ثورته الكبرى ، فأنبرى له غير قليل من أمراء العرب وملوكهم يناوئونه ويناجزونه

فلا هو تطامن لهم ولا هم اخفضوا جناحهم له فأنطوت أيامه ، وتداعى سلطانه . احترب العراق والمملكة السعودية سنين لم يستفد من هذا الأحتراب غير الأجنبي الطامع في الأثنين ولم يفتء شره إلا بألف علاج وما زال فى صدور بعض قادة الطرفين داء . وما كاد السلام يستقر بين هاتين المملكتين الشقيقتين إلا وأستعر الخلاف بين احداهما واليمن . فكان قتال . وكانت ضحايا ودماء ، ثم اصطلحا وما زال في القلوب شيء يفيض تارة على الألسنة وطوراً على الأعمال الفردية(١).

وهذه مصر تحترب احزابها برغم انها اكثر ثقافة من البلاد العربية الأخرى ، وتلك سورية تقتتل جماعاتها وجبهاتها الوطنية وغير الوطنية . ومن يعتقد بأن الزعيم الشابندر كان يريد لسورية شراً ؟.. ولكنه قاوم أخوانه في المبدأ وحارب الكتلويين وصدع الوحدة الوطنية في سورية فأضعف نفسه وأضعف معه وطني الكتلة فأهتبلها الفرنسيون المترصدون فرصة سانحة فجردوا سورية من استقلالها النوعي واخفتوا الروح الوطني فلا الكتلة ثبتت فى مقام الحكم ولا الشابندر ورفقاؤه نالوا ما يبتغون .

فهل حقا ان الذين زاحموا وطني مصر فى مصر ، والذين ناهضوا مخلصي سورية في سورية والذين اسعروا الحروب في نجد والحجاز واليمن أقول فهل هؤلاء جميعهم كانوا اعداء أمتهم ، وخصوم وطنهم ؟!. وهل انهم انما أرادوا في مواقفهم هذه ، ان يذلوا أنفسهم وأوطانهم للأجنبي لقاءمنافع مادية ، ومكاسب شخصية ؟!. من يجرأ ان يجيب بالأيجاب على هذه هذه الأسئلة ؟! ليس من شك في ان هؤلاء الذين سببوا لأوطانهم النكبات والشدائد وهيأوا في اوساطهم ومجتمعاتهم للأجنبي السلطان وثبتوا اقدامه

« ١ » اشارة الى المؤآمرة التي قام بها بعض اليمانيين ضد جلالة الملك عبد العزيز ابن السعود وذلك بعد وقوع الصلح بين المملكتين .

في تربة وطنهم ، اذا لم يكونوا جميعهم فاكثرهم لم يكونوا يقصدون من وراء أعمالهم منفعة الأجنبي على حساب وطنهم ، ولا ان يذلوا أقوامهم للأجانب الطامعين ولكنما حفزهم اليها التنافس والتحاسد ، والروح الفردية التي كانت وما تزال طابع الشعب العربي ، وظاهرته النفسية الخاصة به . ان ملوك وأمراء شبه الجزيرة لم يتحمل بعضهم البعض ، وزعماء مصر وبلاد الهلال الخصيب لم يتطامن احدهم للآخر وانما ارادوا ان يكونوا ملوكا اجمعين . فباتــوا بتذاكرهم ، وتباغضهم ، واختلاف ريحهم ضعفاء اجمعين !..

ان هذا الطابع الذي وسم العرب بميسمه طوال هذه العصور والقرون وان هذه الظاهرة النفسية التي رنقت عيشهم ، ووعرت حياتهم اذا افتخر بها العرب وتباهت بها ملوكهم فهما لعمري داؤهم العضال ، ومرضهم القتال فهل آن لنا ان نفكر في علاج يشفي انفسنا من شرورها ، وتخليص طباعنا من جراثيمها ؟.. فهلا يسمع العرب بآذانهم ما يقوله المستشرقون الغربيون عن العرب ؟. انهم يقولون ان العرب ماديون . لذلك تكثر فيهم الخيانات وتتكرر منهم اعمال الغدر بأوطانهم !!.. ولماذا اعتقدوا فينا هذا الاعتقاد ، وفكروا في رجالنا هذا التفكير ؟... لأنهم يرون على تمادي الأحقاب والعصور ، اننا نتذاكر ونتباغض ، ونختلف فيما بيننا ، ثم نسلم انفسنا واوطاننا ، وجميع تراثنا للأجانب ونحن صاغرون .

ان الغلو داء مميت . انه مستنكر في الأعمال الرديئة ، وانه غير محبب في الأعمال الحسنة الطيبة ايضا . انه مذموم في كل شيء ، في الحسن وفي القبيح . ان كل شيء تجاوز حده انقلب الى ضده وان ارسطو كان عظيما حقا اذ جعل الفضيلة في اواسط كل شيء . وقد قالت العرب ايضـا ان خـير الأمـور اواسطها . فالكرم اذن انما هو بين الشح والتبذير ، والشجاعـة انما هي بين

الجبن والمغامرة ، فكما ان التبذير لا يوصف يوما بالكرم فكذلك المغامرة لن تكون شجاعة في اي حال . وماذا تقول في المتبتل المنقطع الى العبادة ، الضان على نفسه بكل شيء ، التارك العمل ، هل انه يوازي ذلك الذي يقوم بالفرائض والواجبات الدينية فقط ثم ينفتل ليعمل ، ويضرب في الأرض ليعيش هو واهله برخاء وينال من متع الحياة ما استساغه الدين واباحته المرؤة ؟! ليس من شك في ان الأخير هو افضل من الأول مقاما سواء أعند الله عز وجل أم عند الناس . واذا كانت الأديان السماوية قد أمرت الانسان بأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً فقد نبهته الى ان يعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً . فالقصد خير والغلو شر .

والمستشرقون حين يقولون عن العرب ما يقولون فلأنهم يرون نتائج تصرفاتهم تماثل تصرفات الماديين حقا ثم انهم لم يكلفوا أنفسهم عناء تدقيق البواعث الى هذه التصرفات ، ولا التحقيق عن طبائع الشعب العربي وغرائزه . فوقعوا في خطأ الوصف .

ان للعرب أبعد الناس عن المادية ، وأعمالهم أبعد الأعمال عن اعمال الماديين . ان قوما تصل بهم الحال الى أن يرهن أحدهم قوسه ، او عصاه ، أو عوداً من الأرض يتلقفه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته ، لا يمكن ان يكونوا ماديين . ان قوما تبلغ بهم عزة النفس ، الى أن أحدهم يبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون بعيداً عن داره فيصاب . فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي أصابته او تفنى قبيلته لما خفر من جواره فلا يصح ان يرموا بالمادية . وان قوما يسمون بالوفاء الى درجة ان احدهم يلحظ اللحظة ويومىء الأيماءة فتكون ولثا وعقدة لا تحلها الا خروج نفسه فلا يجوز ان يوصموا بالغدر والخيانة . ليست هذه اقوال مجردة ، او حكايات ابتدعها الخيال ، وصورها الوهم . كلا !. فانها حقائق ملموسة وحالات منظورة في كل

وقت وعصر .

جاء الحاجب بن زرارة كسرى لما منع تميما من ريف العراق فلما ادخل عليه وتقدم بطليه قال كسرى فان اذنت لكم افسدتم البلاد وأغرتم على العباد وآذيتموني قال حاجب بن زرارة فاني ضامن للملك أن لا يفعلوا قال فمن لي بأن تفي أنت ؟ قال . ارهنك قوسي فلما جاء بها ضحك من كان حول كسرى وقالوا : لهذه العصا يفي ؟.. قال كسرى ما كان ليسلمها لشيء ابداً فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف ، وقام حاجب بن زرارة بعهده ولما هلك ارتحل ابنه عطارد الى كسرى يطلب قوس أبيه فقال له ما أنت الذي رهنها قال أجل ! . قال فما فعل ؟.. قال هلك وهو أبي وقد وفى له قومه ووفى هو للملك . فردها عليه وكساه حلة .

كان كليب وائل عظيم معد كلها قد داخله الزهو والغرور وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ويقول وحش كذا في جواري فلا يهاج . ولا تورد ابل أحد مع ابله ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب أعز من كليب وائل ، وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة وكان كليب وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جساس ابن مرة . وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة وكانت نازلة في شيبان مجاورة لجساس . وكان لها ناقة يقال لها سراب فمرت ابل كليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة بفناء بيتها جوار جساس بن مرة . فلما رأت سراب الابل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الابل واختلطت بها حتى انتهت الى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة فلما رآها انكرها فاستد عليها بسهم فخرم ضرعها ففرت الناقة وهي ترغو . فلما رأتها البسوس مالكتها قذفت بخمارها عن رأسها وصاحت واذلاه واجاراه وخرجت فأحمست جساسا فقتل كليبا وقامت بسبب ذلك حرب البسوس التي دامت

عشرات السنين وسفكت فيها دماء غزيرة .

يمر الأعشى الشاعر بأبي المحلق وهو شيخ هامة اليوم او الغـد ، فقير لا يملك غير ناقة واحدة فيعقر له وحيـدته هذه التي كان عليها معتمده فيترك عمله هذا دويا في القبائل العربية وينطق الشاعر الضيف بقصيدته العصماء التي التي منها قوله :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار في يفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانهـا وبات على النار الندى والمحلق

وان أردنا أن نورد الشواهد والادلة التي زخرت بها بطون الكتب لضاقت بنا المجلدات ، فعلام تدل هذه الاعمال ؟! وأين ترى المادية فيها ؟..

أبالغلو بالكرم حتى يصل درجة التبذير والاسراف ام بالغلو بالوفاء الذي يبلغ حد الكمال وفوق الكمال أم بالغلو بالعزة والنجدة وحفظ الجوار الحالة التي تشبه الجنون؟ .

قوس يرهنه لقاء عمل عظيم فيضطلع به ثم لايترك وانما يقطع ورثه المراحل الطويلة والفيافي الشاسعة ليسترده من مرتهنه خرم ضرع ناقة تعود لامرأة ، يكاف المجير لها قتل عظيم معد ، فتكون بين الحيين تلك الحرب الضروس الطويلة الامد . ضيف يكتفي بالفلذة ويجتزيء بالشربة يعقر له مضيفه ناقته الوحيدة .

ان قوما هـذه أخلاقهم وطباعهم كيف يجوز أن يوصموا بالمادية وبالغدر والخيانة ؟.. انها لعمري فرية صدرت عن المستشرقين ان لم تكن تدل على نيات سيئة نحو الشعب العربي فانما تثبت خبطهم وخلطهم في المشرقيات !..

ليس ثمة مادية وخيانة وغدر وانما هي فردية قوية وغلو في العزة والاباء لا اكثر ولا أقل ، ولئن تماثلت نتائج الاعمال التي تثيرها المادية ، وتوحيها الخيانة والغدر بنتائج اعمال النفسية الفردية القويه والغلو في العزة والاباء كان فارقا كبيراً في البواعث والأسباب ليؤدي حتما الى اختلاف في الأحكام على هذه النتائج المتماثلة . ان القتل انما هو ازهاق الروح ، وان ازهاق الروح على اطلاقه

فعل مذموم . ولكن هل ان كل ازهاق روح يكون مذموما ؟ لقد يجوز أن تكون بواعث القتل شريفة كضرورة انقاذ حياة جملة ناس ، او صيانة عرض او دفاع عن وطن فهل يكون القتل المنبعث عن هذه الأسباب مذموما ، وبالتالي فهل تكون هذه النتيجة مستنكرة ؟! . فالحكم على النتائج من دون ارجاع النظر الى أسبابها وبواعثها خطأ فاضح ، ان الذي يقتل اسابق عداء ، او لارتكاب عمل فاضح ، او لسرقة مال ، او لتطمين شهوة الغدر التي تعتلج في بعض النفوس الواطئة لا يجوز أن ينظر اليه كما ينظر الى من يقتل للدفاع عن عرض كاد أن ينتهك او مال أوشك أن يسرق او وطن هوجم ، فالنتيجة وهى إزهاق الروح وان اتحدت في كل هذه الأعمال ، ولكن بواعث هذه النتيجة اختلفت فيجب ان تختلف الاحكام باختلاف هذه البواعث .

ان الذين يخونون أوطانهم ، لقاء منافع شخصية ومكاسب ذاتية ، كأن ينضوون تحت ألوية الاجانب ليحاربوا أبناء وطنهم من دون أن يفكروا هم في ملك او سلطان ، او يدلون على عورات مواطنيهم او يكونون آلة صماء في أيدي الاجانب لينزل بواسطتها البلاء على البلاد ، او ما الى ذلك من الافعال والاعمال المذمومة ، لا تلمس في طباعهم اثراً من العزة والاباء ، ولا قليلا من مكارم الاخلاق ومحاسن الوفاء . فهؤلاء انما يعملون لنفعهم الخاص ، يقبضون جعلا مقدراً لقاء قيامهم بهذه الامور . فعلى مثل هؤلاء يصدق القول بأنهم ماديون ، وانهم خائنون غادرون ، ولكن العرب انما يحتربون فيما بينهم ويختلفون ، يتناكرون ويتناحرون لا لأنهم قبضوا جعلا مقدرا من الاجانب ولا لأنهم أرادوا أن يسودهم الأجنبي ويتحكم في مقدراتهم الغريب ، انما يقومون بهذه الافعال وينجزون هذه الاعمال ، من شدة عزتهم وإبائهم ، من حبهم العميق للأجلال والسلطان . يريد كل منهم ان ينفرد بالسلطان ، وان يكون هو الأعلى ولكن تكالبهم على السيطرة وحبهم

الاعمى للاجلال والسلطان ، وغلوهم في الاستقلال الفردي واندفاعهم العنيف في الفردية كل هذه أسباب ، مهدت للاجانب سبيل النفوذ الى أوطانهم واختراق صفوفهم فوقعوا صرعى عزتهم واباءهم ، وضحايا فرديتهم ونفسيتهم القوية في تمردها . والاهواء والميول النفسية اذا كانت حادة عنيفة واضاع العقل سيطرته عليها ، انطلقت كالسيل يجرف ما يقع في سبيله من خفيف وثقيل ، ومنقول وثابت .

اني لا اريد ان ابرر للعرب اعمالهم ، ولا اطمح الى التخفيف من لومهم وتقريعهم على ما جنته ايديهم ، وما أثمت عليه نفوسهم من تصرفات انتهت بعبوديتهم وذلتهم في الامس واليوم ولكنما ابحث امراً واقعا ، واجلو حقيقة ثابتة . ولو كنت ممن يعتقدون بأن الشعب العربي شعب مادي يميل الى الخيانة والغدر بطبعه وغريزته ، اقول لو كنت اعتقد فيه هذا الاعتقاد لما جشمت نفسي عناء البحث في اسباب اضمحلاله ، ولا سهرت من اجل تحري عوامل نهوضه . لأن شعبا ماديا ، يميل بطبعه الى الخيانة والغدر ، خطر مريع على الانسانية فكيف يصلح للحياة يوما من الايام ؟ واي انسان اضاع رشده ، وتجرد عن ضميره وتخلى عن مروءته فيرضى ان يعيش مثل هذا الشعب الخطر على الانسانية ويسعى ليهيء له اسباب الحياة ؟ . فالحق ان الشعب العربي ، لم يكن ماديا ، وانما كان فريسة لمادية الشعوب المستعمرة ، ولم يكن غداراً خائنا بطبعه وغريزته ولكنه كان ضحية غدر الغريب وخيانته له ، واذا كان فيه عيب فأن عيبه في فرديته القوية وغلوه في استقلاله الفردي وبالتالي فانه صريع اهوائه وميوله الحادة العنيفة ولكنها اهواء وميول طاهرة ، نبيلة لاشك في طهارتها ونبلها . ولماذا لا تكون بعض الاهواء والميول نبيلة طاهرة ؟ ان الميول والاهواء كما يجوز ان تكون شريرة كالحقد الذي هو في الحقيقة منبع الشرور ومصدرها ، فقد يجوز ان تكون خيرة كالحب والصداقة

والوطنية وحب الخير والشفقة والاجلال والاعجاب ، بل ان فلاسفة المدرسة الايقوسية ومنهم «دوغالدستوارت»(١) يذكرون انواعا كثيرة للاهواء والميول الخيرة ولا يذكرون للشريرة الا نوعا واحداً هو الحقد باعتبار ان ليس للبغض الا طريق واحد وهذا ما يؤيده « ديكارت »(٢) ايضا .

ان الاهواء ما هي الا ظواهر تبدو في انفسنا من غير ان يكون لنا فيها عمل او بالاقل من غير أن يكون لنا فيها عمل ضروري وليس لها حقيقة ألا انها تغيرات تلحق مادة التفكير .فاللذة والالم والحب والبغض والرغبة والرهبة كلها أهواء . وهذه الاهواء تصاحب كل فرد ، وترافق كل انسان وانما تختلف شدة ولينا ، قوة وضعفا بالنظر الى الاخلاق الطبيعية والمكتسبة لكل منهم . فهي في الحقيقة الباعث لكل اعمال الانسان ولولاها لما كان للانسان عمل ، بل لكانت حياته مجدبة قاحلة لا نفع فيها ولا خير .ان الذين يهاجمون الاهواء ، وينددون بها انما هم اولئك الذين لم يدركوا أثرها في حياة الانسان واتجاهاته .فلو اعطي الانسان الادراك والاختيار بغير الهوى لكان قادراً على العمل مدركا لما يجب أن يعمل ولكنه يكون غير مهتم ولا عامل . كأن بين تلك الارادة التي يملكها والادراك الذي يحسه هوة عميقة . وانما خطورة الاهواء واضرارها تبدو اذا انفلتت من عقال العقل ، واستخدمت الارادة لاغراضها . والانسان باعتباره كائنا يتمتع بخاصة العقل ، فانه مسؤول ليس عن نتائج أهوائه فحسب بل وعن اهوائه نفسها ذلك لانه يستطيع أن يوجهها كما يريد او يقاومها . ومعنى ذلك أنه يمكنه أن يذعن لها او يجتنبها ان يعينها ويساعدها او ان يمتنع عليها وان يفتح لها قلبه او يقفله

«١» دوجالد ستوارت فيلسوف ايقوسي ولد في ايدنبورغ سنة ١٧٥٣ وتوفي في ١٨٢٨

«٢» ديكارت عالم فرنسي نبغ في الفلسفة والطبيعة والهندسة وهو اول من اسس علم النفس الحديث ولد سنة ١٥٩٦ وتوفي سنة ١٦٥٠ .

دونها. صحيح ان للأهواء قوانين تولدها وتنميها في نفس الانسان ولكنها متى تكونت ونمت وجدت ازاءها الارادة والعقل.

اذن فالأهواء وان كانت طبيعية في الانسان فانه يستطيع أن يتصرف فيها كيفما يشاء عقله. وأن يجعلها خاضعة لارادته متى يريد ويهوى. وبقدر ما تكون تربيته قوية وثقافته ناضجة تكون سيطرة عقله على أهوائه قوية، وتحكمه فيها صارما. وهذه النتيجة التي خلصنا اليها، هي التي تعنينا في بحثنا هذا، ومن أجلها سقنا هذه الأحاديث.

تحليل وتمحيص

وكما ان كل أمة تتكون من أفرادها فكذلك خلقها العام ، وطباعها تتكون من الأخلاق والطباع الغالبة في كل فرد من أفرادها . والطبيعة العامل الأول في تكوين هذه الأخلاق العامة والطباع الغالبة بلا ريب . فحرارة القطس وبرودته ، خصوبة التربة وجدبها ، سهولة الأرض ووعورتها جبالها وسهولها ، وقوعها على السواحل البحرية وبعدها عنها ، كل هذه عوامل طبيعية مؤثرة في التكوين الخلقي وتوليد الطباع . ان حرارة الطقس تدع الانسان ان يكون سريع التهيج مثلا ، وبرودته تجعله بارد الدم وخصوبة التربة تنمي فيه غريزة الكرم وجدوبها تقوى فيه الميل الى الاقتصاد بل تقوى غريزة البخل . وسهولة الأرض تميل بالانسان الى الكسل بينما وعورتها تزيد في نشاطه وكدحه وكذلك المناطق الجبلية تجعل من أبنائها اشداء اقوياء بينما المناطق السهلة تضعف في ابنائها هذه الخصائص وفي الحق انا اذا اردنا الدقة في التعبير نستطيع ان نقول ان الطبيعة واختلاف الأجواء وتباين أنواع الأرض تنمي أو تضعف الميول والطباع ، وتخضع لها النزعات والأهواء . اذ ان منشأ الأهواء هو الانسان نفسه لجميع انواع الأهواء والميول ، انما هي موجودة في قرارة نفسه وانما تكيفها عوامل الطبيعة لتلطف بعضها وتقوى أخراها حسب مقتضى الحال ، وتأثيرها فيه . ولكن العقل ومايضع من قواعد للتربية اذا لم يكن قادراً على ان يقضي على البواعث والعوامل الطبيعية فأنه ولاشك قادر الى حد كبير على توجيهها والحد من قابلياتها .

ان الحب من أهواء الانسان المحببة فهذه الظاهرة النفسية ضرورية له سواء انتجت له لذة أم ألما والحب قوام كل شيء في هذه الحياة . فهو يحب نفسه قبل كل شيء ، انه يحب ان يحيا حياة سعيدة ، يحب الامتلاك ، ويحب الاجلال ويحب السيطرة والنفوذ ، ثم هو يحب أسرته ، ويحب وطنه ويحب الانسانية التى يتقلب في احضانها . فهذه أنواع الحب ، كلها أهواء وكلها نبيلة في حد ذاتها ، شريفة في غاياتها ، اذا اقتصد الانسان فيها واعتدل في استعمالها .

من يستطيع ان يجرد الانسان من حبه نفسه ؟ لا القوانين الوضعية ولا عوامل التربية والتعليم بقادرة على محو هذه الظاهرة الطبيعية من نفس الانسان . ان الذي تهده آلام الحياة فيلجأ الى الانتحار فيرمى نفسه في الماء ويقبل رجل آخر لانقاذه فمن النادر انه يرفض الحياة التى يأتيه بها منقذه . ان مجاورته للموت ترده أشد حبا للحياة . وكثيراً ما نرى عظاما لا يهابون الموت ، ولا يخشون مرارته يتخاذلون أمامه في حالات خاصة حين يكونون منه قاب قوسين أو أدنى ، ولا يبالون بما تصاب سمعتهم ، من أذى ، وما تنال مكانتهم فى اوساطهم الاجتماعية من مهانة . ألا ترى عظيم قرطاجنة « هسدروبال » ذلك الذي دافع عن وطنه وحارب الرومانيين بقوة وجرأة يلقي بنفسه في أحضان أعدائه ويستسلم لهم حين قرر رفقاؤه ومنهم زوجه ، ان يحرقوا أنفسهم في بنايتهم لئلا يقعوا في أيدي اعدائهم أذلاء صاغرين ؟ وهذا الاشعث بن قيس وهو عظيم من عظماء القبائل اليمانية التي حاربت جيوش المسلمين في حروب الردة ، والذي عرف عنه دائما انه لا يهاب الموت ولا يخشى سلطانه والذي هب لمقاومة جيوش الخليفة الاول لمجرد سماعه من النساء اليمانيات ، يا اشعث خالاتك ، خالاتك !؟.. حيث استغفثن به واستنجدن ، فهل يصدق المرأ ان رجلا هذه مكانته وهذه سجاياه يترك قبيلته نهب السيوف والرماح ،

لينجو هو بنفسه مع اثنى عشر نفراً من أقربائه ، نتيجة مساومة رخيصة ؟ لمـــاذا حصل كل ذلك ؟.. انه حب الحيـاة المنبعث من حب النفس !!.. ان حب النفس شعور طبيعي في الانسان، ليس في قدرة القوانين القضاء عليه ولا في وسع التربية أن تمحوه ، ذلك لأن « طبيعة الارادة الانسانية هي أن تطلب السعادة قبل كل شيء ثم تنتقل من ذلك الى رغبات خاصة ... (١) » حتى ان الذين زهدوا في الحيـاة الدنيا واحتقروها أشد الاحتقار لم تخل انفسهم من هذا الحب. انهم انما يزهدون فيها ويحتقرونها اما خوفاً من النار في الحياة الأخرى واما طمعا في الجنة ونعيمها فهم اذن يضمنون بأرواحهم ان تعذب في النار او انهم يريدون امتـاعهم بنعيم الجنة ولذائذها . ولقد يجوز ان يكون بين هؤلاء المتصوفة من يفنى حبا في ذات الله ، لله ، لا خوفاً من ناره ولا طمعا في جنته ولكن كم هو عددهم ؟ لاشك انه قليل جداً . فالاثرة اذن سجية طبيعية في الانسان وانما تمقت ويندد بها اذا خرجت عن حد الاعتدال وتعدت الطور وانقلبت الى ضرر محض بالغير .

وكذلك حب الامتلاك وحب الاجلال وحب السلطان والنفوذ فانها سجايا طبيعية وانما تضعف وتقوى وتتطامن وتشتد بعوامل الطبيعـــة او عوامل التربية وتأثير البيئة . فحب الامتلاك انما هو ميل طبيعي ألهمتنا اياه الطبيعة. فالانسان ليس يحب الامتلاك لأنه سبيل الى اللذة فقط وانما يحبـــه لنفسه. فهو يتذوق روحيا ويتلذذ احساسه اذا امتلك شيئا . فكلمة « هذا الشيء لي » هي نفسها ملذة تستدر ذوق الانسان وتنعش رغبته. فهذا الميل الطبيعي حي في نفس المتوحش والطفل والأبله والأصم والأبكم ونحن. نتعجل في الاستيلاء شرهين على مايلزمنا من طعام ولا نحتمل ان يغصب منا وكذلك نتعجل في الاستحواذ على المواد الاخرى ولا يروقنا أن تفلت من ايدينا فما

(١) قول بوسويه وهو قسيس فرنسي اشتهر بالفصاحة في الخطابة .

معنى ذلك ؟.. معناه أن الطبيعـة التي كونتنا وأنشأتنا لنكون النظام المدنى في هذه الحياة افرغت فى أنفسنا العناصر الضرورية لتكوين هذا النظام ومن جملة هذه العناصر الميل الى الامتلاك. هذاهو الحق الصراح أما ان هذا الحب يضعف في بيئـة ويشتد في اخرى ، ويبتزى فى نفس انسان ويشتد ويلطف ويعتدل في نفس انسان آخر فكل هذه الاختلافات انما هي اما نتيجة عوامل طبيعية خارجة عن نفس الانسان واما نتيجة التربيـة والوسط. صحيح ان الطبيعة لم تلهمنا حب الذهب والفضة ولا حب تلك الأوراق المالية ذات القيم العظيمة ولكنها تعلمنا حب القيم الاعتيادية بسهولة لان فينا ميـلا طبيعيا للامتلاك.

وان حب الاجـلال طبيعي كذلك في الانسان وان كان من اليسير على التربية ان تنميه وتغير فيه. ان كل انسان في هـذه المجموعة البشرية يتأثر الى حدما بالذم والقدح. ان هذا الشعور انما هو اول المشاعر التي تظهر في الاطفال وهو انفعهـا اذا استخدم في تربيتهم. ان كل هيئة اجتماعيـة تستخدم ذلك المحرك المزدوج من العقاب الشائن والثواب الكريم وكل فرد يسعى بطبعه وغريزته الى أن يكون محلا للثواب الكريم ، والجزاء الحميـد وبعيداً عن موطن العقاب ، والاحتقار والازدراء. ان المتوحش الذي يستكن جحور الجبال ، او يحيا في وسط المروج والغابات يستأثر به حب الاعجاب ويشعر بزهو ومباهاة حين يجد فى نفسه القوة والشباب. ان هذا الحب خير انواع الحب الاخرى اذا استطاع الانسان التصرف فيـه تصرفا حسنا. انه يوحي اليه بالتضحية ويشير عليه بالاخلاص ويدفعه كثيراً الى مواقف البطولة فيخلف الفضيلة ويشبهها. يعتزم امرىء القيس الشخوص الى القسطنطينية بعـد أن طارده المنذر ابن النعمان صاحب العراق ، فيودع اسلحتـه ودروعه التي كان تركها له ابوه حجر الكندي ، لدى السموأل صاحب حصن الابلق الفرد ،

فيطالب المنذر « السموأل » بتسليم وديعة امرىء القيس لديه فيأبى عليه فيحاصره في حصنه وفي تلك الأثناء كان ابن السموأل يتصيد خارج الحصن مع رفقة له فلما آب الى حصن أبيه قبض عليه المنذر وهدد السموأل ان لم يسلمه الوديعة قتل ابنه ففضل السموأل ان يرى ابنه قتيلا مضرجا بدمائه على ان يخون الأمانة فيسلم المال الذي كان قد اؤتمن عليه - وهكذا كان .

يجلس المنذر بن النعمان في يوم بؤسه فيقبل عليه حنظلة ابن ابي عفراء فيأمر بذبحه فيطلب منه حنظلة امهاله سنة ليرجع الى أهله ثم يعود فيقول له المنذر من يكفلك . فينظر هذا الى وجوه القوم فيعرف منهم شريكا بن عمرو فيطلب منه ان يكفله على ان يقتل مكانه ان هو لم يرجع فيجيب على ذلك فلما كان العام المقبل يجلس المنذر في مجلسه ينتظر حنظلة ان يأتيه فيبطىء عليه فيهم بقتل الكفيل شريك واذ هو في هذه الحالة فاذا براكب قد طلع على القوم فاذا به حنظلة قد أقبل متكفنا متحنطا ومعه نادبته فيؤثر هذا الوفاء بالعهد في نفس الملك فيطلق حنظلة ويترك تلك العادة السيئة (١)

يحكم بروتوس (٢) الأول القنصل الروماني على اولاده بالموت لأنهم

«١» كان المنذر رجلان ينادمانه من بنى اسد احدهما خالد بن المضلل الفقعي والاخر عمرو بن مسعود فأغضباه في بعض النطق فأمر ان يحفر لكل منهما حفير في ظهر الحيرة ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل بهما ذلك حتي اذا أصبح سأل عنهما - وكان اذ فعل بهما ذلك في حال السكر - فأخبر بهلاكهما فندم على ذلك وغمه الامر ثم ركب المنذر حتى نظر اليهما فأمر ببناء الغريين عليهما . - والغري هو البناء الجيد - فبنيا عليهما . وجعل لنفسه يومين في السنة يوم نعيم ويوم بؤس . فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الابل وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان اسود ثم يأمر به فيذبح ويطلى بدمه الغريان - والظربان دويبة كالهرة منتنة وفي المثل هما يتنازعان جلد الضربان - اي يتسابان

«٢» بروتوس هو اول قونسول في روما . وهو الذي قام بمعونة « كولاتن » زوج « لوكرسيا » التي اعتدى على عفافها « سيكستون ابن آخر ملك في روما « تاركن » . فانتحرت ، بقلب نظام الحكم في روما من الملكي الي الجمهوري . وصار هو وكولاتن =

التمروا مع الأعداء على قلب الحكومة وأساءوا الى روما . وينفذه فيهم . يعدم ميلينوس القنصل الروماني ابنه لأنه قاد رتلا ضد الأعداء بدون امر القيادة العامة خلافا للنظام العسكري النافذ .

يغامر الرواد والمولعون بالاكتشافات ، بأنفسهم فيلقون بها في مجاهل افريقيا التي تشتعل بالنار او يرمون بها في ثلوج المنجمدات او يعرضونها الى الأخطار بين الجراثيم الفتاكة ، او بين المواد الكيماوية القابلة للانفجار والاشتعال في كل لحظة فمنهم من يلقى حتفه ومنهم من تكتب له السلامة فينجو .

فما هذه المغامرات ، والتضحيات ؟.... ولماذا ؟. انه حب الاجلال قد دفع بهم الى هذه المخاطر ، وحبب اليهم هذه المغامرات والتضحيات فمنهم من يخشى على سمعته ، او على ان يفوته المدح والثناء فيسخو بأبنه او يجود بنفسه ، ومنهم من يرغب في ان يخلد اسمه في الأوساط العلمية ، وان يعطر ذكره في حفل الانسانية فيخلص من مغامراته وتضحياته باختراع جديد ، يحفظ به حياة الانسان او اكتشاف مفيد تستغله الامم ـ لخيرها ـ او يفوته الحظ فيلفظ انفاسه في اثناء تأديته الواجب فيكون في عداد الشهداء . ومنهم من يرى وطنه مهدداً ، والمصلحة العامة في خطر فيقذف ببنيه وهم فلذات كبده الى الحفر ويوسدهم الأرماس لانهم كانوا من المسببين لهذه الآثام التي تلحق شرورها الوطن .

فحب الأجلال اذن مفيد لتقدم الانسانية وتثقيف الأمم ومؤد الى رفع مستواها ، وتنمية اسباب الحياة السعيدة فيها ، ان احسن التصرف فيه . ذلك لأن حكم الانسان على اعماله عرضة للخطأ والفساد فهو في حاجة الى الاعتماد على حكم الغير لذلك كان من النادر ان لا يخضع ولا ينقاد بغير شعور منه الى

= قونسولين لأول مرة في الحياة الجمهورية الرومانية ومن احفاده بروتوس قاتل سيزار الروماني المشهور

حكم الناس الذي يسمونه الذوق العام فمتى علم ان عملا ما من شأنه ان ينال رضاء الناس عامة ويلائم الذوق العام او انه يوجب سخط الناس ونفور الذوق العام منه ، فهو ينساق بكليته وبجرأة لأن يقوم بالعمل الأول ، ويسعى بجد لأن يبتعد عن اتيان الثاني . انه ينظر الى ميل الرأي العام اكثر مما ينظر الى ضميره او الى العمل نفسه . صحيح ان الذوق العام قد يتغير من وقت الى آخر والرأى العام فى نوع من الأعمال قد يتبدل بين آونة واخرى ولكنه حسبه أنه قد قام بما يرضى الذوق العام ، ويطمئن الرأى العام . على ان الذوق العام او الرأى العام لا يكونان دائما مخالفين للعقل والمبادىء الانسانية فعلى الأكثر تكون صلتهما بالعقل والمبادىء الانسانية قوية واذا كان هناك ذوق عام قد أثبتت الحوادث بعده عن مواطن الحق والعدل أو رأي عام قد برهن العقل على سخفه وفساده فان المدقق المتعمق فى تدقيقاته ليجد آثار العدل والحق ، ورسوم المبادىء الانسانية التي يقول بها العقل دائما ، تعمل عملها الخفي فى ضمن ذلك الذوق العام او ذيك الرأى العام . لنأخذ مثلا الرق . لقد كان نظاما كان الفلاسفة أنفسهم يرونه ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ولكن الجماعات البشرية التي كانت تعمل بهذا النظام أما كانت تبتهج الى كثرة العتق والتحرر ؟ . ألسنا نرى المدح والأطناب فى المديح فيما يكونان نصيب من يعامل رفيقه بالرحمة والرأفة أو يفسح المجال له لأن يعيش عيشة وادعة مترفة ؟ ! . ان روما حين يكثر فيها الرقيق كانت تميل بسخاء الى تحريره وافلاته من قيود العبودية ثم تخلع عليه رداء الرعوية الرومانية وحقوقها . ان الأنبياء المرسلين والفلاسفة الحكماء كانوا دائما يشجعون الناس على تحرير الرقاب او ينصحونهم ليسيروا مع أرقائهم وعبيدهم باللين والرفق . ان افلاطون حين غضب على عبده وامر اسبوزيب(١)

(١) تغيظ افلاطون يوما من عبده فهم بضربه فتذكر انه فيلسوف وان الغضب يذهب =

أن يضربه عوضا عنه وامتنع هو عن ضربه ، لم يكن ذلك منه الا لأنه خشى ان يدفعه الغضب الى القسوة بعبده فأمر اسبوزيب الذي لم يكن تحت تأثير الغضب في ذلك الوقت . نعم ان افلاطون قد كبر عليه ان يتملكه الغضب وان يكون تحت سلطانه وهو فيلسوف لا يخلق به ان ينال الغضب منه منالا ولكنه فى عين الوقت كان يلاحظ عبده ويرعاه . فما معنى كل ذلك ؟ . اننا نجد آثار الرحمة ومبادىء الانسانية تهذب ذلك الذوق العام وتخفف من غلواء ذلك الرأى العام الذى كان يرى فى الرق دعامة نظام الاجتماع

كذلك نظام الاستبداد الذى كانت تعانيه الامم في القرون الاولى والوسطى حيث كان يعم المعمورة ويسود الاوساط وكانت الارآء العامة تستسيغه . فهل كانت تلك العهود تخلو من حركات حرة تنال عطف الجماهير وتكسب رضاهم ؟ . ان هذه الجماهير وان لم تكن قادرة على اظهار شعورها في الجهر والعلن ولكنها كانت تشعر في قرارات نفوسها بميل وانجذاب نحو تلك الحركات الحرة . اذن فبوسعنا ان نلمس فى كل دور من ادوار التاريخ آثار العقل ومعالم مبادىء الانسانية فى العوالم التي كانت تتخبطها الاذواق والآراء العامة التي كان يتخللها شيء من الفساد مع العلم انها لم تكن فى وقت من الاوقات كثيرة فى انواعها خطيرة فى نتائجها . لأن الله عزوجل قد أفاض نعمته على عباده فمنحهم قوة العقل وألهمهم مبادىء العدالة ووفر للانسانية العناصر المقومة لنظامها . لذلك نجد الاذواق العامة او الآراء العامة دائما كانت ضد الاعمال المخربة للنظام الاجتماعى الهادمة للعمران وان وجد منها ما ينبو عن مبادىء الانسانية والعدالة فماذلك الا أثر تغلب طبقة من الطبقات الشريرة لزمن من الازمان ، وفى هذا النوع

= بالعقل الحال الذي لا يلائم مكانته » فالتفت الى اسبوزيب قائلا « .. اضربه انت فأني غضبان . . »

الشاذ من الأذواق والآراء أيضا نستطيع ان نبصر نور العدالة وفيض الرحمة

اذن فأن حب الأجلال يؤدي خدمات جلى للانسانية وتقدم الحضارات ان أستغل استغلالا معقولا . وكذلك حب السيطرة والنفوذ فأنه طبعي فى الانسان وأنه أثر من آثار المنافسة الحادة بين الأفراد . فلكل انسان الحق في ان يسعى ليكون له مكانة فى المجتمع وان يخلق له نفوذاً فى الوسط الذي يعيش فيه صغر أثر هذا النفوذ أم كبر . هذا حق من حقوقه الطبيعية ولكن لماذا يكون حب السيطرة والنفوذ بغيضا للنفوس .؟ أي لماذا اذا رمي أحد الأفراد بحب السلطان يغضب ويثور ؟.. يغضب ويثور لأن هذا الحب يفسر على الأكثر بالأثرة الشديدة أو الطمع !...

وفي الحق ان هذا الوصف يكون ممقوتا اذا كان منشاؤه الشعور الشديد بالأثرة والميل الجنوني وراء المنفعة الخاصة . ويكون ممقوتا لسبب مضاعف أولا لأن حب النفس مبغوض لاسيما اذا ماظهر وأخذ به الناس . وثانيا لأننا نثق ولنا العذر — بأن الذى يسعى وراء ارضاء رغبته في احتياز السلطان لا يستخدم سلطته متى حصل عليها إلا لتنميته وتمكينه فهو يبدأ بأن يكون طامعا وينتهي بأن يكون مستبداً ولكن من استعمل هذا الحب بصورة معتدلة ، واستهدف المصلحة العامة يكون خيراً محضا ولا يلحقه المقت والبغض من الكافة .

انه لفرق عظيم بين ان يتناول السلطان مليتيادس(١) ، أو بريكلس(٢)

« ١ » مليتيادس من ألمع القواد الآتنيين وهو الذي غلب الجيش الايرانى في واقعة ماراتون الشهيرة في ٤٩٠ قبل الميلاد

« ٢ » بريكلس . اركون آيثنى كان عهده عهد آثينة الذهبي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد

أو آريستيديس(١) أو تيتوس(٢) أو تراجان(٣) أو ابو بكر أو عمر ابن الخطاب أو علي ابن أبي طالب أو غيرهم من العظام الذين اوقفوا نفوسهم لخدمة أوطانهم، وتضميد جراح الانسانية وبين نيرون أو كاليكولا أو دهنيس(٤) أو فالاريس(٥) أو يزيد أو الحجاج الطغاة الجفاة.

ان الانسان يحب بطبعه وغريزته أسرته ووطنه والانسانية، وان هذه الانواع من الحب مرتبطة بعضها ببعض وان كانت تبدو لاول نظرة انها متناقضة متباينة. ولا أريد ان اتعمق في تفصيل هذه الناحية وانما اكتفي بأن اقول ان حب الاسرة يفضى الى حب الوطن، وحب الوطن يؤدى الى حب الانسانية وان الانسان لا غنى له عن هذه الانواع الثلاثة من الحب

«١» اريستيديس زعيم آثيني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ومعروف بالحزم وحب العدالة

«٢» قيصر روماني أشتهر بحصر جهوده في سبيل تخفيف آلام الشعب وكان يقول اذا مر به يوم واحد لم تساعده فيه فرصة يقوم بمأثرة طيبة «لقد ضيعت يومى ....». عاش في القرن الاول

«٣» من اعظم اباطرة روما بذل اقصى جهوده لأنعاش روما وان موقفه حين سلم السيف الى احد قواده مشهور حيث قال له «... ايها القائد.... اني اسلمك هذا السيف لتستعمله لصالحي مادمت عاملا بالقانون مؤيداً العدالة وضدي اذا انحرفت عنها...»

«٤» دهنيس طاغية سيراكوزة في صقلية حكم من ٤٠٦و٣٧٦ قبل الميلاد. وكان قد وصل في ظلمه الى درجة انه ابتنى ديوانه في السجن الذي كان يلقي فيه ضحاياه وانشأ من السجن الى ديوانه مجرى خفياً يسمع بواسطته كل حركة أو كلام يحدث في السجن مهما كانت الحركة خفيفة ومهما كان الصوت ضعيفاً. وقد بني هذا المجرى بمهارة فائقة. ومتى شعر من احد السجناء حركة مريبة أو كلاما يحتمل التأويل والتفسير قضى عليه في الحال

«٥» طاغية «جيرجة» او «اغرى جانت» في صقلية ايضا. حكم من ٦٧٥ الى ٥٦٤. وقد اشتهر بظلمه وعسفه. حتى انه صنع آلة على شكل ثور كبير. كان يحميه ويلقي فيه ضحاياه. وكان يتلذذ وينتعش اذا سمع انينهم وشهقاتهم وزفراتهم ثار عليه الشعب فأحرقه بالالة التي كان قد اعدها لخصومه من قبل

لأنها من جملة مقومات كيانه في هذه الحياة .

فالذي يهمنا من جميع هذه الأنواع من الحب ثلاثة ، حب الأمتلاك ، حب الأجلال ، حب السلطان او حب السيطرة والنفوذ . واثرها فى حياة الشعب العربي وتكوين خلقه ومزاجه .

* * *

ان الباعث لنا لأن نخص هذه الأنواع الثلاثة بالعناية لأنها اكثر نفوذاً في ارادة الأنسان واشد فعلا في نفسه ولما كان هذا هو شأنها فأنها تكون بالنتيجة من أخطر البواعث والعوامل التي تخلق الطباع العامة في الأمم والشعوب وتؤثر في امزجتها .

لقد مر بنا ان هذه الأنواع من الحب هي من الأهواء والميول التى تولد مع الأنسان وتنمو فيه بنموه . فان احسن توجيهها واقتصد في في استعمالها واعتدل كانت ذات خير وبركة عليه وعلى الوسط الذى يعيش فيه وان هو افرط فيها كانت شراً عليه وعلى المجتمع الذى نشأ فيه . لأن الغلو في حب الامتلاك يولد البخل ، والغلو فى حب الأجلال ينتج الغرور والغلو في حب السلطان يؤدى الى الاستبداد . وجميع هذه النتائج خطرة ليس على الفرد فقط وانما على الوسط الذى يعيش فيه ذلك الفرد . لأن الطباع العامة ، انما هي صورة للطباع الفردية ليس غير على ان الغلو في الأمتلاك اقل خطراً من الغلو فى الحبين او الميلين الأخيرين ذلك لأن حب الأمتلاك اذاً انتج البخل فان هذا الضرر انما ينحصر اثره فى الفرد او في المحيط العائلي الذى يعيش فيه الفرد . وان اضراره المباشرة بالمجموع اذا لم تكن معدومة تماما فهي ذات اثر ضئيل لا يؤبه له ابداً وانما الخطورة هى في الغلو فى حب الأجلال الذى ينتج الغرور وحب السلطان الذى يؤدى الى الأستبداد . لأن ضرر كليهما

لا يؤثر في الفرد او النطاق الضيق الذي يعيش فيه الفرد وانما يتجاوزهما الى المجتمع بل الى المجتمعات الاخرى الخارجية .

ان الانسان اذا افرط في حب الاجلال مثلا تتكون فيه نزعة التفرد والاستقلال في العمل والرأي ، وتتلاشى فيه خليقة الطاعة والانقياد للغير لان الغرور يسوقه الى ان يرى نفسه فوق كل شيء واذا تأثرت افراد أمة من الامم أو اكثرية أمة من الامم بهذه السجية وصارت لها طبيعة ظاهرة ينشأ عن ذلك ميل عام للتمرد على القوانين والسلطات ، ورغبة شاملة في عدم الانقياد لسلطة ما ، أو الانضواء تحت زعامة فرد ما . وهذا النوع من حب الاجلال ما يصح ان يطلق عليه حب الاجلال الفردي . لانه يؤدي الى الغرور الفردي . وهذا النوع من الداء هو ما كان ولا يزال يعانيه افراد الشعب العربي .

وقد يظهر الغلو في حب الاجلال في صورة اخرى كأن يدفع الغرور بالفرد الى ان يشعر بالتفوق القومي على سائر الاقوام فيكون في تلك الحال الغرور القومي ان قيام الفرد بواجباته القومية نحو بلاده وقومه ، من المزايا الحميدة ، ومن المبادىء الاخلاقيه ايضا . وانه مهما بذل في سبيل قوميته وبلاده فلا يكون مغاليا ، او متخطيا حدود الواجب وان كان في ذلك حتفه وهلاك اسرته وكل عزيز لديه . لان الواجب يدعوه الى ان يفضل النفع العام على النفع الخاص ، واذا اقتضت المصلحة العامة ان يفنى هو ومن يحب فعليه ان يعرض نفسه ومن يحب الى الفناء ، بجذل وسرور ، وسخاء وكرم . فلا غلو في التضحية في سبيل صيانة الوطن من الاعتداء او محافظة منافع الامة والبلاد لان التضحية في مثل هذه الحالة تكون واجبا فكأنما هو يقوم بالواجب لا اكثر ولا أقل . ولكنما الغلو يكون ممقوتا وخطراً اذا تجاوز حدود صيانة الوطن وحفظ منافع الامة الى الاعتداء على منافع شعب آخر واختراق

حدود وطنه تحت تأثير الغرور القومي فهذا النوع من حب الاجلال يصح ان يطلق عليه حب الاجلال الشعبي ، او القومي الاعتدائي لأنه يولد شعور الاعتداء على الغير وان أثر هـذا الشعور نراه جليا واضحا في الشعوب المستعمرة كبريطانية وفرنسة وهولندا وايطاليا .

فالغلو في حب الاجلال الفردي اذن ينتج الفوضى ، وفقدان النظام في الأمة والغلو في حب الاجلال الشعبي او القومي المتطرف يؤدي الى الاعتداء على حقوق الامم الاخرى والعبث بحريتها وكيانها وكلا النوعين خطر على الانسانية وممقوت من الضمائر الحرة والعقول السليمة .

قلت ان الفرد قد يضحي بنفسه وبمن يحب تحت تأثير الاجلال بنوعيه الفردي ، والقومي ويكون في تضحيته هذه مقدرا ومحببا لأن في هـذه التضحية نلمس المبادىء الانسانية ونرى معنى الواجب فلا يكون المضحى مغاليا ، مهما كانت خطورة تضحيته . فهذا الذى نراه يفدى ابنه وفلذة كبده في سبيل احتفاظه بشرف الأمانة وحرصه على الوديعة التى اؤتمن عليها ، لا يمكن ان نلومه على مجازفته بابنه لقاء مال كان يستطيع ان يؤدى ثمنه لمستودعه فيما اذا أراد التحلل من الموقف . لأن الوفاء واجب ، وحفظ الأمانه واجب فهو انما قام بالواجب ، لا اكثر من الواجب . وكذلك الذى تعهد بأن يعود الى الملك ليقتله بعد امهاله مدة معينة فلا تسمح لنا المبادىء الاخلاقية ان نعيبه على قدومه وتعريض نفسه للقتل بينما كان في وسعه ان يفلت من الموت ، سيما اذا كان الحكم ظالما وغير مستند الى سبب شرعى او قانونى . لأن الصدق في القول والوفاء بالعهد انما يقول بها الواجب فهو لم يقم بغير الواجب وليس في عمله أثر من الغلو (١) فهذا النوع من الاجلال الفردي انما هو محبب للنفوس الكريمة ، مستساغ لدي العقول الكبيرة

(١) اشارة الى ما وقع في حادثتي السموأل والمنذر .

وكذلك ما عمله بروتوس في تضحية اولاده في سبيل روما ، او ما قام به ميللينوس في اعدامه ابنه لمخالفته للنظام العسكري اوما قام به « ريجيلوس » (١) حين ابلغ روما حقيقة وضع القرطاجينيين ونصح السناتو بأن لا يقبل مهادنتهم وصلحهم لأنهم في طريق الهزيمة والانكسار او ما اقدم عليه « لويس فارس أساس » (٢) من عمل خطر لما صاح بأصحابه « الي الي دونكم العدو !.. » في اللحظة الحرجة التي كان عليها وضع مواطنيه . فهؤلاء وغيرهم من العظام الأبطال لم يكونوا مغالين في القاءهم انفسهم بين المخاطر والمهالك لأنهم انما قاموا بالواجب نحو وطنهم وبلادهم فمثل هذا النوع من حب الاجلال القومي مقدر من الجميع لأنه في حدود الواجب ، ومن جملة المبادىء الاخلاقية والانسانية .

وكذلك الرواد المكتشفون ، والعلماء المخترعون ، والفنانون المبدعون اذا لفظوا انفاسهم في الصحارى والقفار . اوفي المحيطات والمنجمدات اوبين العقاقير السامة ، والمواد الملتهبة والمتفرقعة فانهم انما كانوا يقومون بواجباتهم نحو العلم ، ونحو الانسانية وخير البشرية فلا يكونون قد تطرفوا في مغامراتهم او غالوا في اقدامهم وبالتالي فان حبهم لهذا النوع من الاجلال انما يكلل رؤوسهم بتيجان الشرف والمجد ، فلا سبيل الى لومهم وتعنيفهم .

ولكن ماذا نقول للذين يتمردون على النظام ، ويغرمون بروحهم الفردية ويطمح كل منهم ان يكون اميراً او ملكا؟. او الذين يدفعون بأممهم الى العدوان والتجاوز وهظم حقوق الأمم الاخرى بدافع حب السيطرة

« ١ » ريجيليوس قائد روماني كان في سجن القرطاجنيين فخدعهم بأن يكون سفيرهم لدى روما ليقنعها في الصلح ثم يعود اليهم اذا اخفق فانه بعد ان نبه السناتو الى ما كانت يريد عاد الى قرطاجنة وعرض نفسه للعذاب والموت . وقد سبق ذكره في البحوث السابقة

« ٢ » لويس فارس اساس ضابط فرنسي اشتهر بتضحية نفسه لاشعار الجيش بوجود العدو ليلة الموقعة المشهورة بموقعة « كلوستركاب » بين الفرنسيين والهانوفريين وهي ليلة ١٥ اكتوبر سنة ١٧٦٠ ولد في سنة ١٧٣٣

وبسائق التفوق العنصرى ، او الغرور القومي ؟.. فكما ان الروحية الفردية العنيفة خطرة وبغيضة للنفوس كذلك هي الروحية القومية الحادة فانها ظالمة ، قاهرة متخطية حدود الواجبات وعابثة بمبادىء الانسانية . واذا كان اضرار الاولى تنحصر في مجموع معين من المجموعات البشرية فان الثانية تتجاوزها الى اكثر من مجموعة بشرية واحدة وتغرق الانسانية في الدماء . وكما ان نهاية الأولى الموت فان مصير الاخرى الاضمحلال والفناء .

ولقد اضاع العرب حريتهم بسبب روحيتهم الفردية ، وغلوهم في حب الاستقلال الفردي واضاعت روما كذلك عظمتها بتأثير غرورها القومي الحاد . (١)

واليوم تلوح فى الآفاق عين البوادر . فالعرب تتنازعهم الروحية الفردية وتمنع عليهم الحياة الحرة والشعوب المستعمرة تتطاحن وتتفانى فيما بينها ، وقد خر غير واحد من هذه الشعوب المستعمرة التى تنزوابها روحية الغرور القومى ، صريعا يتخبط بدمائه ويتقلب في شروره وآثامه (٢)

فالشعب العربي اذن مصدر بلائه من طبعه ، ومنشأ ذله وعبوديته من مزاجه وخلقه . فما هى العوامل التي كونت هذا الطبع ، وأنشأت فيه هذا المزاج والخلق ؟ .

لقد نشأ الشعب العربى ، في شبه جزيرة العرب . وهذه القطعة من المعمورة ، تعوزها الخصوبة ، وكثير من اسباب الحياة المترفة ، وعوامل الثبات والاستقرار .

لقد كان هذا الشعب في حياته البدائية يعيش عيشة قبيلية ، ومن طبيعة

«١» تراجع الابحاث السابقة فقد ذكرت الاسباب المودية الى سقوط روما واضمحلالها بشيء من التفصيل .

«٢» اشارة الى ما حدث بفرنسة

الحياة القبيلية ان يكون الفرد فيها قوي الشكيمة ، يشعر شعوراً قويا بشخصيته ويعتمد اعتمادا مطلقا على قوته الفردية ، واستقلاله الذاتي . انما تميل القبائل الى الاستقرار والهدوء ، وتتعود النظام والطاعة ، وتتشذب فيها الاخلاق والطباع ، فتقوم الليونة والمرونة مقام الخشونة والعنجهية ويأخذ الترف والالطف مكان شظف العيش ووعورة الخلق وتبنى المساكن والبيوت الدائمة بدلا عن بيوت الشعر والخيام وتتغير الطباع شيئا فشيئا وتلين وتنعم اذا سكنت ارضا معينة لا تبرحها وأخذت تحرثها وتستغلها وتستثمر كنوزها وتربتها . ففي هذه الحالة تشعر بحاجة ملحة الى نظام يحفظ مصالحها وتتعود الطاعة الى نوع من السلطة تكون هي المهيمنة على الأفراد كافة وتقوم بحراسة منافع الجميع وتوزع العدالة فيما بينهم . وبفضل النظام والطاعة والجهود المشتركة يستبحر العمران وتنتظم الامور ويجود العقل بفيضه فتنشأ الحضارات ويقوم التمدين . واذا حرمت القبيلة من الأسباب والعوامل المفضية الى الثبات والاستقرار فانها تظل محافظة على طباعها البدائية متمسكة بالتقاليد والعادات التي يمليها عليها وضعها القبيلي . هذه ظاهرة عامة تسود المجتمعات البشرية كافة . فالطبيعة اذن لها اثرها الاكبر في تكوين طباع الامم وامزجتها ولما كانت شبه جزيرة العرب بلادا قد ضنت عليها الطبيعة بخيرها فقد اضطر ابناؤها الى ان ينتقلوا من مكان الى آخر طلبا للمرعى ، وانتجاعا للماء وللعشب وظلوا ينتقلون دائبين فيوما نراهم بحزوى ويوما بالعقيق ويوما بتيما واخرى بالدهناء وهكذا ظل هذا الشعب يقاوي الطبيعة وتقاويه ويطمع فيها وتطمع فيه فعدم استقراره في مكان ثابت ابقى فيه الروح القبيلية العنيفة ومعنى ذلك انه لم يستطع ان يبني له سكنا ثابتا ولم يتعود النظام والحياة المنتظمة المرتبة ، وهذا الحال أدى به الى ان يجعل فكرة الطاعة دبر أذنه وتحت قدميه . ومن ثم فانه ظل على خشونته وعنجهيته

فالطبيعة اذن كانت من اكبر العوامل التى كونت فيه هـذا الخلق العام الذى نشكو منه اليوم .

ولكن الشعب العربى لم يكتف بعامل الطبيعة لانماء هـذا الخلق فانه قد غذاه بالتربية ورعاه بالتنشئة . لقد سبق ان قلت ان الاهواء وان كانت تولد مع الانسان وتنمو فيه بنموه ولكن لعوامل التربية ، اثراً كبيراً في توجيهها او تقويتها او اضعافها . فالفرد العربي ينشيء عقبه ومن كان فى كفالته على الروح الفردية ويحبب اليه عدم الانقياد للغير والتمرد والعصيان ويجد في كل هذه الحالات لذة عظيمة يرغب فى هؤلاء الصغار ان يقاسموه فيها كما يجد فيها معالم الشرف ورسوم المجد ويحبب لهؤلاء ان يتعلقوا بها وان يتزينوا بمحاسنها . ان الفرد العربي يعتمد على قوته ويزهو بمحتده ونسبه فهو يريد ن يبز الجميع في ذلك فيعلم بنيه طريق المنافرة والمباهلة ويطلب اليه ان يكون قويا في نفسه عظيما ببيته سيداً في قومه . ثم انه لاجل ان يكون سباقا في المكرمات مشاراً اليه فى الملمات ، فانه يأتي بضروب البطولة، والعجيب من الاعمال التي تؤيد بطولته ، وتثبت كرمه وسخائه . فمنع الجار، ورعاية حقه ، والذود عن شرف قبيلته والذب دون عصبته ، والسخاء والبذل للمستضعفين ، والنجدة للمستغيثين كل هذه طباع تكاد تكون عامة لكل فرد منهم . لذلك اذا نشأ في القبيلة شاعر أو خطيب أو حكيم تباشرت بهم وعقدت لهم حفلات الانس والفرح ، واذا اظهر فريق من ابناء القبيلة ضروبا من الشجاعة ، وجاد بمحمدة ، أو قام بمأثرة هتفت له القبيلة وحاطته بأنواع الرعاية والعناية . وأخذت ألسنة القوم تلهج بالحمد والثناء ، ومجالسهم تتناقل مأثره ومحامده . فالتربية التي تقوم على هذه الاسس من شأنها ان تقوي تلك الروحيه الفردية فتكون حادة عنيفة لانها طبعية في الانسان أولا ثم انمتها البيئة ثم عززتها التربية

صحيح ان الشعب العربي ، لم يعش جميعه في شبه الجزيرة بل ان فريقا كبيراً منه كان قد تغلغل في البلاد المصاقبة - كبلاد الهلال الخصيب العربية - وان في هذه البلاد ، أسبابا كثيرة للثبات والاستقرار التي تغري الانسان وتدعوه الى ان يبنى فيها مساكن دائمة ثابتة ، وان ينزع الى الحضارة وان يتعود النظام والطاعة ، وما الى ذلك من بواعث المدنية والحضارة ولكنه بالرغم من كل ذلك فقد ظلت فيه الروح القبيلية تستعر فى نفسه والسبب في ذلك انه كان فى تربيته محافظا ، وعلى فرديته حريصا . ويلوح لي ان مؤلف كتاب تاريخ اللغات السامية القيم الدكتور «اسرائيل ولفنسون» لم يعد الحقيقة حين قال ان الشعوب السامية تتميز فى كثرة ملوكها وانقسام شعوبها الى درجة هائلة . ان هذه الملاحظة ، انما هى ملاحظة قوية وصحيحة فاذا نظرت الى اليمن مثلا ، - وهي الموطن الوحيد فى الجزيرة الذي كان يمكن أن تقوم فيه حكومات منظمة - لوجدت فيها مئات الأقيال مبعثرين هنا وهناك وكذلك اذا دققت فى حالة فلسطين لرأيت فيها كثيراً من الملوك الصغار المتباغضين المتنابذين ولا اجد سببا لهذه الظاهرة العامة التي لاحظها الدكتور اسرائيل الا هذه الروح الفردية التي تطلب العلى وتدفع بكل فرد منهم الى ان يكون ملكا او اميرا . واذا كنا نشعر بأثر الفردية فى نفوس هؤلاء الذين سكنوا الحواضر فما بالك بالفردية التي تتقمص الأفراد الذين لم ينفكوا عاكفين على الحياة القبيلية ؟؟ لماذا ظلت هذه الروحية قوية وحادة فى قوتها ؟ لأن التربية العربية قدغذت الوسط بها وانمتها عوض ان تخفف من غلوائها وتكسر شرتها كما قلت آنفا . وانما التربية استمرت على قوتها في الحواضر كما لو كانت فى شبه الجزيرة ، لأن هؤلاء الذين نزحوا عن اوطانهم الأصلية ، واستقروا في هذه الحواضر ، لم يقطعوا صلاتهم بوطنهم الأصلي ، ولم يبتعدوا عن قبائله بأرواحهم ، وان كانوا بأجسادهم عنها

بعيدين . انهم ظلو ينظرون الى تقاليد وعنعنات وطنهم الأصلي كمثل عليا لهم من واجبهم ان يترسموا مبادئها ويتبعوا قواعدها . وفي الحق ، انه لم يكن بالمستطاع ان يقطعوا صلاتهم بوطنهم الأصلي او ان يبتعدوا عنه بأرواحهم لأن الاختلاط ظل على قوته ولأن ليس هناك حواجز طبيعية تمنع هذا الاختلاط . فالذي يخرج من الحيرة اومن الشام او من فلسطين يستطيع ان يصل اليمن او الحجاز او يسوح فى الدهناء وعسير ونجد بكل سهولة وأين ما يحل رحاله يجد قوما يتكلمون لغته ويتخلقون بأخلاقه ويصل واياهم الى ارومة واحدة او الى جد واحد ، فكيف يتعسر الاختلاط ويصعب الامتزاج؟ وفوق كل ذلك ان العرب الذين سكنوا الحواضر وأقاموا في فلسطين او في الشام او في الحيرة لم يبن منهم الدور الثابتة والمساكن المستقرة الا الخاصة . واما الكافة فقد ظلت تستكن بيوت الشعر والخيام وترعى الأبل والماشية وتنتقل من مرعى الى آخر ومن ماء الى غيره لأن العادة التي اعتادوها وهم في شبه الجزيرة قد لازمتهم وهم في خارجها .

وليس من شك فى ان حياة الحضارة قد أثرت في فريق العرب الذي كان قد تعودها واستساغها ولكن هذا التأثير كان ضعيفا لم يسيطر على الأهواء والميول الحادة في هؤلاء ، كحب الاستقلال الفردي والتنافس في الشرافة وعراقة المحتد ، والعصبية للقبيلة والعشيرة . فقد ظلت هذه الأهواء والميول قوية في عرب الحواضر كقوتها في عرب الأرياف والصحاري والبوادي . ولما كانت طبيعة هذه الأهواء والميول ، تناقض النظام والطاعة ، والاستقرار والثبات ، وتنمي روح التفرقة والتشتت ، فقد كان العرب لا يملكون حريتهم فى البلاد التي نزحوا اليها كالشام وفلسطين والعراق حيث كانوا تحت اشراف وسيادة الأجنبي بل ان اليمن وقد كانت مهد العروبة وموطن العرب الأصيل فانها قد وقعت صريعة تحت أقدام الفرس . صحيح انهم كانوا يملكون شيئا

من الحرية ولكن هذه الحرية تكاد تكون معدومة وفضلا عن ذلك فانها كانت في مقام الشيء المستعار متى ما اراد الأجنبي ان يسترده استرده . واذا كانت اواسط شبه الجزيرة وشمالها قد بقيت في نجوة من السلطان الأجنبي فانما كان ذلك لأنها بلاد قفراء لا تجذب اليها الرغبات ، ولا تتحلب لها اللهاة . فالحقيقة المرة التي يجب علينا ان نعترف بها هي هذه فسبب نجاة صميم شبه الجزيرة من الاحتلال الأجنبي لم يكن قوة العرب وانما جدوب التربة وفقر المحيط. واما المواطن العربية التي فيها خير وبركة ، والتي كان فيها مطمع فقد دخلت تحت نفوذ الأجنبي فاليمن كانت تحت سلطان الفرس والشام وفلسطين وما اليها فقد كان في قبضة البيزنطيين والعراق وحواليه كان تحت نفوذ الفرس . وكما ان الفرس والبيزنطيين كانوا يدفعون بعرب العراق ، وبعرب الشام الى ان يقتلوا في سبيلهم ولفائدتهم ، فقد كان عرب شبه الجزيرة البعيدون عن السلطان الأجنبي ايضا غارقين في الدماء الى الأذقان واذا تحريت أسباب سفك هذه الدماء الغزيرة لوجدتها تافهة لا تعدو هذه الأهواء والميول الحادة العنيفة ، التي يمكن جمعها في كلمة الروحية الفردية .

وبينما كان العرب في الجزيرة يتخبطون في ظلماء الجاهلية ، طلع الدين الاسلامي بأنواره من افاق الحجاز الذي لم يكن يعرف يوما من الأيام ما هو السلطان الأجنبي وما هي آلامه وأوجاعه . وكان طبيعيا ان ينشأ مثل هذا الدين الحنيف المقدس لحرية الانسان، والقائل بالأخلاق الفاضلة والآمر بمبادىء الانسانيه الصحيحة من هذا القطر الحر ، لأن الاقطار العربية التي كان يزاول فيها الأجنبي نفوذه وسلطانه ليس في وسعها ان تقوم بمثل هذه الحركة الأنقلابية الحرة لمناقضتها لمصلحته .

لقد جاء الدين الاسلامي بعبادة جديدة وبآداب جديدة ، وبأحكام للاجتماع جديدة . وكما انه حارب العبادة الوثنية بعنف وشدة فقد حارب كثيراً

من العادات السيئة ، والعنعنات والتقاليد القبيحة التي كانت وليدة الأهواء والميول الخطرة بعين العنف والشدة. فالقرآن الكريم استنكر العصبية الجاهلية وسفك الدماء المحرمة وندد بعادة المنابذة في الألقاب والمنافرة ، والمباهلة ، وجاءت سنة الرسول الأعظم موضحة احكام القرآن ، معيدة على الأذهان استنكار هذه الميول والأهواء الخطرة ثم قام من بعده خلفاؤه الاربعة يحاربون ما حارب القرآن والرسول من عادات وعنعنات وتقاليد . فترك العرب ما نهاهم عنه القرآن والرسول والخلفاء فاطاعوا ، وانصاعوا الى النظام واختفت منهم تلك الميول والأهواء التي كونت منهم تلك الطباع الخطرة ، والامراض الحادة . قلت اختفت ولم اقل ذابت او تلاشت ذلك لأنها عادت الى الظهور بعنف وقوة ولم تمر مدة طويلة على مجاورة الرسول العربي ربه . ومعنى ذلك ان الحماسة القوية للدين الجديد ، والانشغال القوم بالعبادة الجديدة ، وجهادهم في سبيل الله واعلاء كلمته كل هذه عوامل نفسية كانت قد ألهتهم عن انفسهم ، وعن ميولهم واهوائهم القديمة . ولكن تناقص هذه الحماسة القوية بمرور الزمن ، قد فتح الى القلوب منافذ جديدة تسربت منها تلك الاهواء والميول وكانت تقوى وتشتد كلما بعد العهد واشتط . وهذه ظاهرة اجتماعية تسود المجتمعات البشرية كافة . فأن الحركات الانقلابية سياسية ، كانت ام دينية ام اجتماعية تصحبها دائما حماسة منقطعة النظير ، تلهي الجماهير عما كانت قد تعودت عليه من اهواء وميول ، وما كسبت من عادات وتقاليد وعنعنات . ولكنها تعود هذه الى النفوس بالتدريج كلما خفت حرارة الحماسة ، وبردت جذوتها . فالروحية الفردية ، التي كانت من أقوى مميزات العصر الجاهلي بدأ العرب يشعرون بقوتها وسلطانها ، في اواخر عهد الخليفة الثالث ثم اخذت طريقها في النمو والازدياد بتوالي الأيام ، وبفعل الأحداث والفتوح . وقد دلت الوقائع المادية على ان العرب يكونون قوة لا تقف في سبيلها قوة اخرى ،

اذا اتحدوا ، وتضامنوا ، وأحسنوا الطاعة وانصاعوا الى النظام ذلك ،لأنهم فوق المزايا العظيمة ، — والتي هي كريمة في حد ذاتها — التي منحتهم اياها القدرة المبدعة فانهم قوم ذووا احساس دقيق ، وذكاء نادر فاذا انضاف الى مزاياهم هذه الذكاء المشرق والاحساس الرهيف، ومالوا بكليتهم الى النظام والطاعة جاءوا بالمبدع ، وقاموا بالأعمال الخارقة . وبالفعل انهم كونوا امبراطورية ضخمة مترامية الأطراف في خلال مدة اقل من العصر الواحد . واذا كانوا قد احتفظوا بسلطانهم فى الشرق لمدة خمسة عصور كوامل ، وفي الغرب ثمانية عصور مع ان آثار الهدم ، بدت فيهم مبكرة جدا ، فسبب ذلك انما هو ناشيء من عظم الأمبراطورية التى كانوا قد خلقوها ، ووسعة الممالك التي اجتاحوها .

وبعد كل ما تقدم يجوز ان نسائل انفسنا لماذا عادت فيهم هذه الروحية الخطرة التي سببت ضياع حريتهم مع ان الدين الاسلامي قد أمر بالقضاء عليها ثم انهم رأوا فائدة أبطالها بالمكانة العالية المشرفة التى كانوا قد بلغوها ؟. أما كان فى مقدورهم ان يحافظوا على حالتهم الاجتماعية التى كانوا عليها في صدر الاسلام ؟...

يلوح لي انه كان في وسع العرب ان يحافظوا على حالتهم الاجتماعية الجديدة التي انشأها لهم الدين الجديد ، وكان في مقدورهم ان يصونوا مملكتهم الواسعة الجديدة لو انهم صرفوا عناية خاصة الى طرق التربية والتهذيب وبذلوا جهداً معينا ، في سبيل الأحتفاظ بالروحية الجديدة التى ألهمهم اياها القرآن وسنة الرسول وأعمال الخلفاء الراشدين .

قلنا غير مرة ان التربية لها أثرها الكبير في توجيه الأهواء وتنميتها او اضعافها لذلك فقد كان لآداب القرآن وحكمة الرسول واخلاق خلفائه من بعدها اثرها الفعال في توجيه الأهواء والميول اتجاها صحيحا . فقدنست

العرب التى آمنت بالدين الجديد احقادها وتركت شحنائها ومالت بكليتها الى النظام وركنت الى الطاعة . وكان كبيرهم يلقن ناشئهم ، وعالمهم يعلم جاهلهم الآداب الجديدة هذه ، فما لبثوا زمنا حتى صاروا خلقـــا جديداً ، وقوما آخرين . ولما جاور الرسول ربه ، ارتفعت بعض الرؤوس فى اقطار شبه الجزيرة تلك الأقطار التي دخلت فيها آداب الدين الجديد حديثا ، وقادت فتنة الردة المعلومة ، ولكن هذه الفتنة الخطيرة لم تجابه من المؤمنين الا قوة مكينة متراصة ، فما كادت الأولى تقدح شررها ، حتى طمهـا سيل الثانية فقام عمود الدين بعد ان كاد يميل ، وآتت الاداب من جديد اكلها في جميع الاوساط العربية بعد ان اوشكت ان تقتلع جذورها العاصفة . ثم استأنف العرب تأدية رسالتهم تحت الوية الخلفاء ، فكانوا في جهـــادهم بررة اتقياء ، وفي تأدية الرسالة كراما أوفياء . ولو ان التربية استمرت على الصورة التي قالت بها آداب الدين الجديد ، والتنشأة سارت وفق ما كان يأمر به قادة الدين الجديد ، اصفت النفوس ورقت الأهواء والميول ولساد العقل عليها وتحكم فيها . ولكنها ما هي الا ومضة من ومضات الدهر ، او خطفة من خطفات العصر حتى عادت العصبية الجاهلية في شكل اخر ورجعت تلك الأهواء والميول بصورة اخرى .
فاخذت الروحية الفردية تعبث من جديد عبثهـا القديم في المجتمع العربي واوساطه ، وقام القادة والزعماء يدعون الامرة ويطالبون بالسلطان وكل منهم يزعم انه احق من غيره لأنه الصق رحما بالنبي ، اولأنه كان اعظم بيتا في الجاهلية ، او لأنه أفضل أعمالا . اولأنه اقدم اسلاما . فكان النزاع بين المهاجرين والانصار وكان الاختلاف بين اليمانية والمضرية ، وكان الخصام بين قريش وسائر المضرية ، ثم اشتد الامر واستغلق ، فقامت قريش تتفاضل فيما بينها ، بل ان الأموية والهاشمية اخذت تتناكر بل ان الهاشميين اخذوا يتفاضلون ويتنابذون فيما بينهم ولم تكن هذه الروحية تهيمن على الافراد والكافة ولا

الامراء والقادة فقط ، وانما بلغت مجالس الخلفاء ، وأوساطهم ايضا. وماقولك في معاويـة الذي كان أفضل خليفة بعد الخلفاء الراشدين ، واحلمهم واكيسهم والذي كان من المنتظر ان يكون هو أول من يشجب هذه الروحية ويدرأها على النفوس ؟. انه كان من أشد النافخين فيها ، والمورين في زندها واذا كنا نرى هذه الروحية حادة ، عنيفة فى رجل الحلم والكياسة كمعاوية فهل نستغرب اذا لمسناها فى غيره من الخلفاء والامراء والقادة ؟!..

ان كتب التاريخ ، والادب قد عقدت فصولا خاصة لهذه المجالس والمحافل التي كان يعقدها إما الخلفاء وإما قادتهم وامراؤهم يتناظر فيها اليمانيون والمضريون،أو المضريون وقريش ، او الامويون وبنوا هاشم أوالطالبيون والعباسيون . ويتلاحون ويتهاترون.فكيف تصفو السرائر ، وتلتقى القلوب وتنمو نزعات الخير ، وتضعف نزعات الشر ، اذا كانت الرؤوس والقـادة ينزعون هذا المنزع ، ويسلـكون هذه الطريق ؟..

قال معاوية لرجل من اليمن : ما كان أجهل قومك حين ملـكوا عليهم أمرأة ؟.. اجابه : أجهل من قومي قومك الذين قالوا حـين دعاهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم ولم يقولوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا اليه قال الأبرشي الكلبي لخالد بن صفوان وهما عند الخليفـة هشام بن عبد الملك . افاخرك قال له خالد قل فقال الأبرشي وكان يمانيـا ، لنا ربع البيت يريد الركن اليماني ومنا حاتم طيء ومنا المهلب بن أبي صفرة . فقال خالد منا النبي المرسل وفينا الـكتاب المنزل ولنا الخليفة المؤمـل . قال الأبرشي لا فاخرت مضريا بعدك .

نزل قوم من اليمن بهشام بن أخواله من كلب ففخروا عنده بقديمهم وحديثهم فقال هشام لخالد بن صفوان أجب القوم فقال يا أمير المؤمنين وما

أقول لقوم هم بين حائك برد ودابغ جلد وسائس قرد ملكتهم امرأة ودل عليهم هدهد واغرقتهم فارة فلم يقم ايمان بعدها اليوم قائمة .

فماذا تترك مثل هذه المفاخرات ، والمشاحنات في نفوس الطرفين ؟. واذا كانت تربية الملوك والأمراء على هذا الطراز فما أملك في تربيـة الطبقات والجماهير ؟.. وكيف تكون وحدة ، وتكون طاعة ، ويكون نظام ؟..

لقد ناظر عبد الله بن الزبير معاوية في مجلس حاشد فأخذ كل واحد منهما يبين اسباب شرافته وفضله على الآخر ولم تعد مفاخرتهما ، ان يقول أحدهما للآخر ان جدي خير من جدك وأبي خير من أبيك وجدتي أفضل من جدتك وعمتي اكمل وخالتي أورع وأمي انقى فى كلام كثير ، وهما من قريش ، ومن الذوآبة من قريش . وكذلك أبو جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسن الطالبي فقد كانت بينهما مراسـلات أنطوت على المفاخرة بالأجداد والآباء والعمات والخالات والامهات مع ان كليهما هاشمي ، جدهما واحد وبيتهما بيت النبوة . فلا المنصور يرى الطاعة واجبة عليه لمحمد ، ولا محمد يرى الانقياد الى المنصور . ولو لم يؤد اثبات بعض هذه المفاخرات والمساجلات الى الأطالة لأثبت قسما منها هنا ولكن قليلها كثير ، وكثيرها ممل وما على القارىء إلا ان يرجع اليها فى مظانها وما اكثر هذه المظان ؟...

والآن ليدقق المنصف في هذا النوع من الآداب ، وفي هـذا الطرز من التربية فهل يراهما يتلائمان وآداب القرآن والتربية التي اقام قواعدها الرسول الأمين ، وخلفاؤه الراشدون ؟..

صحيح ان القرآن لم يفصل النظام الاجتماعي الذي يجب ان تـكون عليه الملة الاسلامية ، وانه لم ينص على الحـدود والعقوبات إلا على أنواع معينة ولـكنه وضع أسسا سليمـة لهذا النظام ، وزجر الناس عن التخلق بالاخلاق الجاهلية وكانت السنة النبوية مفصلة لهذه الأسس ، موضحـة

لما استغلق فهمه على العامة ، كما ان في اعمال خلفائه الصالحين واعمال الجمهرة الصالحة من اصحابه من مهاجرين وانصار ما يكفي من المبادىء والقواعد ، التي يجوز ان يقوم عليها اصح نظام اجتماعي ، واحسن طراز للحكم ، واكمل نوع للتربية والتنشأة . وليس من المعقول ان يأتي القرآن على كل صغيرة وكبيرة تمس الاجتماع أو الحكم أو التربية لأنه كان للاسلام كالدستور للأمم المتحضرة اليوم ، وكان على رجال الحكم في الاسلام ان يتبعوا سنة النبي ومبادىء خلفائه الراشدين كأنها قوانين لا يجوز الخروج عليها ، إلا اذا تحققت في ذلك مصلحة عامة . ولكنهم تركوا كل ذاك ، عمداً أو خطأ واهملوا تلك المبادىء والقواعد ، ومالوا الى الماضي يسترجعون ذكرياته ، وينعشون عصبياته ويحيون اهوائه وميوله ، لأجل التفرد في السلطان ، والسمو الى السيطرة والنفوذ . واذا قلت قولي هذا فلا أعني به ان المسلمين اهملوا احكام القرآن بالمرة أو انهم لم يتأثروا بادآبه وبادآب الرسول وخلفائه مطلقا . فقد تغيرت فيهم كثير من الميول والطباع ، واختفت منهم أنواع من العادات والتقاليد السيئة التي حاربها القرآن والرسول ومن جاء بعده من الزعماء والقادة . ولكن هذه الميول والطباع ، وهذه العادات والتقاليد السيئة التي تناولها التغيير أو اصابها الاختفاء لم تكن تلك التي لها أثرها الأكبر في تقويم الخلق العام ، وفي تنقية الذوق العام من الاوشاب والادران . بل لعل هذا التغير في هذه الانواع انما طرأ لأن القرآن وضع احكاما تترك آثاراً مادية ضد من يرتكبها . ان عادة الوأد للبنات قد تركت . وهذه العادة قد حرمها القرآن بنص صريح . فلماذا تركت هذه العادة ؟. ان الخوف من العقاب كان السبب المباشر لتركها . لأن قتل النفس المحرمة يستوجب القود ويستلزم القصاص . ان الاقتران بزوجة الأب بعد وفاته كانت عادة سيئة قد حرمها القرآن تحريما مطلقا فتلاشت آثارها من الاوساط العربية . لأن من يقدم على هذه الموبقة كان

ينظر اليه نظرة احتقار وازدراء من جهة ويحرم ما ينتج منها من اولاد من الأرث لأنهم نتاج السفاح من جهة أخرى . على ان العرب لم يجفلوا من تركهم هذه العادة، ذلك لأن احكام الدين الجديد، لم تضيق عليهم فقد جعلتهم في سعة من اللذائذ الجسدية المشروعة حيث اباحت لهم تعدد الزوجات . ونهى القرآن عن الخمر والزنا والميسر وهذه عادات وان كانت مباحة في العصر الجاهلي، ولكن لم يكن يأخذ بها إلا عرب الحواضر أما عرب البوادي وهم الاكثرية الساحقة فقد كانوا ينكرونها ويبتعدون عنها وهذا أمر طبيعي لأن قوما يقدسون آباءهم واجدادهم، ويعتنون بحفظ الانساب ويفتخرون بها، يكونون بطبيعتهم بعيدين عن الزناء، الفعل الذي يعبث بصحة الانساب ويخلط الدماء .

وكذلك احتساء الخمرة، والأعتكاف على المقامرة فلا يمكن ان يجد الهامر تعاً في مثل هذا القوم الذي يحرص على المرؤة وكرامة النفس . فالعرب حين تركوا هذه العادات، كان يباشرها منهم عرب الحواضر فقط وهم قلة لا وزن لها اذا قيست بالأكثرية الساحقة المنكرة لها، المستقبحة اياها . والحق ان احكام الدين الجديد، وآدابه قد أثرت تأثيراً نوعيا في تهذيب الاهواء والميول، ولقد كان تأثيرها في نطاق محدود، ودائرة ضيقة . فأما الاهواء والميول الخطرة، تلك التي تثير العصبية، وتنمي نزعة عدم الأنقياد وعدم النظام، وتقوي الروح الفردية فقد ظلت حادة عنيفة بل زادت حدة وعنفا بعد الاسلام لأن ملك العرب قد اتسع، والميل للأمرة والسلطان قد نما وتضاعف في نموه بنسبة تلك الوسعة .

إن حب الأجلال هو نوع من الاهواء، والاهواء بنفسها متغيرة لا تعرف الثبات . وفكرة النظام لا تنشأ من الحض فقط وانما تنشأ من المران واستعراض المثل . والأنسان تتصارع في داخله قوتان خطيرتان هما اللتان تسيرانه وهما اللتان تدفعانه الى الاعمال، هما قوة العقل وقوة الأهواء

فمتى تحكمت الاولى بالثانية وسيطرت عليها عرف بهذا التفوق والسلطان طريق الفضيلة ومتى كانت الثانية هي الغالبة ركب الطريق الوعر ، وجاء بالمنكرات. ذلك لأن الأهواء قد تسقط في لحظة لأنها متغيرة ولكن العقل هو الذي يبقى وحده مساويا نفسه دائما كما قال سينيكا(١) بحق . فبقوة العقل يستطيع الانسان ان يدرك قيمة الفضائل وحدودها ، وبقوته يستطيع ان يميز الانسان بين الافراط والتفريط . لذلك كان ارسطو لم يبتعد الحقيقة حين وجد الفضيلة في اواسط الأمور . لأن العقل اذا تحكم هان عليه ان يهدي الارادة الى الوسط من كل امر . فانتقاد بعض المدارس الفلسفية رأيه هذا بحجة انه مرن لا يبين بوضوح معرفة الوسط في كل أمر انما هو انتقاد لم يقم على اساس صحيح .

فالعرب كانوا تحت سلطان حب الاجلال الفردي الحاد لذلك كان غرورهم الشخصي او الفردي حاداً عنيفا ، نغص عليهم حياتهم ، وافقدهم في كثير من الاوقات حريتهم . فظاهرة الفوضى الناشئة من عدم الطاعة ، ومن الحرص على الاستقلال الفردي حرصا جنونيا تكاد تكون عامة في جميع الاوساط العربية ، جاهلية كانت أم مسلمة . والغرور الشخصي انتهى بهم كذلك الى الاستبداد ، حين اقاموا الملك وشيدوه بعد تلك الفترة السعيدة التي اشرنا اليها مرارا . وهذا مرض آخر كان له أثره الدامي في المجتمعات العربية .

فبرغم ان الدين الجديد قد قال بالشورى ، وناهض الظلم والاستبداد وبرغم ان سيرة الرسول ، وخلفائه الاربعة كانت تنطوي على اجلال الحق والحرية ، فأن الحكومات العربية التي قامت بعد زوال تلك الفترة كانت حكومات مستبدة على الاغلب . وهذه نتيجة طبيعية الروحية المغرورة .

« ١ » سينيكا فيلسوف روماني ولد في قرطبة بالأندلس وعاش في روما في القرن الأول للمسيح وهو مربي الأمبراطور نيرون وقد قتله نيرون ولم تشفع له افضاله عليه .

فالغرور الحاد يدفع بالمتغلب على الامارة والسلطان الى ان يركب كل صعب لأجل الاحتفاظ بسلطانه وصيانة منفعته الخاصة

والطبيعة العربيـــة النافرة من الاستسلام والاستخذاء لكل سلطة ، الشغوفة بالحريـة المطلقة وعزة النفس ، هـذه الطبيعـــة التى تأبى الانقياد حتى للسلطان العادل ، والسيطرة الهينة لمجرد انها تحدان من الحرية الشخصية كيف يتصور ان تنقاد بسهولة الى السلطان الجائر والسيطرة المستبدة ؟ . لذلك كان العراك دامياً ، بين طبيعة الفرد العربى ، وبين طبيعـة الاسـتبداد الذى كان يطمع ان يفرضه المتغلبون على الامارة والسـلطان وكان العنف والغلو فى الشدة من الجانبين ، من الجانب الحاكم ومن الجانب المحـكوم . فالجانب الحاكم كان يدرك انه امام قوة نفسية عنيفة لا يمكن ان تذلل إلا فى الامعان فى العنف والتغالى فى الشدة والجانب المحكوم كان يشعر بحيف عظيم ان ينقاد الى نظـام ، وان يعطي طاعته راضيا مختـــاراً الى من ليس له حق السيطرة والنفوذ عليه . وهذه الروحية هي التي تفسر لنا عهود الاضطراب ، التي مرت بحياة الامم العربية ، بعد الاسلام . اننا اذا استعرضنا تاريخ الامم العربية ايام عزها وسؤددها لم نجد فيها حقبة من الزمن خلت من الفتن والاضطرابات وسفك الدماء ذلك لأن الروحية الفردية قد منعت عليهم الحياة المنظمـــة والانقياد للسلطات أولا وثانيا لأن الاستبداد الذي جنح اليه المتغلبون على الامارة والسلطان قد ازاد في الفوضى وأوغل في الشدة والعنف . فالملوك أو الخلفاء أو ممثلوهم من قواد وعمال يتولون شؤون الامصار كانوا مطلقي الحرية فى التصرف بأرواح الناس واموالهم ، فلا الأرواح كانت مصانة ، ولا الاموال والحقوق كانت في أمان .

ادعى الزبير الخلافة واصطدم قائده بقائد الخليفة الاموي عبدالملك ابن مروان في الربذة فهزم قائد ابن الزبير جيش الخليفة بعد ان قتل قائده فتحصن خمسمائة

رجل وهم من اهل الشام على عمود الزبذة وهو الجبل الذي عليها فأحاط بهم عباس ابن سهل قائد ابن الزبير فطلبوا الامان . فقال انزلوا على حكمي فنزلوا على حكمه فضرب اعناقهم اجمعين .

قدم رجل من الثائرين على سلطان الخليفة ، الى الحجاج فقال له على دين من انت قال على دين ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين فقـال اضربوا عنقه ثم قدم آخر فقال له على دين من انت قال على دين ابيك الشيخ يوسف فقال والله لقد كان صواما قواما . خل عنه يا غلام ! . فلما خلى عنه انصرف اليه فقال له يا حجاج سألت صاحبي على دين من انت فقال على دين ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين فأمرت به فقتل وسألتني على دين من انت فقلت على دين ابيك الشيخ يوسف فقلت اما والله لقد كان صواما قواما فأمرت بتخلية سبيلي . والله لو لم يكن لأبيك من السيئات الا انه ولد مثلك لكفـاه . . . فأمر به فضربت عنقـه . ومات الحجاج فاحصوا من قتل صبراً فوجدوهم مائة الف وعشرين الفا وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين الفا لم يجب على واحد منهم قتل اوصلب . وكان الحجاج يعلن بغضاءه لأبناء العراق ، والعراقيون كانوا يظهرون كرههم ومقتهم الشديدين له . ولقد اراد ان يحج فاستخلف ابنه محمداً على أهل العراق ثم خطب بالعراقيين فقال ! يا اهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق اني اردت الحج وقد استخلفت عليكم محمداً ولدى وأوصيته فيكم بخلاف ما اوصى به رسول الله في الأنصار فأنه اوصى فيهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم واني اوصيته ان لا يقبل من محسنكم وان لا يتجاوز عن مسيئكم . ألا وانكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من اظهارها إلا خوفي ، لا احسن الله له الصحابة وانا اعجل لـكم الجواب ، فلا احسن الله عليكم الخلافة وبرغم هذا العداء المتبادل بين الحاكم والمحكوم فقد ظل الى آخره عمره حاكما على العراق . وخليفة المسلمين يرى بعينيه ويسمع باذنيه مقالة العراقيين بالحجاج وسيرة الحجاج معهم فلم يحل بينهم وبينه لأن

مصاحبته كانت تقتضي ذلك .

غضب المهدي الخليفة العباسي على وزيره يعقوب ابن داود السلمي فالقاه في سجن مظلم وصادر جميع امواله وأفراد عائلته المنقولة والثابتة ولم يخرج من السجن الا بعد ان هلك المهدي . والا بعد ان فقد السجين نور عينيه وقد كان يعقوب من المع الأدباء وابرز الساسة في عصره .

وغضب الرشيد على البرامكة فقتل جعفرا البرمكي وسجن اباه واخوة جعفر وصادر جميع املاك وأموال البرامكة وكذلك غضب المتوكل على وزيره الأديب العربي الأكبر محمد ابن عبدالملك الزيات فقتله قتلة شنيعة وصادر جميع ما كان يملك .

اننا نتعب القلم اذا اردنا استعراض الحوادث المفجعة الفردية او الأجماعية التي صدرت عن تلك الأدارة المستبدة . وما كان يقع في الحكومة العربية القائمة في الشرق كان يقع مثله وأشد في حكومة العرب في الغرب . لم تكن هناك قوانين مكتوبة يعرف الفرد منها ما هي الأعمال الموجبة للعقاب وما هي المباحة ولم تكن هناك سلطة خاصة للتشريع ، ولا سلطة خاصة لتنظيم السلطة التنفيذية . كانت الارادة الكيفية هي التي تفرض حكمها . الخليفة مطلق الأرادة ، عماله وولاته مطلقوا الأرادة ، جباته وشرطته وحراسه مطلقو الأرادة . نعم ! كان هناك قضاة يحكمون بالقرآن وبالسنة ولكن الآفاق التي تدخل ضمن صلاحيات القضاة وسلطانهم كانت محدودة . فالأعمال التي كانت تمس الأمن العام ، والنظر في الأعمال السياسية ، كانت في قبضة العمال والولاة وتابعة لأرادة الخليفة . لذلك كانت حياة الأفراد ، وانتزاع الثروات والممتلكات متعلقين بارادتهم الكيفية ، ومتوقفين على اشارة منهم .

ألا ترى الحجاج في لحظة يعفي أحدهم من القتل ثم لما يحاجه بالمنطق يعود فيضرب عنقه ؟ وجعفر البرمكي بينما كان في المساء مصاحبا للخليفة

أصبح معلقا رأسه وأوصال جسده في أماكن متفرقة في بغداد وأفراد عائلته في السجون وممتلكاتهم وثرواتهم منتزعة من أيديهم ؟.

واي ادارة يسودها نظام، ويسيطر عليها قانون تبيح لأحد الولاة أن يقتل صبراً من أبناء جلدته مائة وعشرين الفا، خلال مدة ولايته ويكون في سجونه اكثر من ثلاثة وثلاثين الف نفس لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ؟. واي نظام هذا الذي يستسيغ ان يبلغ الجفاء بين الحاكم والمحكوم الى درجة أن يقوم الحاكم فيخاطب أبناء البلد الذي يحكمه بمثل تلك العبارات القارصة، المنطوية على الفظاظة والجلافة بسمع الخليفة وبصره ؟..

فهل ان العرب كانوا بدرجة من البلادة انهم لا يعقلون التنظيم ولا يدركون فوائده ؟.. ان الثابت غير هذا. الثابت ان العرب قوم أذكياء ألباء، لهم عقول راجحة، واحلام بعيدة الغور والثابت ايضا انهم ابدعوا حضارة وأقاموا مدنية تدلان على عبقرية وقوة ابداع. اذن فما هذا التناقض ؟.. الواقع أن تربيتهم كانت قائمة على تقوية وتنمية الروح الفردية، التي كانوا يرون فيها مثلهم الأعلى، ومستندة الى الغرور الفردي الذي كان من طبيعتهم اولا ثم رأوا تقويته وتنميته كواجب عليهم ثانيا. ولما استفحل امره فيهم لم يقووا على التخلص من شروره والافلات من ويلاته فيما بعد. ولما تكون لهم سلطان في العالم، مالوا الى الاستبداد لأنه من النتائج المحتملة لهذا الطبع العام او الذوق العام. وانهم برغم اقامة حضارة ومدنية أفرغوا فيهما نتاج قرائحهم الفياضة، ومفاتن ابداعهم وعبقرياتهم فقد ابتعدوا عمداً في السياسة وصنعة الحكم عن الأصول التي تنفس عن الحريات السياسية. انهم أخذوا من اليونان والرومان حكمتهم وفلسفتهم، أشربوا روحهم في البحث عن الحقيقة، أشاعوا في أوساطهم ومجتمعاتهم علومهم وفنونهم ثم أضافوا الى كل ذلك الطابع العربي والمسحة العربية وأوجدوا حضارة سميت باسمهم وأقاموا مدنية وسمت

بمبسمهم ومع ذلك فأنهم لم يأخذوا من اوائك شيئا مما له صلة بالسياسة وصناعة الحكم . لم يوجدوا سلطات للتشريع ولا للأدارة والتنفيذ ولم يقبلوا واحداً من الطرق التي كان يعمل بها اليونانيون او الرومانيون فى التصويت واحصاء الآراء ولم يخضعوا ارادتهم لنوع من القيود مهما كان شكلها ذلك لأن الأخذ بهذه الأمور مما يتناقض وروحيتهم ومما لا يتلائم وطبعهم العام ، وذوقهم العام . وهل يعقل انهم يدركون غوامض الفلسفة ويتغلبون على مشكلات المنطق ، ويهضمون دقائق العلوم والفنون ويعجزون عن ادراك الأصول الديمقراطية ، وكيفية جمع المجالس وانتخاب الأعضاء وسن القوانين ؟! . اذن كيف أقاموا حضارة ومدنية فى ظل الاستبداد وكيف ارتفع مستواهم الثقافى وهم على تلك الحالة التي كانت تسودها الروحية الفردية وعدم الاستقرار ؟ . ان الأستبداد الوطني لا يمنع قيام حضارة ومدنية كما ان النضوج العقلي يجوز ان يكون فى الحالة التى تسودها الروحية الفردية وعدم الاستقرار . ذلك لأن الاستبداد الوطني لا يقضي الا على النشاط السياسي وما يقتضيه هذا النشاط . وقد سبق لي أن أوضحت هذه النقطة حين بينت الفروق المميزة للأستبداد الوطني ، عن الاستبداد الأجنبي(١) . واكبر دليل مادي ينهض بصحة قولي هو أن عهد الأصلاح او عهد النهضة العلمية الذي قام في اوربة وأنتج هذه المدنية القائمة انما كان في عصر الاستبداد الأوربي ، اذن فقد يجوز أن تقوم حضارة في ظل ادارة مستبدة ولكنها تكون ذات حدود معينة وآفاق ضيقة وكذلك الحضارة العربية فقد كانت حضارة خاصة لا تناقضها الأدارة المستبدة .

أرجو أن لا يفسر قولي تفسيراً عاطفيا . انى اذا قلت ان ادارة الحكومات العربية التي قامت بعد فترة الخلفاء الراشدين كانت استبدادية ، فلا يعني هذا أنه

«١» هذا الموضوع قد بحث في اصول الكتاب الاخري .

لم يأت خلفاء او امراء اقاموا منار الحق ، وافاضوا نور العدل او لم تقم فترات كان يسود فيها نوع من النظام والاستقرار . فقد جاء خلفاء وامراء اخلصوا في تأدية رسالاتهم وكانت عهودهم كلها او اكثرها خيراً وبركة كما انه قد قامت فترات كان يسود فيها نوع من النظام والاستقرار ولكن مع ذلك فأن الوضع كان مستبداً والحالة مضطربة . لأن قيام بعض الخلفاء والأمراء العادلين لا يغير الوضع اذا كانوا لم يتخذوا الاسباب المانعة لقيام الحكم الاستبدادي من بعدهم . الا ترى ان روما القيصرية كانت ادارتها مستبدة وان كان على رأس الحكم فيها امثال تيتوس وتراجان وانطونيو ومارك اوريل الفضلاء العادلين ؟ . ذلك لأنهم وان عدلوا في حياتهم ولكنهم لم يضعوا الأسس الثابتة المانعة لاستبداد من يأتي من بعدهم فكأن أيامهم كانت أيام هدنة في ظلال الادارة المستبدة . على أن الطاغية المستبد نفسه قد يكف في بعض الفترات من أيام حكمه عن الظلم والاعتساف ويهادن شعبه . فحالتهم كحالته سواء بسواء من حيث الحقيقة والجوهر وقد سبق لي أن عالجت هذه النقطة بشيء من التفصيل في الابحاث التي تناولها اصول الكتاب ويقال عين القول في الفترات التي كان قد ساد فيها نوع من النظام والاستقرار

ولكن الاستبداد العربي هذا ، بقدر ما كان شراً على أبناء العرب والمسلمين فقد كان خيراً على الامم غير المسلمة ، وعلى أبناء البلاد المفتوحة الذين كانوا قد احتفظوا بأديانهم ، كالمسيحية واليهودية . لأن أحكام القرآن بحقهم كانت صريحة لا تقبل التأويل . فالخوارج حين كانوا يقتلون كل مسلم لا يقول بقولهم ولا يرتأي رأيهم كانوا يحافظون على الطوائف غير المسلمة ويصونون اموالهم وممتلكاتهم . وكذلك كان شأن الفاتحين العرب في معاملة الطوائف غير المسلمة في البلاد التي كانوا يفتحونها لذلك كان الفتح العربي هينا لينا على أبناء البلاد المفتوحة وما كان مغالياً جوستاف لوبون حين قال لم يعرف التاريخ

وصفوة القول ان حب الاجلال الفردي الحاد في العرب قد أنتج فيهم الغرور الفردي وهذا الغرور الفردى منع عنهم النظام وحبب اليهم عدم الانقياد لأحد منهم وبالتالي أدى الى تفرقهم واضطراب امورهم وفقدانهم حريتهم . وان هذه النفسية المغرورة قد جعلت نظام الحكم فيهم استبداديا ، ولم يستطع العرب ان يقدموا للانسانية حضارة ومدنية الا بقدر ماكان يتسع لها نظام الاستبداد . وكان يجوز ان يخدموا الانسانية اكثر ويخلقوا مدنية أوسع آفاقا وأغزر دراً لو كانوا قد تأدبوا بآداب القرآن وتربوا على المبادىء التي تركها الرسول وخلفاؤه لهم وقضوا عن طريق التربية والتهذيب على هذه الروحية او خففوا من غلوائها على الاقل. واليوم تقوم في سبيلنا هذه الروح كعقبة كؤود لأنها لاصقة بالروح وممتزجة بالدم !..

وقبل ان انهي البحث عن هذه العقبة الخطرة ، أود ان الق على نفسى سؤالا ربما يتوارد على فكر كل من يقرأ هذه الملاحظات المتواضعة فأقول لماذا هذه العناية المفرطة بهذه الروحية الخاصة . والعرب كغيرهم من الشعوب نهضوا وفتحوا الممالك واقاموا مدنية خاصة بهم وعاشوا ثم هرموا وشاخوا وزالوا كما هرم وشاخ وزال غيرهم من الشعوب . فأين اليونان واين الرومان؟ ألم يصبحوا من قصص التاريخ وألم تكن في هؤلاء هذه الظاهرة النفسية ؟ واي بشر يخلو منها وهي من الاهواء التي تولد معه . ولا تزايله الى ان يوسد رمسه ؟ وهل من سبيل الى تغيير هذه النفسية في الشعب العربي بعد ان رأينا عجز الدين الجديد عن تغييرها ؟

من حق كل عربي أن يتتبع عوامل اضمحلال العرب ، وأن يستقصي العلل والأسباب التي أردت هذه الأمة الذكية القوية الى الهاوية. ولما كانت الروحية الفردية ، فى طليعة العوامل والاسباب التي هوت بها الى الحضيض

فقد أصبح لزاما على كل عربي ان يبحث طبيعتها ويسعى جاهداً ، لايجاد وسيلة تقضي على شرورها وتزيل أوضارها ومضراتها وتكيفها الى حالة مفيدة . نعم ان الأمم كالأفراد تولد وتعيش أجلا معينا طال او قصر ، ثم يدركها الهرم فالشيخوخة فالموت . ولكن أليس في الامكان ان يؤخر أجل الهرم والشيخوخة والموت ؟ ... ان الفرد يستطيع ان ينهي أجله مبكراً ، اذا اراد ذلك . كأن يستغرق في اللذات الجسدية ويدمن استعمال المواد المخدرة ويهمل نفسه فلا يهتم بنفسه اذا مرض ، ولا يبالي اذا نام في العراء ، يطيل السهر ، لايتناول الطعام الصحي ، او الغذاء الكافي منه لمحافظة الجسد على قوته . فكل هذه عوامل قد تسرع في حياة الانسان وتكون سببا لاقتطافها في ربيعها . وعكسها من شأنه ان ينظم حياته ويوفر اسباب الاطالة . والله عز وجل قد جعل لكل شيء سببا والأمم ايضا قد يدركها الفناء وهي في مقتبل عمرها ، وقد يتأخر أجلها الى آماد طويلة . وما دام في مقدور الانسان ان يراعي صحته ويتجنب موارد الخطر فكذلك في مقدور الأمم ان تتجنب الأسباب والعوامل التي ادت الى اضمحلال غيرها ، وأن تتبصر في امورها وتتقي مواطن الزلل ، وتحتاط لدرأ المفاسد عنها لئلا تضعف فيها قابلية المقاومة . وتكون عرضة للاختلاطات .

ان الأمم لا تموت الا بعلل وأسباب ولا تبعث وتحيا الا بعوامل واسباب ايضا ، هذه حقيقة مفروغ منها اذن فمن الواجب استقصاء جميع هذه العلل والأسباب والعوامل ، المؤدية بها الى الموت ، او المفضية الى القوة والحياة . نعم ! . ان العرب كغيرهم من الأمم انبعثوا وعاشوا وأدركهم الهرم والشيخوخة ورقدوا كالأموات حينا من الدهر ثم بدأت علائم الحياة فيهم من جديد . ولكن ما بدأت حياتهم الجديدة هذه الا وشمنا بوادر الفناء والاضمحلال التي سببت هرمهم وشيخوختهم ورقدتهم من قبل تلوح في

الآفاق من جديد فكيف لا يقلق من هذه الحالة من يتصل بهذا الشعب بوشيجة الدم، ويرتبط به برباط الرحم ؟...

ولقائل ان يقول ان العرب لم يهلكوا ويندثر مجدهم، بسبب هذه الروحية الفردية فقط وانما تضافرت عليهم عوامل، واجتمعت فيهم أسباب واحدقت بهم علل متنوعة كثيرة. وهذا حق وصواب لاغبار عليهما ولكن هذه الروحية هي التي انهكتهم وأضعفت فيهم قابلية المقاومة فلما ان تضافرت عليهم العوامل الأخرى، عجزوا عن المقاومة والقوا السلاح مستسلمين مستخذين. وانك ان دققت اسباب اضمحلال وفناء الأمم، او اسباب رقيها وعظمتها تجد اسبابا خاصة تتميز عن غيرها، هي التي كانت السبب الأصيل للاضمحلال والفناء او للرقي والعظمة. فالباحثون انما يتناولون تلك الأسباب الخاصة المتميزة عن غيرها، ويجعلونها مدار تدقيقاتهم ومادة بحوثهم. فالرومانيون مثلا كانوا قد وصلوا الى الذروة في عظمتهم وكانت عوامل عديدة قد ادت بهم الى ان يدركوا هذه العظمة المنقطعة النظير ولكن على كل حال فأن روحية الجندية القوية المشبعة بالنظام الصارم، وبعدهم عن الترف والزينة كانا السببين الخطيرين المتميزين من بين تلك الأسباب التي سببت تلك العظمة. كما ان فقدان تلك الروحية وانهيار ذلك النظام، واستغراقهم في الحياة المترفة كانا من الأسباب المتميزة في زوال تلك العظمة وتداعي صروح ذلك المجد.

ونحن لا نلام اذا اولينا عنايتنا الروحية الفردية الخطرة التي مزقت اوصال الشعب العربي قديما، والتي اخذت تحطم معنويته، وتهد كيانه من جديد

قلنا غير مرة ان حب الأمتلاك، وحب الأجلال، وحب السيطرة انما هي انواع محببة من انواع الحب، وانها أهواء نبيلة في حد ذاتها، شريفة في غاياتها اذا اقتصر الأنسان فيها واعتدل في استعمالها. وفوق ذلك انها طبيعية

في الانسان ليس في الامكان ولا من المصلحة تجريده منهـا بتاتا . فنحن اذ نعالج هذه الناحية بالنسبة الى الشعب العربي ، فلا نقصد من وراء ذلك تجريده منها وانما تكييفها وتهذيبها وتوجيهها اتجاها آخر يفيد ولا يضر ، هذا جل ما نطمح اليه ونبتغيه !.

ان الأمم تسير بهذه الأنواع الثلاثة من الحب. فهي تحب الامتـلاك وتحب الاجلال وتحب السيطرة ولكن القليل منها ما يغلو بحب الاجلال وحب السيطرة غلو العرب . واذا كان فيها نوع من الغلو فلم يكن هذا الغلو فرديا ومؤديا الى الفوضى وعدم الانقيـاد لسلطة معينة . ان اليونانيين ، والرومانيين كانت فيهم روحيـة الاجلال القومي بدرجة قوية ، وانك اذا قرأت تاريخ هذين الشعبين فلن تقع عينك إلا على مواقف رائعـة ، ومشاهد رائقة يتسابق فيها العظماء والكبراء الى التضحية في سبيل المجموع . كانوا يعملون بنظام ، ويمجدون الطاعة ، ويميلون بطبعهم وغريزتهم الى الاستقرار والثبات . لا نريد أن نأتي باسماء وحوادث جديدة ، لأن ما ذكر آنفـا في سياق الاحاديث ما يكفي لاثبات هذه الحقيقة . ويلوح لي ان العامل الطبيعي كان اكبر عون لقذف هـذه الفضيلة في ضمائرهم . لأن سكان المناطق الباردة يكونون بطبيعتهم ميالين الى الاستقرار والثبات ، وبنـاء منازلهم بالحجارة . وهذه الحالة من شأنها أن تكون فيهم روحا اجتماعيـة منظمة ، تخضع لسلطة عامة ، وتنقاد للنظام وتمرن على الطاعة . وحتى ان البرابرة الشماليين « الهون » حين تغلغلوا في اواسط اوربة وجنوبها ، وتدخلوا في شؤون الامبراطورية الرومانية الغربية ، كانوا يتميزون عن غيرهم بالطاعة الى قادتهم ، والانقياد الى زعمائهم . فهذه الروحية روحية الطاعة للزعماء والانقياد للسلطات العـامة ، من شأنها أن تخلق في الفرد او بتعبير أصح تنمي فيه روح الاجلال ، القومي ، او الوطني ، لا حب الاجلال الفردي او الغرور الفردي ، وتكون الروحية

العامه ، او الطبع العام للأمة ، الفناء في سبيل المجموع ، او الميل الى خدمة المجموع . واذا احسن التصرف في استعمال هذه الروحية تكون رحمة على تلك الأمة وخيراً وبركة. ثم ان المدنية التي تنشأ عنها تكون مدنية واسعة الآفاق غزيرة النفع للانسانية . فاليونانيون كانت لهم هذه السجية لذلك كانت مدنيتهم شاملة ، والرومانيون كان فيهم شيء من هذه الروحية فكانت مدنيتهم تكاد تقرب من المدنية اليونانية . ولم يصب اليونانيون والرومانيون الضعف ويدركهم الانحلال الا بعد أن غلوا في روحيتهم القومية والوطنية غلواً كبيراً دفعهم الى الاعتداء على الشعوب الأخرى واغتصاب حرياتها ، وكنوزها وسائر خيراتها . فاليونانيون عدا أراضيهم فانهم قد ملأوا سواحل البحر الأبيض ، سواء مايقع منها في جانب آسيا ام مايقع على جانب اوربة بالمستعمرات و كذلك الرومانيون فى اواخر العهد الجمهوري فانهم قد استولوا على خير أجزاء المعمورة فكونوا منها امبراطوريتهم الضخمة ، فماذا انتج هذا العدوان ؟. أنتج ان هذه الفتوحات قد درت عليهم بنعم لم يكونوا يحلمون بها ، فمالوا الى الى الحياة المترفة ينغمسون في لذائذها ، وينالون من نعيمها وهنائها . وتركوا واجباتهم ، وأهملوا شؤونهم العامة . توزعت فيهم الثروات ، توزيعا غير عادل ، فظهرت الفروق الاجتماعية بصورها المقيتة فأخذت حروب الطبقات تشتد وتقوى ، فضاعت تلك الوحدة ، وتلاشى ذلك الانسجام الاجتماعي ، تعود القواد والولاة والجنود الذين كانوا قد عاشوا على حساب الأمم المفتوحة على حياة البطر وعلى القسوة والصرامة اللتين كانتا وسيلتهم فى حكم تلك الامم المغلوبة فلما عادوا الى اوطانهم الأصلية ، أشاعوا فى أوساطها روحيتهم الجديدة فكثرت الانتفاضات ، وتزاحمت الجبهات على الحكم ، وتعددت الأحزاب واختلفت الميول والأهواء . كل هذه عوامل قوية كانت سببا لزوال عظمتهم وسلطانهم ، وبالتالي اختفاء مدنيتهم ، فالغلو بالغرور الفردي

كما أنه يؤدي بحياة الأمم ، كما أودى بحياة الامة العربية كذلك الغرور الوطنى اذا استبد ووصل الى درجة العدوان على حريات الغير فانه يورد الامة حتفها . ان المفكرين يجمعون على أن روما لو لم تتبع خطى التوسع ، ولو انها بقيت على الحالة التى كانت قد رسمتها الجمهورية لها ، لاستطاعت ان تقاوم الزمن أمداً اكثر ، ولانتجت مدنية أكمل و كانت عيشتها أفضـل . وفي الحق ، ان تاريخ روما أبان عهدها الملكي ، وأثناء العصور الاولى لجمهوريتها التى اعقبت عهدها الملكى ، كان مليئا بالمواقف البطولية ، وزاخراً بالمآثر الغراء ، وكانت الأمة تصطخب قوة واقتداراً .

فالغلو خطر في كل شيء كما اوضحت مرارا فكما ان الغرور الفردي مضر بالفرد وبمجموع الأمة كذلك الغرور الوطني والقومي يكون مضرا بمجموع الأمة اذا تجاوز على حريات الشعوب الاخرى ومنافعها . ولـكن على كل حال فان الغرور الوطنى ، او القومي هو اهون شرا من الاول . لأنه لا يجهز على حياة الامة وكيانها بسرعة وانما يمهلها الى اجل . فهو يقضى عليها بصورة تدريجية اولا وثانيا اذا انتهى الى نوع من الادارة المستبدة فيكون استبداده اخف وطأة بخلاف الغرور الفردى فانه لا يمهل الامة ان تعيش طويلا ويكثر فيهـا الفتن والاضطرابات ثم انه اذا انتهى الى نوع من الادارة المستبدة فيكون استبداده قويا لا يقاوم، ثقيلا لا يطاق .

أمل !

فهل من سبيل الى تغيير هذة النفسية فى الشعب العربي بعد ان رأينا ان الدين الجديد كان قد عجز عن تغييرها ؟.. انى اقول نعم !. وتوجد سبل كثيرة الى تغيير هذه النفسية لا سبيل واحد فقط . لأن ارادة الانســان لا تقهر اذا صممت على شيء . فما دامت الارادة بعيدة عن متناول اليأس والقنوط فهي قادرة على أتيـان كل شيء . ولمـاذا يمتنع التغلب على هذه النفسية اذا كانت هناك عزيمه ماضية ، وارادة صارمة ؟.. ان الارادة الانسانية استطاعت ان تزيل من الوجود ، او تلطف وتهذب اشد الطباع التصاقا بالنفوس ، وتزعزع اركان أقوى الأنظمة في الحياة الاجتماعية . من كان يصدق قبل ثلاثة او اربعة قرون ان عادة الرق سيقضي عليها في وقت من الاوقات ؟ ومن كان يصدق ان نظام الاستبداد الذي استحكمت حلقاته واستفحل امره فى المجتمعات البشرية ان ينهد يوما من الايام من اساسه ويهوى صريعا ؟.. فكما ان الرأي فى الغاء الرق كان يبدو شاذا وغريبا فى تلك العصور فان الرأى بوجوده او امكان وجوده في المجموعة البشرية اليوم يبدو شاذا غريبــا . وكذلك النظام الاستبدادى وان لم يختف من هذا العصر تماما ، فان اكثر المجموعات البشرية الحرة قد اطرحته ونبذته وأخذت بأنظمة جديدة ملائمة فكيف حصل هذا التغير ؟...

ان الاستبداد مثلا كان قد استولى على اذهان الجماهير فى العصور الخوالي بحيث ان كثيرين من المفكرين كانوا قد وقعوا في وهدة اليأس من شفاء

الانسانية من بلواه ألا ترى كاتبا حراً قديراً مثل « الفيهدري » قد غمرته موجة قاتلة من اليأس حتى انه عاب على الناس المفكرين ، الازدواج لأنه لاينتج إلا أسارى ينضافون الى كتلة الأسارى المؤلفة منها المجموعة البشرية في ظل الادارات المستبدة ؟(١) و كيف ينتهي به التفكير الى ضرورة الاقلاع عن الازدواج اذا لم يكن اليأس قد اعتصره عصراً ؟.. فلو لم يكن الازدواج أكان في مقدوره ان يطلع هو على الوجود ، فيشجب الاستبداد بعنف وقوة ويندد بحالاته ويصف طباعه ؟ ولو لم يكن الازدواج هل كانت الحرية تظفر بأنصار ابطـال يذوودن عنها ، ويعملون من أجلهـا ، كمونتسكيو ، وجان جاك روسو ، وفولتير ، أو تفوز الانسانية بالعقول الكبيرة التي أسدت لها الخير الكثير، كعقول . اسحق نيوتن ، ولوفن هوك(٢). ورومور(٣) ولزار(٤) وسيللا نازاني ، و كانت وديكارت وهيجل وهم من اساطين العلم والفن وهؤلاء انما ولدوا ونشأوا وعاشوا وماتوا في ظل الادارات المستبدة؟. فالحق ان اليأس ليس غيره هو الذي ساق الفيهدري الى ان يقول قولته هذه ، ويرتأى هذا الرأي. على اني أقول اذا كان الاستبداد يزيد في شقاء الانسانية، فعلى الانسانية ان تزيد في النسل لتزيد في شقاء المستبدين . اني اذا اهلكتني الادارة المستبدة ظلما وعدوانا ، فولدي الذي اعقبه هو الذي سوف يأخذ بثأري وثأر الانسانية من المستبدين الظالمين وان هو هلك فاولاده وعقبه .

« ١ » اقرأ كتابه « الاستبداد » فصل . « الزوجة والاولاد في ظل الأدارة المستبدة » .

« ٢ » لوفن هوك ولد عام ١٦٣٢ ومات عام ١٧٢٣ من أول غزاة الميكروب وكان عضواً في الجمعية الملكية البريطانية

« ٣ » عالم فرنسي ولد عام ١٦٧٢ درس الفيزياء والرياضة وبحث في الحيوان والنبات وفي الكيمياء والصناعة وهو موجد مقياس الحرارة المعروف باسمه

« ٤ » ولد عام ١٧٢٩ قس ايطالي . اثبت ان المكروبات ككل الاحياء لابد لها من آباء . عند موته اوصى باهداء مثانته الوبيئة لتجري عليها التدقيقات الطبية .

ان الأمل في القضاء على الظلم والاستبداد ، يظل حيا ما دام النسل قائماً ولا ينقطع الأمل إلا اذا انقطع النسل ، وتناقصت المجموعات البشرية وانحصر التوالد بالطبقات المستبدة . ماذا أفاد اليأس ديموستنيس(١) مثلا حين سم نفسه أو بروتس حين انتحر ؟ لقد كان في وسع ديموستنيس ان يبقى على نفسه ويناضل ضد اعتداء المقدونيين على أثينة ، وكان في مقدور بروتس ان يعيش ليحارب انطونيوس أمداً اطول لعله يزحزحه عن مكانه وينقذ روما. نعم ! كان في امكانهما ، وامكان غيرهما من العظام الذين تولاهم اليأس فأضاعوا حياتهم ، ان يبقوا عليها ، ليكافحوا ، ويناضلوا حتى اذا ما دنت ساعة الموت، تلقوه بصبر وشجاعة ورباطة جأش كما تلقاه سقراط من قبل .

وما تنفست الجماهير بروح الحرية ، واخصبت الارواح بالفضائل ، واستبحر العمران وتقدمت المدنية إلا بجهود اولئك البواسل الذين تغلبت ارادتهم على كل صعب ، واجتازت كل عقبة ونسوا اليأس ونبذوه ،وتدرعوا بالأمل وتسربلوا به .فليس من المتعذر أذن ان يوجه عامل التربية والتعليم الخلق العربي العام،توجيها آخر،وان يكيف الروحية الفردية في أبناء الشعب تكييفا يلائم الظروف التي يعيشون فيها اليوم .

ليس من شك في انه توجد كثير من الصعاب امام العاملين لتغيير هذا الاتجاه ، ولتكييف هذه الروحية ، لأن فعل مئات السنين ، واثر العصور الكثيرة لا يزولان بسهولة ، ولا في زمن يسير ، ولكن ما دام الأمل في النجاح عظيما ، فلا يجب علينا ان نقف خائرة قوانا ، منهدة عزيمتنا . ان الشعب العربي،

« ١ » خطيب آثيني أشتهر بكفاحه ضد فيليب المقدوني وله مجموعة خطب تسمى «فيليبيك» سم نفسه حين اجتاحت الجيوش المقدونية آثينة .

« ٢ » بروتوس قاتل سيزار غضباً لوطنه روما . وهو الذي ارسل كلمته المشهورة بعد اندحاره من قبل انطونيوس الثائر بدم سيزار ، وحين اعتزم الانتحار « ايتها الفضيلة .. ما انت الا كلمة جوفاء ... »

الذي هو شعب سامي ، اذا ابتعد عن الروح القبيلية ، وتمشت فيه التربية على اساس آخر يناقض هذه الروح ، يتغير خلقه ، وتتطور روحيتـــه ويأتي بالخوارق فهو ليس شعبـــا جامـدآ لا ينزع الى التطـور والتغير اذا توافرت اسبابها ، وتهيأت عواملها . ان الشعب الذي اقام المدنية الاولى في التاريخ ، في بلاد الرافدين كان شعبـــا ساميا . وفـوق ذلك ان العرب كانوا قد اقاموا مدنية رائعـة ، ودولة ذات نظام في اليمن عرفت في التاريخ بأسم الدولة المعينية . وحتى ان الهيكسوس «العرب الرعاة» الذين اجتاحوا مصر ، واقاموا فيها سلالتهم الحاكمة ما لبثوا ان امتزجوا بالمصريين ، وعرفوا النظام ومرنوا على الطاعة ، واستطاعوا ان يؤدوا الى المدنية خدمات جلى . وكانت مدة حاكميتهم فيها التي استغرقت عـدة عصور حافلة باسباب الحياة ، زاخرة بروائع الفن ، وان اثرهم في الحياة المصرية كـان قويا وظاهراً حتى بعد ان اختفى سلطانهم وانتهى نفوذهم السياسي في البلاد. لماذا حصل هذا التغير والتكيف ؟ حصل ذلك لأن الشعب السامي ، حين تغلغل في مصر وجد فيها تربة صالحة للثبات والاستقرار واقامة حياة تختلف عن الحياة القبيلية التي من مقتضياتها التنقل ، وبمرور الزمن استطاع ان يكون ذلك النظام الاجتماعي البديع الذي تمخض عن تلك المدنية الرائعة . وكذلك كان شأن من حل منهم في بلاد الرافدين . والعرب الرعاة الذين اخترقوا الحدود المصريه وان كانوا في مبدأ أمرهم بدواً لا يعرفون نظاما ، ولا يدينون بطاعة لسلطة ما ، فقد أثرت فيهم الحياة المصرية ، والاوساط المصرية فتحللوا من عاداتهم البدوية ، وتخلقوا بالاخلاق الجديدة فأفادوا واستفادوا .

فالوقائع التاريخية تثبت لنا أولا ان الشعب السامي بجملته ليس شعباً جامدا ، بعيدا عن التطور والتكيف ، وثانيا ان الشعب العربي الذي هو شعب

سامي في الصميم ، لم يكن بأقل قابلية الى التغير والتكيف عن أخويه في مصر ، وفي بلاد الرافدين . فالمسألة انما تحتاج الى صبر وطول أناة ، ثم التثبت من صحة المبـادىء التي تقوم عليها التربية ووسائل التعليم ليكون الاتجاه صحيحا والتطور ناميا ، ومتواصل النمو . وان المدنية القائمـة وان كانت مرتكزة على روحية مادية جافة ، فقد هيأت وسـائل وأسبابا تيسر كثيراً من الصعاب التي كانت تعانيها الأمم في ايامها الخوالي ، في سبيل التربيـة والتعليم . فالطباعة بتيسيرها الكتب والنشرات والرسائل قـد جاءت بانقلاب عظيم في عالم التربية حتى ان كثيراً من الأمم لا يستطيع المرأ ان يجد فيها اليوم من لا يقرأ ولا يكتب . وما كانت الحالة تبلغ هذه الدرجة الرفيعة لو لم يكن هذا الاختراع في الوجود . فكثرة المدارس ، وبيوت الثقافة وسهولة الحصول على الكتب والنشرات والرسائل ، ثم سرعة توزيع هذه المواد الثقافيـة بين الأوساط كل هذه اسباب تعين الى حد بعيد على تذليل الصعاب . ويضـاف الى ذلك دور السينما ، ثم الاذاعات اللاسلكية . فهذه يجوز – اذا روقبت مراقبة دقيقة واعتنى بأمرها – ان تكون أشد أثرا في تعميم الثقافة ، وابلغ مفعولا في توجيه الأهواء والميول الى الاتجاهات الصحيحة من المدارس نفسها . وهذه العوامل المنشطة الى العقول ، المقوية الى الارادات ، والمهذبة للأخلاق لم تكن متيسرة في السابق . فمن كل هذا نستطيع ان نقدر الى اية درجة قد تيسرت لنا الأسباب .

ان أول مهمة للقائمين بشؤون الشعب العربي في الأقطار العربية كافة ، ان ينقذوا القبائل العربية الكثيرة المنتشرة في الصحارى والقفار من حالتهم البدوية واغرائهم بشتى الوسائل ، بانشاء القرى والقصبات وتعويـدهم على قبول الحياة المدنية .

والمهمة الثانية هي تكييف الروح الفردية وتغيير اتجـاهها من الناحية

الفردية الى الناحية القومية . واقامة السياسة التربوية على هذا الأساس . على ان لا نقصر المساعي التي تبذل لفرض هذا التوجيه الجديد ، على البيوت والمدارس ، وانما يجب ان تنفذ الى كل مكان . فاذا انجزت هاتان المهمتان بلباقة ومهارة أصبح من الميسور على الشعب ان ينهض بأعباء الحياة ، ويأخذ مكانه تحت الشمس كشعب له أثر في المجموعة الدولية . فوسيلة الانقاذ اذن تقوم على أساسين الأول تحضير القبائل البدوية والثاني تغيير اتجاه الروحية الفردية الى الناحية القومية . كلنا يعلم ان الشعب العربي اليوم مجزء ومتفرق ولا تجمعه راية ، ولا توحد آراء بنيه ، وافكارهم قوانين واحدة ، وانظمة متماثلة ، ولا تقرب بين آمالهم وامانيهم سياسة واحدة ، وحكومة واحدة ، ولا تلائم بين طباعهم واخلاقهم مناهج ثقافية ومبادىء تربيوية متقاربة أو متناظرة فكل قطر كأنه يعيش في معزل عن اخيه ، ذلك لأن هذا الشعب الكثير النفوس ، العظيم الموارد ، المحتل اماكن شاسعة ، وممالك مترامية الاطراف خاضع لدول استعمارية ضخمة في قواتها ، قوية في اسباب استعمارها ، صارمة في معاملتها ، قاسية في حكمها . وان هذه الدول تترصد حركاته ، وتترقب همساته ، وتتعقب أثره فهي تبذل كل قوتها ونشاطها لتحول دونه ودون اسباب الحياة ، ولتمنع عنه عناصر القوة والنشاط لتزيل منه قابلية الانبعاث . ان هذه الدول ، مازالت بشتى الاساليب ومختلف الوسائل دائبة على تنمية الروح القبيلية فيه ليبقى على بداوته ، بعيدا عن الحياة المدنية ، وانها تسن مباشرة ، أو تضطر الحكومات المحلية الى ان تسن القوانين والانظمة التي من شأنها ان تقوى هذه الروح وان تباعد ليس بين الاقطار العربية بعضها عن بعض فحسب بل تباعد بين ابناء القطر الواحد ، والصقع الخاضع لحاكمية واحدة . وكذلك انها تفرض انظمة للتربية والتعليم ، تميت بواسطتها الضمائر وتشيع في النفوس الأخلاق المرذولة ، والسجايا المستقبحة ، وتخدر الاعصاب

وتنيم المواهب والقابليات ، لتفتر العزائم وتتخاذل الهمم ، وتضمحل الحيوية والنشاط . فالسيطرة الأجنبية التي استفحل أمرها في البلاد العربية كانت وما تزال العقبة الكأداء التي تعترض سبيلنا وتحول دون ما نبتغيه. اذن فكيف السبيل الى تحقيق هاتين المهمتين الاساسيتين ؟..

ان الأمم التي تعتلج فيها قوة الانبعاث ، وتغتلم فيها عناصر الحياة ، قادرة على التغلب على كل ما يعترض سبيلها ان شاءت وارادت . فوضع الشعب العربي لم يكن باكثر حراجة ، من الشعب البولوني . فهذا الشعب الاخير كانت تتقسمه ثلاث دول قوية الشكيمة محيطة به من كل جانب . هي الامبراطورية النمسوية ، والامبراطورية الالمانية ، والامبراطورية الروسية ومع ذلك فقد عمل لانبعاثه ، وهيأ اسباب نجاته بوسائل كثيرة وانه فوق ذلك استطاع ان يحتفظ بكيانه ، ويصون تراثه خلال المئة والخمسين عاما التي قضاها تحت السلطان الأجنبي ولما افدت ساعة التحرر هب كوحدة سياسية متراصة فانشأ كيانه وخلق نظامه السياسي ، فكان في الانشاء عظيما ، وفي نظامه بصيرا حكيما . ان وجوه العمل ، واساليبه قد تختلف في كل أمة بالنظر الى مستواها العقلي ، ومزاجها العام ، والظروف الملابسة لها فاني اذ اقول قولي هذا ، فلا أقصد به ان على العرب ان يسيروا على غرار البولونيين لأن الظروف والمزاج العام ، والمستوى العقلي والثقافي كل هذه تختلف في الشعبين ، وتتباين في المملكتين ، وانما اقول ان العرب يستطيعون ان يعملوا في سبيل حريتهم وخلاصهم بحماسة وأمل ، لأن وضعهم ليس أصعب من وضع البولونيين أيام بؤسهم وشقائهم .

اذا كان العرب لا يقدرون على الغاء القوانين والأنظمة التي تفرق بين ابناءهم ، والتي تنمي الروح القبيلية في القسم الاكبر منهم وتخلق العداوة والحزازات بين طبقاتهم ، بصورة مباشرة فانهم يقدرون على اضعاف اثرها

ثم ازالتها من بعد ، باتخاذ وسائل تؤدي الى هذا الغرض عن طريق غير مباشر . ان العناية في تنظيم القرى والقصبات ، واصدار قوانين وانظمة تكفل هذا التنظيم انما هما عملان يحبطان مفعول القوانين العشائرية النافذة مثلا في العراق وسورية او المراسيم البربرية النافذة في مراكش او المراسيم المتعلقة بأدارة الواحات وغيرها في مصر . ان ظاهر القوانين والأنظمة المنظمة للقرى والقصبات وان كان لا يفيد الأجهاز على تلك القوانين والمراسيم المضرة ، فانه يطعنها في الصميم في الخفاء ، والدول الأجنبية المسيطرة لا تمنع المشاريع التى ترمي الى تأسيس القرى والقصبات . نعم ! يجوز انها تضع العراقيل في سبيل انشاءها او تنظيمها ولكنها على كل حال ، لا تجرأ على المجاهرة في محاربتها او اعلان سخطها على مثل هذه السياسية العمرانية بالنظر الى الاتجاه الذي اتجهت اليه الأمم والشعوب في هذا العصر . على ان المهم هو ان الأمة التي تعمل لحياتها وحريتها ان تتكل على مؤسساتها الشعبية قبل كل شيء وانها في الوقت عينه لا تغفل عن الاستفادة من المشاريع الحكومية وتستغل اجراآتها فتأخذ منها ما يصلح وتذر ما يفسد ، ويضر . اذ ليس كل عمل حكومي شراً كله ولا كل مشروع ضرراً محضا . فاذا كانت في كل مشروع او عمل حكومي وجوه تفيد غايات ومنافع الأجنبي المسيطر ففيه ايضا وجه او وجوه يمكن للأحرار الاستفادة منها لخير المجموع سواء كانت هذه الوجوه جاءت عمداً ، أم مصادفة . ولرب رمية تكون من غير رام كما قال المثل .

فالبولونيون الذين ذكرتهم انما عولوا قبل كل شيء على مؤسساتهم الشعبية ، ألا انهم لم يتركوا فرصة تمر عليهم من دون ان يستفيدوا من بعض الأعمال الحكومية لأغراضهم الوطنية . انهم حافظوا على مواردهم الاقتصادية وثروتهم القومية فأنشأوا المصارف وبيوت المال على حسابهم ، وانهم احتفظوا بتقاليدهم وعنعناتهم القومية وروحيتهم الوطنية فاقاموا بيوت التهذيب

ومدارس العلم والفن من اموالهم ، انهم صانوا شعائرهم الدينية واخلاقهم فأسسوا الكنائس والصوامع والبيع بمجهودهم الشعبي ، انهم نظموا كيانهم الاجتماعي ووحدوا تفكيرهم ، واتجاههم فاكثروا من النقابات الحرفية ، والجمعيات التعاونية والغرف التجارية ، وانهم ذبوا عن تراثهم الصناعي والفني فبنوا من خالص اموالهم المعامل والمصانع ، والفوا الشركات وكانت كل مؤسسة من هذه المؤسسات وكل مصلحة من هذه المصالح ، تعمل بهدوء وسكون لتنمية الروح الوطنية ، وتقوية الأمل بالمستقبل فالتاجر كان يعمل لبولونية ، والمدرس ، والراهب والصانع والعامل ، والملاك ، والزارع والمالي ، كل واحد من هؤلاء كان يعمل لحياة بولونية وحريتها في الدائرة التي كان يعمل فيها ، والمحل الذي كان يعيش فيه ولم يكن البولونيون وحدهم يقومون بهذه الأعمال الجبارة الوطنية وانما اكثر الامم التي نالت حريتها في العصر المتقدم وفي هذا العصر ، كانت تقوم بمثل هذه الأعمال وان المدقق لتأريخ الحركة البلغارية ، يستطيع ان يقتبس منه امثلة رائعة في البطولة والجهاد القومي قام بها رؤساء الكنائس والرهبان والقسس وهم رجال روحانيون يكونون عادة أقل ميلا الى الشؤون السياسية من سائر الطبقات ، فما قولك في غيرهم ممن كان اشد التصاقا بالسياسة منهم ؟ .

واذا كان العرب تختلف عندهم وجوه العمل ، عن هذه الأعمال فان الواجب يفرض عليهم الاقتداء بالروحية التي حركت هذه الأمم الى العمل ، وانارت سبلهم اثناء الكفاح والجهاد . لذلك حتى اذا كانت الحكومات المحلية لم تقم بشيء فيما يتعلق بتنظيم القرى والقصبات ولم تسن لهذا الغرض القوانين والأنظمة فبأمكان الشعب ان يحقق هذا الغرض بمجهوده وبماله . وكذلك في المدن ، والأرياف في قدرته ان ينشيء بيوت التهذيب ومدارس العلم والفن ، وان يؤسس النقابات الحرفية والجمعيات التعاونية والغرف التجارية ، وان

يقيم المصانع والمعامل والمصارف وبيوت المال ، وان يجعل كل هذه المصالح والبيوت والمؤسسات كدور للتهذيب الروحى ، والتوجيه الوطني . ان الحكومة وعمالها ، لا يستطيعون ان يقفوا دون هذا النشاط الشعبي ، اذا صمم الشعب على هذا النشاط مهما كانت الحكومة متيقظة ، حازمة . لأن هذه الجهود انما هى جهود روحية ، فلا تستطيع ان تنفذ اليها قوات الدولة وحرابها .

كيف تستطيع الدولة ، ان تمنع النقابات ، والجمعيات والغرف او تحول دون انشاء المصانع والمعامل ، والمصارف ، او تحرم على الناس انشاء بيوت التهذيب ، ومدارس العلم والفن الأهلية ؟.. ليس في امكانها ان تمنع مثل هذه المؤسسات عن مزاولة اعمالها الاقتصادية او الاجتماعية . فاذا استغلت هذه المؤسسات اوضاعها القانونية وقامت بهذه الواجبات القومية فمن يجرأ على لومها وتعنيفهامن رجال الدولة وعمالها ؟ . انى اذا لقنت ابنائي في البيت الروح الوطنية واشربت نفوسهم الفضيلة فهل من سبيل الي ؟.. ان هذه الجهود الروحية ، ليست مادية حتى يعثر عليها من قبل السلطات الحكومية فتكون سببا للمسؤولية الجنائية او التأديبات العرفية انما هي تلقين آراء ، وتلقيح افكار ، واتصال ارواح وامتزاج نفوس تحت ستار التنظيم الاجتماعي ، والاقتصادي .

ان العرب في حاجة ماسة الى انشاء هذه المؤسسات اولا لأنها تنظم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية وثانيا لأنها تعودهم على الحياة المشتركة وتعينهم على تذوق النظام والطاعة وثالثا تبعث فيهم الميل الى العمل لخير المجموع وتوجه روحيتهم الفردية القوية ، توجيها قوميا هو الغاية الاساسية من كل هذه الجهود .

اننا ما زلنا فقراء في هذه المؤسسات . لانميل الى التعاون مع بعضنا ، ولا نرغب في الحياة المشتركة ولا نتذوق حياة الجمعيات ، والنقابات . واذا

اردنا ان نؤسس مثل هذه المؤسسات فسرعان ما نتصرف تصرفات من شأنها ان تلفت انظار الحكومات اليها ، فتسعى الى غلقها والقضاء عليها بأعتبارها خطرة على الأمن العام في نظرها . فعلى العرب اذن واجبان اساسيان الاول واجب السعي في تحضير القبائل الرحل ، لتتهيأ للحياة المدنية ، ولتلقي مبادىء السياسة التربوية . والثاني اقامة السياسة التربوية في الأوساط على اساس توجيه الروحية الفردية ، او الغرور الفردي ، الى روحية قومية و وطنية اي الى غرور قومي ووطني معتدل ، وتفهيم الكافة ان الروحية الفردية لا قيمة لها اذا لم تكن هذه الروحية قومية ووطنية . وفي الحق انه من الحمق ان يفكر الفرد بالغرور الفردي ، وأن يشمخ بأنفه اذا كان وطنه ذليلا وقومه يسومهم الأجنبي الخسف والهوان . ان البريطاني ، او الالماني ، او الروسي ، اذا تجاوز حدود بلاده وساح في البلاد الأجنبية ، يكون موفور الكرامة في اي محل استقر فيه ، او اية جهة قصد اليها ، ذلك لأن نفوذ دولته يظله في حله وترحاله ، وعز قومه يرافقه في غدوه ورواحه . فهو بنفوذ دولته وعز قومه ، يسير مرفوع الرأس ، عزيز الجانب واذن فهو يشعر بطبيعته بغرور شخصي بفضل الغرور القومي الذي هيأ لشعبه هذه المكانة الرفيعة بين الشعوب . بخلاف الذي لا ينتمي الى شعب محترم ذي مكانة مرموقة من المجموعة الدولية فمهما كان مغرورا بنفسه ، مزهوا بحسبه ونسبه ، مدلا بثروته وجاهه ، فانه لن ينعم بوفور الكرامة ، ولا بعزة النفس ، ولا بأي أثر من النفوذ ، اذا اجتاز حدود بلاده ، وعبر الى بلاد الغير ، لأنه محروم من ظل دولة يقيه العدوان . فما قيمة غروره اذن وما هو أثر زهوه وادلاله ؟ . فالغرور القومي يأتي بالغرور الشخصي ولا عكس . وهذه حقيقة يدركها كل انسان مهما ضعف ادراكه ، وقلت ثقافته . وان انس فلا انس دمدمة الحكومة البريطانيه وزمجرتها حين تعرض بعض ابنائها في بلاد السوفيت في

عام ۹۳۳ (۱) الى بعض الاجراآت الصارمة التي قامت بها الحكومة السوفيتية بحقهم . فمن أجل اشخاص معدودين ، كادت ان تحدث بين المملكتين فتنة عمياء لولا ان تتدارك الحكومة السوفيتية الأمر وتبدي بعض الرفق واللين بحق هؤلاء . فلو كان هؤلاء عربا مثلا هل كانت الحكومة السوفيتية تأبه لهم . او تمسك عن اجراآتها ضدهم ؟ . ان سياستنا التربوية يجب ان تقوم على هذا الأساس الصحيح ؛ اساس الغرور القومي ، لا الغرور الشخصي الذي لا يجدى نفعا والذي ليس من ورائه غير الشر والأضرار المميتة .

ولا يصح ان يعترض على توجيهنا الروحية الفردية ، الى الروحية القومية بأعتبار ان الروحية القومية ايضا تكون مخطرة ومضرة بالنسبة الى الايضاحات التي سبق سردها . لأن الروحية القومية لا تكون مخطرة ومضرة الا اذا تجاوزت حدودها ، ووصلت الى درجة العدوان على حريات الأمم الاخرى ومنافعها . والعرب ليسوا في حاجة الى ان تبلغ بهم الحالة الى هذه الدرجة ، الى درجة الأعتداء على الغير ، لأنهم كثر في نفوسهم ، ولأن بلادهم غنية وزاخرة بالمواد الخام وواسعة . فهم ان احتفظوا بحرياتهم وسيادتهم في حدود ممالكهم وأوطانهم كانوا اسعد شعب على وجه الأرض !.

---

(۱) اشارة الى الاحكام العقابية التى اصدرتها المحكمة السوفيتية ضد بعض الفنيين الانكليز الذين كانوا مستخدمين لديها والذين اتهموا بجرائم التخريب والتدمير .

الأسباب الأصيلة

في اخفاق الحركات العربية

ان الأسباب التي ادت الى اخفاق الحركات العربية كثيرة وقد يستطيع القارىء ان يلم بها اذا دقق ما جاء في البحوث السابقة بصورة عامة ، وما جاء في الصفحات التي تضمنت اخبارها بصورة خاصة . ولكننا على كل حال نستطيع ان نرجعها الى أسباب اصيلة معينة .

١ — الروحية الفردية الحادة التي تقمصت ضمائر العرب ووجداناتهم .

لقد سببت هذه الروحية الخطرة ان يتنكر العرب بعضهم لبعض ، وان ينعدم الانسجام في اتجاهاتهم وتفكيراتهم ، وأن تختلف ميولهم واهواؤهم فأخذ كل فريق ينقض ما ابرم غريمه ، ويهدم ما اشاده قرينه وهذه الفوضى الروحية قد استغلها الأجنبي المسيطر الى أقصى حدود الاستغلال فقضى على كثير من عناصر الحياة فينا .

ولو كانت رؤوس الجبهات السياسية متفقة فيما بينها ، في الأهداف والأغراض لكان سبيل حياتنا السياسية تتخذ وجهة اخرى ، غير التي نحن عليها الآن . ولكن الغرور الشخصي أبى على هذه الرؤوس ان تتحد فاذا قام فريق منها يعمل في الحقل القومي وأصاب شيئا من النجاح ، وقسطا من رضاء الرأي العام ناهضه فريق آخر منها ومال الى الجهة المغايرة لاحباً في اذلال شعبه ، واضاعة حريته

والكن انتقاما من ذلك الفريق الذي اصابه النجاح ، واحاطه الرأي العام بشيء من عنايته وعطفه ، وارضاء لغروره الشخصي . في كل شعب يوجد خونة ماديون وفي الشعب العربي ايضا يوجد من هذا الطراز السافل من الناس . والكن المرؤة والحق ، يمنعانا ان نقول ان الذين قاوموا الحركات الوطنيـة ، كانوا كلهم من هؤلاء . بالعكس : فقد نستطيع ان نقول ان اكثر المقاومين كانوا من الذين سبقت لهم خدمات جلى للقضية العربية بصورة عامة ، والقضايا اقطارهم بصورة خاصة . وانما قاوموا وعارضوا ، واشتدوا في مقاومتهم ومعارضتهم ، بتأثير هـذه الروحية الفردية الخطرة ، وتحت ضغط الغرور الشخصي ان الهوى فيهم قد غلب العقل ، وان ميولهم النفسية أخضعت لها ارادتهم ، فنهجوا نهجا خسرت بسببه القضية الوطنية ، وفازت بفضله السياسة الاجنبية الطامعة .

٢ — لم نحسن التصرف في اتصالاتنا الخارجية ، ولم نتخذ التدابير الحازمة الحكيمة للاستفادة من المعونة الخارجية بينما كان في مقدورنا ان نستفيد منها استفادة عظيمة وقد اوضحت هذه النقطة في بحوث سابقة فلا وجه لأعادة النظر فيها.

٣ — فقدان المنظمات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية . فحرماننـا من المنظمات السياسية أوجب تشتت اعمالنا السياسية ، واختلاف اهدافنا وغاياتنا القومية ، واضعاف جبهاتنا الوطنية . وخلو اوساطنا من المنظمات الاجتماعية والاقتصادية ادى الى انحلال معنوياتنا وروحياتنا والى انحطاط قوتنا المادية . وانعدام قابلية المقاومة فينا .

٤ — ان العالم الخارجي لا يعرف عن العالم العربي شيئا ، واذا عرف شيئا فانما قد تسرب اليه من الجهات المعادية للعرب ، او من الجهات التي لها

مصلحة فى اظهار العرب على غير حقيقتهم وهذا النقص الكبير ناشىء عن عجزنا عن اتخاذ التدابير الحازمة فيما له صلة بفن الدعاية الذي اصبح في هذا العصر ءأهم الفنون وأعظمها وأخطرها. ان الدعاية فن وعلى العرب ان يحسنوا هذا الفن، ويلموا بدقائقه، وأن يعملوا في حقله جادين غير هازلين. معتمدين على انفسهم غير متواكلين.

لم اتعرض لذكر الأشخاص، ولا لأنواع المقاومة التى لاقتها الحركات القومية في كل قطر عربي لأن ما جاء في البحوث السابقة ما يكفي لأجلاء القصد، وايضاح المرام. ولعل هناك اسبابا اخرى أقل أثراً، وأهون مفعولا تعاونت على الأخفاق والخيبة ولكن فى ذكر المهم منها الكفاية وما أسعدنا اذا تمكنا من القضاء عليها وحدها !!..

طرق الخلاص !..

ا ـ علينا ان نقضي قبل كل شيء على الروحية الفردية فينا كما قلت مراراً بالسعي في تحضير القبائل الرحل لتعويدها الحياة المدنية واعدادها لاستساغة السياسة التربوية وببذل الجهود المشتركة في المدن والقصبات لنقل الاتجاه النفسي من الفردية الى الاتجاه القومي والوطني .

ب ـ ان نقيم صلاتنا الخارجية على اساس متين وان نختار الحليف ، والصديق الذي يخف الى مساعدتنا ، اذا اضطرتنا الظروف الى الانتقاض على القوة الاجنبية المسيطرة علينا . لأن كل حركة انقلابية ضد قوة اجنبية متحكمة لا يكتب لها النجاح إلا بالمساعدة الخارجية .

ج ـ علينا ان نجعل الاجنبي المسيطر قلقاً على منافعه المادية وسلطانه ونفوذه في بلادنا بدرجة نضطره الى وضع قوات كبيرة تكبده نفقات توازي أو تزيد على منافعه المادية التي ينالها من جراء عدوانه على حرياتنا السياسية وتراثنا القومي . ان هذه الطريقة تستلزم بذل تضحيات جمة مادية وأدبية من قبلنا ولكن علينا ان نتحملها مغتبطين ونصبر عليها محتسبين . لقد سبق لي ان اوضحت في مناسبات عدة ان أهم ما يرجوه المستعمر في هذا العصر ، ان ينال المنافع المادية من وراء استعماره لبلد ما ، فاذا اجبر على انفاق الاموال على قواته المسلحة ، ما يوازي المنافع التي يكسبها من

البلاد المقهورة ، او ما يزيد عليهـــا فأن رغبته في الاستعمار ،
فأن رغبته فى الاستعمار تقل ولربما يضطر الى مصـافاة الشعب
الشعب المحكوم ويتفق معه على شروط تكون فى صالح هذا الشعب
نعم !.. يجوز انه يشتد في أول الأمر في ضغطه في الشعب بقصد
اخضاعه واضعاف قابلية المقاومة فيه ويرتكب كثيراً من الجنايات
والآثام ولكنا يجب ان نؤمن ايمانا قويا بأنه كلما أشتد في ضغطه ،
وأمعن فى جناياته وآثامه يكون الأمل في الخلاص والنجاة
كبيراً وعظيماً . ان النظام الاستبدادى لم يمن بتلك الهزائم الحاسمة
ويتلاش أثره فى كثير من الممالك والأقطار إلا بعد ان استفحل
أمره وثقلت وطأته على الناس . ولقـد كان كثير من الأحرار
المفكرين ، يرون في أشتداد المستبدين على الرعية سبيل النجـاة الى
الحرية بل ان غير واحد منهم (١) كان يحرض رجال السياسـة على
اغراء المستبدين ليشتدوا على الرعية وليضغطوا على الكافة لتلتهب
النفوس وتضطرم الجوانح بروح الأنتقام ولتمتلىء الصـدور
بالحقد والبغضاء . لأن هـذه الحالة مما تسـاعـد كثيرا على خلق
الحركات الحرة والأندفاع فى سبيل انقاذ الوطن من العابثين به .
فمن واجب العرب اذن ان يعملوا المستحيل لأجل ان يجعلوا الأجنبي
فى بلادهم قلقا على مصيره مضطربا على منافعه ومصالحه وان يتقبلوا
بصدور رحبة ما ينزله فيهم من بلايا ومصائب .

ـــ د ـــ ان الجندية ذات أثر خاص ، فى تسهيل القيام بالحركات الوطنية في
المستقبل ، لأنها اولا تعود النشء على الحياة المشتركة وعلى النظام
والطاعة وثانيا تقرب فيما بين الأفراد من الناحية الروحية وثالثاً
تعلمهم كيفية استعمال السلاح على انواعه وتعودهم على تحمل المتاعب

« ١ » الفيه ري : كتاب الأستبداد

والمشاق . ولئن كان تنفيذ انظمة الجندية تحت مراقبة الأجنبي والقيام بالواجبات الجندية وفق تعليماته ولكن على كل حال ان الغاية التي نرمي اليها تكون حاصلة بالضرورة . فالجندي الذي ينفذ الأنظمة ويقوم بواجباته بأوامر الأجنبي او تحت اشرافه هو يتعلم استعمال السلاح حتما ، ويتعود على الحياة المشتركة وعلى تحمل المتاعب والمشاق بالضرورة ، وهذا كسب للقضية الوطنية . لأن الأمة التي تطمح الى الحرية والأنفلات من نير العبودية يجب عليها قبل كل شيء ان تعرف كيف تستعمل السلاح و كيف تتحمل المتاعب والمشاق ولذلك سبق لي ان قلت ان ليس كل المشاريع الحكومية شراً محضا ، فأن كانت فيها وجوه ينتفع منها الأجنبي ففيها كذلك وجوه يستطيع الأحرار أن يستفيدوا منها اذا أحسنوا العصرف وأحكموا التدبير . وصفوة القول ان التشجيع على الانخراط في سلك الجندية ، واجب قومي سواء كانت الجندية قائمة على اساس الرضا والأختيار والتطوع أم على أساس التكليف والأجبار . انها تكون نافعة وضرورية للقضية الوطنية على الحالتين ولا يجب ان نكتفي بذلك وانما علينا ان نسعى الى ان ندخل الى المدارس نظام التدريب العسكري وان نشوق النشء كافة على الرياضة وعلى التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها بشتى الصور والأساليب.

هـ — ان للأذاعة اللاسلكية ، ودور السينما ،والتأليف والترجمة والنشر في الأمم الحرة منافع لا تثمن بثمن ، ولها أثر في التوجيه الوطني لا يعادله أثر . لقد أصبحت الاذاعة أخطر دار للتهذيب النفسى ، والتثقيف العقلي ، وكذلك لما يعرض في دور السينما من رقوق ومناظر ذات موضوعات تهذيبية وتثقيفية أمسى لها شأن يذكر .

أما ما تفتجه الطباعة فى ظلال الحرية الفكرية التي تتمتع بها هـذه الأمم من المؤلفـات القيمة ، والنشرات النـافعة ، والرسائل المفيـدة ومن صحف يومية وموقوتة قد جعل لهـا من المكانة والتأثير فى حيـاة الأمم ما لم تصل اليه الانسـانية في عصر من عصورها التاريخية السابقة . فأن هذه الوسائط الثلاث التي منها تستمد العقول نورها ، والنفوس أريحيتها في الأمم الحرة ، لا تشيع في أوساط الأمم المقهورة الا الكآبة والظلام . لأن الأجنبي المسيطر لا يروقه أن تبصر هـذه الأمم النور ، ولا أن تفتعش نفوس بفيها بأريج المدنية وعطرها . فوسائل الخير هذه في الأمم الحرة لا تستعمل في الأمم المقهورة الا للشر والايذاء الروحي . ولكن برغم كل ذلك فقد يستطيع الأحرار ان يستغلوها للخير وان يكافحوا سلطان الأجنبي ونفوذه في تدبير شؤون هذه الوسائط والوسائل . ان اختيار الرقوق السينمائيـة ذات الأهداف الشريفـة والموضوعات الوطنية ، والوقائع البطولية له تأثير كبير في الروح الوطنية . ان محل هـذه الوقائع وان كان دياراً أجنبية ، والقائمين بالروائع البطولية وان كانوا أجانب فانها تعكس صورها في نفوس النظارة وتحدث تأثيرها العميق في اتجاهاتهم الفكرية . وكذلك ما يذاع من محطة الاذاعة ، وان كان تحت مراقبة السلطة غير المحببة فقـد يجوز أن تدس الموضوعات المثيرة للشعور الوطنى ، من حين لآخر بواسطة الموظفين الوطنيين فى هيأة الادارة . واما من ناحيـة التأليف والترجمة والنشر ، فاذا عجز المفكرون عن نشر آرائهم الوطنية بصورة مباشرة فانهم يستطيعون أن يترجموا المؤلفات الأجنبية المنطوية على الآراء الحرة والموضوعات المنمية للروح

الوطنيـة وان كان مؤلفوها من رجال السلطة الاجنبية المسيطرة لأن المهم ليس المؤلفين وانما الموضوعات التي تشتمل عليها المؤلفات . ان حركة مثل هذه في الترجمة والتأليف والنشر تأتي اكلها وتثمر ثمرها الايجابي في اوساطنا ، فلا يجب ان تأخذنا العزة بوطنيتنـا ونهمل أمرها لكونها أجنبية عنا، او لكون مؤلفيهـا من الأمة المتحكمة فينا ، والمذلة لنا . لأننا نريد ان نتمسك بكل سبب يؤثر في روحيتنا ويوجهها الى الاتجاه الصحيح مهما كان منشأوه ومصدره .

— و — علينا ان نسعى بشتى الأساليب الى ان نكثر من الجمعيات التعاونية والنقابات الحرفيـة ، والنوادي الثقافية . فلا يجب علينا أن نسكن ونهدأ ونركن الى الراحة ونقول مادامت السلطه تحرم علينا المؤسسات السياسية فانه من العبث أن نتشبث بمثل هـذه الموسسات الاقتصادية والاجتماعية . بالعكس فان الاكثار من هذه المؤسسات الأقتصادية والأجتماعيـة يؤدي الى عين الأغراض التي تؤديها المؤسسات السياسية اذا كنا عارفين بواجباتنا ، مدركين مسئولياتنا نحو وطننا . ان كل مؤسسة من هذه المؤسسات غير السياسية يمكن ان تكون داراً للتهذيب الوطني ، ومنهلا عذبا يغترف منـه النشء وسائر طبقات الشعب . فهذه المؤسسات التي تكون بطبيعتها بعيدة عن مراقبة السلطة ، لكونها غير سياسية ، ليس فقط تنظم صفوفنا ، وتوحد ارادتنا ، وتهدينا الى مثلنا العليا ، فانها تكون سببا لتوحيد المساعي في مجالات الأقتصاد والصناعة ، والفن . وتفتح السبل الى النشء ليكسب رزقه من الحرف الحرة والصناعات . فلا يكون كلا على خزينة الدولة ، فيركن الى حياة الوظيفة التي هي اشبه شيء

بالسجون المغلقة على من فيها . وكلما كان النشء بعيداً عن دور الحكومة ومصالحها ، قادراً على الارتزاق من مساعيه الشخصية ، ومن جهوده التي يبذلها في المجالات الحرة تكون نزعته الوطنية اقوى واشد ، واستعداده لمكافحة الظلم والعدوان اعظم واخطر . ان الأجنبي يرى من مصلحته دائماً ، ان تكون المجالات الحرة في الأمم المقهورة ضيقة ، وان يجد النشء وسائر طبقات الأمة يلتمسون الرزق من خزانة الدولة ليحتفظ بسلطانه في البلاد ، وليدل على الناس بفيضه عليهم واحسانه اليهم ، وان كانت الخزانة تملء من مال الوطنيين ، ومن عرق جباههم في الحقيقة .

— ز — علينا ان نعرف أنفسنا للخارج وأن نبرع في فن الدعاية وان نرخص في سبيل ذلك المال والصحة والراحة

— ح — قلنا غير مرة ، ان الأمم المقهورة وان كان واجبها الأول هو ان تعتمد على المنشآت والمؤسسات الشعبية ولكنها في عين الوقت يجب ان تستفيد الى اقصى حدود الاستفادة ، من اجراءات السلطات العامة واعمالها ومشروعاتها وان تهتبل الفرص المواتية بلباقة وكياسة . ومن جملة المشاريع الحكومية التي يساعد فيها الأجنبي في هذه الأيام هو ماتهمس به الأوساط عن اقدام الحكومات العربية على مفاوضات يزعم انها ترمي الى تكوين الوحدة العربية (١) التي هي غاية المخلصين من العرب اني واثق من ان هذه الحركة يقصد بها التلهية واشغال الخواطر في زمن الحرب ، لا اكثر ولا أقل . والا فكيف تكون وحدة وقضية الصهيونية لم تحسم . وكيف يتصور ان تنجح فكرة الوحدة وفلسطين لا تكون جزءاً متمماً لها ؟ . وهل يعقل ان نقيم

«١» تمخضت هذه المجهودات أخيراً عن تأليف الجامعة العربية .

وحدة عربيـة تكون الصهيونية من جملة اجزاءها هذا اذا سمحنا لفلسطين أن تدخل فيها على حالتها الحاضرة ؟. فالحق يقتضينا أن نقول ان هـذه الحركة ما هي الا تلهية في زمن الحرب والعوبة تنشغل فيها الأفكار والخواطر . ومع اعتقادنا هـذا ، فلا ينبغي أن نبخس هـذه الحركة حقها ، ونعدمها قيمتها الأدبية . ان هذه الحركة اذا لم تتمخض عن اتحاد عربي رصين ، فانها على الأقل تبقي فكرة الوحدة العربية حيـة في النفوس ، ماثلة في الأذهان والخواطر ، وهذا كسب معنوي للقضية العربية . فعلينا أن نرحب بها وان كانت تؤدي الى منافع ضئيلة ونتائج تافهـة . فاذا حصل انسجام فكري بين الأقطار العربية فهو كسب واذا أثمرت الحركة اتفاقا على سياسة معينة للتهذيب والتدريس فهو كسب او اذا أنتجت اتحاداً كمركيا وتعاونا اقتصاديا فهو كسب . ان حصلت كل هـذه النتائج ، او بعضها او القليل منها فهو كسب أقل ما يقال فيه أنه ينشىء روابط ومناسبات واتصالات بين هـذه الأقطار ، وانه يحي في شخص هـذه الروابط والمناسبات والاتصالات فكرة الاتحاد ويحول دون اندثارها واندراس معالمها في النفوس

ان مجلس « الديات » الذي كان ينعقد في فرانكفورت للحكومات الجرمانية لم يكن ذا أثر كبير في حياة هذه الحكومات ، بل كان هيكلا خاويا لا خير فيه ولا نفع ولكن فائدته العظمى كانت في احيائه أمل الأمم الجرمنية بالاتحاد في المستقبل . لقد كان نصبا قائما يذكر المسؤولين في دنيا الجرمنيين بوحدتهم واتحادهم في كل وقت وآن . ولقد نالوا بغيتهم وامنيتهم حين قيض الله لهم بسمارك فأقام الاتحاد الجرمني على الحديد والدم !...

ان الاتحاد العربي الصحيح لا يمكن أن يقوم الا على الحديد والدم كما

قام الاتحاد الجرمني من قبل بالنظر الى اختلاف المصالح او بتعبير أصح بالنظر الى التنافس الواضح أثره البين خطره ، بين زعماء الحكومات العربية وملوكها وامرائها . فالى ان يحين الوقت يجب علينا ان نركز نصبا يذكرنا بالوحدة دائما ، وان كان أجوفا تخور في جوفه الرياح

هذه جملة طرق مادية وأدبية يمكن اتباعها والسير في منعطفاتها نحو أهدافنا الوطنية ، واماننا القوميـــة على وضح النهار وشعاع الشمس . واما الأخرى التي تكثر فيها المزالق ، وتسودها عتمة السرية والخفاء فليس محلها ، الكتب والمؤلفات وانما الصدور ، والألسنة الهامسة !! ...

٢٧ كانون اول ١٩٤٢

موضوعات الكتاب !.

الموضوع	الصفحة

تصويب

الصواب	السطر	الصفحة
رضمت حجارته رضما	١٨	٣٥
من درجة (ب)	٢٢	٣٧
فالمستر اسكويت لم يكن وليام بيت ولويد جورج لم يكن غلادسعون	١٨	٤٨
لا ادري	١١	٥٣
مما كان عليه	٦	٦٧
ينضمون الى	١١	٩١
اعجمي	٢٤	١٢٠
لأنها	٢٠	١٢١
التعرفات	٢٣	١٦١
بقرارات	٨	١٦٤
المتمردة	١٧	١٩٤
في الاجهاز	١٢	٢٠١
رمز	١١	٢٠٥
يتزعمها	٥	٢٠٨
كان	٧	٢١٥
قيادها	١٢	٢١٦

ولقد سقطت بعض حروف الكلمات مما لا يخفى على القارىء اللبيب .

